المركز القومى للترجمة

يوهانيس جيلهوف

حرية زادُها العَرَق

رسائل القروى الألمانى الفصيح المهاجر إلى أمريكا

ترجمة: فتحى باطة

المشروع القومى للترجمة



1615

سلسلة الإبداع القصصى

حرية زادها العرق

((رسائل القروى الألمانى الفصيح المهاجر إلى أمريكا))

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1615
- حرية زادها العرق: رسائل القروى الألمانى الفصيح المهاجر إلى أمريكا
- يوهانيس جيلهوف
- فتحى باطة
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:
Jürnjakob Swehn der Amerikafahrer
Von: Johannes Gillhoff

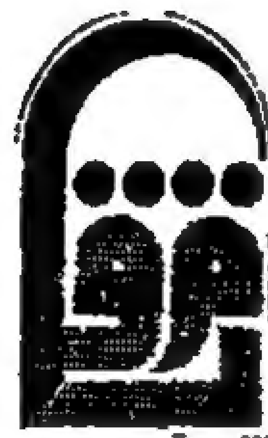
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

حرية زادها العرق

((رسائل القروى الألمانى الفصيح المهاجر إلى أمريكا))

تـــأليـــف: يوهانيس جيلهوف

تـــرجمـــة: فتـــحى بـــاطـــة



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جيلهوف، يوهانيس.
حرية زادها العرق: رسائل القروى الألمانى الفصيح المهاجر إلى أمريكا/ تأليف: يوهانيس جيلهوف، ترجمة: فتحى باطة.
ط١- القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
٤٣٦ ص، ٢٤سم
١- القصص الألمانية.
(أ) باطة، فتحى (مترجم)
(ب) العنوان ٨٣٣

رقم الإيداع ٨١٨٩/ ٢٠١٠
الترقيم الدولى: I.S.B.N 978- 977- 704- 044- 0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

مقدمة المترجم ومعد الكتاب للنشر بالعربية

بين أيدينا قصة حقيقية وقعت.. لا حكاية من نسيج الخيال رويت.. بل هي قصة كفاح شاب ألماني– عفي، رقيق الحال، ماهر وبسيط – هاجر سنة ١٨٦٨ إلى الولايات المتحدة الأمريكية. بحثا عن الرزق والأمل والحرية. وهناك أفنى شبابه في العمل دون كلل حتى تكلل بالنجاح مشروع حياته وصار مزارعا أمريكيا ميسورا. لكن حياته في العالم الجديد كان يصعب وصفها بأنها " غربة في الغربة" . ومع ذلك فقد ظل الوطن الذى أدار له ظهره يعيش بين جوانحه، وكأن ثمة مولِّدًا يُغذِّى عواطفه ويدغدغها بطاقة لا تنفد من حرقة الشوق إليه. لذلك تعذر تماثله مع نسيج المجتمع الأمريكي بالاندماج فيه اندماجا حيا عميقا. حدث هذا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين على هامش تحولات كبرى على جانبي المحيط الأطلسي.

عنوان القصة "يورن– ياكوب سفين رحالة أمريكا"، والألمانية هي لغتها الأصلية. ويشتمل العنوان على الاسم الأدبي المستعار لبطل القصة، الذى خلقه الكاتب خلقا ونحته من ثلاثة رموز ذات مغزى ودلالة اختارها بعناية، حتى يكون اسما على مسمى، فيتحدث نيابة عن سائر بلدياته من فقراء المهاجرين بصفته نموذجا مثاليا لهم ومتحفزا لركوب الأهوال من أجل تحقيق الآمال التى عجز عن تحقيقها بمسقط رأسه. و"يورن" هو اسم علم شائع يشير إلى كونه من رعايا إمارة "ميكلينبورج" المطلة على بحر البلطيق بشمال ألمانيا. ذلك قبل اتحاد ٣٤ إمارة ألمانية و٤ مدن حرة في دولة الرايخ القيصرية سنة ١٨٧١. كما أن في "ياكوب"

إشارة إلى نبى الله يعقوب الذى لم يكن مضطرا مثل بطل القصة إلى عبور "بحر الظلمات" (المحيط الأطلسى عند العرب) الأكثر خطورة، بل تجشم ذلك النبى مشاق أقل عناء فى رحلته البرية(أو قل نزهته) إلى " حاران" ببلاد ما بين النهرين طلبا للزواج من ابنة خاله " لابان"، ليحط الرحال فيما بعد وذريته (إخوة يوسف) فى " جاشان" حاليا (صفط الحنة) بالشرقية فى مصر. كما اشتق الكاتب اسم العائلة "سفين" من كلمة " شفاين" (أى خنزير) نسبة إلى حرفة أبيه المتواضعة، إذ عمل كلافا للخنازير، وذلك للدلالة على انتمائه إلى تلك الشريحة الاجتماعية المتربعة على أدنى درجة فى سلم التدرج الاجتماعى.

أما الاسم الحقيقى لبطل القصة فهو " كارل فيدوف" (١٨٤٧– ١٩١٣)، الذى كان عاملا زراعيا أجيرا يعيش فى كوخ متداع بقرية ريفية فى جنوب غربى الإمارة سالفة الذكر. اضطر " يورن – ياكوب سفين"، البديل الأدبى المستعار لـ"كارل فيدوف" إلى الاغتراب بالهجرة إلى العالم الجديد، نظرا لأنه لم يعرف للحرمة الشخصية طعما فى كوخ أسرته. كما لم ير بالقرية بصيص أمل يشجعه فى مقتبل عمره على تحقيق ذاته وتطلعاته فى الحياة، أو ما يبشره ذات يوم بوجود فرصة للحصول على مسكن يتمتع فيه بحريته البيتية بالإضافة إلى حيازته لقطعة أرض يقتات من زرعها وضرعها. وهو لم يشذ فى ذلك عن غالبية سكان الريف بالإمارة، لما ساد فى ربوعها من جمود الحراك الاجتماعى، الذى لم يكفل للأجير حقه لقاء كده وكدحه حتى يخرج من دائرة الفقر بالانتقال من طبقته الدنيا إلى إحدى شرائح الطبقة الوسطى . فقد توالت على البلاد حروب وثورات، بطالة وقحط، غلاء ومجاعات، وهى أزمات أطالت المحن، وثبطت الهمم، ليطعن انتشار البؤس آمال بطل القصة فى مهجتها. لذلك استجاب للترغيب والترحيب الذى لاقته الهجرة إلى أمريكا.

استبدل المترجم لقصة " يورن – ياكوب سفين رحالة أمريكا" عنواناً آخر من شقين هو " حرية زادها العرق/ رسائل القروى الألمانى الفصيح المهاجر إلى أمريكا" وذلك لسببين:

– صعوبة نطق الاسم الثلاثى لبطل القصة بالعربية . فمثلا الياء فى كلمة "سفين" تنطق ممطوطة لصياغتها بلهجة شمال ألمانيا الدارجة، علاوة على أن الفاء حرف منقوط بثلاث نقط.

– مطابقة المعانى الواردة بالنص على نحو أفضل، إذ يبدو أن القصة تقوم على مُسَلَّمَتَيْن: أن الإنسان محكوم عليه بأن يكون حرا. وأن الحرية الفردية ينبغى أن تكون حرية مسئولة، حتى فى المجتمع المتحرر من القيود.

تنشئة بطل القصة

جعل الكاتب من بطل القصة شخصية متوافقة مع انتمائه الطبقى، بحيث يتبدى سلوكه مشوبا بقدر من السذاجة والحيرة وقلة الحيلة، فتراه يتلفظ أحيانا بعبارات فجة تعوزها اللياقة. وهو أكول يكتظ من شهى الطعام حتى الامتلاء. لكن أصوله المتواضعة لم تقف حائلا دون تمتعه بالحكمة والرشاد. فقد درج فى حواراته، وفى مواقف الاتفاق والاختلاف، على رؤية الآخر بعين منصفة، إنسانا سويا فى مرآة مستوية لا تقعرها أو تحدبها أحكام مسبقة تمسخ صورته وتشوهها. لذلك يتميز النص بطابع فطرى تلقائى مفعم بشعور إنسانى بالغ الدفء والإخلاص، يغذيه سلوكه السوى فى شتى مناحى حياته. فهو ينزع فى تعامله مع نفسه ومع الآخر إلى الصدق والاستقامة، إلى المحبة والوفاء، إلى صد النفس عن مظاهر البذخ والترف و"العياقة"، فضلا عن وزنه للأمور بالقسط قبل الحسم، كما ينحو إلى الاعتدال فى كل شئ، باستثناء إخلاصه فى العمل. ويرفض كل أشكال

التطرف والتخاذل، من تعصب وتحيز، ومن تطفل وكسل وإهمال. ومن هذا المنطلق درج "يورن– ياكوب سفين" على وضع تلك المعايير السلوكية والأخلاقية التى تنشأ عليها فى كفة تقييمه للآخر، بحيث لم يكن يستطيع مداراة شعوره بالإعراض أو حتى الامتعاض تجاه من لا يُلْزِم نفسه باحترامها. هذا بخلاف التجائه أحيانا إلى تغيير ما يراه منكرا باللسان وباليد، مثل تعنيف جاره السكير، بل وتأديبه بالضرب، حتى يقلع عن تعاطى الخمر حفاظا على أسرته من الضياع. كذلك يتضمن النص تهزيلا للنفاق والبخل والرياء، ونقدا للتكلف المصطنع فى أمور الدين، بادعاء الورع والصلاح طمعا فى التربح أو المباهاة.

نشرت هذه القصة سنة ١٩١٧ فى برلين قبل قرن لم يكتمل، تغير فيه وجه العالم فى مجرى الزمان السيال، وتغير معه حضورنا فيه فى توال يصل القبل بالبعد. فالماضى لا ينتهى بالحاضر المعيش، إنما يصب فى المستقبل الذى ليس بعد. وهو مستقبل تتحدد فيه فى المدى المنظور نوعية حضورنا المقبل. حضور تتشكل فيه بالتخطيط الواعى وبالمشاركة الفعالة نوعية حياتنا المنشودة. وقد تنشأ تبعا لهذه المتغيرات تساؤلات حول الجدوى المرجوة من وراء ترجمة هذا الكتاب إلى العربية، تساؤلات من قبيل :

(١) ألم يعف الزمن على قصة وقعت أحداثها فى زمان غير زماننا، وفى مكان قصى يتموقع فيما وراء البحار، وهل يهتم بها اليوم حفيد لا يكاد يستطيع تخيل العالم الذى ولد فيه أبواه؟

(٢) لماذا هذه القصة بالذات التى تتمحور حول الهجرة النازحة إلى الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر، رغم اختلاف الظروف المحيطة بها فى القرن الـ١٩ عنها فى القرن الـ٢١ ؟ ثم أليست الهجرة غير المنظمة بكل فواجعها ومآسيها الإنسانية هى التى أصبحت تغطى أخبارها على الهجرة المنظمة ؟

(٣) هل بوسع قصة وقعت فى مجتمعين غربيين خلال مرحلة بناء الدولة إبان عصر التصنيع والإعمار، أن تقدم دروساً تفيد الدول النامية الحالية، هذا لو جاز لنا وصف المجتمع الريفى الألمانى ونظيره الاستيطانى الأمريكى، بأنهما كانا فى القرن الـ ١٩ مجتمعين ناميين بالمثل ؟ وهل عرضت القصة المتجذرة فى مجتمع محلى ألمانى لمشاكل إنسانية كبرى أو انتقدت الظروف الاجتماعية المتردية وقتذاك بغية العمل على تحريكها، حتى تستثير اهتمام قارئ العربية ؟

ويجد القارئ فى سياق هذه العجالة محاولة الإجابة على الأسئلة المطروحة من خلال تحليل لمضمون القصة نستقرئ فيه أحكاما كلية بتتبع الجزئيات فى النص، مع بيان القواسم المشتركة بين من أسميناه فى عنوان القصة " القروى الألمانى الفصيح" وذلك " الفلاح الفصيح" الذى عاش فى مصر الفرعونية قبل ما يزيد على أربعة آلاف عام.

(١) القصة بين الأمس واليوم

لا غرابة أن يؤلف "يوهانيس جيلهوف" (١٨٦١ – ١٩٣٠) كتابا عن مسقط رأسه وعن التراث الشعبى التقليدى لإمارة "ميكلينبورج"، وهو تراث مُغْرِق فى البيئة المحلية. ذلك لأنه كان كاتبا، تربويا وخبيرا ضليعاً فى الدراسات الشعبية ذات التوجه اللغوى. لو علمت أن التخصص الأخير كان مألوفا فى ذلك العهد، الأمر الذى تمخض عنه تركيز" جيلهوف" فى هذه القصة بنوع خاص على مسألتين: **الأولى** صياغته لنص القصة بالكامل بلغة ألمانية فصحى لا تتنكر للعامية. وقد اصطلح على تسمية ذلك الوسيط اللغوى "مِيسِنْجِش"(*) إذ صيغ النص بالألمانية الفصحى ولكن بطريقة التفكير بلهجة شمال ألمانيا الدارجة (بلات دويتش) المنتشرة

(*) اصطلاح " ميسنجش – Messingsch " مشتق من " ميسنج" بمعنى سبيكة من النحاس الأصفر" نتيجة لصهر النحاس الأحمر والزنك . وتشير هذه المصطلحية إلى إكساب الفصحى شيئا من حيوية العامية ومرونتها. ربما للارتقاء باللهجة الدارجة حتى يتكلم العوام الألمانية الفصحى.

بين سكان أوربا الشمالية المتشاطئة مع بحرى البلطيق والشمال. وهكذا كأنه صهر النص فى بوتقة الفصحى ثم أعاد صبه فى قالب التفكير بتلك العامية. أضف إلى ذلك أنه احتذى فى الفصحى حذو أسلوب المصلح الدينى "مارتن لوثر" فى ترجمته للكتاب المقدس، كما طعم النص ببعض آياته . علاوة على نثره فى المتن لعدد قليل من المفردات الإنجليزية المألوفة الاستعمال بين سكان المناطق الساحلية الشمالية . كذلك درج "جيلهوف" على استنطاق أشخاصه بعامية خالصة فى فقرات معينة من النص. وبذلك يشتمل وسيطه اللغوى المبتكرعلى أربعة عناصر لغوية **الثانية:** استحواذ القصة على اهتمام المتخصصين فى الدراسات الإنسانية لعنايتها بالتراث الشعبى للمهاجرين من إقليم" ميكلينبورج" إلى الولايات المتحدة، إذ ضمنها نماذج من العناصر التراثية، نذكر منها: الأمثال، الأقاويل، الألغاز، الحكايات الشعبية، الحكايات الخرافية، العادات المرتبطة بالأعياد والاحتفالات والطعام، دورة الحياة وبخاصة العماد والوفاة، الترانيم الدينية، العزف على آلة الأرغن، الاستشهاد بقصص أنبياء العهدين القديم والجديد، الممارسات العلاجية الشعبية، ألعاب الأطفال وثقافتهم، حكايات عن الأشجار والحيوان، نوادر أخلاقية ومُلح وطرائف وأفاكيه.

لذلك أعيد طبع النص مبكرا (١٩٢٠) على حلقات بصحف أمريكية وسويسرية لإرضاء فضول قراء الألمانية. كما ترجمت القصة إلى أربع لغات ولأكثر من مرة: النرويجية (١٩١٩ و ١٩٥٨)، الهولندية (١٩٢٠ و ١٩٤٣)، الدنمركية (١٩٢٠ و ١٩٥٩) والإنجليزية– الأمريكية (٢٠٠٠). وبين يدى القارئ الترجمة الخامسة بالعربية. وتتوقع جمعية " يوهانيس جيلهوف" صدور طبعات بلغات أخرى.

ويرجع رواج القصة إلى أنها جديرة بالقراءة لذاتها، فهى جنس أدبى يصنف على أنه " قصة رسائل" يحكى فيها بطل القصة ما ترسب فى ذاكرته من تجارب، وخبرات، وأفكار ومواقف بأسلوب خفيف الظل طريف، يسرى عن النفس، ويهزأ أحيانا من الأوضاع التى كانت، تحت قناع السذاجة والحماقة، مما يرفع من قيمتها فى التسلية، ويحفز على إعمال الفكر فى أطروحاتها الجادة والمضحكة على حد

سواء. ومن خصائص " قصة الرسائل" هذه أنها من طرف واحد، إذ تعتمد على رسائل القروى المهاجر الآتية من أمريكا مع إغفال الردود عليها المرسلة من ألمانيا. وبذلك يتحول الحوار (الديالوج) بين شقى الغرب، المتمثل فى أمريكا وأوربا، إلى مناجاة (مونولوج) يجيب فيها كاتب الرسائل عن أسئلته بنفسه.

وقد اعتمد "جيلهوف" فى كتابة القصة اعتمادا كبيرا على المرويات التى عكف ذلك العامل الأجير على تدوينها فى المهجر خلال الأشتية الطويلة التى لا زرع فيها ولا قلع، إلى جانب التقارير الموثوق بها والتجارب الشخصية ذات العلاقة اللصيقة بشئون الهجرة. ولم يكن الكاتب بذلك الرجل الذى يكتفى بالزج بالرسائل والتقارير إلى المطبعة فحسب، بل عالجها بيد فنان من أصحاب الإبداع والإضافة . وكان ذلك العامل الأجير ومن أصبحت زوجته فيما بعد (ليزا شرودر) معروفين معرفة شخصية للكاتب ولوالديه منذ كان العامل وزوجته تلميذين بمدرسة قرية "جلايسين" التى كان "جيلهوف الأب" ناظرها. وأغلب الظن أن " جيلهوف الابن" كان على علم بتطور ظروف حياتهما فى المهجر، نظرا لعمل "ليزا" لبعض الوقت شغالة بمنزل الأسرة قبل هجرتها، ولسماعه فى محيط الأسرة بالضرورة عن تلك الرسائل الطويلة المعبرة، التى اعتاد "يورن– ياكوب" على إرسالها إلى أبيه بالبريد البحرى فى لفافات كبيرة عبر المحيط. وجدير بالذكر أنه لم يتيسر له الوقت الكافى لكتابة رسائله إلا بعد أن صار مزارعا ناجحا، وبذلك تمكن من الشروع فى تدوين تاريخه الشخصى مستخدما الدفقة الشعورية لضمير المتكلم حال استدعائه لشحنات من حاشدة الذكريات فى ذهنه المتوقد أبدا، فيما يشبه الكاتب المصرى القديم وهو عاكف على غمس القلم فى المحبرة لتدوين أخبار عصره فى البرديات بحروف كهنوتية معبرة.

تطايرت رسائل "يورن– ياكوب سفين" وغيرها من خطابات قدامى التلاميذ الأوفياء على "جيلهوف الأب"، ذلك المعلم الوقور الصبور الذى كان إنسانا مستنيرا، ورعا وموضع احترام أهالى القرية من الفقراء الطيبين، لما عرف عنه

من دماثة وأريحية وإيثار، فوثقوا فى ناظر المدرسة ثقة عمياء. وكان كل فرد فى المنطقة القريبة من مدينة "لودفيجزلوست"، ينتظر منه أن يجسد لهم المحبة العملية المتمثلة فى حب الجار، فلم يتوان بالتالى فى الاستجابة لطلبهم. ودرج هؤلاء القرويون على زيارته وفى أيديهم خطابات أقاربهم ليقرأها عليهم وليفسر لهم ما استغلق عليهم فهمه من غرابة فحواها، ثم ليتولى كتابة الرد عليها. وبعد مرور عقود على ذلك استعان "جيلهوف الابن" بما جاء فى تلك الرسائل من معلومات فى تنقيح رسائل "يورن– ياكوب سفين" التى اعتمد عليها أساسا فى كتابة القصة.

من أجل العمل المستقل يهون تفصد بضعة دلاء من العرق

نعم من أجل تحقيق الهدف المأمول فى أمريكا، ألا وهو إقامة مشروع خاص، ربما احتذى المهاجرون حذو المثل الألمانى القائل: "اعمل بهمة تلق الرغيف ولا تعانى من نقص أو حيف". لذلك ركب "يورن– ياكوب سفين" سنة ١٨٦٨ موجة الهجرة الرئيسية الثانية إلى أمريكا[١]، إذ أدى استمرار احتقان "المسألة الاجتماعية" فى الدويلات الألمانية إلى نزوح جماعى للألمان بغرض الاستقرار بالولايات المتحدة الأمريكية. وبلغ عدد المهاجرين خلال الفترة من ١٨٢٠–١٩٣٠ نحو ٥,٩ مليون ألمانى[٢]. وعلى الجانب الآخر، بلغ عدد من هاجر من دويلة "ميكلينبورج"، محل اهتمام القصة، ربع مليون إنسان خلال النصف الثانى من القرن الـ١٩، توجه ٩٠% منهم، أى ما يعادل ١٨٠ ألف نسمة، إلى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، وذلك من إجمالى عدد سكان الإمارة البالغ

---

(١) فاقت الهجرة الجماعية الألمانية إلى الولايات المتحدة المليون نسمة خلال الفترتين المتتاليتين: (١٨٤٦ – ١٨٥٧) و(١٨٦٤ – ١٨٧٣)، بينما زادت موجة الهجرة الرئيسية الثالثة (١٨٨٠ – ١٨٩٣) على ١,٨ مليون نسمة – هورست روسله : ألمان فى الخارج – أجانب فى ألمانيا – الهجرة الدولية فى الماضى والحاضر، الناشر : بوده، ى.ف، ميونيخ ١٩٩٣، صـ١٤٨ (مرجع ألمانى)

(٢) هـ. روسله، مصدر سابق.

حوالى ٦٧٣,٥ ألف نسمة فى عام ١٨٨٥ على سبيل المثال[1] . وكان معظم هؤلاء المهاجرين من الأجراء الزراعيين المعدمين، ممن كان معظمهم قبل الشروع فى الإصلاحات الليبرالية لـ "تحرير الفلاحين" أقنانا، كناية عن ما يمكن اعتباره "عبيد العمل أو رق الأرض"[2]. فلا عجب أن رسم كل من الفيلسوف "أوسكار شبنجلر" والاقتصادى "جيورج فريدريش كناب" الألمانيين، قبل قرابة القرن، صورة قاتمة عن العمالة الزراعية. تحدث الأول عن ركود حياة " الفلاح" فى الزمان والمكان، ذلك لأنه يتأثر بالطبيعة ولا يؤثر فيها. أما الثانى فيصف العامل الأجير بأنه "كائن هجين". نصفه مثل دابة لحمل الأثقال، والنصف الآخر لإنسان"[3]. فقد استغرقت العملية الإصلاحية لتحرير الفلاح، منذ القرن الـ١٨، ردحا طويلا من الزمن، وتكللت بالنجاح بإلغاء نظام الأقنان (القنونة) من الناحية القانونية على الأقل. وكانت إمارة "ميكلينبورج" هى آخر دويلة ألمانية ألغت سنة ١٨٢٠ مثلها مثل سائر الدويلات من قبل حق الإقطاعى فى إخضاع الأقنان بالوراثة، ووضعت حدا للسخرة، وأنهت أعمال المحاكم الإقطاعية وأدخلت تعديلات على ملكية الإقطاعيات الكبيرة ... إلخ. وبذلك بدأ العد التنازلى لهيمنة الاحتكار الإقطاعى على اقتصاديات الريف، وتكبيله للحراك الاجتماعى، ومحاصرته لصغار الزراع باقتصاد الكفاف الذى لم يمدهم إلا بضرورات الحياة، لأن الإنتاج فيه لم يتم أساسا بقصد التبادل فى الأسواق. وما لبثت أن تدفقت الهجرة الداخلية إلى المدن، وظهرت أزمات السكن، والبطالة، وانخفاض الأجور وتفاقم معدلات الجريمة.. إلخ. ورأى المصلحون أن حل "المسألة الاجتماعية" يتطلب السير على نهج الرشادة

---

(١) كريستوف شميت، مقال بالألمانية فى " مجلة جمعية يوهانيس جيلهوف" ٢٠٠٦، صـ٢١.

(٢) فى معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية عرف أحمد زكى بدوى مفهوم رق الأرض Serfdom بأنه: التزام العامل الزراعى بالطاعة لسيد الإقطاع نظيرحيازته للأرض بالعمل لديه بدون مقابل وتحريم انتقاله من مكان إلى آخر بدون إذن الإقطاعى، بيروت ١٩٨٦، صـ٣٧٥ -وعبيد العمل هنا فى مقابل " عبيد المنزل " عند العرب.

(٣) هرمان بريبه : الاقتصاد الزراعى والتحول الهيكلى فى بنيتى الاقتصاد والمجتمع، (الكراسة الرابعة، النظام الاقتصادى وصورة الإنسان)، كولونيا ١٩٦٠، صـ٧.

الاقتصادية، مثل: إلغاء الطوائف الحرفية، والعمل على نشر النشاط المهنى والحرفى بالحضر، وتشجيع التصنيع، وتحديث التجارة والزراعة والنظام الإدارى، وتعزيز قدرات العون الذاتى فى شتى المجالات عن طريق الجمعيات التعاونية- تحديث مؤسسات الدولة، إزالة الحد الفاصل بين الرعية والمواطن لصالح إعمال حقوق المواطنة- استحداث نظام الضمان الاجتماعى والتأمين ضد المرض والحوادث- النهوض بالتعليم والعلم والبحث والثقافة... إلخ. وجدير بالذكر أن تفاعل هذه العناصر وغيرها أدت إلى انحسار الهجرة من ألمانيا إلى أمريكا فى أعقاب موجة الهجرة الرئيسية الثالثة(١٨٩٣)، وذلك لعثور الأيدى العاملة على وظائف فى القطاعات الإنتاجية والخدمية الناشئة فى ألمانيا وقتذاك . وأغلب الظن أنه لو كان " يورن- ياكوب سفين" قد أجل هجرته إلى العالم الجديد لبضعة عقود قليلة، فربما كان قد آثر البقاء فى "ميكلينبورج " ليحكى لنا قصة أخرى عن نجاحه فى وطنه.

إلا أن القروى الألمانى الفصيح كان واحدا من بين ٣٨ مليون مهاجر نزحوا إلى الولايات المتحدة خلال الفترة من ١٨٢٠- ١٩٣٢[(١)]، ونقلوا إليها- ومن بينهم النخب- عبر أوروبا خلاصة إنجازات الحضارات الكبرى فى العالم، المتمثلة فى ثقافة الإحياء والتنوير، ومدنية مهيأة من قبل عملت على تحويل الولايات المتحدة إلى أول دولة عصرية سعت إلى إعمار قارة بأكملها لتصبح أول دولة صناعية فى العالم، ومركزا للمدنية الحديثة ولتنامى النفوذ فى الغرب الجديد. فقد خطت الدولة الأمريكية مبكرا على نهج خيارها الديمقراطى، وفى إطار نظام السوق الرأسمالى الحر بمفهوم ذلك العصر، ودستورها (١٧٨٩) الذى عبر عن الأفكار الحرة السائدة

---

(١) تفصل موسوعة " جروسه بروكهاوس" الألمانية، فيسبادن ١٩٥٦، الجزء ١٢، صـ١٠٤، عدد المهاجرين حسب القوميات الآتية : ٩ ملايين نسمة من انجلترا وأيرلندا – ٦,٥ مليون من ألمانيا – ٤,٨ مليون من إيطاليا – ٤,٢ مليون من دولة النمسا – المجر الثنائية – ٣,٣ مليون من روسيا – نحو مليون نسمة من آسيا.

آنذاك، فلم يحدد على سبيل المثال كنيسة للدولة، وألغى الألقاب، ونص على الملكية الخاصة بوصفها ضربا من الحرية. ولولا إقبال المنظمين الأمريكيين على التقنيات الحديثة، واستخدام الآلات الموفرة للعمالة، نظرا لمحدودية القدرة البشرية، لاستحال تنمية القطاعات الاقتصادية بطول البلاد وعرضها خلال فترة قياسية، ولولا الاستغناء عن الحصان كوسيلة رئيسية للنقل والاستعاضة عنه بالزورق النهرى البخارى، وخطوط السكك الحديدية والتلغراف... الخ، لاستحال قيام الدولة الأمريكية[1]. وبذلك يعتبر المجتمع الأمريكى المتعدد الروافد البشرية والانتماءات الثقافية والدينية، امتدادا متميزا للخصائص والمقومات الحضارية الأوربية.

عندما هاجر "يورن– ياكوب سفين" إلى أمريكا كان تعداد سكان العالم يزيد قليلا على ١,١٧١ مليار نسمة (١٨٥٠)، فى زمن كانت فيه القارات والجزر الحديثة العهد نسبيا بالاستكشاف (الأمريكتان، أستراليا، زيلنده الجديدة...)، تمثل ملاذا سهلا وغير انتقائى لاستيعاب العمالة الخارجية. ومن هذا المنطلق، لا تزال القصة بين أيدينا تلعب دورا تاريخيا فى حاضرنا، كمقياس تقاس عليه المتغيرات المهمة التى طرأت على انتقال الأفراد بين الدول بغرض الإقامة والعمل بصفة مؤقتة أو دائمة. فهناك بون شاسع بين ظروف الهجرة فى القرن الـــ ١٩ وبين مثيلتها فى القرن الــ٢١، ذلك لأن حرية انتقال الأفراد بين الدول لم تعد مكفولة مثلما كانت عليه فى حياة بطل القصة. فالهجرة الوافدة، المباحة فى الأصل، أصبحت تخضع فى الوقت الحاضر لانتقائية مصالح الدول المستقبلة للمهاجرين، وذلك وفقا لظروفها ولاحتياجاتها من الكفاءات النادرة والعمالة الماهرة. هذا فيما يخص الهجرة الشرعية، فما بالك بالهجرة غير الشرعية التى يروح ضحيتها أعداد من الشباب البائس اليائس، وغير المؤهل مهنيا ولغويا فى الغالب، إما فرارا من

---

(١) هـــ. ج. ويلز، موجز تاريخ العالم، الألف كتاب، القاهرة ١٩٥٨، صــ ٣٢٣.

مشكلة بطالة الشباب، أو لانتشار الفقر ومحدودية الدخل، أو لترف المبالغة فى محاكاة الأنماط الاستهلاكية الغربية، أو لعدم كفاءة نظام الضمان الاجتماعى، أو لضعف قدرة الاقتصاد على الوفاء بالحاجات الأساسية لمعيشة قطاع عريض من الأسر- أضف إلى ذلك الآثار النفسية المترتبة على الأزمات السياسية والحروب، وعلى تداعيات أغلوطة "صدام الحضارات"، التى تمتص جميعا قدرات الدول النامية على مواصلة عملية التنمية الاقتصادية- الاجتماعية بشكل مرض.

وأغلب الظن أن تضاعف عدد سكان العالم بما يزيد على ٥ مرات خلال نحو ١٥٠ عاما[(١)]، أصبح بدوره يشكل عقبة كأداء فى سبيل الهجرة، ذلك لأنه من المتوقع ارتفاع هذا العدد الى ٩ مليارات نسمة بعد أربعة عقود فى عام ٢٠٥٠. ولا يخفى أن العوامل الطاردة للأيدى العاملة من أوربا القرن الـــ١٩ تزامنت مع قوى الجذب التى حظى بها العالم الجديد كملاذ لاستيعاب المهاجرين الأوربيين. ومن ثم تعتبر هجرة ٣٨ مليون نسمة معظمهم أوروبى إلى أمريكا، كما سبق التنويه، بمثابة صمام أمان منع مرجل "المسألة الاجتماعية" من الانفجار، الأمر الذى كان له أبلغ الأثر فى اختيار العالم الغربى للنهج الإصلاحى التدريجى نحو اقتصاد السوق الحر المدعوم بالسياسات الاجتماعية. لذلك يساورنا الاعتقاد بالمثل أن هجرة القرن ١٩ قد عملت على إفشال نبوءة "كارل ماركس" (١٨١٨- ١٨٨٣) القائلة بأن الدكتاتورية العمالية سوف تشعل حتما فتيل ثورة اشتراكية بين ظهرانى الدول الصناعية المتقدمة. لكن فريقا من النخب الثورية من دول متخلفة نسبيا هو الذى عجل بتحقيق تلك النبوءة بعد تحويلها إلى عقيدة راديكالية جامدة، أرست

---

(١) تطورت الزيادة السكانية على صعيد العالم بين ١٨٥٠ و ٢٠٠٧ على الشكل التالى: من ١,١٧١مليار نسمة (١٨٥٠) إلى ٢,٤١٤ مليار نسمة (١٩٥٠)، الى ٦,٣٦٥ مليار نسمة (٢٠٠٧) . ومن المتوقع وصولها بعد أربعة عقود (٢٠٥٠) إلى ٩ مليارات نسمة.- موسوعة جروسه بروكهاوس، مصدر سابق وفيشر - فيلت - ألمناخ ٢٠٠٧، صـــ٥٠٢.

بالقهر نظما شمولية، روجت لإحداث نقلة نوعية فى ركاب "رجة ثورية" لتعويض التطور المعاق فى زمن قياسي. ويقدر الخبراء عدد الضحايا من المعارضين لتلك النظم الشمولية بعشرات الملايين من البشر (مثلا فى العهد الستالينى ومعتقلات "جولاج"، وفى الصين وغيرها من النظم الشمولية وحيدة البعد)، أى أن عدد من أزهقت أرواحهم من أجل تفوق زائف بدول دال معظمها بعد حين، يزيد بكثير على عدد المهاجرين إلى العالم الجديد الذين استطاعوا بالعمل المستقل إقامة مشروعات خاصة والعيش عيشة مستورة أو ميسورة فى "حرية زادها العرق" كما يقول العنوان الرئيسى لهذا الكتاب.

وبالنظر إلى ما أشرنا إليه من المتغيرات الدولية نجد أنها ربما قطعت الطريق بصفة تكاد تكون نهائية أمام تدفق العمالة الزائد من البلدان النامية إلى الدول الأخرى خاصة المتقدمة منها. فالضغوط الهائلة على الدولة النامية لمكافحة البطالة من ناحية، واستحالةِ تكرار موجات الهجرة الجماعية التى ركب بطل القصة إحداها من ناحية أخرى، تشير بإلحاح إلى أنه بات على الدول النامية حل "مسألتها الاجتماعية" المعاصرة فى عقر دارها. وهى مشكلة معضلة بكل المقاييس، إذ تتطلب تعاونا دوليا صادقا، ومشروعا تنمويا يهدف إلى تحويل العوامل الطاردة للعمالة من الوطن إلى عوامل جذب على المستوى المحلى والقطرى والإقليمى يصون الناس من العسف حتى لا تتكرر المآسى الإنسانية فى ظل الأنظمة الشمولية التى تسببت فى إزهاق أرواح عشرات الملايين من البشر. ذلك لأن فقراء العالم وأغنياءه يجلسون جميعا فى قارب واحد ينبغى له العبور بهم إلى بر الأمان. وأغلب الظن أنه لو امتد عمر "يورن– ياكوب سفين" إلى أيامنا هذه، فربما كان قد توصل إلى نتيجة مماثلة أو قريبة لما توصلنا إليه، ذلك لأن ظروف حياته فى القرن الـ١٩، لم تكن تختلف عن ظروف حياة الراغبين فى الهجرة المنظمة أو غير المنظمة فى كثير من عناصرها بالبلدان النامية.

(٢) أطروحات القصة ذات الأهمية الإنسانية والعالمية

تطرح قصة الرسائل وبشكل أساسى ما جادت به العقلية الكتابية غير التصادمية للقروى الفصيح "يورن – ياكوب سفين"، محرر تلك الرسائل. أما "يوهانيس جيلهوف" فقد غاص فى بيئة "ميكلينبورج" الخاصة، وفى تراث تلك البيئة، ليخاطب من خلال ولائه لثقافتها المحلية المشاعر الإنسانية فى كل مكان. فالقصة تتناول العديد من الموضوعات ذات الصبغة الإنسانية والعالمية. واستنادا لما ورد بالنص نعرض فقط لثلاثة موضوعات منها هى: الآثار الاقتصادية المترتبة على قضية المرأة والأسرة– قضية اندثار الهنود الحمر على يد البيض– قضية الهجرة القسرية للسود المجلوبين من أفريقيا والتمييز ضدهم– وسوف نقارن أطروحات القصة بمؤلفات فى نفس الموضوعات نشرت فى ذات الفترة على وجه التقريب.

يقول بطل القصة : "لقد كونت أسرة صالحة"

عاش "يورن– ياكوب سفين" فى أسرة صغيرة مكونة منه ومن زوجته وخمسة أبناء . لكن القصة لم تذكر من الذرية إلا الولدين وابنة واحدة. وفى مرحلة متأخرة انتقلت أم بطل القصة من ألمانيا لتعيش فى كنف الأسرة، حيث تقيم فى الغرب الأمريكى الأوسط. وتُلْقِى القصة الضوء على اهتمام بطلها اهتماما مشبوبا بعلاقة الشراكة الحميمة التى تربطه بزوجته بوشائج المودة والتراحم والاحترام المتبادل. فهو حريص دائما على استطلاع رأيها فى كل صغيرة وكبيرة قبل اتخاذ القرار. فالزوجان يكمل بعضهما بعضا فى كل ما يتعلق بشئون البيت والمزرعة . لكن سلوك الزوج يبدو أحيانا أكثر تشبثا بقيم المجتمع الأبوى الذى تقضى ثقافته بضفر خيوط السيطرة فى أيدى كبير العائلة. ولما كان "يورن– ياكوب سفين" كعائل لأسرته يمثل النموذج المثالى لغالبية أسر المهاجرين من إمارة "ميكلينبورج"،

فيفترض أن التعاون بين الزوجين فى الأسرة هى السمة الغالبة على وجه العموم. ولا يخفى الأثر الطيب للتعاون الأسرى فى العناية بتربية الأبناء وتعليمهم وفقا لميولهم، وفى الحرص على عادة الادخار بالعزوف عن المبالغة فى الإنفاق الاستهلاكى وعن الميل إلى مظاهر الترف أوالبذخ، كذلك فى تعزيز قدرات المزارع العائلية بالاعتماد فى المقام الأول على التمويل الذاتى للاستثمارات بشراء الآلات المبتكرة والموفرة للعمالة مثلا . فبطل القصة مزارع يتمتع بكفاية عالية فى مجاله كمنظم يعرف كيف يواجه الأخطار بقدرة فائقة على المناورة والتصدى للطوارئ. ولديه ملكة حسابية، كما له باع طويل فى إدارة المزرعة، علاوة على حذقه التقنى وقدرته على التجديد وعلى جمع عناصر الإنتاج فى توليفات مبتكرة. وربما يتعجب القارئ لسلوكه غريب الأطوار فى مواجهة تذبذب أسعار منتجات المزرعة بأسلوب لا يخلو من الطرافة ومن حيرته إزاء الممارسات الاحتكارية لتجار البيض تارة والألبان أخرى لإملاء الأسعار على المنتج وعلى المستهلك على التوالى. إلا أن مهارته يَسَّرت له تحقيق الأرباح.

أدى توطيد دعائم الأسرة وترسيخ أركانها بين جموع المهاجرين إلى انضمامهم إلى شرائح الطبقة الوسطى على مر السنين، وأصبحت لهم أرصدة وودائع بالمصارف علاوة على ملكياتهم من الأصول العينية والمالية. وهكذا تمكنوا من تفعيل إسهاماتهم كمزارعين فى إعمار الولايات المتحدة وفى تنمية اقتصادها. ذلك لأنه بدون أعداد وفيرة من المدخرين والملاك وأصحاب المشروعات الخاصة، الذين يديرون أعمالهم بمسئولية يمليها عليهم شرف المهنة، ما كان بالإمكان تصور قدرتهم على الإسهام إسهاما حقيقيا فى ازدهار الاقتصاد الأمريكى خلال قرابة نصف القرن (١٨٦٨– ١٩١٣) التى عاشها بطل القصة فى الولايات المتحدة. وعندما كان "يوهانيس جيلهوف" يخطط لكتابة قصة الرسائل، كان "قاسم أمين" (١٨٦٥– ١٩٠٨) على سبيل المثال بمصر، يروج بمؤلفيه المعنونين "تحرير المرأة" (١٨٩٩) و"المرأة الحديثة" (١٩٠٠)، لوجوب إعادة النظر فى أوضاع المرأة فى الشرق والعمل على تمكينها. فنظرة قاسم أمين الذى درس القانون فى

فرنسا، وكان من رواد "نادى المدارس العليا" بمصر، كانت نظرة تقدمية لأنه تناول أحوال المرأة، لا بصفتها قضية من المحرم تناولها، بل اعتبرها "مشكلة" ينبغى طرحها للمناقشة.

يقول بطل القصة: "إن الهنود الحمر فى سبيلهم للانقراض على أيدى فئة من البيض تعمل على تسميمهم بالكحوليات"

كان شاعر ألمانيا العظيم "يوهان فولفجانج فون جوته" (١٧٤٩– ١٨٣٢) من أنصار مذهب التوعية والتنوير الساعين إلى نشر مبادئ العقل، الخير، العدالة، والمعرفة. لذلك وصف سكان أمريكا الأصليين بأنهم " نبلاء بالفطرة". وقد تحمس فى القرن التاسع عشر الناطقون بالألمانية فى أوروبا، وشغفوا شغفا كبيرا بالغرب البرى أو الهمجى، أى بعالم رعاة البقر. وانسحب هذا الولع بالتالى على هنود أمريكا. فلا عجب أن وصفوهم بأنهم إخوة أشقاء. هذا بينما كان الوصف السائد لهم فى أمريكا بأنهم همج خطيرون ينبغى لرعاة البقر السيطرة عليهم. وقد عبر "كرايز"(١) عن ذلك الشعور الألمانى العام تجاه الهنود الحمر فى تلك الحقبة واصفا إياهم بأنهم: قدوة للسلوك الإنسانى، يجسدون المثل الأخلاقية الرفيعة، كما أنهم أشخاص تشعر نحوهم بأحاسيس طيبة وتود لو تشاطرهم هويتهم.

وقد تناول العديد من الكتاب قضية الهنود الحمر دون أن يحتكوا بهم أو يعايشوهم. ونختار من هؤلاء ثلاثة كتاب. أولهم الألمانى "يوهانيس جيلهوف" الذى تحدث عنهم فى القصة التى بين أيدينا باقتضاب فى فصل "حكايات عن الهنود

---

(١) يعتمد المترجم فى هذه العجالة وبصفة رئيسية على مقالات المتخصصين فى الكتالوج الضخم (٤٠٠صفحة) لمعرض " إنى أحب أمريكا " الذى يعرض لولع الألمان بالهنود الحمر منذ قرنين.
وعنوان الكتالوج بالألمانية I like America , Fiktionen des Wilden Westen
الناشران : Pamela Kort, Max Hollein (قاعة شيرن للفنون فى فرانكفورت / ماين)، ميونيخ، برلين، لندن، نيويورك، برستيل : بالألمانية والإنجليزية.

الحمر وخطابات أطفال" وثانيهم: الأمريكى "جيمس فينيمور كوبر" فى خماسيته عن "الرواد" تحت العنوان الجماعى: حكايات "ذو الجورب الجلدى" (١٨٢٣- ١٨٤١). والثالث هو الألمانى "كارل ماى" الذى ألف ثلاثية عن الغرب الهمجى(رعاة البقر)، عنوانها " فينتو" (١٨٧٥)

رسم الفنان "جورج كاتلين" (١٧٩٦- ١٨٧٢) لوحة تؤكد ما ذهبت إليه قصة الرسائل، بأن تجار الويسكى هم الجناة الحقيقيون الذين تسببوا فى اندثار هنود أمريكا.[١] ويعبر "يورن - ياكوب سفين" عن سعادته للقبض على أحد تجار الويسكى والزج به خلف القضبان. أما كوبر فيصف الهنود الحمر بأنهم "أمة كبيرة تعيش فى الماضى وليس لهم أى دور يلعبونه فى الزمن الحاضر أو فى المستقبل" وفى معرض حديثه عن اندثار هنود أمريكا يقول بأنه " قضاء" أن تمد الولايات المتحدة الأمريكية ترابها الوطنى (غربا) إلى المحيط الهادى[٢]. هذا فى حين تتحدث روايات الغرب الهجمى لـ"كارل ماى" عن عالم الهنود الحمر واصفة إياه بأنه عالم فطرى فردوسى لم تلوثه الرأسمالية ولا الصناعة، وذلك فى تناغم مع "حركة العودة إلى الطبيعة المعادية للمادية"، والتى تمثلت مثلا فى جماعة "الطيور المهاجرة" إذ نمت وترعرعت فى هذا المناخ الحماسى[٣].

عاش الهنود الحمر على ظهر ما ظنوه "جزيرة كبرى" خصتهم إياها "الروح العظمى" لكى يتمتعوا بخيراتها أبدا. ثم دارت عليهم الدوائر بدءا بعام ١٦٠٨ فى أول مستوطنة أوروبية فى "جيمس تاون"، حيث نشب نزاع بين جيش الاحتلال الإنجليزى وإحدى قبائل الهنود الحمر. اشتبكوا معهم دفاعا عن أرضهم التى سموها "أمهم" حدث هذا قبل حوالى قرنين من إعلان الاستقلال (١٧٧٦). وبذلك انطلق صراع دموى امتد إلى قرون، أُقْحِمَتْ فيه القبائل بين جيوش

---

(١) المصدر السابق صـــ ٢٤٩، مقال كارل ماركوس كرايز.

(٢) المصدر السابق، صـــ٥٣، مقال باميلا كورت.

(٣) المصدر السابق، صـــ٣٠١، مقال باربارا ماك كلوسكى.

الاستعمار المتحاربة تارة، وألقوا بأيديهم إلى التهلكة أخرى فى تحالفات مع الأطراف الخاسرة، كما داست على الطرف الضعيف عجلة العنف والغدر والنذالة فى معارك غير متكافئة بين استيطان متربص مدجج بالسلاح وعنترية– دون كيخوتية امتشقت الحسام. وعندما لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية قد اتحدت بصورة كاملة بعد، تشير الأدبيات إلى تعرض الهنود الحمرإلى صنوف من القهر، الإخضاع، التشريد، الطرد، التمييز والإبادة[١]. كان ذلك فى زمن لم ينشأ فيه علم الأنثربولوجيا الاجتماعية بعد كنتاج لعصر التنوير. ومن مزايا هذا العلم اهتمامه بدراسة المجتمع البدائى للإلمام بكافة جوانبه والوقوف على شتى العناصر المادية، الفكرية والاجتماعية فى المجتمع المفحوص، الأمر الذى يعمل على تصحيح الأحكام المسبقة عنه . تلك التى تقوم على الافتراض القائل بثبات طبيعتهم الإنسانية وعدم قابليتها للتغير فى الزمن المنظور.

كان "يورن – ياكوب سفين" بحكم تنشئته ضد الكسل والتطفل، لهذا السبب اعتبر الهنود الحمر كسالى وينبغى انتشالهم من وضعهم المأزوم على هامش المجتمع، بتدريبهم ولو قسرا على إتقان الأعمال الزراعية حتى يتمكنوا من الانخراط فى سوق العمل. إلا أنهم كانوا يقومون بنشاطات اقتصادية فى حدود تنظيمهم الاقتصادى البسيط وتقنياتهم المتواضعة، مثل الصيد، جمع الثمار، الزراعة، الصناعات اليدوية وأعمال المقايضة، التى لا تمد الأفراد إلا بضرورات الحياة. وكانوا يعيشون فى مجتمعات بدائية لإشباع الحاجات الاقتصادية المحدودة، مع مقايضة ما يزيد على حاجتهم من مواد غذائية، كساء (نسيج، فراء، جلود) حلى، سلاح فى مقابل إنتاج الغير، مثل: الويسكى، الخرز الملون، مواد البناء ...إلخ. أما كوبر فكان بنظرته الدونية إلى الهنود الحمر يوظف بخماسيته التاريخ ليكون فى خدمة السياسة، فى حين أن كارل ماى حاباهم وولع بهم مُوَظِّفاً ثلاثيته

---

(١) W. أروز– سميث/ م. كورت، الروح العظمى تتحدث: خطب أشهر زعماء الهنود الحمر (بالألمانية)، دوسلدورف ٢٠٠٤، صــ٧.

لتكون فى خدمة "المسألة الاجتماعية" وما نشأ عنها من المشاكل بمعاداة المادية والانطلاق فى أحضان الطبيعة.

يقول بطل القصة: "لاينبغى وقوف الزنوج على أدنى درجة فى سلم التفوق بين الأمم"

دنست تجارة الرقيق (عبيد العمل) البحر المتوسط فى العصرين اليونانى والرومانى، ثم عادت قبل بضعة قرون مرة أخرى إلى العالم الجديد راكبة أعلى خيولها. فقد سيق الزنوج بتهجيرهم قسرا من أفريقيا عبر المحيط إلى مزارع القطن بولايات الجنوب المتحالفة. وعلى ما يبدو أن تملك المستوطنين البيض للعبيد صار موضة ومن مستلزمات الزهو بين علية القوم والمزارعين فى تلك الحقبة. فكان "توماس جيفرسون" أهم كتاب إعلان الاستقلال الأمريكى (١٧٧٦) والذى طالب بحق الإنسان فى الحرية يمتلك العبيد . كما نص "جورج واشنطن" أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية (١٧٨٩- ١٧٩٧) فى وصيته على فك رقاب ما كان يمتلكه من الرقيق[1]. لكن الرئيس "إبراهام لينكولن" الشهير بالعدو اللدود للرق، خاض حربا ضروسا تصارعت فيها المصالح والأفكار من أجل تحرير العبيد عرفت بالحرب الأهلية (١٨٦١- ١٨٦٥) التى انتهت باغتياله بعد أن أتت على الأخضر واليابس فى الجنوب، ودرأت انفصال ولاياتها الـ ١١ عن الشمال. وربما كان لقصة "كوخ العم توما" التى سطرتها بدم القلب وبوحى من شجاعة أدبية وضمير حى نادرين، الكاتبة الأمريكية" هارييت- بيشر- ستوف" (١٨١٢- ١٨٩٦)، دورا بارزا فى إيقاظ النخوة والمروءة ضد بشاعة العبودية فى نفوس أحرار الأمة الأمريكية، بتصويرها علاقة العبد الزنجى" العم توما" بسيده الغطريس

---

(١) مجلة "دامالز- Damals" للتاريخ والثقافة، عدد خاص عن جورج واشنطن، عدد ٢٠٠٨/٦، صـ١٦.

"ليجرى". لذلك نشك فى قبول زنوج أمريكا فى الوقت الحاضر أن يكون العم توما قدوتهم أو متحدثا باسمهم، حين ضربه سيده بالسوط وركله بحذائه الثقيل، ليقول العم توما آه فى صرخة عالية وقد اختلط على وجهه الدمع والدم: "لا ! لا ! لا ! ليست روحى ملكا لك يا سيدى! إنك لم تشترها إذ اشتريت، كلا، ولا كان فى وسعك أن تشتريها، لقد سبق لها أن اشتراها خالقها ودفع ثمنها، اشتراها ودفع ثمنها من فى وسعه أن يصونها، افعل أيها السيد بجسدى ما تشاء، وأما روحى فلن يكون فى وسعك قط أن تلحق بها الأذى... "[١].

فى حديث صحفى مع المؤرخ الأمريكى "إريك فونر"[٢] جاء فيه أن الحرب الأهلية رأبت صدع الانفصال وأعادت للبلاد لُحْمَتها، لكن ذلك الاتحاد قام على تفوق البيض. ونسى الناس تماما أن ١٨٠ ألف زنجى أمريكى حاربوا من أجل وحدة البلاد ومن أجل تحرير العبيد. ذلك لظهور "جماعة كو – كلوكس- كلان" مثلا بما تنطوى عليه من عنف وإرهاب ومناوأة للسود . ونلخص فيما يلى بعض الخطوط العريضة لما ذكره إريك فونر فى حواره مع مجلة "شبيجل شبتسيال":

- اعتقد الكثيرون قبل الحرب الأهلية أن امتلاك عدد كبير من العبيد يتيح لهم قدرا أكبر من الحرية. وأن إتاحة مساحة أكبر من الحرية لمالك العبيد، يقوى عنده الرغبة فى تملك عدد أكبر منهم.
- عملت الحرب الأهلية على إعتاق الرق . كما أعيد كتابة الدستور بحيث حصل الذكور من الزنوج آنذاك على المساواة القانونية والسياسية.

---

(١) راجـــع: زكى نجيب محمود: ضمير الأمة فى كتابها، فى: هذا العصر وثقافته، بيروت والقاهرة صــ ٢٣٧.

(٢) مجلة Spiegel Spezial، عدد خاص: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية ١٦٠٧، ٢٠٠٨، صــ١٥-١٩.

- لم ينضم من السود إلى مجلس الشيوخ، على مر التاريخ الأمريكى كله، سوى خمسة أعضاء، بما فيهم باراك أوباما . وحاز اثنان منهم على عضويتهما بالمجلس بعد الحرب الأهلية مباشرة.
- أصبح باراك أوباما أول رئيس أمريكى أسود فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.

وبذلك يتحقق ما طالب به "يورن- ياكوب سفين" بضرورة العمل على تحسين أوضاع الزنوج فى المجتمع الأمريكى . وهى نقلة نوعية وقفزة هائلة إلى الأمام عَوَّضَتْ التطور السياسى المعاق منذ أمد طويل. وهى إن دلت على شئ، فإنما تدل على حيوية الديمقراطية الأمريكية. وهكذا تضيق المسافة بين النص الدستورى النظرى وتطبيقاته فى الواقع الأمريكى المعيش.

(٣) قواسم مشتركة بين شكايات الفلاح الفصيح وقصة الرسائل

تعالج شكايات الفلاح الفصيح وقصة الرسائل جوانب جوهرية من الوجود الإنسانى بفارق ٣٩ قرنا تجعلهما جزءا من حياة الناس. وعندما يستحضر القارئ أحداث القصتين فى ذاته يكتشف فيهما جانبا مألوفا من تصوراته المعرفية، كما يتعرف فيهما على طائفة من مدركات الماضى المخزونة فى الذاكرة. وللتفريق بين القصتين سمينا بطل قصة الرسائل "القروى الألمانى الفصيح"، نظرا لأن الفلاح الفصيح فى القصة الفرعونية كان تاجرا ريفيا جوالا . وربما كان قدماء المصريين يستعملون اصطلاح فلاح بمعنى فضفاض للتعبير عن شخص من أهل الريف، سواء أكان مالكا أو مستأجرا لأطيان، أجيرا، حرفيا أو تاجرا. كما أن لمصطلح فلاح بالألمانية (باور) معنى محدد للدلالة على المالك لضيعة أو صاحب الحيازة من المشتغلين بالزراعة بشقيها النباتى والحيوانى، والذى يتعهدها لحسابه كمنظم لمشروع زراعى.

ولشحذ ذاكرة القارئ نلقى الضوء على الخطوط العريضة لأحداث القصة المصرية القديمة، ونبدأ بظروف تلك الحقبة: فى العصر المتوسط الأول (الأسر ٧-١٠) ٢٢٠٠- ٢٠٤٠ ق.م، وهو عصر انتقالى مضطرب، انتشرت فيه الفوضى، وعم الفساد، واختل فيه الأمن، وقلت الضرائب، واستشرى فيه الانحلال والتفكك الاجتماعى، واستقل حكام الأقاليم إداريا عن السلطة المركزية وانهار النظام الملكى، علاوة على الوهن الذى أصاب الإدارة العامة وطائفة الموظفين. ورغم هذا كان عصرا ازدهر فيه الأدب المسجل على البرديات كرد فعل على تلك الأوضاع المتردية. ومن أمثلة ذلك النتاج الأدبى: قصة "الفلاح الفصيح"، وهى من أفضل ما قدمه الأدب المصرى القديم (أ.د. جمال مختار)- المقطوعة الأدبية "وصايا الحكيم إيب أور" (أى إيب العجوز)- حكاية " رجل يائس من الحياة يناجى روحه"- "تعاليم مريكا رع" (وهى وصايا موجهة من أبيه خيتى الثانى)- وأغنية "العازف على الجنك". وبينما تطالب شكايات الفلاح الفصيح أول الأمر بوضع نهاية لتلك الأوضاع المتردية. فإذا بالحكيم إيب أور يعاتب رب الأرباب لأنه خلق العالم والبشر على نحو سيئ يعوزه الكمال، ومع هذا فالرب عازف عن تغيير تلك الأوضاع. وإذا به يتساءل : هل أخذته سنة أو نوم؟ ويعبر هذا القصص بوجه عام عن رغبة حقيقية فى الإصلاح لبلوغ حكم رشيد لإنقاذ البلاد من الأخطار المحدقة بها.

ومثلما جعل "يوهانيس جيلهوف" بطل القصة "يورن - ياكوب سفين" ينطق بما كانت ألسنة المهاجرين من بلدياته تود الإفصاح عنه لو استطاعت من أجل تشخيص تفاعلات سلوك الإنسان الميكلينبورجى المهاجر خلال مراحل حياته المختلفة، فقد صاغ كاتب مصرى قديم، بحس مرهف، الشكايات التسع التى أملاها على مسامعه القروى "خون إنبو" بأسلوب المثقفين الذى يليق بمخاطبة علية القوم ثم سطرها على بردية موجودة منذ ١٩٠٦ فى برلين. ويقول "فو جلزانج"

و"جاردينر"[١] اللذان فكا طلاسم البردية، إن المحتوى ينم عن بنية فكرية مخطط لها مسبقا. ويجمع لفيف من علماء المصريات المشهود لهم بالدراية أن النص منظوم بأسلوب شعرى كما يتضمن مرويات منثورة، وإن كان يشوب التكلف صياغة بعض فقراتها. ويصف ماسبيرو ذلك الأسلوب بأنه " تمرين على أسلوب راق!"[٢].

عاش الفلاح الفصيح " خون إنبو" فى قرية بوادى النطرون فى عهد الملك "خيتى– نب – كاو – رع"، أحد فراعين الأسرة العاشرة (القرن ٢١ ق.م)، فى العصر الإهناسى الانتقالى المتقلقل. وذلك نسبة إلى إهناس (إهناسيا المدينة)، عاصمة الوجهين القبلى والبحرى، غربى نهر النيل فى منتصف الطريق بين بنى سويف الحالية ومنخفض الفيوم. اعتاد "خون إنبو" من وقت لآخر إلى شد الرحال إلى إهناس وهو يهش على حميره المحملةِ بمنتجات بيئته لمقايضتها بقمح لقوت عياله وشعير لنقيع جعته. وكان عليه أن يقطع حوالى ٣٠٠ كيلو متر محفوفة بالمشقة عبر الصحراء والصخور والجبال حتى يبلغ وادى النيل الخصب[٣] لكن الحمير بما حملت من الملح، النطرون، العطارة. فراء الفهد، جلد ابن أوى وريش النعام.. أقفاص الحمام، الأحجال والسمان، وغير ذلك من أصناف عددتها البردية راقت فى عينى "تحوتى نخت" الموظف بأبعدية كبير أمناء القصر الملكى، المدعو "ميروس بن ريتزى" ولما بلغ الركب مكان الحادث فى "برفيه" (بلفيا ؟). غرر "تحوتى نخت" بالتاجر الريفى: استولى ومعاونوه على ملكيته المنقولة بالحيلة والخشونة، ولم يكتفوا بنهبها، بل أهانوه وأوسعوه ضربا، الأمر الذى أثار حفيظته

---

(١) فريدريش فوجلزانج / آلان هـ. جاردينر : شكايات الفلاح (تفسير وترجمة)، فى : نصوص أدبية من عصور الدولة الوسطى، الناشر: آدولف إرلمان، ليبزيج ١٩٠٨/ صـ ١ – ١٥ (مرجع ألمانى).
(٢) فريدريش فوجلزانج : تعليق على شكايات الفلاح، هيلد سهايم ١٩٦٤، صـ ١٣ (مرجع ألمانى).
(٣) بيرى توميك: الفلاح الفصيح، فى: كيف أصبح فلاح فرعونا وحكايات مصرية أخرى، براغ ١٩٨٧، صـ٤٥ (مرجع ألمانى)

للضيم الذى لحق به. ورغم إلحاح الإنسان المسكين مطالبا بإعادة ما سرق منه، لم يُجَبْ الى طلبه. ولم يتأثر "تحوتى نخت" من تهديد صاحب الحق المعتدى عليه بأنه سوف يتوجه بالشكوى إلى كبير الأمناء. وكان رده، إن شخصا لا حول له ولا قوة من على شاكلته لن يصدقه أحد. وفى إهناس أعجب "ميروس بن رينزى" بفصاحة "خون إنبو" وبرشاقة أسلوبه فى عرض قضيته. وسرعان ما طير رينزى الخبر إلى فرعون وأخبره بتفاصيل ما حدث. ذلك لأنه لم يفت عليه أن حسن صياغة دعاوى تتعلق بتحقيق العدل وعقاب الجناة، أمر يحوز على رضاء الملك ويسليه ويدخل البهجة إلى قلبه، فى عصر لم يعهد ما عهدناه من وسائل تسرية الوجدان الجمعى وشغل أوقات الفراغ بما يسر. وحتى يتصور القارئ مع الفارق مدى اشتعال حب الاستطلاع فى نفس الملك لمعرفة حكاية ذلك الريفى المنهوب نسوق تلك النادرة عن الملك " ببى الثانى"، الذى ولى العرش صبيا (الأسرة السادسة)، إذ كتب له حاكم ألفنتين" حرحوف" وهو فى رحلة الكشف الرابعة بالنوبة، بأنه يزمع إحضار قزم راقص له. وتتضمن بردية سليمة رد الملك، إذ يقول : "أسرع ولا تتوان واصحب القزم معك. إن جلالتى يتحرق شوقا لرؤيته، مفضلا إياه على عطايا سيناء وخيرات بونت "(١) وحتى يفصح " خون إنبو" عن كل ما عنده، أمر "خيتى– نب– كاو– رع" بتأجيل البت فى طلب الفلاح، والتسويف بعض الوقت فى إعادة ممتلكاته المسروقة إليه حتى يستمتع الملك فى تروية لأكبر عدد ممكن من الشكايات. لذلك أمهله حتى يؤتى الوقت الكافى ليروى شكاياته، على أن يسجلها كاتب مصرى مخضرم، ثم ترفع إليه. وشدد الملك على كبير الأمناء بعدم الإجابة على أسئلة الفلاح حتى لو وجه له قذفا أو كال لهم التهم. كما أمر بمد "خون إنبو" فى عاصمة ملكه، وكذلك أسرته فى وادى النطرون بالزاد، حتى لا يتضوروا جوعا أثناء انهماك الفلاح فى إملاء شكاياته على أسماع كاتب البرديات، دون إخباره أيضا بأن لكبير الأمناء أى صلة بتوفير الزاد. وعلى هذا

---

(١) هرمان أ. شلوجل : مصر القديمة، الطبعة الثانية، ميونيخ ٢٠٠٥، صـ٤٣ (مرجع ألمانى).

النحو نشأت الشكايات التسع ورفعها "ميروس بن رينزى" واحدة بعد الأخرى إلى فرعون. وبعد أن استرد "خون إنبو" المسروقات ولاقى الجانى عقابه، عرض عليه كبير الأمناء رغبة الملك فى عيشه وأسرته فى عاصمة ملكه. لكن الحبكة تركت لقارئ البردية، على ما يبدو، حرية اختيار مكان النهاية السارة. هكذا نظن، لأن الجزء من البردية المسجل عليه نهاية القصة لم يصل إلينا سليما تماما.

لو كانت شكايات "خون إنبو" المسجلة على البردية منذ أربعة آلاف عام قد دارت حول موضوع السرقة فحسب، فأغلب الظن أن قيمتها كانت لن تزيد على قيمة "عرضحالات" المشاكل الفردية اليومية، والتى سرعان ما كانت ستنزوى فى غياهب النسيان. لكن أدب العصر الإهناسى حولها، بلغة عصرنا، إلى "قضية رأى عام"، إذ عبرت عن مشكلة سعى إلى حلها مصلحو تلك الحقبة من تاريخ المصريين. لقد تخطى الشاكى قضيته الخاصة، حسب الأصول وحتى "يعديه العيب"، وجعل الأولوية لمشاكل عصره التى تعرف عليها وشخصها وصاغها بأسلوب يحسن فهمه وعاونه فى ذلك كاتب مثقف، الأمر الذى جعل البردية لا تفقد شيئا من أهميتها عبر آلاف السنين. ويرجع الفضل فى ذلك إلى وقوعها فى أيدى علماء المصريات المتخصصين، الذين حافظوا عليها ليطلع عليها المهتمون جيلا من بعد جيل.

وتتسم شكايات الفلاح الفصيح بنزعة أخلاقية وبتهزيلها للأوضاع فى مصر على مشارف الدولة الوسطى، علاوة على سخريتها من تشبيهات السلف ومن المحسنات اللفظية التى بدأ المرء يشعر بالاستخفاف بها فى عصور الدولة الوسطى. ونشير إلى الرؤوس العريضة لما ورد ببعض الشكايات:

- جاء بالشكوى الثامنة صيغة الأمر المطلق لتقول "طبق العدل!".
- جاء بالشكوى السادسة: "كما يرش البستانى أحواض الزرع بالماء، كذلك يصب الموظف السيئ الظلم والجورفوق منطقته".

- جاء بالشكوى الثالثة: "ممارسة العدل تحافظ على توازن البلاد مع توخى كفاية الإدارة العامة".

ويتمحور القاسم المشترك للشكايات حول فساد الإدارة العامة، الذى يجر فى أذياله عدم الأمان والعنف ويهمش الوجود المادى للفقراء[١]. ذلك لأنه ساد فى العصر الإهناسى المتقلقل- كما نظن- "دستور" بمعناه القبل دستورى، لاصطباغه بصبغ الدولة الدينية، ولأنه يعكس أوضاع مجتمع طبقى يعوزه الحراك الاجتماعى، ولا يعبر عن أحلام وطموحات المصلحين. هذا فى حين أن الشكايات تريد فقط إدخال تعديلات على طبقة الموظفين، مع الإبقاء على السلطة المطلقة فى يد ملك إله، وعدم المساس بالمحرمات التى يخضع لها نظام الحكم.

وعلى الجانب الآخر: من المعروف أن علاقات وطيدة ربطت منذ الألفية الثانية قبل الميلاد بين اليونان القديمة ومصر الفرعونية، بحيث أصبحت لمصر مكانة ثابتة فى حياة وتصور الإغريق قبل حملة الإسكندر الأكبر. فقد انتقلت من ضفاف النيل إلى شواطئ بحر إيجة الآلهة، الطقوس الدينية، العادات، التقاليد فضلا عن الإنجازات العلمية والتقنية. ولا غرابة إذن أن يربط متخصصون بين المدينة الفاضلة لـ"إفلاطون" فى كتابه "الجمهورية" (بوليتيا Politeia) وبين ما ساد فى مصر القديمة من فكر وتصور[٢].

فقد قسم أفلاطون المجتمع إلى ثلاث طبقات لها الأسبقية على الإنسان الفرد. وهى طبقة الفلاسفة المنوط بها الحكم وتطبيق العدل، وطبقة المحاربين المنوط بها الدفاع عن الحياض، ثم الطبقة الدنيا من الحرفيين والفلاحين المنوط بها الإنتاج مع توخى تقسيم العمل. ومن ثم نرى تناغما بين المقولة التالية لأفلاطون

---

(١) فوجلزانج، ف : مصدر سابق ص ٩ - ٢٥.

(٢) كتالوج معرض شتيدل للفنون فى فرانكفورت ٢٠٠٦ وعنوانه: مصر اليونان روما، صد وتماس، مقال ألمانى بقلم ديله، ألبريشت Dihle, A. عن صورة مصر عند الإغريق فى العصر الكلاسيكى العتيق، صـ ٢١.

والفكر السائد آنذاك فى مصر، إذ يقول: "إن العدالة تخدم الكافة وتعمل على استقرار النظام الطبقى دون تعدى طبقة على اختصاص الأخرى، ذلك لأن العدالة هى أن يكون لكل فرد ماله، وأن يؤدى كل امرئ ما عليه داخل الطبقة التى ينتمى إليها". وتولى الاقتصادى الألمانى "جيرش" استنادا إلى الفيلسوف الأنجليزى "بوبر" تأويل تلك العبارة الأفلاطونية على النحو التالى بأنه "نظام جماعى، غرضه الأساسى هو إعاقة التغيير، وكبح جماح التطورات الديناميةب"[1] . أى أن ما سعت اليه الشكايات لا يكمن فقط فى تحقيق مبادئ العدالة بـــ "إنشاء طائفة من الموظفين المتصفين بالكفاية والأمانة"[2]، بل هى مشكلة أكثر عمقا لتعلقها بنظام الحياة ذاته على ما يبدو.

أما القواسم المشتركة بين "الفلاح الفصيح" و"القروى الألمانى الفصيح" فنجملها ثانية فيما يلى:

١- تتمحور القصتان حول شخصية البطلين " خون إنبو" و "يورن- ياكوب سفين".

٢- كان لكل منهما تجربة مع اللصوص وقطاع الطرق.

٣- كلاهما جرئ لا يبطن، لا يوارب، لا يموه على الحقائق، ولا يخشى فى قول ما يعتقد أنه حق لومة لائم .

٤- حول أدب العصر الإهناسى شكايات الفلاح الفصيح إلى قضية رأى عام. كما تتناول قصة القروى الألمانى الفصيح رغم تناولها تراث البيئة المحلية أيضا قضايا ذات صفة إنسانية وعالمية.

٥- تولى فى القضيتين شخص آخر عرض أفكار الفلاح والقروى الفصيحين بكفاءة واقتدار، مع الحفاظ على الروح الفطرية لتعبيراتهما الريفية العفية المباشرة، دون أن تطغى التحلية الأسلوبية على الجوانب الموضوعية.

---

(١) جيرش، هوبرت: السياسة الاقتصادية العامة، فيسبادن ١٩٦٠، صـــ٦٢وما بعدها بوبر، ك.ب:
The open society and its Enemies , Vol E, The spell of Plato, London 1957

(٢) سليم حسن : مصر القديمة، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٩٣، صـــ٤٥٧.

وبما أن الجغرافيا التى تبحث فى اختلاف مظاهر النشاط البشرى فى تفاعله مع البيئة الطبيعية المتباينة بالمثل، فضلا عن إبرازها أن لكل بلد ظروفه الخاصة به، فتجعل بذلك السمات المميزة لسلوك "خون إنبو" تختلف عن سلوك "القروى الألمانى الفصيح" فى كل من مصر وأمريكا على التوالى. لذلك استقطب زكى نجيب محمود[1] دقائق حياة الناس فى هذين البلدين لكى يستقرئ طابعا فكريا عاما لهما، وبه خلص إلى أن: فى مصر يضيق المكان ويتسع الزمان (التاريخى). وفى أمريكا يتسع المكان ويضيق الزمان. فالأرض المأهولة فى مصر ضيقة – شبهها جمال حمدان[2] بزهرة اللوتس: ساقها الصعيد، زهرتها الدلتا وبرعمها الفيوم- لا تسمح لأهلها بالمغامرة مع امتداد عمرها التاريخى امتدادا تترسب فيه طائفة ضخمة من التقاليد . فتكون النتيجة هى احترام المصرى للمبادئ مع قلة فرصته فى سرعة الحركة وأبعادها. أما فى أمريكا فالأرض فسيحة الأرجاء، والأمد التاريخى وراءهم قصير، فتتاح الفرصة للتحرك السريع والبعيد معا، فلا رقعة الأرض تحول دون المغامرة، ولا التقاليد العريقة بذات وجود فتعوق المغامر.

لهذا استطاع القروى الألمانى الفصيح أن يحقق نجاحا فى ظل نظام اقتصادى وسياسى حر، بينما حصل الفلاح الفصيح على حقوقه فقط برضاء الفرعون عنه لأنه كتب شكايات أعجبته وبمحض الصدفة.

فتحى باطة

---

(١) زكى نجيب محمود : هذا العصر وثقافته، القاهرة وبيروت ١٩٨٠، صـ١٠.

(٢) جمال حمدان : نمو وتوزيع السكان فى مصر، القاهرة دون ذكر العام، صـ ١٧.

(الرواية)

الفصل الأول

مقـدمـة

يقع إقليم "ميكلينبورج" بشمال ألمانيا. وتعمل على تثبيت رماله مروج الْخلَنجْ. وهى عبارة عن ورد برى يسمونه "هايده". وتتكون مروج الخلنج هذه من شجيرات مُتَقَزِمَةِ منبسطة على الأرض على هيئة سنيبلات نضرة إما بنفسجية أو بيضاء اللون. وتقع فى الجنوب الغربى من تلك المروج قرية وادعة " فندية" العمارة[١] تتخذ شكل حدوة حصان استدارت فتحتها نحو الغرب. وتمتد أسطح بيوتها الجمالونية مثل أسنمة من البوص الداكن المقصوص صوب الأرض تكاد تلامسها، فتستر الناس فى أفراحهم وأتراحهم حانية عليهم بالدفء والوثارة. د ويجثو منعزلا أمام فتحة الحدوة، التى يعيش فى دورها القرويون متضامنين، كوخ أنهكته السنون، مُشَيَّد من القش المؤلف بينه طين، تقعرت الأرض قليلا من تحت القوائم الحاملة للسقف، وتزعزعت الدعائم المنصوبة للتعريش . أما سقف الحجرة فكان انخفاضه يُعَسِّر على طوال القامة أن يتمطوا فى بنيانهم قائمين. هكذا وصف "يورن– ياكوب سيفين" مسقط رأسه، ولا ريب أنه كان يعرف حق المعرفة ما أراد وصفه، نظرا لأنه نشأ بذلك الكوخ المنعزل الذى آوى أسرة عامل يومية أجير. غير أننا نعلم من تطور الأحداث ومن تتبع سيرته أنه لم يعمر فيه طويلا.

ولما خاب أمله فى تملك بيت خاص به يؤويه، وقطعة أرض يَتَقَوَّتُ من فلاحتها، نزح إلى الخارج مثلما فعل الكثيرون. وعلى الرغم من انشغال المغتربين

---

(١) القرية " الفندية " مستديرة الشكل، وهى عبارة عن عدد من الضياع تتحلق ساحة القرية ذات المدخل الواحد. و" الفند" شعب سلافى أو زوربى عاش بشمال ألمانيا فى حوالى النصف الأول من الألفية الأولى (انظر ملحق الشروح والصور).

فى عمل مضن دؤوب، فقد حافظوا على الارتباط بوطنهم بتحرير الخطابات. ولذا تطايرت الرسائل إلى معلم القرية بانتظام فى أعياد الميلاد حتى يتولى قراءتها على أسماع الأقارب، ذلك لأن قراءة الرسائل القادمة من أمريكا كانت فناً يحتاج الى قدرات خاصة بفك طلاسمها، لما يكتنفها من التكلف فى اختيار الكلمات. ومع هذا فقد أضمرت كتاباتهم أصفى مشاعر الود والوفاء وكانت الجمل على اقتضابها تلهث بالشكر من الأعماق، وتلهج بذكر الرجل الذى كان للنشء معلما ومربيا، ولكبار السن ناصحا لا يجارى فى كافة الشدائد وشتى الملمات، سواء تعلقت تلك النصائح بما يخص سلامة الجسد أو الشئون الروحية العبادية. وغالبا ما كان يَجِدُّ أهل القرية فى طلبه ليكون حاضرا فى الساعة الأخيرة بجانب من يتردى فى حضرة الموت إلى أن يسبل جفنيه. وجدير بالذكر أن والد المعلم وكذلك جده كانا قد سبقاه فى الإشراف على الإدارة التعليمية بالقرية. أما هو فقد خلفهما فى تسيير شئون التعليم خلال فترة امتدت إلى ٥٤ عاما . وأدى تواصل الأجيال على الصعيد التعليمى التربوى إلى توثيق عرى الروابط بين المدرسة والقرية. فلا عجب أن حرص التلاميذ بعد هجرتهم إلى أمريكا على مراسلة والدى الذى كان معلمهم، كما لم يكن من الغرابة فى شىء أن يقوم ذووهم بعرض ما يصلهم من الخطابات على معلم تلاميذه المهاجرين.

وتحتم عليه بالتالى قيامه بالرد على تلك الخطابات. وكان الحوار بينه وبين من يسأله الإجابة عليها نمطيا ويدور على الوجه التالى:

– "لو سمحت عاوزك تكتب لى جواب علشان أبعته لعمى فى أمريكا".

– "تحب أكتب له إيه ؟".

– "إنت تعرف أحسن منى. هو أنا حاعدل عليك. دا إنت خير العارفين".

- "طب تعالى يوم السبت بعد المغرب علشان أقرأ لك الجواب".

ويحضر السائل يوم السبت ويجد أن الرد على ما يرام.

- "قولي بقى أتعابك قد إيه ؟".

- "يا سيدى دى حاجة بسيطة. بس ما تنساش تكرر الزيارة".

على هذه الوتيرة كانت تجرى أسئلة السائلين. وكان المعلم لا يرفض لهم طلبا.

كان من السهل تقدير حجم المعاناة والمتاعب اليومية التى تواجه الأمريكيين الجدد بقراءتها بين سطور تقاريرهم المقتضبة غير المزوقة. كما لم يك خفيا أن الأيادى التى ألفت الحرث بالمحراث لا تحسن الكتابة بالريشة[١]، لأن الحرث عمل مضن يغل من حركة اليد. وعندما كان يأتى المساء بعد أفول شمس يوم عمل شاق، فإذا بقواهم قد خارت واستنفدت، بحيث لم تسمح بقيتها الباقية إلا بالإسهاب المفرط فى الكتابة. لكن أحد هؤلاء المهاجرين عكف على الاستمتاع بتحسين خطه. إنه "يورن- ياكوب سفين" ابن عامل اليومية الأجير الذى نشأ بالكوخ الكائن خارج التجمع السكانى بالقرية، والذى ما كاد يجتاز مرحلة صباه حتى عبر الأطلنطى قاصدا أمريكا. وبوصوله إلى هناك، كان مجرد نفر بين الكثرة من جموع المهاجرين. ولما جد واجتهد على نهج المسلك المهنى لأصحاب المزارع، وجد نفسه بعد طول ما بذل من مجهود ذهنى وعضلى، قد خرج من دائرة الكثرة الكمية ليستقر فى شريحة قلة نوعية لا يتعدى عددها بضعة آلاف من المزارعين. كانت رسائله إلى معلمه مقتضبة وحصيفة مثل مئات غيرها. لكن "يورن- ياكوب سفين" كان عندما يعود من عمله فى المساء، يظل ساهد الجفن إيذانا بتفتق القوى الحبيسة

---

(١) كان القلم عبارة عن ريشة طائر تستخدم فى الكتابة بغمسها فى محبرة . وهى نفس الطريقة تقريبا التى كان يتبعها الكاتب المصرى القديم فى الكتابة على البرديات.

التى لا يخمد لها أوار فى ذهنه المتوقد أبدا، فيشرع فى صياغة خواطره وتجاربه وخبراته المترسبة فى ذاكرته ثم يسيل المداد غزيرا على صفحات القرطاس. أما بحلول فصل الشتاء الأمريكى، الذى كان فيه الثلج يغطى سور المزرعة ويعطل العمل فى الحقول، فكنت تراه يقبض بأصابعه المكدودة على الريشة يكاد يفعصها وهو عاكف على كتابة صفحة فى إثر صفحة، واستبدال ورقة بورقة، وهلم جرا- ويظل على هذا الحال حتى يهل الربيع ويصرخ الحقل بإلحاح فى طلب المحراث. وكانت رسائله تصل عادة فى عيد القيامة إلى مقر المدرسة القابعة فوق تلة، إلا أنها لم تكن تصل فرادى بل مجمعة فى لفافات كبيرة. وبدأت التقارير التى تروى قصة حياته تترى. بعدما تحقق حلم اليقظة الذى طاف بخاطره ذات يوم عندما تذكر نبى الله يعقوب أثناء انغراس قدميه فى منطقة الرمال الواقعة خلف قرية "هورن-كاتن" أى بعدما بلغت قيمة مزرعته، محسوبة بالعملة الألمانية آنذاك، خمسة أصفار على يمين العدد الصحيح. وكان لا يحيد فى مدوناته عن النهج الذى رسمه لنفسه باتباعه وصية معلمه السابق أن يراعى تسلسل الأحداث حسب وقوعها.

ومع هذا فلم تكن نصوص الرسائل رغم ما تضمنته من جاذبية فى الرواية وجزالة فى الأسلوب فى وضع يسمح بالزج بها إلى المطبعة قبل تحقيقها وإدخال التعديلات اللازمة عليها. إذ تطلب الأمر حذف بعض ما ورد بالمتن من هنات التكرار والإعادة، فضلا عن نقل بعض الفقرات من موضع لآخر عند انحرافها عن السياق العام للرسائل. كما تضمن النص- نظرا لما اعتور تقاطر السرد من تقطع - أشتاتا من التضارب والغموض ألقت هنا وهناك بظلال قاتمة على الصورة التى أراد كاتب الرسائل رسمها. ناهيك عن ظهور ثمة ثغرات شابت سلاسة العرض، نظرا لتكرار البدء فى كتابة الخطابات على فترات متقطعة ارتبطت بكثافة العمل الزراعى خلال فصول العام. ومن ثم فقد توخيت الحذر الشديد فى محاولة إزالة الظلال، وملء الثغرات وتكملة الحلقات الناقصة فى سياق التقارير

التى تناولت عرض الظروف الحياتية والاقتصادية للنازحين إلى أمريكا. وقد استقيت المعلومات التكميلية إما من أفواه المهاجرين أو من البيانات المدونة برسائلهم. وكانت العناية الفائقة بشكل ومضمون الرسائل الخطية الأصلية، هى المقياس والهدف والأسلوب الذى اتبعته فى مراجعة المخطوطات وفى إجراء التعديلات، بحيث تمحورت مهمتى حول الالتزام برسم صورة واضحة وأمينة عن حياة "يورن- ياكوب سفين"، صورة حية وبلا رتوش عن ذلك الرجل وعن إنجازاته.

"يوهانيس جيلهوف"

الفصل الثانى

الإبحـــار إلـــى أمريكا

الصديق العزيز ومعلمى المبجل! يطيب لى أن أمسك بريشة الكتابة لأخبرك بأننا ما زلنا فى خير صحة وعافية، ويحدونا الرجاء أن تكون فى أحسن حال بالمثل. ونزولا على رغبتك أبدأ الآن رواية قصتى عن فترة عملى كمزارع، فضلا عن وصف مشتملات مزرعتى من مسكن، حوش داخلى، حقول ومواشٍ. وسوف أعرفك بالأصدقاء الأوفياء وبالجيران المخلصين. كما سوف أراعى كل تلك الأمور الواردة بالطُّلبة الرابعة من الصلاة الربانية[١]. ويالها من مهمة صعبة حقاً أن

---

(١) الطلبة (بضم الطاء) هى طلب الشيء من الله، هى استجداء بالدعاء وعبادة بالتضرع إليه. " الصلاة الربانية " وردت بإنجيل متى ٦ : ٩-١٣، ونصها : " أبانا الذى فى السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم. واغفر لنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا ولا تدخلنا فى تجربة، لكن نجنا من الشرير، لأن لك الملك، والقوة، والمجد إلى الأبد. آمين"

يشرح المصلح الدينى ومؤسس " البروتستانتية" " مارتن لوثر" (١٤٨٣- ١٥٤٦) تلك الصلاة فى مؤلفه "الكاتيشزم الصغير" الذى يعرف بـ "الإيمان الإنجيلى"، أو "تعليم أصول الدين بالسؤال والجواب" ونظرا لتكرار عبارة "كاتيشزم" بهذا الكتاب، يقدم المعرب مثالا مختصرا لطريقة "لوثر" فى تفسير الطلبة الرابعة: إنجيل متى ٦: ١١ "خبزنا كفافنا أعطنا اليوم "

لوثر : ماذا يعنى ذلك ؟

كذلك يرزق الله الخبز اليومى للخلق كافة بدون سؤال. لكننا نتضرع إلى الله فى هذه الصلاة بأن يجعلنا ندرك بالحمد تلقينا لخبز يكفينا لهذا اليوم.

لوثر : ما معنى خبز يومنا إذن ؟

هو كل ما يتصل بغذاء الجسد إضافة إلى حاجات الإنسان، مثل: الأكل، الشرب، الكساء، الحذاء، السكن، المزرعة، الحقل، المواشى، النقود، المتاع، الزوج الصالح، الأطفال المطيعون، الأتباع النافعون، أولو الأمر

أسجل قصة حياتى على الورق. صحيح أننى مازلت قادرا على نتع زكيبة ذرة زنتها ٢٠٠ رطل على كتفى، لكن يدى المعروقة الجافة بأصابعها الغليظة لم تعد تسعفنى فى كتابة الحروف الأبجدية بوضوح. ومع هذا فبوسعى تخطيط الأرض بالمحراث وشق التربة فى خطوط تضاهى فى استقامتها تلك المرسومة بالمسطرة. لكن هيهات لرجل عجوز مثلى، أوشك على أن يكون جدا، أن يؤتى القدرة على كتابة الكلمات فى سطور مستوية لا اعوجاج فيها.

إنى أدرك كل شئ منذ البداية، وأمتلك ناصية النظم والرواية. ولو قُدِر للحشائش الكثيرة التى سبق نموها فى المرعى، وتم حشها مرة بعد مرة، وغمر أرضها فيض من الماء فى المواسم، فهيهات أن تغطى الحشائش الغُمْرُ على ذكريات الماضى المتوقدة فى ذهنى، ذلك لأنها من الأشياء التى لا تخمد جذوتها المياه. لقد قصصت علينا بالمدرسة أمورا من هذا القبيل، فحازت على اهتمامى، ونقشت فى ذاكرتى. لكنه ما أطول الطريق الواصلة بين الرأس والقلم، لو علمت أن لريشة الكتابة ساقا طويلة هزيلة كثيرا ما يقصفها ثقل اليد، مخلفا من ورائها بقعة حبر تفترش الورق. ويلوح لى أن عهد الكتابة بريشة طائر قد ولى. ومع هذا فأنا حريص على إتمام المحاولة، خاصة وقد أصبح عندى فسحة من الوقت بعد أن تولى ابنى الثانى شئون المزرعة.

وإذا لم أتمكن من إنجاز المهمة خلال الشتاء الحالى، فلن يفرق الشتاء القادم بينى وبين المحبرة. أما إذا تعذر عليك قراءة فقرة من رسالتى، فالتمس لى العذر بقولك: آه، لقد عانى الكثير من المشقة فى حياته، ولعله التبس عليه التمييز بين حفنة من الحروف الهجائية. وإذا وجد عذرى عندك حسن القبول، فاقفز ببصرك فوق عثرة خطى، تماما مثلما كنت أفعل أنا عندما كان المحراث يتعثر فى إحدى قرم الأشجار المقطوعة.

الصديق العزيز، أفضى إليك بأننى عاشق للكتابة وتغمرنى ممارستها بالابتهاج. وكم يتوق الإنسان إلى البهجة والسرور عندما تسمح بذلك الظروف. أما إذا تقدمت بالمرء السنون، فليحذر حتى لا تتخطى البهجة عتبة بابه، بل عليه أن يسارع بفتحه لها مرحبا بها وهو يدعوها إلى الدخول بقوله: أيتها البهجة امكثى عندنا ولا تبرحى دارنا، فشمس العمر كادت إلى المغيب تؤوب، والنهار قد استدار إيذانا بأن يرخى الليل السدول. أما عندما يكون المرء فى عنفوان شبابه، فلا يكون بحاجة إلى دعوتها، لأن البهجة تعرف الطريق للوصول إليه، ولا يعوقها فى سبيل لقياه عائق حتى لو كان لداره سور فتتسوره لإسعاده.

قام بحجز تذكرة السفر "دانكرت" التاجر بمدينة "لود فيجزلوست" وقال إن ثمنها حتى نيويورك ٢٩ تالر(١)، لكنى فاصلت فى الثمن، وتمكنت من تنزيل تالر. فقد بدا لى ثمن التذكرة باهظا، لو علمت أن أبى كان من أكثر عمال اليومية بالقرية فقرا. دَبَّقْتُ الجزء الأكبر من المبلغ من عملى كصبى أجير(٢) طرف فلاح من ملاك الأرض الميسورين، إذ التحقت للعمل بضيعة "هانيورن تيمرمان" بتعاقد لمدة ثلاث سنوات، حتى أتمكن من الحصول على ٢٧ تالر من ثمن التذكرة، وهى بالتمام والكمال حاصل ضرب ٣ × ٩= ٢٧. ومن يومها وأنا حريص فى كل معاملاتى على الالتزام بقواعد الحساب، خاصة وأنه يجرى العمل بجدول الضرب فى أمريكا أيضا. هذا وحتى لا أغمط صاحب العمل حقه، فقد أهدانى سترة زيادة على الأجر المتفق عليه.

---

(١) " تالر" عملة ألمانية قديمة سميت "عملة الرايخ" (٢٥,٩٨٤ جرام فضة) بين القرنين الـ١٦– ١٨. وكان المارك من الفضة الخالصة يعادل ١٦ تالر فى بروسيا . ولستبدل التالر فى عام ١٩٠٨ بقطعة العملة الفضية ذات الثلاثة ماركات (١٥جرام فضة). وجدير بالذكر أن تالر(ريال) ماريا تريزا النمساوى كان عملة متداولة باليمن حتى عهد قريب (المترجم).

(٢) "كلاين كنيشت" فى الأصل، هو الصبى الذى كان يعمل أجيرا فى الزراعة طرف فلاح من كبار ملاك الضياع أو متوسطيهم. وكان مصطلح "كنيشت" يعنى فى العهود الماضية "قن" أو ما يشبه العبد وهو ضد الحر. وأصبح يستخدم بمعنى صبى أو عريف أو مساعد. وقد اندثر هذا المصطلح بزوال الإقطاع. (المترجم)

وأظن أن الأجر السنوى للرجل اليافع الذى يعمل أجيرا[١] يناهز عندكم اليوم ٤٠٠ مارك عدا ونقدا. هذا بخلاف تعهد صاحب الضيعة بحرث وتسوية ٣٠٠ روتة[٢] من أرض والد الأجير، نظير عمل ابنه طرف الغير.

ومع هذا فلا يتبقى من الأجر شيء فى جيوب الأجراء. أما عندنا هنا فى المزرعة فى أمريكا فيحصل الأجير على ١٠٠ دولار فى الشهر علاوة على جراية من العلف تكفى لإطعام حصان (بمراعاة أن المزارع الأمريكية مترامية الأطراف- المترجم) وقد جرى العرف على تسمية العامل الأجير "يد مزرعة" (فارم هاند). ومع هذا فياليت المرء يعثر على أنفار، سواء لقبوا أجراء أو أيادى مزرعة. وما ينطبق هنا على الأجراء ينطبق أضعافا مضاعفة على الأجيرات.- كنت قد استلفت خمسة تالر من جارينا "كون" العجوز و "كارل بوزاكر" لكنهما لم يطالبانى بتحرير إيصال. وبذلك دبقت المبلغ المطلوب ثمنا للتذكرة وفوقه بضعة شلنات[٣] إضافية تحسبا للطوارئ. وحتى لا يقول الأمريكان عنى: لقد جاء إلينا خالى الوفاض وليس فى خُرجه قطعة واحدة من العملة النحاسية، مثل أحد صبيان الحرفيين من أبناء السبيل[٤].

جُبْتُ فى أنحاء القرية لتوديع المعارف. وأنجزت هذه المهمة بسرعة. ثم جاء الدور على أمى. لكن توديعها لم يتم بهذه السرعة. قالت:

---

(١) فى الأصل "جروس كنيشت" وقد زال ذلك المصطلح بزوال الإقطاع وبداية زحف عصر التصنيع فى أعقاب الثورة الصناعية فى أوروبا القرن التاسع عشر.

(٢) ٣٠٠ روتة تعادل حوالى فدان ونصف الفدان (علما بأن الروتة حوالى ٢١ مترا مربعا) وهذا المصطلح لم يعد مستعملا.

(٣) قطعة من العملة المعدنية القديمة تسمى "شيلينج" (شلن). جرى التعامل عليها اعتبارا من القرن الـ١٧ فى شمال ألمانيا شرقى نهر " الإلبة" وكانت قيمتها نحو ثلث تالر.

(٤) كان على الصبى حتى يصبح عريفا فأسطى أن يطوف فى أنحاء البلاد لاكتساب المهارة وإتقان الصنعة على أيدى أرباب الحرف المرموقين خلال رحلة التكوين المهنى سيرا على الأقدام، وكان الصبى عادة خاوى الوفاض "من أبناء السبيل".

- "طيب. خلي بالك ومتنسلش تكتب عن أحوالك. وحرَّصْ على قمصانك وشرباتك وعلى فلوسك علشان متضيعش منك. وإوعى تنسى صلواتك".
ثم وجهت كلامي لأخي فقلت له:

- احْرِص على رعايتها عندما يتقدم بها العمر. وسوف أرسل لك نقودا حتى تتمكن من وقت لآخر من شراء قطعة من اللحم لها في أيام الأحد، وحتى تقتنى لها شالا من الصوف يدفئها في الشتاء.

ورد أخي قائلا:

- "ما تحملش أي هم من ناحيتها، والمهم إنك تخلى بالك من نفسك علشان البحر ما يغرقش المركب"[1].

وما كدت أنتهي من طقوس الوداع حتى حملت الخُرج فوق كتفي، وأخذت بيميني عصا أبي المصنوعة من خشب البلوط، والتي سميناها "عصاة نهارك سعيد" فأبي لم يعد بحاجة إلى عصا يتوْكأ عليها بعد أن مضى عن دنيانا في آخر رحلات عمره.

أمسكت بعقفة العكاز إيذانا بالرحيل ثم هرعت لا ألوى على شيء في الطريق المؤدية إلى مدينة "لودفيجزلوست". وقفت أمي أمام باب الكوخ وقد تسمرت في الأرض قدماها واضعة يديها تحت المئزرة (المريلة) في استسلام ونظراتها تقتفى آثار أقدامي.

يا إلهي إني لم أرها ثانية منذ ٣٢ عاما.

خلَّفت من ورائي قرية "هورن كاتن"، وإذا بي أُجَرْجِر أقدامي الغائصة في كثبان الرمال الناعمة أثناء صعودي عِلْوَة "ليبر برجين". ووقفت هناك بلا حراك لأستريح. وكان "هانيورن" الفلاح العجوز قد اعتاد على الاستراحة في هذا المكان

---

(١) في الأصل يقول الأخ مازحا: "علشان الميه متبلش القبقاب".

عند اجتيازه ذلك التل الرملى راكبا "الكارتة" لكى يسترد والحصان أنفاسهما. لكنه كان يقف بجوار العربة فينظر من حوله فى بطء وتمهل وكأنه يتحسس ببصره الكثبان الرملية التى طالما أعياه اجتيازها، ثم تسمعه يهامس نفسه متنهدا ليقول: إنها مشيئة الرب أن تكون منطقة الرمال القفراء هذه على هذا النحو من الوعورة. وكان ما يكاد ينتهى من عتابه المكتوم حتى يرفع عقيرته قائلا: "حا!" ثم يواصل المسيرة. أرجوك يا صديقى أن تقرئ ابنه سلامى عندما تراه.

وقفت بدورى فى هذا الموقع القحل ثم استدرت الى الوراء لأخاطب نفسى هامسا: "يورن- ياكوب سفين" لقد مشيت فى تلك الطريق من قبل ٥٠ مرة أو يزيد أما اليوم فالظروف جد مختلفة عن سابقاتها. تُرَى ماذا سيكون مصيرك ؟وإلى أى مدى سوف تتغير أحوالك فى ذلك البلد الغريب عليك؟ لقد هاجر قوم كثيرون من قبلك إلى أقطار أجنبية، وما لبثوا أن أَذْرَتْ آثارهم الرمال، وطوت ذكراهم الأيام. لقد تلقينا على يديك بالمدرسة، أن نبى الله يعقوب قد شد الرحال بالمثل الى حاران. لكن يعقوب لم يكن بحاجة مثلى إلى عبور المحيط الأطلسى المعروف ببحر الظلمات. ولاح لى أن غاية ما يمكننى تحقيقه هناك هو أن أعود إلى مسقط رأسى وأنا أهش على قطيعين من الأبقار، أو حتى على قطيع واحد يناظر الاثنتى عشرة رأسا التى يمتلكها " كارل بوزاكر". وما كدت أفيق من حلم اليقظة هذا الذى داعب مخيلتى، حتى وجدتنى أوجه كلامى إلى خُرجى بقولى: هيا بنا لنعود الى مواصلة الرحيل. حدث هذا فى عام ١٨٦٨. وكنت آنذاك أناهز التاسعة عشرة من عمرى أما موعد إقلاع السفينة من ميناء "هامبورج" فكان يوم ٢٠ يولية (تموز).

وصلت إلى "هامبورج" حاملا الخرج فوق ظهرى. ثم دلفت إلى مبنى الهجرة لاستيفاء إجراءات السفر المتبعة. وكان على المهاجرين أن يدفعوا رسوما تجبى منهم بالإكراه. كما كنت مضطرا لشراء جرة مملوءة بالروم من صاحب الحان الملحق بالمبنى، إذ أوعز إلىّ بشرائها قائلا: هذا وإلا قَضَى نحبك أثناء ركوب البحر. وكان له ما أراد، نظراً لأننى لم أكن أريد الموت وأنا فى التاسعة

عشرة من عمرى، كما كنت مصمما على بلوغ أمريكا مهما كلفنى الثمن. وكذلك وصل إلى مبنى الهجرة المهاجرون الآخرون، لكن معظمهم فضل ركوب عربات نقل البضائع التى كانت مكتسة عن آخرها بالصناديق والزكائب، وتربع من فوقها حشد من الناس يزيد على ٣٠ أسرة بالإضافة الى عدد كبير من الأنفار. كان معظمهم من بلدياتنا ويتحدثون لهجة "ميكلينبورج" الإقليمية[١]. هذا بخلاف طائفة من الألمان تحدثوا اللغة الألمانية الفصحى علاوة على عدد من الأجانب. ازدحم مبنى الهجرة بالناس ولم يبق فيه موطئ لقدم. وبذلك جلسنا فوق الصناديق والأجولة، بينما أنشدت مجموعة من أهالى إقليم "شيليزيا"[٢] أغنية تقول إن "كريستوفر كولمبس"[٣] الذى كشف العالم الجديد هو الذى أحضر شتلات البطاطس إلى ألمانيا:

كولمبس أمير البحر الهمام

جـاء قبـل مـائتى عـام

مـن ألمانيا إلى أمريكا هلم

بحثا عن بطاطس الطعـام

---

(١) لهجة شمال ألمانيا (بلات– دويتش) التى يتحدث بها العوام، مثلا فى هامبورج، ميكلينبورج وبوميرانيا البولندية أى بمناطق ألمانيا الشمالية المنخفضة والمطلة على البحر. وقد يختلف نطق اللهجة من مكان لمكان، كما أنها تختلف عن الألمانية الفصحى، لغة الكتابة. ويشتمل هذا الكتاب على فقرات عديدة بلهجة أهل الشمال عربنا بعضها إلى اللهجة المصرية لتنوعها.

(٢) كانت "شيليزيا" منطقة جرت بسببها ٣ حروب فى القرن الـ١٨ بين بروسيا والنمسا. وأصبحت بعد الحرب العالمية الثانية بولندية.

(٣) من المعروف أن كولمبس كان إيطاليا من جنوة، قام بمعونة ملكة إسبانيا " إزابيلا" بأربع رحلات (بين ١٤٩٢و١٥٠٤) استكشف فيها القارتين الأمريكيتين، ولم يكن يدرى أنهما تقعان بين آسيا وأوروبا.

لم أعد أحفظ إلا ذلك المقطع من الأغنية. وأغلب الظن أن ما ذكرته منها ليس صحيحا تماما لاعتقادى أن النص الذى ورد بكتاب المطالعة كان مختلفا. ومهما يكن الأمر، فلم تستطع مجموعة الإنشاد مواصلة لحن البطاطس إلى نهايته، لأن المشرف على مبنى الهجرة هددهم بالطرد إلى خارجه. سكتوا، وعاد الهدوء إلى المكان. وأثناء الإبحار لم يصدح صوتهم بالغناء إلا فى بداية الرحلة فقط. أما بعد ذلك فقد انتحى كل منهم ركنا، وراح فى "تعسيلة" وشرود ذهن. وهكذا قضوا أسابيع الرحلة فى إغفاءة النعسانين. صعدت على سلم الباخرة الإنجليزية ساعة احتساء القهوة وأنا أحمل الخرج والجرة. وجاء أحدهم فى الساعة الحادية عشرة قبل منتصف الليل حاملا فى يده فانوسا. أبرزت له جواز السفر. قال: "كويس"، إنك فى التاسعة عشرة. قدم له قروى من قرية " كونسلين" تصريح المواطنة وبعد أن فحصه قال: عظيم. ألقى نظرة على شهادة ميلاد الخياط من قرية "دوميتس" وقال: "عال". ووجد أن تصريح عمل ابن قريتنا "الشاخص إلى السماء": تمام، رغم مُضِى ٥ سنوات على استخراجه. وعندما جال جولته ألقى علينا نظرة ودودة ثم قال: ما باليد حيلة، إنه أمر لا بد منه. إذ ينبغى تحصيل دولارين من كل واحد منكم! وهكذا دفع كل منا دولارين. هل تعرف ماذا أظن؟ أعتقد أن ذلك الرجل انتحل صفة شرطى. وقد ذهبت نقودنا أدراج الرياح على أى حال.

أقلعت الباخرة فى الثانية بعد منتصف الليل واخترقت نهر "إلبه" فى انحداره نحو المصب. نمتُ فوق سطح الباخرة، ونعرت الثيران فى الطابق التحتى. بلغنا بحر الشمال قبيل منتصف النهار. إننى لم أر فى حياتى بحرا بهذا الاتساع. الصديق العزيز، أصدقك القول بأن بحر الشمال مترع بماء كثير، يكفى لغمر كثبان "هورن كاتن" الرملية، ومثيلتها بمنطقة "بوكوب"، وذلك دون أن ينفد ماؤه، بل يفيض ويكفى لكى يغطى كذلك مروج الخلنج الكاسية بلونها البنفسجى رمال إقليم "لونيبورجر هايده". ومع هذا يظل ذلك البحر على حاله بدون تغيير أو نقصان. هكذا وكأنك تأخذ نقطة ماء واحدة من حلة الغسيل الكبيرة التى عندكم وهى مملوءة

عن آخرها بالماء فتبدو وكأنك لم تأخذ منها أى شئ. وأغلب الظن أن هذه المياه هى ما تبقى بعد انحسار طوفان نوح العظيم. يا إلهى، ماذا تفعل كل هذه المياه هنا؟ وأى كميات من الشعير يمكن زرعها وحصادها لو صلحت لاستخدامها فى الرى!

كان بحر الشمال هادئا، ولكن فى مطلع الأمر فقط. إذ هب نوء، فماج ولج وهاج أزبد، وظهرت للموج رؤوس بيضاء جعلت باخرة البضائع تضطرب وتميل على جانب ثم تتعدل من جديد لتميل على الجانب الآخر، وكأنها بقرة عشار أوشكت على ولادة عجل، ولكنها عجزت بسبب عسر الولادة عن أن تضع حملها. وكان معنا على ظهر المركب رجل "متقمع" متحذلق من "هامبورج" درج على التحدث باللغة الفصحى، كما اعتمر"قبعة سلند" تشبه ماسورة الفرن، لكنه أفرط فى الشراب. ولما شعر بالإعياء، انحنى فوق سور السفينة طلبا للتقيؤ، وفى لمح البصر طاح الريح بقبعة الرسميات وعامت مع الموج فى رحلة اللاعودة. ضحكنا ملء فينا لذلك الحادث الهازل. وما لبث أن عاد بعد هنيهة وعلى رأسه قلنسوة، ذكرتنى بتلك التى عرضها للبيع "كولمورجين" من قرية " جرابوف" فى ظلته بسوق القديس مارتين بقرية "إلدينا" وقد بلغ ثمنها، إذا لم تخنّى الذاكرة، ١ شلنا. ولما بدأ تلاطم الأمواج بعد انتصاف النهار، مالت السفينة بشدة على جانبها، فاختل توازنى لأتهاوى على أرضيتها مستلقيا على ظهرى، ودارت بى الدنيا، وشَعَّ شواظ كالصواريخ من عَيْنَىَّ. وترامت إلى أسماعى على حين غِرَّة ضحكات جماعية ساخرة صاخبة من حولى . لكن الانبساط لم يمهلهم طويلا، إذ تحتم علينا جميعا النزول إلى السطح السفلى للسفينة وصفقوا الباب من خلفنا. وهناك مخرت السفينة ونعرت الثيران وأجهشت النسوة فى البكاء، وبسبب دوار البحر حشرالركاب رؤوسهم فى الدلاء وتوجه البعض إلى الله بالابتهال والدعاء. وبدا حالنا فى جوف السفينة، مثل حال يونس فى بطن الحوت. وأنا على هذا النحو من الكرب، لمع بذهنى خاطر كالبرق، وكأننى أرى الكثبان الرملية فى "ليبربيرجين" رأى العين. قلت لنفسى: إن الإنسان ليقف هناك على الأقل فوق أرض صلبة تمنحه أمانا يفتقده

فوق لجة الماء. فإذا كان قدره أن يموت على اليابسة ثم يدفن فى أديمها، فإنه يستطيع على الأقل رؤية جذور البطاطس والشعير وهو فى مرقده تحت الثرى. أما عن نفسى فإننى أفضل الموت وأنا على البر على الموت غرقا فى البحر وأنا على متن سفينة كهذه تحمل ٨٥ ثورا. خطر بروعى أن ساعة الموت قد دنت، وأنه بات علىّ أن أودع أمل حياتى فى امتلاك قطيعين من الأبقار. وبعدم تحقيق الهدف المأمول تضيع كذلك على "كون" العجوز و"كارل بوزالكر" فرصة استردادهما لمبلغ الخمسة تالرات الذى اقترضته منهما، نظرا لأنهما لم يتسلما منى إيصالا بالدين.

صعدت فى المساء إلى سطح السفينة فرارا من الجو الخانق والروائح الكدرة التى خيمت على الدور السفلى وانتشرت فى أرجائه. وهناك قضيت ساعات الليل. صحيح أن الليل كان حالك السواد، إلا أنه كان منعشا يبرد الروح، وهو ما جعلنى أشعر بالراحة فى هذا المكان. ولما استجمعت قواى خطر ببالى أن أمك كانت قد عطفت علىّ ذات مرة عندما كنت صغيرا. إذ أهدتنى ١٥ حبة جوز بمناسبة أعياد الميلاد، فسعدت بها لخلو بيتنا من "عين الجمل". كما تذكرت بالمثل أنك أهديتنى فى أحد فصول الخريف القارسة البرد حذاء برقبة، كان قد صغر عليك، لكنه كان على مقاسى. لقد تيسر لى استعماله لمدة طويلة حقا نظرا لمتانته.

انداح وجه الشمس وأظلم النهار ثم أضاءت المهاة بشعاعها المنشور نهار يوم قادم، لكنه كان يوما عاصفا. لمحت صاحبتنا القادم من هامبورج ذا القلنسوة وهو يطل برأسه ثانية من فوق سور السفينة. وبعد هنيهة طارت القلنسوة أدراج الرياح. وما لبث أن عاد وعلى رأسه طاقية ذات شرابة . طاقية زرقاء "مقلمة" بخطوط بيضاء ذكرتنى بطاقية جد "بوزالكر". وصلنا على هذا الحال إلى مرفأ "جريمسبى" الإنجليزى. كانت عيون رجل الجمارك تراقب ركاب السفينة. وإذا به يقترب منى ليسألنى: ماذا يوجد بهذه الجرة؟ أجبته قائلا : فيها روم حتى لا أموت أثناء عبور المحيط. لكنه بادرنى بالقول : هذا يكلفك شلنا رسما جمركيا، لا، لن أدفع ذلك الرسم. لا بل لا بد من تسديده هنا وإلا لن أسمح لك بمغادرة المركب.

تمتمت في تحد وأنا أقول: طيبيه وسوف ترى. وما كدت أتفوه بهذه العبارة حتى أفرغت كمية معتبرة من الروم في حلقي ثم تولى الآخرون تجرع ما تبقى من الروم بالجرة. قلت له: والآن أعتقد أنك تشاركني الرأي في أنه لم يعد هناك سبب وجيه يمنع مرورنا، ذلك لأنه لا يجوز فرض الجمارك على ما في البطون. زعق فينا وعنفنا، بينما رحنا نتبادل الضحكات والأفاكيه. ثم سمح لنا بالنزول مضطرا.

واصلنا السفر بالقطار إلى "ليفربول". "ويا حفيظ" من سرعته الجبارة. لقد حسبنا أننا سوف نلقى حتفنا حتما قبل بلوغنا البحر لنواصل رحلتنا إلى أمريكا. لمحت أبا طاقية القادم من "هلسيبورج" وهو يطل برأسه خارج شباك القطار. وفي لمح البصر طارت الطاقية في الهواء. قلت له مازحا : لو كنت قد اشتريت الطاقية نمرة أكبر لثبتت على الرأس وما طارت! والآن سوف تصل إلى "ليفربول" حاسر الرأس وهو أمر لا يليق. ماذا سيقولون عنك عندما يرونك بلا غطاء رأس؟ كان رفيق السفر من قرية "دوميتس" ميسورا، ولهذا لم ينتظر، واستقل سفينة بخارية بعد وصول القطار مباشرة. أما أنا فلم يكن لدي نقود، ولذا اضطررت للانتظار، لأن السفينة الشراعية التي حجزت عليها تقلع مرة كل أسبوعين. لكنني رأيت الكثير وتعلمت أكثر خلال فترة انتظاري، كما قمت بأعمال مؤقتة وتقاضيت لقاء عملي ثلاثة أنصاف تالر.

وأخيرا وصلت السفينة الشراعية. وعندما وقع عليها بصري بدأت أتفحصها فوجدتها قديمة متزعزعة . سألت نفسي بصراحة : إذا وصل هذا المركب الخشبي الذي نخره السوس إلى أمريكا سليما، فإن نجاتنا تكون بإرادة الله وحده وبفضل عنايته. ساورني شك عظيم أن يساعد الروم كثيرا على النجاة فوق ظهر تلك السفينة. استقل السفنية نحو ٤٠٠ راكب معظمهم من الأيرلنديين. وسرعان ما تولى رجال النوبة توزيع التعيين من المواد الغذائية . وكانت عبارة عن: رطل سكر ورطل شاي، وأسر في أذنك بأنني رأيت الشاي في بيتكم لأول مرة في حياتي، ولكني لم أكن قد تذوقته بلساني بعد. هذا بخلاف رطل من كل من الأصناف

التالية: الأرز– دقيق القمح– اللحم المملح– البسكويت – البقسماط. وتجدر الإشارة الى أن البقسماط كان من الصلابة بحيث اضطررنا لتجزئته بالدق عليه بالمطرقة. وكان البعض يستخدم كعب الحذاء لهذا الغرض.

كان للأيرلنديين سابق خبرة وإلمام بكل شيء، ولذا أحضروا معهم أكياسا صغيرة ليحفظوا فيها المواد الغذائية. أما أنا لم أكن على علم بأى شيء، ولذا لم أحضر معى أكياسا، ولم يكن عندى إلا القبعة. أفرغوا كل شيء فيها، فوقع على الأرض ما لم تستوعبه القبعة. قمت بلم ما وقع ورحت أدسه فى جيوبى. وكذلك وزعوا علينا مع كل طلعة شمس ربع جالون من الماء العذب لرى العطش. وكان من يتدافع ليسبق الآخرين فى الحصول على نصيبه قبل حلول دوره يضربونه بالعصا. كان الأيرلنديون يعرفون هذه التعليمات، ولذا وقفوا فى هدوء لا يحركون ساكنا. ولما هممت أنا بخفة لأتخلع من الطابور قليلا، رافعا ذراعى فى الهواء لكى أستدير بكتفى، فوجئت بصبى الطباخ يتهاوى على الأرض. لم تكن عواقب ذلك الحادث غير المقصود سليمة. فقد عاقبنى صبى الطباخ عندما قام بتوزيع التعيين فى المرة التالية، فتخطانى ويدى ممدودة بالقبعة التى تركها فارغة.

توسط المطبخ سطح السفينة، وكان له بابان من جهتين مختلفتين. وجرت العادة على أن يضع كل منا الإناء الصاج الخاص به عند الباب المخصص لذلك وفيه حفنة إما من الأرز، الدقيق، اللحم المملح، أو الشاى. ثم كان عليه الانتظار عند الباب الآخر إلى حين خروج الإناء. وكان من يتجرأ على أن يسترق النظر إلى ما يجرى بداخل المطبخ يعرض نفسه لعلقة ساخنه بيد المكنسة. وعلى هذا النحو التأديبى تعلمنا كيف نحترم اللوائح والتعليمات. الصديق العزيز، أحيطك علما بأننا قد تعلمنا احترام التعليمات بهذه الطريقة العنيفة المرة تلو المرة. هذا مع أننا لم نكن قد كابدنا الجوع بعد.

لم يكن بالمطبخ سوى كانون واحد من الحديد، حجمه ٣×٣×٣ قدم، علاوة على ٤٠٠ إناء من الصاج يشابه بعضها البعض ونظرا لتفشى ظاهرة سرقة أوانى الأكل بين الركاب، فقد آثرت الفتك برطل اللحم المملح نيئا بعد استلام التعيين فورا، وتطلب أكله بالطبع نزع كبار الديدان منه أولا، ذلك لتعذر سرقة اللحم بعد التهامه، وقد اضطررت ذات يوم للصوم عن الطعام لمدة يومين كاملين، ثم طبقت وردية الجوع اليوم الثالث على التوالى بعد تكرار الاستيلاء على إنائى بما فيه من الغذاء، شعرت بالهوان وبؤس الحال، وإذا بى أقول لنفسى فى همس مُلِحٍّ : هل أتضور جوعا وأعانى من الحرمان على مدى يومين كاملين ثم "يساهوننى" ويسرقون ما كنت سأتقوت عليه فى اليوم الثالث على التوالى؟ إنه وضع مرفوض بدون أدنى شك وأمر يستحيل احتماله. ويلوح لى أن مراعاة الأمانة على ظهر هذه السفينة أصبحت لا تكفل الشبع لإنسان يعانى ملهبة الجوع ويعيش على لحم بطنه.. كما سيترتب على الالتزام بالوصية السابعة[1] قطعا أن تموت من الجوع قبل وصولك إلى نيويورك. وهكذا تشجعت واستوليت على أول إناء خرج من باب المطبخ والتهمت ما به من الأرز، ثم ألقيت بالإناء الفارغ فى البحر، تماما مثلما كان يفعل الآخرون. وكذلك دفعنى الجوع ذات مرة إلى الفتك بنصيب يهودى بولندى من لحم الخنزير، نظرا لأن عقيدته تحرم عليه أكله.

كانت تغمرنى السعادة عندما يكون الغذاء ساخنا فى إنائى. لكن الإناء لم تمسه نار إلا ثلاث مرات خلال ١٧ يوما. ومع أن تلك الوجبات الثلاث لم تكن

---

(١) الوصية السابعة (لا تسرق) بحسب ترتيب " لوثر" هى أحد ثمان من الوصايا العشر من نوع "لاتفعل" راجع : الكتاب المقدس، سفر الخروج ٢٠: ٢– ١٧ . ويشرح "لوثر" فى كتابه "الإيمان الإنجيلى" النص الناهى عن السرقة " لا تسرق" على أساس ثمانية أسئلة والإجابة عليها باستفاضة. ويكتفى المعرب بتعريف القارئ بالديباجة التى تتضمن مفتاح التفسير للوقوف على ما يفهمه مؤلف الكتاب تحت هذه الوصية بوجه عام. يقول " لوثر" محبة الله ومخافته فرض علينا، فلا نستحوذ على ما للجار من مال أو متاع بغير حق، ولا نتحايل للاستيلاء عليه بالتربح عن طريق سلعة مغشوشة أو بواسطة الغش التجارى بل علينا العمل على تحصين وحماية متاع الجار وغذائه– الكاتيشزم– مصدر سابق صـــ٧٣.

مطبوخة، إلا أنها كانت على أى حال دافئة وتنالت شيئا من رائحة المطبخ. استغرقت الرحلة مدة ٧ أسابيع ويومين، لكن الحظ صادفنى اعتبارا من اليوم الـــ١٨. الصديق العزيز، لقد كان لكبير الطباخين عريف يعاونه فى عمله، ولما توعكت صحته، قام باستدعاء الربان الذى كان فى الوقت نفسه طبيبا وصيدلانيا كما جرت عليه العادة آنذاك.

حضر أمير البحر للكشف عليه، وما لبث أن بادره بالسؤال:"حاسس بإيه ؟". أجابه بأنه لا يعرف. عاد الربان يسأله: ماذا يؤلمك ؟ لكنه ما زال لا يعرف. رماه الربان بعينيه الفاحصتين ثم استغرق فى التفكير دون أن يتوصل إلى تشخيص لحالته. وبعد إمعان فى التفكير، توصل إلى تشخيص لمرضه فى نهاية المطاف. التفت الى المريض قائلا : سوف أعطيك العلاج رقم ١٣ من أجزاخانة العقاقير. توجه إلى خزانة الأدوية. لم يعثر فيها على أى أثر للدواء رقم ١٣. تأوه معاون الطباخ من "المواجع" التى تضنى جسده. استشعر الربان برقة قلبه وبإشفاقه على المرضى. استغرق فى التفكير وهو فى شرود بال، وإذا به يقول لنفسه: يجب عليك أن تساعد ذلك الإنسان المسكين، فمهما يكن فهو من طاقم السفينة. لكنه وقع فى حيص بيص وأصبح لا يدرى ما الذى يستطيع عمله بعد أن نفد الدواء رقم ١٣. وأخيرا هداه تفكيره إلى أن يقوم بمزج رقم ٦ مع رقم ٧ لأن حاصل جمعهما هو ١٣ مثل رقم الدواء الذى نفد. أعد المزيج لعلاج المريض. ولكن ماذا جرى لمعاون الطباخ بعد تعاطيه لجرعات منه ؟ هذا هو ما سوف أقصه عليك. ما إن اتبع معاون الطباخ تعليمات الربان وواظب على تناول المزيج رقم ١٣ حتى أصيب بإسهال شديد ظل ملازما له منذ التو واللحظة على ظهر السفينة، ولم يفارقه حتى وصوله إلى نيويورك. اغتبط الربان لأن الوصفة رقم ١٣ لم تتسبب فى وفاة المريض. وترتب على ذلك إعفاء العريف من مزاولة عمله بالمطبخ طوال الرحلة. وكان كل ما ينبغى له أن يفعله هو أن يبقى على قيد الحياة ولا شىء غير ذلك. وهو ما فعله بالضبط.

كان على ظهر السفينة رجل اشتهر بالدكتور الفرنساوى. زعم أن جده كان طبيب نابليون الخاص. لكن اسمه كان "فيبر" (وهو اسم ألمانى شائع). كانت له رأس ضخمة، وكان يرتدى معطفا بنيا فى لون البن المطحون. أما فمه الواسع "فيا مُغيث" إذ خشيت لسعة شدقيه أن يعض بهما أذنيه سهوا. كان الرجل أكولا، وأكلته تكفى لإشباع ثلاثة أشخاص. وشرابه يروى عطش ستة. أما كذبه فيضاهى اثنى عشر كذابا مجتمعين. قال: لقد سمم الربان معاون الطباخ. فقلت له: "اخرج يا دكتور يا فرنساوى قطع لسانك. دا أنا لو عييت وكنت عاوز أعيش ما كنتش أخليك لا إنت ولا جدك يقربوا من سريرى. الربان راجل تمام. وإذا جت كلمة سم على طرف لسانك مرة ثانية. حاأقوم ساحبك ومعلقك على الهلب عشان أعمل منك بفتيك". وما كان منه إلا أن وضع لسانه فى فمه، وانسحب بهدوء ليختفى عن الأنظار.

بدأ حسن حظى وتسهلت أمورى منذ لانت بطن معاون الطباخ لإصابته بالإسهال. ذهبت إلى كبير الطباخين وقلت له: بعد مرض مساعدك أصبح من الضرورى البحث عن شخص بديل. هل تأذن لى بأن أحل محله ؟ نظر إلىَّ "من فوق لتحت" كأنه يريد تثمينى وهو يقول لنفسه: "وده حايجيب كام رطل مشفى عالقبانى" ثم سألنى: "تعرف تطبخ؟" "أجبته قائلا: ليس هناك من ينتظر من العصفور أن يضع بيضة أوزة. لكن ما تطبخونه هنا قد تعلمته من أمى منذ كنت صبيا. ابتسم ابتسامة الرضا، وقال: سوف أحاول معك.

تناولت الطعام فى ذلك اليوم كما لم أتناوله منذ ركوبى البحر، فأكلت حتى كظنى الطعام بعد جوع ودوار. ولما شبعت نحيت الملعقة جانبا ومسحت بكفى على فمى، وكأنى أقول: ويح الإنسان المكظوظ بالطعام فوق ما يطيق ويحتمل. ورحت بعد ذلك أعب الماء عبا حتى لم يبق فى البطن للنفس مكان، أما الآخرون فقد عانوا من العطش كثيرا. بدأت عملى فى المطبخ، وكان على أن أتعامل مع رجل قصير القامة بدين الجسم اعتاد على إنجاز الأعمال بسرعة، إذ قال لى: اذهب إلى هناك!

فذهبت. ثم قال: تعال هنا! فجئت . كان المطلوب منى هو سرعة الحركة فتحركت كالمكوك من قائد الدفة إلى الطباخ، ومن الطباخ إلى قائد الدفة الذى كان عنده مفتاح الكرار.

ظهرت ذات مرة بوادر قلاقل وحركة عصيان مدنى حقيقية كان سببها المعدة. الصديق العزيز، دعنى أخبرك أن هناك أمورا كثيرة فى هذا العالم تتسبب المعدة فى حدوثها . فقد شرع ثلاثة أيرلنديين فى الصراخ من شدة الجوع، وطلبوا من الطباخ أن يقدم لهم ما يسدون به رمقهم. أرسلنى الطباخ إلى مدير الدفة . وقام الأخير بحساب كمية الغذاء الموجودة بالمخزن. وعندما انتهى من حساباته، قال: لقد استهلكنا الشئ الكثير، ولن أتمكن خلال الأيام الثلاثة القادمة إلا من توزيع نصف حصة التعيين المقررة، مما يعنى بالضرورة قيام الركاب بشد الأحزمة على البطون، بحيث تضيق لفة الحزام على الوسط بمعدل عدة ثقوب. ذهب الرجال الثلاثة إلى الربان وبطونهم خاوية، حاملين على أيديهم نصف حصة التعيين. وسارت من خلفهم نصف أيرلندا فى صخب وزياط. لكن الربان أعلن أن الاحتياطى يكفى وزيادة، ثم قال: أعطوا الناس طعاما يكفى لإشباعهم.

لم نكد نسمع ذلك الكلام الطيب حتى قمنا بطبخ حساء أرز على أصوله. شوربة ليست فى سيولة المرق، إنما تقف فيها الملعقة لقوامها الغليظ. قدمنا لكل مسافر صحنا من الحساء ممتلئا حتى حافته. وغرفنا للأيرلنديين الصحن مرتين حتى أقلعوا عن الصياح. وبعد أن مسحوا بأكفهم على أفواههم، نظروا إلينا نظرة ودودة، وأحنوا رؤوسهم لنا علامة الرضا. أجل لقد كانت تحية إطراء وشكر على شوربة الرز. وكرر المطبخ طهو وجبات غذاء على هذا النمط. وحرصنا من جانبنا على الاعتدال فى تمليح الحساء، كما راعينا تقليب الأكل على النار حتى لا "يشيط".

ولما تبين لكبير الطهاة صلاحيتى للعمل، وأنه يمكنه الاعتماد على فى النهوض بالمهام التى ستوكل إلىّ، عيننى مشرفا على مستودع مياه الشرب. كنا نضخ الماء من مستودع ضخم قابع فى جوف السفينة لنوزعه بالقسط على الركاب. لكن عددا كبيرا نسبيا من هؤلاء لجأ إلى سرقة الماء بسبب العطش. تصور يا صديقى، لقد كان الماء شحيحا ونحن فوق العباب. فى أول الأمر كنت أتغاضى أحيانا عن التعديات الطفيفة التى تجاوزت الكمية المقننة من ماء الشرب، لأن الحر كان شديدا. لكن البعض كان يتعمد تجاوز الحد المقرر بملء الصفيحة إلى النصف عوضا عن الالتزام بالربع كحصة مقررة لكل فرد. كنت فى هذه الحالة لا أشيح بوجهى عنهم، بل أوجه لهم نظرة زاجرة، وإذا اقتضى الأمر كنت أوبخهم لعلهم ينتهون. وإذا ما تمادوا فى سوء فعالهم، كنت أحتذى حذو الطاهى وأضربهم بالعصا حتى يغادروا الموقع. وتجدر الإشارة إلى أننا لم نكن بحاجة إلى الصابون أثناء عبورنا المحيط، ذلك لأننا كنا نغتسل بالماء المالح. ولم يكن عزوف الركاب عن الصابون بالأمر الشاذ، لأنهم لم يكونوا قد تعودوا على استعماله أصلا.

كنت حريصا على نظافة المطبخ. لكن السفينة ظلت فى قذارة حظيرة للخنازير، إذ انتشر فى أرجائها البق والقمل، وعمت الإصابة بالجرب. كان بين الركاب أيرلندى عجوز، أشيب اللحية، مقوس الركبتين، هوايته اقتناص البق؛ لذلك دخل فى رهان مع مسافر آخر يدعى "هاينريش مولر"، وتقدم له بالعرض الآتى: إذا استطعت قتل ألف بقة حتى وصولنا إلى نيويورك، فسوف أتنازل لك عن كل ما أملك من تبغ المضغ. أجابه الأيرلندى : أمهلنى بعض الوقت حتى أتدبر الأمر أولا. وفى صبيحة اليوم التالى أخبره بقبول الرهان، نظرا لأن الأيرلندى كان مغرما بتبغ المضغ. لذلك خرج فى كل مساء فى رحلة لصيد البق. وإذا به يزورنى ذات ليلة كنت فيها مستيقظا، فبادرته بالسؤال : إلى أى حد وصلت بشأن الرهان؟ قال وهو متحفز للاصطياد: لقد قضيت حتى اليوم على البقة رقم ٣٨، ثم هب واقفا وفى يده قبقابه ليفقع به البقة رقم ٣٨ سابقة الذكر. وكان يسجل فى كل طلعة شمس

بالقلم الرصاص على عرق خشبى عدد ما اصطاده من البق. ولم يكن يستطيع المغالطة فى العدد، إذ تحتم عليه عد الحشرات الصريعة أمام عينى "مولر".

ومما يدعو للدهشة حقا، أننا لم نكن قد بلغنا أمريكا بعد، وإذا بالأيرلندى قد كسب الرهان وحصل على تبغ المضغ المتفق عليه. لكنه لم يكتف بذلك، إذ أعلن على الملأ عن رغبته فى دخول رهان آخر يصطاد فيه ألف حشرة أخرى. إلا أن أحدا لم يبد تحمسا لمراهنته . ومع هذا فقد بدا عليه الاغتباط، نظرا لتلك الفترة العصيبة التى خاضها وظل فيها محروماً من النقود ومن تبغ المضغ معا. لمحته من جديد يطوف على المسافرين وهو يدلل على بيع حذائه المتين والمتقن الصنع. أراد مقايضته بكمية من تبغ المضغ، لكنه لم يعثر على من يبادله، كما رفض "هاينريش مولر" تسليفه دفعة مقدمة منه. لكن ذلك لم يثن من عزيمته أو يفقده صبره، إذ نجح فى مقايضة حمالة بنطلون مصنوعة من الجلد بنصف قيمتها من التبغ. وبعد إتمام عملية المقايضة انفرجت أساريره وارتسمت على تقاسيم وجهه ابتسامة عريضة، ذلك لاشتمال أمتعته على حمالة بنطلون أخرى اصطحبها معه إلى أمريكا.

الصديق العزيز أخبرك بأن تبغ المضغ الذى يلوكونه بالسفينة مغشوش وغير جدير بأن يحمل اسمه. فهو مجرد نصب واحتيال لاحتوائه على لحاء وألياف "موششة" بقليل من التبغ.

والآن دعنى أقل لك كلمتين عن القمل. لم يكن القمل الذى انتشر بالسفينة قملا عاديا . فقد كان من ذلك النوع الذى يستطيع ستة منه الإمساك بكبش. جاءنى ذات يوم راكب يدعى "فيلهلم رومب" وكان ممسكا ببلطة فى يده. سألته: ماذا تريد بهذه البلطة؟- أردف قائلا : الذبح!- هون عليك ! ماذا تريد أن تذبح؟- تعال معى وسوف ترى. تبعته إلى حيث يجلس ابن قريتنا الشاخص إلى السماء فوق رصة

من ألواح الخشب وقد أمسك بقملة من إياها. وكانت كبيرة ومنظرها مُنَفِّر. لم أر فى حياتى حشرة مثلها. لقد رصدها ثم عكشها فى المنطقة الحدودية بين التجمعين الألمانى والأيرلندى. وهناك أجهز عليها "رومب" بالبلطة. وجه راكب إيرلندى كلامه للمجموعة الألمانية فقال: تلك القملة من عندكم. وتبعه أيرلندى آخر: إنها بطيئة بطء الالمان. وقال ثالث: ولكنها كريمة المحتد، عريقة الأصل. وهكذا تطارحت ألسنتهم النكات، وأخذت ضحكاتهم الساخرة تترى وكأنهم قد دخلوا فى قافية لكى يستثيروا حفيظتنا. طفقت أقول لهم : أيها الأيرلنديون اسمعوا وعوا ما سوف أقوله لكم جيدا. جاء ردهم: وما هو الذى تريد قوله لنا؟ أطرقت قليلا ثم أجبتهم قائلا: أريد أن أقول كلمة حق. إنكم لن تجدوا عندنا على أكثر تقدير إلا القمل العادى الصغير، ذلك الذى يرتع فى أدق رتق بالقمصان. وهيهات لكم أن تجدوا مثل ذلك القمل الكبير فى المنطقة الألمانية الواقعة بين جبال "الألب" جنوبا وبحر الشمال. وهذه الحشرة لا نظير لها عندنا بما لها من خط أحمر بعرض الظهر مثل البردعة. إنها قادمة من منطقتكم بالقطع وتحمل شهادة مواطنتكم، وإنى ألمح من شكلها أنها قملة أيرلندية. أيها الأيرلنديون إنكم تلبسون سراويل تحتية زرقاء اللون، لكن ألوانكم غير ثابتة تبهت وتنحل، فلا عجب أن تصطبغ أرجلكم بزرقة النيلة عند قيامكم من النوم فى الصباح. إن قمل السفينة هو قملكم بكل تأكيد، لأن أرجله زرقاء بلون أرجلكم عندما تستيقظون صباحا. لقد أدى الانفجار السكانى فى سراويلكم إلى رغبة القمل فى الهجرة، فتخطى حدود تجمعكم وزحف إلينا.

ولما انتهيت من إلقاء "طريحة" التوبيخ سابقة الذكر شعرت بانعدام أثرها فى إقناع الأيرلنديين بوجهة نظرى. إذ سرعان ما انتفضت أيرلندا المهاجرة عن بكرة أبيها لمواجهتى. وهنا أطلقت ساقى للريح، وعدوت فى سرعة البرق، تاركا المكان بما فيه ومن فيه طلبا للسلامة.

ولما قرأت على زوجتى "ليزا" هذه الفقرة من الرسالة، عاتبتنى على كتابتها لما تتضمنه من العيب فى حق الآخرين، ولسردى أمورا لا يليق ذكرها. فقلت لها "ليزا" هذا شئ يصعب عليك فهمه. فقد وعدت معلمى بسرد الأحداث التى أواجهها كما هى، بلا حذف أو إضافة أو تنميق. ولذا فهى تشتمل أيضا على وقائع حشرية وضيعة لا أملك التعتيم عليها. ومع هذا فهى ليست أشد قسوة من ضربات البلاء التى حلت بفرعون[1]. أما نحن المسافرين على ظهر السفينة فقد استحال علينا الخروج (مثل قوم موسى). لا يا عزيزتى "ليزا" لا بد أن أُضَمِّنَ رسالتى تلك الفقرة عن القمل الأيرلندى.

كان بين الركاب فتاة قادمة من مدينة "برسلاو"[2] أو من إحدى ضواحيها. قالت إنها تبلغ من العمر ٢٨ عاما، وأنها تلقت تعليما عاليا جدا، ودعتنى لكى أصحبها وهى فى طريقها إلى "بولتيمور". إلا أن القمل كان يزحف على ملابسها. قلت لها وقد امتعضت من أسلوبها الفج: يبدو أنك لم تحظَىْ بقسط وافر من التعليم. كما لفت نظرى أنك لم تمشطى شعرك على المركب إلا مرة واحدة وبدون عناية. قالت: هذا صحيح، لكن العناية بشعرى ستكون من أولوياتى حال بلوغنا البر. ذلك لأنه لا جدوى من وراء تمشيط الشعر أثناء الإبحار. قلت لها: افعلى ما يحلو لك، فالأمر عندى سيان، ولا داعى لإرهاق نفسك، ثم تركتها وانصرفت حال سبيلى. وفيما بعد انشغل بها الدكتور الفرنساوى كثيرا فى أنحاء السفينة.

---

(١) يتحدث العهد القديم عن الابتلاءات وفترات الشدة التى حلت بآل فرعون واحد من بين ١٢٠ فرعونا حكموا مصر، وتسميها التوراة "ضربات" وعددها عشرة هى على التوالى: (١) تحويل الماء الى دم، (٢) الضفادع، (٣) البعوض، (٤) الذباب، (٥) إهلاك الماشية، (٦) الدمامل (القروح)، (٧) البرد، (٨) الجراد، (٩) الظلام، موت الأبكار: الإصحاح٧-١١.

ويرمز القرآن إلى أن الله ابتلى آل فرعون بفترات جدب وقحط ونقص من الثمرات، ويجملها فى سورة الأعراف، آية ١٣٣ كما يلى "فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين". كما وردت أحداث البلاء فى سورة المزمل آية ١٦ كالآتى "فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا ".

(٢) أصبحت "برسلاو" بعد اندحار النازية عام ١٩٤٥ بولندية، وتحول اسمها إلى "وروكلو" وهى أهم مدن إقليم "سليزيا" البولندى.

ذات يوم رأيت الضابط الأول للسفينة جاثيا على ركبتيه يصلى فى خشوع. قلت لنفسى: لا ريب أنه رجل صالح ينبغى أن يقابله المرء بالإجلال والاحترام ولذلك مشيت على أطراف أصابعى. وفجأة هب واقفا واستل سكينا فى يده طعن به بحارا فى ساقه لأنه لم "يُشهل" بالسرعة المطلوبة فى إعداد السارية. وتفوه أثناء استخدامه العنف مع مرءوسه المسكين بعبارات جارحة لم يرد مثلها بالكتاب المقدس. وهمست وقد تملكتنى الدهشة: هل على هذا النحو يتصرف هنا الصالحون؟ ولما نهض الملاح، قفل الضابط الأول عائدا إلى الصلاة وهو يجثو على ركبتيه من جديد. درت من حوله فى انعطافة مبتعدا عنه فى ازدراء وأنا أفكر: يا له من سلوك متضارب، يصلى ثم يطعن بالمدية ثم يجثو للصلاة ثانية. كيف تجتمع هذه الأضداد فى قلب رجل واحد؟ حاش لله أن ألتقى بشخص من هذه العينة فى ظلام الليل، إلا وقضيب الخيزران اللاسع لا يفارق يمينى. ولو كان قد تصادف وجود رجل دين فى هذا المكان، لكنت قد سألته عما يعتمل فى صدرى. لكنى أحبذ ما يمليه علىَّ إيمانى. فلم أعد أكن للضابط الأول سابق احترامى. وعندما كان يجثو للصلاة، تحاشيت الشب على أصابع قدمى عند الاقتراب منه.

مخرت السفينة عباب البحر دون أن تستعين بعلامات مرورية أو بطرق مرصوفة أو بقضبان سكك حديدية. واصطبغت صفحة المحيط ودائرة الأفق بزرقة لازوردية لا نهائية. زرقة لا تنقشع ولا تنقطع، فطغى علينا شعور بأننا حتى الثمالة بالماء تشبعنا، فأصابتنا زرقة المحيط الرتيبة بالسقم والدوار.

ولما ألم المرض بالكثير من الركاب تخاذلت النفوس وكابدتنا الملالة أياما حتى استبد بنا اليأس وتوهمنا أننا لن نرى بعد اليوم أرضا، وأننا لن نرسو على شواطئ امريكا أبدا. وقال أحدهم وهو يجأر بالشكوى: إن الأمور لا تسير على ما يرام هنا. فقد أوغلت السفينة فى أقصى البحار، وأصبح لا عاصم لنا من السقوط فى الهاوية بعد اقتراب الفلك من حافة قرص الأرض. فأردفت أقول له: بحَسْبك مقتنعا أن لا فكاك للإنسان من الأرض إلى هاوية، فطالما عاش فوق سطحها،

فسيظل مكبلا بأصفادها. ومهما صال الآدمى وجال، ومهما طال به الارتحال، فمآله المحتوم هو أن يقبر فى أديمها. كنا جميعا على ظهر السفينة بين جالس ومستلقٍ فى أوضاع متكلفة متصلبة لعجزنا عن القيام بأى مجهود عضلى. قلت لنفسى: ياليت يوجد هنا بضعة أمتار مكعبة من جذوع الشجر لكى أشقها بالبلطة حطبا للتدفئة. وكم نأسف لافتقادنا هنا لبضعة أفدنة مزروعة بالشعير حتى نكد ونكدح فى حصادها. ولذا قلت للربان: إن السفينة مكان يرثى له ولا يصلح لسكناى. وهنا ضحك أمير البحر قليلا وواصل تدخين عقب سيجارة. وما برح أن حدق بصرامة فوق صفحة الماء. لكنه لم يكن هناك ما يرى. ومع هذا واصل الرصد ببصره، وتحول فجأة إلى رجل يعرف الهدف ولا يحيد عنه يمينا أو يسارا. حقا إن المرء يستطيع أن يتعلم من رجل كهذا كيف يجابه الحياة، هذا إذا كان التقدم من أجله المنشود.

وبعد تلهف، تبدد أخيرا الشك باليقين، وبدت معالم أمريكا تلوح فى الأفق البعيد، وتجسدت معالم تلك القارة رويدا رويدا أمام أعين المهاجرين، فهفت نفوسهم إلى تحقيق الآمال العراض فى العالم الجديد. عم الجميع سرور وحبور، وشملتنى بهجة سرت فى أوصالى وانتعش لها قلبى. شعرت بالتكريم لما منحنى كبير الطهاة دولارا وهو يقول: لقد أديت عملك على أكمل وجه. واستعدادا للنزول دخلت الحمام لكى أغتسل ولأنظف جسمى مما علق به من أدران. ثم حملت مرتبتى بكل ما كان يتنطط فيها من الحشرات لألقى بها فى عرض البحر مثلما فعل الآخرون. وكلما اقتربت السفينة من الشاطئ زادت الفرحة لاقتراب مغادرتنا للعبارة التى نخر السوس خشبها وعشش القمل فى أرجائها. وما لبث أن تلقى الدكتور الفرنساوى علقة من مجهول، دون أن يتبين له من الذى ألحق به الأذى. زد على هذا أن الضابط الأول ركله بقدميه وشلته تشليتا. لكنى لا أعلم علم اليقين ما إذا كان قد جثا على ركبتيه للصلاة ثانية بعد هذه الأذية.

ولما أوشكت السفينة على الاقتراب من أمريكا جمعنا الربان وارتجل خطابا في حشدنا. كان القبطان رجلا شهما، ولذا أنصتنا إليه جيدا، ومع هذا لم يفهم أى واحد منا ماذا أراد أن يقول.. وجه اللوم لنا، ثم أعاد إلقاء خطابه على مسامعنا مرة أخرى. لكنه لم يتسرب إلى إدراكنا ماذا أراد أن يفضى به إلينا. ثم صَعَّد من لهجة تأنيبه لنا، ولما لم يثمر التأنيب عن شئ، قام بطردنا فى نهاية المطاف من مكان الاجتماع، إذ لم يؤت أى واحد منا القدرة على استيعاب مقصده. وما زلت لا أعرف إلى يومنا هذا ماذا أراد قوله.

وما كادت السفينة ترسو فى الميناء حتى طلبوا منا أن نصطف فى طابور، دون أن نفهم الحكمة من وراء ذلك. ولم يتخلف عن جمعنا إلا الدكتورالفرنساوى. كان آخر الحضور وجاء يتسلل خلسة من خلف ظهورنا، ثم طأطأ رأسه ذليلا مرتاعا، وزحف على أربع ليختفى تحت الفستان الفضفاض الذى يصل إلى الأرض لتلك الفتاة المتعلمة، المقملة، المنحدرة من إقليم "شيليزيا". أما هى فلم تنبس ببنت شفة حتى لا ينكشف أمره. رأيت طاقم السفينة يجد فى البحث عنه، وكان الملاحون يصبون جام غضبهم عليه باللعنات، لكنهم لم يعثروا له على أثر. وما كاد الضباط والبحارة يتوارون عن الأنظار، حتى "قَبَّ" من مخبئه متسللا إلى سلم السفينة ونزل إلى البر وفى إثره الفتاة. وقف فى ركن من أركان الشارع يلهث بلا حراك. وبعد هنيهة سار كلاهما جنبا إلى جنب حتى اختفيا عن الأنظار. وكم كنت أود الاطلاع على ما اقترفه ذلك الدكتور الفرنساوى حتى أقصه عليك.

وما إن وطأت أقدامنا اليابسة حتى بدأت فى عد نقودى. كان كل ما بحوزتى من النقود عبارة عن ٢ تالر، وأربع شلنات، علاوة على الدولار الذى منحنى كبير الطباخين إياه. قلت لنفسى الطموحة : إن المليون دولار الأولى تبدأ بدولار واحد. وها أنت ذا قد تخطيت العتبة إلى المليون دولار الأولى. وعندما تتحصل على مليون دولار، فسوف يتحقق كل ما تصبو إليه نفسك. حينئذ سيكون لديك من المال ما يكفى لشراء أمريكا ولواحقها.

سيدى ومعلمى العزيز، شرحت لنا بالمدرسة أن الشمس عندما تشرق صيفا فى أمريكا فإنها تغرب فى نفس الوقت عندكم فى ألمانيا. لكنه يُخامِرنى شعور بأن تلك المعلومة مضللة. فالشمس تطلع هنا فى الصباح وتغرب فى المساء، مثلما تنبلج وتغيب عندكم تماما. لقد لفتت تلك الظاهرة انتباهى منذ اليوم الأول. فضلا عن أن وجه القمر المرئى للأمريكان لا يختلف عن وجهه المرئى للألمان. كما تبين لى خلال هذه الرحلة تماما الأهمية القصوى لكروية الأرض. هذا وإلا ما كان للشمس والقمر أن يدوران بهذه الدقة حول الأرض[1]. ولولا كروية الأرض ما استطاعت السفينة بلوغ أمريكا بسلام. حقا إن فى ذلك مغزى ومعنى ودلالة على نظام محكم.

سيدى ومعلمى العزيز، بقى شيء لم يتيسر لى فهمه. فأثناء عبورنا المحيط من إنجلترا إلى أمريكا، كانت الشمس تشرق كل صباح بانتظام وتغرب كل مساء بانتظام أيضا، وذلك على مدار ٧ أسابيع ويومين. ولا ريب أن اختلاف الليل والنهار يسير عندنا هنا مثلما يسير عندكم هناك وفق نظام غاية فى الإحكام. ولكن

---

(١) يشير النص إلى أن الأرض كروية، لكنه يقول أيضا بدوران الشمس حول الأرض، وفى ذلك مقاربة بمعتقد الأولين بأن الأرض كالقرص مسطحة وثابتة فى مكانها، وأن الشمس هى التى ترتفع صباحا من الشرق وتهبط مساء فى الغرب. صحيح أن القمر كوكب تابع للأرض، لكن الشمس التى تتحكم فى المجموعة الشمسية ليست بتابع. فالأرض التى تضيء الشمس نصفها، بينما يغمر الظل النصف الآخر، هى التى تدور حول محورها مرة فى اليوم فتتحول من ضوء الشمس إلى الظل، ومن الظل الى ضوء الشمس، وبذلك نشاهد تعاقب الليل والنهار. كما تدور الأرض مرة كل عام حول الشمس وتتعاقب خلالها الفصول الأربعة. لكن معدل أحوال الطقس يختلف من مكان لآخر ومن إقليم لإقليم خلال هذه الفصول. كما يتأثر المناخ بخطوط العرض والموقع بالنسبة للقارات والمحيطات والظروف الجوية المحلية وذلك بحسب الموقع سواء أكان فى شمال أو جنوب الدائرة الاستوائية فيما يعرف بنصف الكرة الشمالى ونصف الكرة الجنوبى.

أما مرحلة دوران القمر حول الأرض فتحتاج إلى شهر تقريبا، وفيه تتغير على مدار أيام الشهر وجوه القمر (المنازل القمرية) وفقا للمواقع النسبية لكل من الأرض والقمر والشمس فيختلف مظهر القمر بين محاق وبدر وبين تربيع أول وتربيع ثان.

عندما رسونا على الشاطئ الأمريكى دار الحديث عن اختلاف التوقيت[1]، وعن ضرورة ضبط الساعة بتأخيرها مدة ٦ ساعات. الصديق العزيز. أعتقد أنك لن تضن على يوما ما بتوضيح الأسباب التى تستوجب الاختلاف فى التوقيت. إنى لا أدرى، أين ذهبت هذه الساعات الست هل ربما غاصت فى أعماق المحيط مثلما غاصت مراتبنا.

كما ترى لقد تضخمت الرسالة وصارت حزمة كبيرة من الورق، إذ استغرقت فى كتابتها نحو ثلاثة أشهر. ويحدونى الرجاء أن تستطيع فك طلاسم خطى، مع علمى بداءة بأنها مهمة عسيرة، أشبه بمن يجنى من الشوك العنب. إلا أننى قد بادرت بطلب رطلين آخرين من الورق من "شيكاغو" استعدادا للخطاب القادم الذى لم أنته من كتابته بعد.

---

(١) بعد فترة وجيزة من هجرة كاتب الرسائل إلى أمريكا، اتفق دوليا فى عام ١٨٨٤ على أن الخط الوهمى المار بمرصد جرينتش هو خط طول صفر. فلا عجب أنه عجز عند وصوله سنة ١٨٦٨إلى نيويورك أن يدرك سبب الاختلاف فى التوقيت بين لندن ونيويورك بمقدار ست ساعات. علما بأن خط الطول هو إحدى الدوائر الوهمية التى تمر عبر القطبين وتقطع خط الاستواء بزاوية قائمة. ويبلغ عدد خطوط أو درجات الطول ٣٦٠ نصفها شرق خط جرينتش، والنصف الآخر غربه. وبذلك تقع ١٨٠ درجة فى نصف الأرض الذى تضيئه الشمس، والنصف الآخر فى الظلام . ومن ثم تدور ٣٦٠ درجة فى ٢٤ ساعة، وبذلك يختلف التوقيت من مكان لآخر بحسب موقعه على سطح الكرة الأرضية. فإذا انتصف الليل فى لندن القريبة من خط جرينتش لكانت الساعة السادسة مساء فى نيويورك، والثالثة من مساء نفس اليوم فى سان فرانسيسكو، ولكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل فى القاهرة، والرابعة فى بغداد. ومع هذا ينبغى التفريق بين التوقيتات المحلية وتوقيت جرينتش.

الفصل الثالث

شهر طويل

أشاروا عليّ بالتوجه إلى مكتب الهجرة. دخلت إلى حجرة انتظار الباحثين عن عمل، وهناك ألقيت بالخُرج تحت الدكة. لم يدم انتظارى طويلا حتى دلف إلى الحجرة رجل فرنسي يتحدث الألمانية. راح يجوس بعينيه خلال الجالسين فى الصف، الواحد بعد الآخر. وعندما رآني سألنى عما إذا كنت أريد العمل بمزرعته لمدة شهر. سألته: كم تدفع فى الشهر؟ قال: ١٢ دولارا. أجبته: نعم، أوافق على العمل طرفك إذا كنت تسكن على الطريق المؤدية إلى شيكاغو، لأننى أريد بعد ذلك اللحاق بآخرين من بلدياتى عندما يصلون إلى هناك. نعم إننى أسكن هناك. لكن مزرعته كانت على بعد ١٠٠ ميل شمالى شيكاغو، إذ كنت أجهل أين تقع الاتجاهات الأصلية الأمريكية. وفى المساء استقللنا سفينة بخارية مخرت المجرى المائى المسمى "تورد ريفر" باتجاه المصب لمسافة مائة ميل. سألته: لماذا لم تستأجر عاملا من قريتك؟ أجاب: ليست عندنا قرى فى أمريكا، لأن كل مزارع يعيش فى المزرعة الخاصة به. يعنى مثل سكان الأكواخ عندنا، الذين يعيشون خارج قرية "هورن كاتن" القريبة من مسقط رأسي. وهنا انفجر المزارع ضاحكا. لكننى كإنسان لا أستسيغ أن يستهزئ بى أحد، وبنوع خاص إذ كان صاحب العمل الجديد.

وعندما حان وقت المبيت سألنى : هل لديك نقود حتى تهجع فى قمرة للنوم؟ أجبته بالنفى. أدار لى ظهره وذهب إلى قمرته منفردا. وما كان منى إلا أن نزلت ومعى خرجى إلى حيث يعمل العطشجية، وأوقدوا مراجل البخار، نظرا لبرودة الجو فوق سطح السفينة. قالوا شيئا. ولكنى لم أحرك ساكنا. عادوا وقالوا شيئا وهم يشيرون إلى الطابق العلوى. ولكنى التزمت الصمت ثانية. ثم تركونى فى حالى

طول الليل، حيث رحت فى سبات عميق وكنت أجلس فى ركن متكورا على نفسى. لقد كانوا ناسا طيبين. أجل، لقد استشعرت فيهم الشفقة والإحسان.

وأخيرا وصلنا إلى "هودسون". جاءت سيارة فارهة وجلس بداخلها سيد بدا عليه الوقار يرتدى زيا غاية فى الأناقة. بادرت بخلع قبعتى تحية له واحتراما لمركزه، ظنا منى أنه لا بد أن يكون أمير أمريكا. لا، قالها صاحب العمل الفرنسى ثم أردف : ليس عندنا أمراء فى أمريكا . وقلت لنفسى: "غريبة"، كيف يتسنى لبلد أن يعيش بدون أمراء! ثم ركبنا القطار لمسافة ١٨ ميلا. كلفتنى تذكرة السفر ٥٣ سنتا. وهكذا تم فتح ثغرة كبيرة فى المليون دولار الأولى. وعلى نحو ما هو مألوف، فإن الأحداث تترى فى العالم الجديد أيضا، وتتعاقب حادثا فى إثر آخر. انتظرت ابنته فى المدينة وكانت جالسة فى كارتة يجرها جواد. كانت الفتاة منبسطة السرائر طيبة السريرة. ولكن بدا لى أن شعر الحصان لم يُحك بفرشاة منذ أمد طويل، أما الكارتة فكانت رديئة الصنع. ركب الأب وابنته الكارتة وأخذا خرجى معهما، أما أنا فهرولت خلفهما حتى انبهرت أنفاسى، وهكذا تكون معاملة الخُرج أفضل أحيانا من معاملة صاحبه.

وأخيرا قدموا لى شيئا يؤكل. وأعتقد أن "طقة جُلْيَات"(١) الجبار لم تكن تزيد على ما أكلته من الدهن، الخبز، البطاطس المسلوقة والغموس. وأخيرا شبعت بالفعل. وعندما نحيت السكين جانبا، قلت فى همس: الآن أستطيع القول إن أمريكا أصبحت شيئا آخر فى نظرى. وقال صاحب العمل الفرنسى: ألاحظ من طريقة صلاتك أنك لست كاثوليكيا. قلت: لا، أنا إنجيلى لوثرى.

هذا يعنى أن القشدة لنا، واللبن الرائب من نصيبكم.

---

(١) جاء بالعهد القديم، سفر صموئيل الأول ١٧ : ٤ " فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات، من جت، طوله ست أذرع وشبر .."

قلت له: دع الدين للديان. ولكن هل لك أن تدلنى، ماذا يتبقى من العقيدة عندما تساويها بالقشدة ثم تأتى القطة السوداء وتلتهمها ؟ وهنا رمقني وقد اتسعت حدقتا عينيه بالدهشة.

سألنى ذات يوم : ماذا يوجد فى خُرجك من الكتب ؟ قلت له : إنها مكتبة صغيرة تشتمل على الكتاب المقدس وكتاب الترانيم، وكتاب الإيمان الإنجيلى وكتاب الصلوات طبعة " شتارك" . ثم أردفت قائلا : ويمكن للمرء، وفى جعبته هذه الكتب، أن يقطع شوطا بعيدا فى هذا العالم . وكثيرا ما استعار صاحب العمل كتاب الصلوات ليقرأ فيه. وكان يقول لى عند إعادته : إنه لكتاب عظيم فعلا.

طلب منى ذات يوم القيام بحلب الأبقار. لكنى ضربت لخمة، لأن حلب الأبقار عندنا من اختصاص النساء. لاحظت البقرة بسرعة من طريقة مسكى لضرعها عدم تمرسى للحلب، وإذا بها ترمقنى باحتقار. وبهزة من ذيلها شعرت بجلدة وجيعة على ظهرى، صوتها أشبه بضربة كرباج. لكنها لم تكتف بذلك القصاص، إذ عاقبتنى بركلة من الخلف، فتهاويت على الأرض، كما طار دلو الحليب، وإذا بى أستقر أنا والدلو فى الروث. وبذلك تولى صاحب العمل حلب الأبقار بنفسه. وما إن وضع يديه الخبيرتين على ضرع إحدى بقراته الحلوب حتى سال اللبن فى الدلو مدرارا. كلفنى صاحب المزرعة بالحرث بعد أن أضع النِّير فى رقبتى الثورين، وذلك بتركيب خشبة معترضة حولهما، حتى يعملان تحت نير واحد. ذهبت لاستدعاء الثورين من المرعى، لكنهما ما كادا يلمحانى حتى تشامخت هاماتهما، ورفعا ذيليهما عاليا فى الهواء ثم لاذا بالفرار. ولما تعقبتهما إزدادا جماحًا. همست فى عصبية : يبدو أن أمريكا قد أصابها مس من الجنون. أما ثيرانها فلا بد أنها مصابة بتهيج عصبى. وبذلك قام صاحب المزرعة نفسه بعقل الثورين بواسطة النير. سألته : ألا تقيدون الثيران عندكم بالحبال ؟ أجاب بالنفى، ثم قال بأنهم قد اعتادوا هنا على كبح جماحها "بمسايستها" بالكلام تارة وبضربها بالسوط تارة أخرى. قلت لنفسى: إن عالما بهذا الشكل لن يصمد طويلا. وهل

ينبغى ان تسير الامور على هذا النحو فى العالم الجديد؟ أغلب الظن أن "كولمبس" قد خانه التوفيق بكشفه العالم الجديد شد الثوران المحراث بسلسلة من حديد. وهذا شيء عرفته. دار المحراث دورته الأولى فى شق التربة، ومشيت بجانبه لكى أحافظ على استقامة الخطوط. لقننى صاحب المزرعة بضع كلمات ينبغى قولها للثورين عند حثهما على الحركة وعند نهيهما عنها، نظرا لأن الثورين لا يفهمان الألمانية. إلا أننى لم أسمع فى حياتى من قبل مثل تلك الكلمات التى قال إن الثيران تفهمها.

استقل صاحب المزرعة الكارتة بصحبة ابنته للذهاب إلى المدينة، وأشار علىّ بمواصلة الحرث فى غيابه. وهكذا صرت بين الزرع والضرع بمفردى. كانت الأرض تعج بالجذور وقرم الأشجار التى ظلت ثابتة بالتربة بعد إزالة الغابات والأدغال تمهيدا لاستغلال أرضها فى الزراعة، الأمر الذى لم يمكننى من حرثها كما ينبغى. وبعد أن درت بالمحراث دورة ثانية كنت قد نسيت تماما الكلمات التى لقننى إياها، ولذا خاطبت الثورين بلهجة شمال ألمانيا الدارجة. فقلت لهما " هوء ! " لحثهما على السير. توقف الثوران عن الحركة وطرطقا آذانهما. ولما ناديتهما بعبارة " هوت !" لحثهما على المشى ثانية، تباطأت حركاتهما أكثر فأكثر . تذكرت كلمتين علقتا بذهنى من الكلمات التى لقننى إياها صاحب العمل دون أن أفهم لهما معنى. وما كدت أنطق كلمتى " كيم !" و"تودى !" على التوالى، حتى فر الثوران هربا على غير توقعى . شلت البغتة حركتى فتوقفت عن الحرث بالمحراث . لكنهما برطعا بطول الحقل وعرضه وفى كل اتجاه. أوقفت العمل بالمحراث مرة أخرى، لكنهما ازدادا ركضا. ولما أوقفت العمل بالمحراث ثالثة، ابتعدا عن الحقل وتوجها إلى الغابة المجاورة. ثم أوقفت العمل بالمحراث رابعة، وإذا بالأشجار تحيط بنا من كل جانب حتى أصبحنا عاجزين عن الحركة تماما. نظرت من حولى فى كل حدب وصوب ملتاعا حائرا، وإذا بى أهمس : وطنى الحبيب أين أنت. تعال لترى كيف يعانى أولادك ! هل هذه هى أمريكا التى فى

خاطرى ؟ كلا، إنها قطعا أمريكا التى ركبها الشيطان ! إن الظروف فى هذه البلاد لهى أسوأ حالا مما نتصوره عند الأتراك فى اسطنبول ! وعندما خفت همسى، وجدتنى أضرب الثورين ضربا مبرحا حتى خرجا من الغابة ثانية ! وكانت علقة لن ينساها الثوران ثم تحسنت الأمور فى إثرها. إلا أن الأرض أصبح "عاليها واطيها" وفى حالة يرثى لها. ومن حسن الطالع أن أحدا من بلدياتى لم يمر هنا ليرى ما جرى، وإلا لكانت جُرْسَة بجلاجل، وربما طيروا الخبر إلى قريتنا، فلا أعثر بعد ذلك على فرصة للعمل كعامل أجير طرف أى فلاح وهيهات أن يعيدنى "هانيورن تيمر" إلى عملى السابق.

تحتّم علىّ فى يوم آخر أن أقوم بتقطيع كومة من جذوع الشجر بالبلطة ليستخدم حطبا فى أغراض التدفئة . وكان الخشب بطبيعة الحال من النوع الصلب. سخر منى صاحب المزرعة الفرنسى بقوله : إن العامل الأمريكى يقوم بفلق ٨ أمتار مكعبة من جذوع الشجر فى اليوم الواحد، علاوة على رصها فى أكوام . أما أنت فإذا استطعت فلقّ وتكديس.نصف هذه الكمية فسوف أكون راضيا عنك . لكن عباراته الجارحة تغصت على حياتى وأصابتنى بالتجهم و"العكننة". كان بالمزرعة حقل مزروع بالحنطة السوداء، المعروفة بقمح البقر، والتى اعتيد على حصدها بواسطة المنجل. كنت قد سمعت عن المنجل، غير أننى لم أره من قبل، فما بالك باستخدامه فى الحصاد. أما عن نفسى فقد كنت حاذقا ولا أجارى فى استخدام المحشة الطويلة الذراع والمعروفة بسيف الحصاد. عزمت على حصد الحنطة بواسطة المحشة التى تمرست عليها فى قضب الحشائش، ولذا حملتها على كتفى وتقدمت للعمل بها بخفة وهمة فى الحقل. هذا فى حين تبعنى عاملان أمريكيان يبلغان النخل طولا. وما كاد هذان الفارعان يحشان حشتين بالمنجل ذى النصل المقوس واليد القصيرة حتى جاءا فى أعقابى ولحقا بى بعد أن كنت أسبقهما. توقفا برهة عن الحصاد ثم أطلقا للسانيهما العنان بالضحكات الساخرة. أما أنا فلم أكف عن العمل المتواصل بسيف الحصاد وكنت أتصبب عرقا . حصدت بكل ما أوتيت من قوة . إلا أنهما قاما بالحش حشتين أخريين، وما لبثا أن أحاطا بى من كل

جانب ثم تحلقانى كما لو كنت أسيرا. لقد درجا على حش الحنطة بالمنجل فى أنصاف دوائر واسعة من حولى. أما أنا فصرت رغم جهدى الجهيد بالمحشة أعرج من خلفهما، مما أثار حنقى، خاصة بعد أن تورم كفا يدى . وتداعى إلى ذهنى مثل عامى ألمانى، استعنت به فى فش غليلى، إذ يقول : " هذا البلد فليأخذه الوقوق أى "يغور"! ولكن هل يعيش فى أمريكا طائر الوقوق، الذى يصيح باسمه الألمانى فى الغابة قائلا " كوكوك" ؟ تبين لى أن العيب يكمن فى نوعية المحشات التى تسبك فى أمريكا بصبها فى قوالب، مما يتعذر معه إمكانية طرق النصل بالمطرقة قبل سنها، بحيث لا تتعرض للكسر. ولذلك تسن المحشات الأمريكية فى ورش التجليخ، كما لا يزيد ثمن المحشة الواحدة على ٣ ماركات، ورخص ثمنها يدل على شكلها . أما المحشة المطروقة جيدا فى ورش الحدادة الألمانية، فيتراوح ثمنها هنا بين ٧، ٨ ماركات. كما يصعب الحصول عليها.

لقد كان شهرا طويلا من شهور حياتى، لكنه مضى وانقضى غير مأسوف عليه . ولما حان الموعد المتفق عليه لترك المزرعة، وعدنى المزارع الفرنسى بتوصيلى وخُرجى بالكارتة إلى المدينة، نظرا لأن المسافة إلى هناك كانت ١٥ ميلا إنجليزيا. إلا أنه طلب منى المكوث مدة أسبوع آخر لكى أتولى "دراس" حنطته السوداء، ووعدنى بدفع أجر إضافى لقاء عملى. ترددت فى قبول العرض وشعرت بالتململ حياله. لكنه تقدم لى بعرض يسيل له اللعاب، وهو أن آكل اللحم حتى الشبع طوال ذلك الأسبوع ! وكان عرضا سخيا لم أتلق مثله من قبل فى حياتى، كما لم يتحدث إلى بمثل ذلك الأسلوب التحفيزى أحد من قبل، الأمر الذى استمالنى وأعجبنى. وترتب على هذا استمرار عملى بالمزرعة أسبوعا قضيته فى دراس الحنطة وأكل اللحم. وبعد انقضاء الأسبوع أعطانى أجرا إجماليا عن عملى لمدة ٥ أسابيع قدره ٧ دولارات فحسب. وقال: هذا المبلغ يكفى لصبى أخضر مثلك لم ينضج بعد. ولم يكن هذا هو كل شئ، إذ حنث بوعده ولم يوصلنى إلى المدينة . أما ابنته فكانت طيبة القلب، إذ قدمت لى حافة مجمرة من قالب خبز وقطعة معتبرة من الدهن المملح.

سارعت بمغادرة المزرعة وعدت أدراجي من حيث أتيت سيرا على الأقدام. واستمتعت بطعم الدهن اللذيذ أثناء سيرى فى الطريق. ولما نفد الدهن عرجت على مزرعة أخرى، كان صاحبها مهاجرا من إقليم "شفابن" بجنوب غرب ألمانيا، حيث عملت طرفه ٤ أيام قضيتها فى الدراس، وحاسبنى على دولار وربع الدولار أجرا عن اليوم الواحد. لكن عاملا إنجليزيا، قاسمته النوم فى غرفة واحدة، سرق منى الدولارات الخمسة فى ليلتى الأخيرة بالمزرعة. لقد رأيته يصلى فى خشوع قبل إغفاءة الليل وقبل سرقة الدولارات. وهكذا فقدت المبلغ. بحثت عن مزرعة أخرى. وهناك قالوا لى: هل تحسن دراس الحنطة؟ مكثت هناك وحصلت على ستة دولارات. وأثناء سيرى فى الطريق سرقونى مرتين ونصبوا علىّ مرة أخرى. هكذا وكأن كل أوغاد أمريكا ومحتاليها كانوا يتربصون بى وينتظرون قدومى. وأصبحت حالتى أشبه بحالة ذلك الإنسان الذى كان يسير بين "أورشليم" و "أريحا" فوقع بين لصوص، فعروه وجرحوه ومضوا وتركوه بين حى وميت[١]. لم تكن مثل هذه التعديات مألوفة فى وطنى. كما لم أسمع من قبل فى مسقط رأسى عن وجود لصوص، أوغاد أو محتالين.

مضيت فى طريقى حتى مررت بتل يشبه ما نسميه جبل "بوتبرج" بقريتنا. وكانت فوق قمته بحيرة صغيرة بالمثل، لكنه كان أكثر علوا من تل قريتنا. هجعت فوق ذلك المرتفع فى هدوء وصفاء. ونزعت فى جو رفرفت عليه السكينة إلى وقفة مع النفس. أجل، واجهت نفسى بما ظهر منها وما بطن، من قمة الرأس الى أخمص القدم. تطلعت إلى أحوالى فوجدت أن لا حول لى ولا حيلة. وأنه لم يتبق لى فى هذه الدنيا إلا سترة من البرد تقينى، وعصا أتوكأ عليها ليعتدل بها بنيانى، ورب يعيننى على تحقيق مقاصدى ويقوينى. وجدتنى لا أملك إلا عظامى التى يكسوها جلدى، وأنه ليس لى من أمتعة شخصية إلا خرجى الذى ينوء به ظهرى. حررتنى وقفتى مع النفس من أنواء وأنكال الشهر الذى ولى. واستحضرت فى

---

(١) راجع العهد الجديد، إنجيل لوقا ١٠ : ٢٩.

مخيلتي شريط تجاربى وخبراتي. وبعد فترة استغرقتها فى التفكير، بدأت أصارح نفسي وأنا أقول لها فى همس ملح:

"يورن- ياكوب سفين" لقد كنت غبيا حين وقعت فى حبائلهم وتركتهم يضحكون "على ذقنك". ألم يعدك المزارع الفرنسي بأجر مقداره ١٢ دولارا، ولكنه لم ينقدك إلا ٧ دولارات فحسب، ألم تمكنهم من استغفالك والاستيلاء على نقودك؟ إنك تعيب على الناس وتصفهم بالأشرار لكن العيب فيك أنت وإذا كانوا بالفعل أشرارا، فلماذا تركتهم يسرقون مالك؟ "يورن- ياكوب سفين" لقد تصرفت بغباء حقا، وآن الأوان لكى تكون أكثر حذرا واحتراسا. إن العيش فى هذا البلد يتطلب الانتباه وتوديع الغفلة. هذا وإلا فإنك لن تهش بعصاك أبدا على قطيعى الأبقار، أمل حياتك، بل ولن تستطيع اقتناء ولا حتى ذيل عجل فى حظيرتك. "يورن- ياكوب" ينبغى أن تتمرس على العمل بأسلوب رشيد ينبذ ذلك التباطؤ الذى تنشأت عليه فى "ميكلينبورج". لقد تعرفت على النتيجة بنفسك عند حصادك الحنطة السوداء. أما طريقتك فى حرث الأرض وفى تقطيع جذوع الشجر، فقد كانت بين بين، كما أنجزت هاتين المهمتين بالكاد. ومع أنك قد أوتيت قوة العظام التى تكفل لك النهوض بتلك المهام، إلا أن عظام الثيران ليست أقل متانة، ولكن البهائم سليبة العقل والمهارة. عليك أن تؤقلم نفسك على ظروف هذا البلد يا "يورن- ياكوب"، ولكن حذار أن تنسى قدح ذهنك و"تشغيل" عقلك، وإلا كان الفشل حليفك. وإذا لم تغير ما بنفسك وتعمل على ترشيد سلوكك، فسوف تعود خالى الوفاض فى غضون عام إلى قريتك، "وكأنك يا أبوزيد ما غزيت ولا رحت ولا جيت". حينئذ سوف ينادى عليك أطفال القرية قائلين: انظروا إلى "يورن- ياكوب سفين" الذى فشل بسبب "عبطه" وغبائه وعجزه عن تكملة المشوار وتحقيق النجاح فى أمريكا، ولذلك أعادوه إلى قريته من جديد.

وعندما أنهيت كلامى، نظرت مشتت الفكر فى كل اتجاه، دون أن أرسو "على بر" أو أن أحدد موقفى من نتائج الوقفة مع النفس بما لها وما عليها. لم يكن المتحدث هو أنا، بل كان "يورن- ياكوب" ابن البارحة. أجل "يورن- ياكوب" الخام

الذى حذا حذو جده وسار على نهجه. ذلك الجد الذى اعتسف الطريق ذات مرة حتى بلغ مفترق طرق. لكنه صار عند التقاطع فى حيرة من أمره لعدم معرفته فى أى اتجاه ينبغى له أن يمشى. وما كان منه إلا أن فوض أمره للصدفة وحدها، فقذف بقبعته فى الهواء وقرر السير فى الاتجاه الذى يطوح فيه الريح القبعة، وربما تبدو هذه القصة مسلية. ولكنها تكشف عن سلوك سلبى لا يتساير مع متطلبات الحياة فى أمريكا . فلا ينبغى للمرء أن يمشى هنا سبهللا، مثل ريشة يتقاذفها الهواء، أو مثل قبعة الجد "سفين" التى حسم الريح أمر اتجاهها بتطويحها حسبما اتفق. وما لبثت أن حملت الخرج بما فيه من الدهن على كتفى، وقبضت بيمينى على عصا أبى المصنوعة من خشب البلوط، ثم شرعت فى الهبوط من أعلى التل مخترقا شعاب سفحه. ومنذ ذلك اليوم لم يتمكن أحد من سرقتى أو الاحتيال علىّ. واصلت المشوار لا ألوى على شئ وأنا فى طريقى إلى نيويورك دون أن أتلفت إلى الوراء أبدا، لأنى قطعت على نفسى عهدا، أن أنظر إلى الأمام على الدوام.

وجبل مثل الذى تسلقتهٔ هو أحيانا من المنشآت الطبيعية النافعة للإنسان، لأن فيه إثراء لحياته بما يمنحه إياه من قدرة على التأمل والتركيز. ولا يشترط فى الجبل أن يكون سامقا كالطود، لأن التل الأقل علوا يفى بنفس الغرض. فلا غرو أن كانت أفئدة من الناس تتوجه إلى قمم الجبال منذ سالف الدهر. وأنا أعرف واحدا من هؤلاء كان يرنو الى الجبل فيأوى إليه ليخلو إلى نفسه وليكلم الله تكليما. لقد عرفتنا به فى إحدى حصص الدين بالمدرسة. وجدير بالذكر أن المكوث على الجبل يُسلِسُ القياد للتحاور مع الذات. فهناك يسود الأمان ولا ينشغل بال الإنسان خشية على أمتعته من خرج ولواحق أو أحمال. وهناك لا وجود لعائق يحجب اتساع دائرة البصر أمام ناظرى المتأمل حتى يتمتع ببديع صنع الخالق. هناك عدت بذاكرتى إلى تجربة الشهر الأول فى الوطن الجديد، تلك التجربة التى صقلتنى وجعلتنى لا أحيد ببصرى عن النظر إلى الأمام، كما علمتنى كيف أشكل حياتى حتى لا يفلت زمامها من يدى، وحتى أظل سائرا على درب التقدم طول عمرى.

تدافعت تلك الخواطر فى رأسى أثناء نزولى مرة أخرى من قمة الجبل لكى أصل إلى حيث يحيا الناس حياتهم فى مهاد الأرض. ذلك لأن الجبال لم تخلق لكى يقيم فوقها الإنسان.

عند وصولى إلى "نيويورك" لم يكن قد تبقى فى جيبى سوى دولار واحد. لكن أبناء قريتى كانوا قد سبقونى إلى مكان التجمع المتفق عليه من قبل، وهم بحسب أسماء العائلة: "شرودر"، "شولت"، "تيمرمان"، "دودا"، "زاس"، "فولس" و"برونينج". سافرت مجموعتنا إلى "أيوا"، وأقرضنى "شرودر" تكاليف السفر. وما لبثت أن تعاقدت على العمل لدى مزارع لمدة عام لقاء ٢١٠ دولارات. وهناك واتانى الحظ وكان التوفيق حليفى، إذ كانت "ليزا" ابنة "شرودر" تعمل فى نفس المزرعة. ثم اشتغلت لمدة عام آخر بمزرعة مجاورة . وبعد مرور ذلك العام وفوقه نصف عام آخر، بدأت أعد نقودى التى بلغت ٣٥٠ دولارا. ذهبت إلى "ليزا" ذات يوم أحد بعد الظهر. كانت تجلس أمام الباب وقد لبست فى قدميها جوربًا "شغل إبرة". جلست بجوارها على الدكة . تحدثنا عن الطقس ثم عرجنا على أحوالنا الاقتصادية . ولما فرغنا من هذه المقدمات سألتها: كم وفرت من النقود ؟ أخرجت الكيس. وبلغت قيمة مدخراتها ٢٠٠ دولار. وضعت مدخراتى البالغة ٣٥٠ دولارا بجوار نقودها وطفقت أقول لها: لقد عثرت على مزرعة صغيرة قرب بلدة "سبرينج فيلد" ليس بها سوى بقرتين و١٢ خنزيرا، ولكنها تكفى فى البداية. أريد استئجارها وإدارتها بمعرفتى، هذا إذا رضيتِ باصطحابى إلى هناك. شبكت أصابع يديها ونظرت لحظة فى شرود ذهنى ثم مسحت بيدها على مئزرتها. وعندما فرغت من كل هذه الأمور، قالت: موافقة ثم وضعت يدها فى يدى. وبذلك أصبحنا عروسين. وبدأت منذ ذلك اليوم رحلة سعادتى.

وعندما يفد المهاجر إلى هذه البلاد، يكون عادة مثل غيره من الأنفار.. غرا، غشيما، خاما. وماذا تظن بحق، على أى قدر من الفطنة يكون الواحد منا عندما يأتى إلى أمريكا؟ يكون بطبيعة الحال جلفا غريبا مثل غيره من عمال اليومية الذين يكدحون هنا مثل الدواب من أجل لقمة العيش. ويلوح لى أنه لو كان

المرء يتأوه من بلاهته، فإنك لن تسمع على أرصفة ميناء نيويورك إلا البكاء والنحيب من الصباح وحتى المساء. لكن بدايات الغربة الحزينة القاسية سرعان ما تطمسها زحمة الأيام من الذاكرة. فالمرء هنا تصقله التجارب وتربيه الأيام والليالى أكثر منه عندكم فى ألمانيا. إذ عندما يواجه المهاجر هنا ضروباً من التلطيم والضنى وأحاسيس العزلة المُرة نتيجة لغفلته وعناده، فما يلبث أن يتعلم الحيطة والحذر سريعا، لأن الحرص أمان الغريب فتتثبت أقدامه، وينشط فى مجاله معتمدا على قوة ساعديه. أما من لم يؤت القدرة على ترشيد سلوكه، فخير له أن يوفر على نفسه مشقة السفر وتكاليفه وأن لا يدير ظهره لألمانيا أبدا، لأن الله يرزق عندكم أيضا الأغرار العاجزين عن التصرف بأنفسهم لأنفسهم. أما فى أمريكا فالأمر مختلف. ذلك لأن الرب يتربع هنا فى خزائن النقود. وبوسعى رواية قصص مضحكة عن بعض من عبروا المحيط إلى العالم الجديد. لكننى لا أرغب فى التشنيع على أحد أو أن أتسبب فى إحراج أحد، لأن الصورة التى سوف أرسمها لمعظمهم تعبر فى نفس الوقت عن صورتى أنا.

وما العمل إذن وقد وقعت دواية الحبر وانسكب ما فيها من المداد على أرضية الغرفة قبيل الانتهاء من كتابة الكلمات الأخيرة من هذا الخطاب. وبذلك لم يبق لى من حيلة أخرى سوى غمس الريشة فى بركة الحبر التى سالت ورطبت الأرض. لكن "برتى" جاءت على عجل وفى يدها ملعقة صغيرة وراحت تغرف بها الحبر المسكوب لتعيده إلى المحبرة. وقالت وهى جاهدة بين حك واغتراف: طبعا لا بد أن يحدث هذا طالما كان فى بيتنا رجل مثل أبى. أجل، فهكذا أصبح لسان البنات مثل المبرد فى هذا البلد.

الفصل الرابع

فى مزرعتى الخاصة

ها قد مضى نصف عام منذ سألتنى عما إذا كان "يورن- ياكوب" قد اعتلت صحته والتاع فؤاده من شدة وطأة "الحنين إلى الوطن"[١] مثل غيره من المهاجرين. حيرنى سؤالك، لأن صحتى لم تعتل أبدا، ولم يعرف المرض طريقه إلى بدنى طول حياتى، هذا لو استثنيت إصابتى بالحصبة فى صباى. ولا أخفى عنك أننى لا أعرف حق المعرفة ما هو المقصود بالحنين إلى الوطن، ولا تزال أسبابه مستغلقة على فهمى، ولا أتوقع أن يداهمنى ذلك المرض مستقبلا. لكنه من الملفت للنظر أن فئة من المسنين لا تستطيع التعود على أسلوب الحياة الأمريكية، نظرا لهجرتهم إلى أمريكا وهم فى مراحل عمرية متقدمة، يتعذر عليهم فيها التأقلم على الوقع السريع للحياة هنا. ولعل الأمر كان سيهون على أولئك المعمرين لو أمكن اختصار ساعات اليوم الأربع والعشرين فى ساعات النهار وحدها، حين يكونون منهمكين فى أعمالهم. ذلك لأنه ما يكاد يجن عليهم الليل حتى يتنامى إحساسهم بالوحدة والإحباط وهم منزوون بين جدران غرفهم وقد تدلدلت ملامحهم وهم يمدون السمع إلى حفيف المطر الهاطل خارج الأبواب الموصدة. حينئذ تضيق من الكمد صدورهم، وتضجر من السأم نفوسهم، فتراهم حزانى مهمومين: أجسادهم هامدة، ورؤوسهم إلى حجورهم مائلة، وأياديهم بين ركبهم معقودة، وخواطرهم إلى مسقط رأسهم فى أوبة، فتختلج قلوبهم من الوجد غما على ذكريات الأيام الخوالى المنقوشة فى أذهانهم لا تبرحها. وتحضرنى فى هذا السياق حكمة خالدة قالها نبى الله سليمان

---

(١) الحنين إلى الوطن، لوعة الغربة، وألم البعاد عن مسقط الرأس هى تلك الأحاسيس المرهفة التى تشتمل المهاجرين- مهما عانوا فى أوطانهم ومهما طال بهم زمن الإغتراب- بالوجد من حرقة الشوق إليه. وقد يستحيل الوطن بفعل الذكريات التى تظل ملتصقة بالذهن ولا تمحى إلى قيمة معنوية أقرب الى القداسة. لمتابعة التجربة الشخصية لـ"يورن- ياكوب" راجع الفصلين ١٢ و١٣ من هذا الكتاب.

وهو يخوض فى موضوعات شتى، فحواها أن "لكل شئ زمانًا، ولكل شئ تحت السماوات وقتًا" وأن لتفريق الحجارة وقتًا، مثلما لجمع الحجارة وقت آخر[1]. وأغلب الظن أنه قد سها على سليمان ضم "الهجرة" إلى قائمة موضوعاته، لأنها لم تكن "موضة" على أيامه.

لا تواتم الحياة فى أمريكا إذن كبار السن من المهاجرين، خاصة ضعاف البنية منهم. فالإيقاع السريع الجارف للحياة هنا يتطلب قدرا عاليا من المرونة وسرعة الاستجابة، قلما تتوافق مع ضعاف البنية من المعمرين. إذ ينبغى على من يرغب العيش فى العالم الجديد أن تسرى فى عروقه دماء من حديد. فلا يعلق قيثارته- إذا كانت عنده قيثارة- على "شجرة الصفصاف"[2] الباكية "أم الشعور" المتهدلة. وليست الحياة هنا بتلك البيئة الهادئة المريحة التى تستمتع بها فى الوطن. فالسمة السائدة فى هذه البلاد أن لا وقت عند الناس، لأنه عندهم من الضنائن، لا يفرطون فيه، ويحرصون على تنظيمه. ويبدو أن الدخان هو الآخرقد تطبع بطباع الأمريكان، فشتان بين أعمدة دخان لا تضيع الوقت سدى فى تدافعها هنا من المداخن، وبين نفثات دخان تترى فى طرقات قريتكم متراخية لاهثة من خلال حلوق الأبواب، ومن شقوق الجدران المسطوحة بطين مملوط بالتبن، وإذا به يتلفت حول نفسه فى بلادة وحذر، حتى تكاد تسمعه وهو يهامس نفسه فى تباطؤ: والآن، هون عليك وتلكأ هنيهة فى مسالك القرية حتى تتبعثر وتتناثر فى أرجائها وتستحيل إلى لا شئ! أما هنا فى أمريكا فتتصاعد أعمدة الدخان لا تلوى على شئ وهى تنعقد كالحة فى السماء.

---

(١) راجع: العهد القديم، سفر الجامعة ٣: ١-٩.

(٢) انظر العهد القديم، سفر المزامير، المزمور ١٣٧ : "على الصفصاف.. علقنا أعوادنا ". تشبيها بلوعة من سبق من سكان يهودا إلى بابل سبايا بعد تدمير أورشليم سنة ٥٨٩ ق.م. وكأن المهجر بمثابة المنفى لكبار السن، ربما نتيجة للشعور بعدم الأمان.

أصبحت أشعر هنا بأننى فى وطنى. فقد انتشرت فى منطقتنا المحيطة لهجة شمال ألمانيا الدارجة التى يتحدث بها المهاجرون من إقليم "ميكلينبورج". كما أننى عبرت المحيط وأنا فى مقتبل عمرى. فهنا تزوجت. وهنا كونت أسرة صالحة. وهنا شيدت بيتا. وهنا زرعت وحصدت. وهنا استصلحت أرضا ورويت زرعا بعرق غزير طماه جسدى. عرق يرتزق منه الكادحون هنا، مثلما يرتزق منه العارقون عندكم. (لأبقى، مسألة اللى بيشقى بيلقى، هنا زى هناك، عاوزة شوية توضيح، لأن فيه فرق بين الأجرة فى بلاد بره وبينها عندكم. علشان كده المبلغ اللى دخل جيبى فى مقابل تعبى وشقايا كان أكبر بكتير من المبلغ اللى كنت حتحصل عليه عندكم فى مسقط رأسى. تصور كنت حاأبقى إيه لو كان نصيبى إنى ما سيبش القرية وفضلت عندكم.

طبعا كنت حفضل برضه شغال لحد ما يتهد حيلى، وفى الآخر كنت حابقى زى ما أنا: عامل يومية، إيد ورا وإيد قدام. أما لو كان حظى عندكم ضرب معايا لفوق قوى، يمكن كنت عزلت من العشة وسكنت فى بيت. وبالطبع كان الأولاد حيبقوا عمال يومية زى أبوهم . وبكده يبقى مفيش قدام اللى عاوز يوسع فى رزقه فى الغربة غير أنه يتعب ويشقى وما يونش بشكل غير اللى انتم متعودين عليه فى بلد جدودنا. دى هى الحقيقة. ولجل تأمين مستقبلى ومستقبل العيال رحت حاطط رزقى الضيق فى ماعون واسع وبنيت حياتى طوبة طوبة. ودى برضه الحقيقة). أجل فهنا حررت نفسى من القيود. وهنا صرت أطأ بقدمى فوق أرضى التى انتزعتها بالكد والكدح والمثابرة من بين براثن الغابات والأدغال تحاشيا للعمل أجيرا طرف الغير. وهنا أدركت أن للحرية قيمة تنشد لذاتها وتستحق أن يبذل المرء من أجلها بضعة دلاء من العرق. عرق يروى شجرة الحرية التى يستظل بوارف ظلها.

كان أبى عاملا أجيرا لا تتعدى يوميته شلنات أربعة. لكن ذلك الأجر اليومى كان يزيد قليلا فى موسم الحصاد. ولا أنسى ما حييت تيار الهواء البارد الذى كان

يخترق شقوق الجدران من كل جانب ونحن داخل الكوخ. وبعد أن ذقت طعم الضنى والحرمان بمسقط رأسي، تيسرت بالعمل الشاق أحوالى فى أمريكا. وشيدت بيتا جميلا مكونا من ثمان حجرات عدا المنافع والملحقات. وأصبحنا نتمتع بحريتنا البيتية في غرف تفصل بينها جدران مبنية بالطوب. وفى حين اشتمل كوخنا على شباك واحد مقسم إلى أربعة ألواح من الزجاج- أتذكر أن أحد هذه الألواح ظل مكسورا حتى هاجرت لضيق ذات اليد- فإن بيتنا الجديد يشتمل على العديد من النوافذ العصرية التى بها ألواح من الزجاج مساحتها ٢٤ × ٢٦ بوصة ومجهزة بثقالات للتحكم فى فتحها وإغلاقها رأسيا. هذا بخلاف النافذة القبلية الأنيقة. وهى عبارة عن لوح زجاجي واحد ٣×٥ قدم داخل إطار مرصع بقطع صغيرة من الزجاج الملون. ولما غالى النجار فى المقاولة وطالبنى بمبلغ يناهز ٦٠ دولارا مصنعية تركيب حلوق الأبواب والشبابيك (تصور!)، أنجزت بنفسى كافة أعمال النجارة . بقى أن تعرف ان بيتنا يشتمل أيضا على شرفة، نظرا لأن معظم المنازل هنا لا تخلو من الفرندات.

دققنا جيدا فى تنفيذ التصميم المعمارى لبيتنا، فجاء متمشيا مع رغباتنا ومتطلباتنا. ومن حين لآخر كنت أسهم بجهودى الذاتية فى أعمال التشييد، وبعد إتمام البناء أسندت إلى أحدهم مهمة لصق ورق الحائط الملون على جدران الغرف. وكلفتنى هذه العملية ٥٠ دولارا،٣٠ دولار منها ثمنا للخامات، و٢٠ دولارا "مصنعية" للعامل.

وبذلك بلغت التكاليف الإجمالية لتشطيبات البيت من الداخل ومن الخارج ١٥٠٠ دولار، بدون حساب قيمة جهودى الذاتية، وكذلك ما تخلف بأنحاء جسدى من الندبات وآثار الجروح الباقية، كأوسمة لا تمحوها الأيام. فكثيرا ما هويت بالمطرقة على أصبعى فأدميته لعدم تمرسى على التصويب بدقة على رأس المسمار. وهنا انتهرتنى "ليزا" بنبرة متعاطفة: قدر ولطف.. ده اللى أنا كنت عاملة حسابه طول الوقت، علشان زى ما قالوا: دقة المعلم بألف، ودقة الغشيم بجرح،

والأعمال بخواتيمها". وكما ترى هذا هو طبع النساء. بدأت "ليزا" "بالتلسين"، ثم سارعت في الحال لإحضار ما تضمد به جراحي. ومع بواكير اليوم التالي واصلت الطرق بالمطرقة كالمعتاد.

ربما يعن لك السؤال: هل يريد "يورن- ياكوب" استبدال بيته الجديد بذلك الكوخ المتداعي الذي عاش فيه قبل الهجرة؟ وجوابي هو الرفض القاطع. ذلك لأنني لم أكن أمتلك بمسقط رأسي أي شئ ذا قيمة يستحق الذكر، حتى ذيل "حلوف" عديم القيمة وجدير بإلقائه في القمامة. لكن هناك حادث لم يغرب عن بالي أبدا منذ كنت في الثامنة من عمري. فقد أهدتني العمة "دوفرت" ذات مرة ذيل "حلوف" لألعب به. وتحسرت وقتذاك لأنها أعطتني الذيل مفصولا عن دابته. وكنت أدرك في تلك المرحلة العمرية المبكرة استحالة مقايضة ذلك الذيل الحقير بشيء من مظاهر البذخ والترف مثل كوفية من الحرير. حدثت نفسي المعتادة على التقشف ورفض المباهاة، قائلا: هل أنت بحاجة حقا لامتلاك كوفية من الحرير؟ وكان جوابي : إنها لشئ كمالي يمكنك الاستغناء عنه كما أنك لست بحاجة للمبالغة في حسن الهندام ولا للعناية الفائقة بالزي والمظهر.

وها أنا ذا قد عوضني الله خيرا بما بذلت من جهود مضنية وأصبحت أمتلك ١٠ جياد، ٨٠ بقرة، وعددا من الثيران و ١٢٠ خنزيراً. إلا أنني كنت أمتلك فيما مضى عددا أقل من الخنازير. لكن الله بارك لي خلال السنوات الأخيرة في إنتاج الذرة التي تتغذى عليها الخنازير فتكاثر عددها. أما عدد ما أمتلكه من الدجاج فيناهز ٦٠٠ دجاجة وقد يزيد على ذلك. وأصدقك القول بأننا لا نحصي عدد الدجاجات بالضبط. "يعني العدد في اللمون".

ها أنا ذا أواصل كتابة هذه الرسالة الطويلة خلال الشتاء الحالي، والتي يتمحور محتواها حول حيوانات المزرعة، فضلا عن حالتي الاقتصادية بوجه عام، ونهجي في إدارة شئون المزرعة الذي لا يخلو من مواقف طريفة وأخرى درامية،

ثم أبدى ملاحظاتى على جانب من حياتنا اليومية فى أمريكا على خلفية العادات والتقاليد فى ريفنا الألمانى. ولن أشذ فى هذا الطرح عما اعتاد عليه المزارعون من تركيز على الماشية، ذلك لأنها تمثل بؤرة اهتمامهم، وعماد رزقهم، ورأس إيراداتهم. ولا يختلف فى هذا المزارع الأمريكى الجدير بحمل لقب مزارع عن نظيره الألمانى الذى يعرف بأنه فلاح من حيث استعدادهما الدائم للخوض فى كل ما يتعلق بالماشية. فالمزارع الأمريكى والفلاح الألمانى كلاهما يستهلان حديثهما أولا وقبل كل شئ بالعروج على شئون الماشية، ثم يتبسطان فى الحديث عن الماشية ثانية، وإذا بهما يستدركان ما فاتهما ذكره عن الماشية ثالثة. ومن ثم فسوف أبدأ بإلقاء الضوء على موضوع الخنازير:

لا فرق بين الخنازير فى كل من ألمانيا وأمريكا فى شيئين اثنين: ذيلها الحلزونى الشكل، فضلا عن عوائها "أوكه.. أوكه". أما فيما عدا ذلك فكل شئ آخر مختلف فى كلا البلدين. فليس من المتصور فى أمريكا تربية الخنازير خلف حواجز بالحظائر أو داخل اسطبلات ضيقة ليست بها مساحات معيشية كافية لنوم الحيوان وغذائه والتخلص من روثه فضلا عن التهوية والإنارة ومياه الشرب. لكننا لم نلتفت فى أول عهدنا بالهجرة إلى ذلك التغير فى المواصفات الصحية لإيواء الخنازير، بل تمسكنا بما اعتدنا عليه فى قرانا، اعتقادا منا بأنه ما ينبغى عليه أن يكون. لقد أغفلنا أن للمزارع الأمريكية أسلوبها المجرب فى تهيئة البيئة داخل الاسطبل، والتى تستوفى متطلبات ذلك الحيوان على نحو أفضل. وهكذا اضطررنا لاحقا إلى الأخذ بها. فالخنزير يحتاج إلى حرية الحركة وإلى أشعة الشمس. ولذا فهو يتوق الى ضوئها الساطع عشق الإنسان للنور. فلا عجب لتمتع ذلك الحيوان فى ربوعنا بالصحة على الدوام. ومن ثم فلا يسعنا إلا الاستهجان مما تنشره صحفكم السيارة من أخبار (مختلقة) عن إصابة الخنازير الأمريكية بالديدان الشعرية الطفيلية(تريكينا)

كما يثير استغرابنا ودهشتنا ما نقرؤه على صفحاتها من حين لآخر عن فرض حجر صحى على المزرعة الفلانية أو السوق العلانية فى أمريكا، بحجة ظهور داء الخنازير على بطونها وهو ما يعرف بالحمرة أو الحميرة.

أصبح عندى فى هذه الأثناء ٣٢٠ آكرًا من الأرض (حوالى ٣٢٠ فدانا) صالحة لزراعة العلف الأخضر، خصصتها جميعا لتوفير الغذاء لأبقارى. علاوة على امتلاكى لمرعى تقترب مساحته من ٤٠ آكرًا (نحو ٤٠ فدانا)، وهى كافية لكى تقتات على حشائشها الخنازير. وتستطيع الخنازير الانطلاق من حظيرتها مباشرة لترتع فى مروج المرعى. سورت المزرعة بسور متين، فقمت بدق القوائم الخشبية فى الأرض وجعلت بين القائم والآخر مسافة طولها ٨ أقدام. وثبت على القوائم فى محاذاة الأرض لوحين من الخشب بعرض ٦ بوصات، ثم شددت ٣ خطوط من الأسلاك الشائكة فى أعلى السياج. ويستغرق تسمين الخنازير فى المرعى مدة تتراوح بين ٣ و ٤ شهور حتى تبلغ زنة الواحد منها ١٠٠ رطل. ولو افترضنا أن كل ١٠ خنازيرْ تحتاج إلى آكر واحد من المرعى لكى تتغذى على حشائشه، فيكون الإيراد المتحصل من كل آكر هو ٤٠ دولارا. علما بأن الخنزير الأمريكى أرخص ثمنا من مثيله عندكم، لأن سعر المائة رطل قام لا تزيد هنا على أربعة دولارت حاليا. ومن ثم فلو اكتفى المزارع بتسمين مائة خنزير فقط، فسوف يحقق إيرادا معتبرا يقدر بأربعمائة دولار. أما إذا قام المرء بزراعة الذرة لكى يحصد ٥٠ بوشيل (كيل البوشيل = ٣٦,٣٥ لتر) من الآكر الواحد، وإذا بلغ سعر بوشيل الذرة ٢٠ سنتا، فلا ريب أن محفظة نقوده سوف تشعر بالفارق بعد انتفاخها بذلك الإيراد الوفير. ولو لم تكن المحفظة جمادا غير ناطق، فربما عبرت عن ارتياحها قائلة: إنى أحب هذه الأرض!

ولكن، ماذا نفعل بالذرة بعد الحصاد؟ نستعين بالجاروف فى تكويم الكيزان فى أكوام، ثم نضرم فيها النار لشيِّها. وما يلبث أن تتحلق الخنازير أكوام الذرة، وتبدأ فى ازدراد ما يكون قد برد من الكيزان. وتشتهى الخنازير أكل كيزان الذرة

المشوية بشراهة حتى تشبع، ثم تعب الماء عبًا حتى تمتلئ. وللعلم، لقد قمت يوم ٢ فبراير بنقل ٨٠ خنزيرا إلى سوق المواشى فى شيكاغو وحققت ببيعها إيرادا قدره ٦٨٥ دولارا. وسوف أعيد الكرة فى مطلع العام القادم. كم أنا آسف حقا لعدم تمكنى من بيعها فى سوق ألمانية للماشية لأحقق بذلك إيرادا أكبر، نظرا لارتفاع سعرها عندكم.

آن الأوان لكى أعود ثانية لاقتناء قطيع من الثيران، بعد أن شونت حمولة ١٢٠ عربة من القش بالمخزن. وقد سبق لى إرسال ٢٠ ثورا قبل أعياد الميلاد إلى شيكاغو، حيث تم بيعها بحوالى ٨٠٠ دولار. وبذلك حققنا سعرا مجزيا. لكن أسعار الأبقار تدهورت عندنا فى الوقت الحاضر حتى أصبح ثمن البقرة الجيدة يتراوح بين ١٥ و٢٣ دولارا لا غير. وقد وصل إنتاجى من الذرة ٣٠٠٠ بوشيل خلال هذه السنة، فقمت ببيع ٤٠٠ بوشيل منها بسعر ٣٥ سنتا للبوشيل الواحد. وهو سعر مغر عندنا. لكننا أصبحنا نستهلك جانبا كبيرا من الذرة لأننا نقدمها علفا للماشية، فنقوم بحش عيدان الذرة وهى لا تزال خضراء ثم نكدسها بعناية فى طبقات، طبقة فوق أخرى، حتى لا يتخللها الهواء فتتلف. وقد تبين لنا أنه عندما تتغذى الأبقار على ذلك العلف فإن ضروعها تدر كمية من الحليب تفوق كثيرا الكمية التى كنا سنحصل عليها لو كنا قد علفناها بالردة.

وبخلاف ما سبق التنويه إليه، فنحن نعتنى بتربية الأبقار بإطلاقها فى المراعى صيفا لكى ترتع بحرية بدون حاجة إلى كلاف، حيث أنها تعودت على الرجوع الى الحظيرة من تلقاء نفسها. أما خلال فصل الشتاء فهى تظل طليقة فى اسطبل الأبقار ولا تفارقه. وبمجرد أن تبدأ الحشائش فى النمو والاخضرار فإذا بالأبقار تهرع إليها حتى تغيب فى المروج عن الأنظار إلى حين، لأنها درجت على العودة إلى المزرعة فى موعد حلبها، نظرا لأن الضرع الملآن يدفع بها إلى الحلاب دفعا فى توقيتين محددين، هما: الرابعة والنصف بعد الظهر شتاء، وتمام السابعة مساءً فى الصيف. وقد تصادف ذات مرة أن وقفت ساعتى، لكنى لم أقلق

لذلك وقلت لنفسى لا بأس: "أنتظر حتى تأتى الأبقار إلى اسطبل الحلب". وبمجيئها ضبطت ساعتى على موعد حلبها. وعندما سنحت لى أقرب فرصة ارتدت فيها المدينة، سارعت إلى مقارنة ساعتى بساعة الميدان، وكانت المفاجأة، لقد وجدت ساعتى مضبوطة!.

لم نتمكن إلى الآن، خلال هذا العام، إلا من بيع ٣٦ عجلا فقط. وهى عجول ولدت فى موسم الحصاد، واعتمدت على أنفسها فى رضاعة اللبن بالشب إلى ضروع أمهاتها. وبذلك وفرنا تكاليف الحلب لمدة امتدت إلى عدة أشهر. وما إن انقضت فترة الرضاعة حتى فطمنا العجول ثم علفناها بالشوفان وحققنا ببيعها إيرادا قدره ٥٩٠ دولارا. وبذلك ضاعت علينا فرصة تحقيق ضعف هذا المبلغ لو كان من المتيسر بيع تلك العجول فى ألمانيا. ومع هذا فيعتبر تسمين العجول بغرض بيعها بعد وقت قصير مشروعا عالى الربحية. ولكن هل يقتنى منتج الحليب فى المقابل قطيعا من الماشية الحلابة يضم إليه إناث العجول البالغة لتحل محل الأبقار التى جف لبنها؟ يتحقق ذلك طبعاً عندما ينتج مشروع تربية الماشية الحلابة نتاجا مربحا. بمعنى أن لا يفرط منتج الحليب فى رزقه ويبيع إنتاجه بثمن بخس لكى تثرى "مصانع الزبد" على حسابه! فى هذه الحالة يكون من الأفضل له الاستمرار فى مشروع للمواشى غير الدائمة، فيقتنى العجول لمدة قصيرة لتسمينها ثم بيعها. وتحضرنى فى هذا المقام النادرة الآتية: جاء إلى مزرعتى ذات مرة أحد الوجهاء من أصحاب مصانع الزبد الذى كان خبيرا فى شئون القشدة والكريمة. فوجئت بركوبه سيارة فارهة. كان الزائر أمريكيا من القادرين على اقتناء سيارة فى أوائل عهد الناس بالأوتومبيلات![1] وبعد أن اختبر عينة من الحليب والقشدة، لاحظت تعمده المغالطة فى تحديد نسبة الدهن فى اللبن التى على أساسها يتحدد السعر، كما راعنى أنه حاول استغفالى عند معاينته لسمك طبقة القشدة، موهما إياى بحاجة

---

(١) صنعت أول سيارة تسير بالبنزين فى الولايات المتحدة سنة ١٨٩٢، لكن بداية تصنيع السيارات الأسرع يرجع الى عام ١٩١٢.

مصنعه إلى كمية من الحليب والقشدة تزيد نسبة الدسم فيها كثيرا على ذلك المعدل المعتاد والمجرب بمزرعتى لإنتاج كيلو جرام واحد من الزبد، بدعوى انخفاض نسبة الدسم فى إنتاجى من الحليب. وما لبث أن التفت إلىّ فى تودد ليقول: أريد التعاقد معك على شراء كل إنتاجك من القشدة لمدة عام كامل، وبذلك تتخلص من همومك كلها دفعة واحدة، خاصة وأن مزرعتك نائية وبعيدة عن العمار. طفقت أحدثه قائلا: "إنت إتقدمتلى بعرض جيت فيه على نفسك حبتين. علشان كده أنا ما أقدرش أقبله وإلا ظلمتك. ونصيحتى ليك إنك تحرز عليه وتخليه لنفسك يمكن ينفعك فى يوم العوزه". خالجه قلق وتردد لمعنى قولى فتمتم: هاودنى وسوف أدفع لك سعرا مجزيا لكل ما تورده لمصنعى من القشدة عند باب المزرعة. قلت له فى تشفٍ ظاهر: "عرضك ما يلزمنيش، وبين البايع والشارى يفتح الله. ولو كانت الشورة شورتى كنت قلتلك: روح إعمل من الرمل زبدة.. وليك عندى نقلة رمل هدية لجل تعبك وتشريفك لينا". وما كدت أختم كلامى حتى اندفع نحو سيارته فى عصبية وانطلق بها ولم أر وجهه فى مزرعتى مرة أخرى. لقد كان ذلك الرجل من تلك الفئة من الناس التى لا تألو جهدا فى البحث عن المغفلين لإيقاعهم فى حبائلها. لكن لا بد له من التبكير فى اليقظة قبلى حتى تنطلى على حيلته: "هو يعنى علشان راكب أتوموبيل جديد نوفى .. يقدر يميل رأسى ويضحك على دقنى.. لأ ده بعده!".

لا يقدر أصحاب المزارع الأمريكية، على ما يبدو، قيمة روث المواشى كما ينبغى. أما الفلاحون الألمان فيقدرونه حق قدره كسماد طبيعى لإخصاب الأرض، كما لا يفرطون فى أقل كمية منه تبقى عالقة بشوكة الروث. فلا عجب أن ترى أولادهم يتكالبون على جمع أقراص الروث التى تخلفها المواشى بالطرقات. وقد يعزى عزوف المزارعين الأمريكيين عن تسميد التربة "بالسباخ" إلى أن استزراع الأراضى المستصلحة حديثا، بعد اجتثاث أشجار الغابات والأدغال، لا يحتاج إلى مخصبات خلال أعوام طويلة قادمة. فهى أطيان بكر ولا تزال فى عنفوانها، لكنها لا تنتج سوى أعواد الذرة الخضراء لكمون الحبوب فى كيزانها. ثم ما يلبث أن

تلين عريكة تلك التربة على مر السنين، وتبدأ فى إنتاج نوعية من الذرة لا تجد لعلو مواصفات جودتها مثيلا لها عندكم فى ألمانيا. وفى أعقاب ذلك تظهر بوادر فقدان التربة لخصوبتها رويدا رويدا وحاجتها إلى سماد عضوى. وقد يكون من المناسب فى هذا المقام أن أقص عليك قصتى مع جارى صاحب المزرعة المجاورة. امتلأ الحوش الداخلى لمزرعته بأكوام من الأرواث[1]، والتى صارت تعترض طريقه وتعرقل حركته علاوة على تخطيها السور الخارجى لتتبعثر وتتناثر هنا وهناك. قلت له مدفوعا بروح الزمالة وأريحية حسن الجوار: أريد أن أخلصك من الروث المتراكم فى كل مكان، ولن تتحمل فى سبيل ذلك أى مجهود أو تكاليف، لأنى سوف أتولى نقل الروث بمعرفتى. وافق جارى على الفور، ولم أتوان من ناحيتى فى رفعه ونقله إلى مزرعتى. وبلغ حجم ما رفعته من الروث مائة عربة أو يزيد، استخدمتها جميعا فى تخصيب أرضى. وفى العام التالى لم يلق جارى بالا للزمالة وحسن الجوار، وتولى رفع روث بهائمه بنفسه لكى يخصب به أرضه، لأن "الخسارة تعلم الشطارة"!

أريد أن أضمن رسالتى هذه كلمتين عن البيض. علما بأن البيض هنا فى أمريكا أغلى ثمنا منه عندكم بالقرية، إذ يبلغ سعر الدستة ١,٨٠ مارك فضى[2]، نظرا لأن مدينة نيويورك تستوعب كل ما تنتجه المزارع من البيض. وهناك يتولى المحتكرون من بارونات البيض "تسقيعه" فى ثلاجات ضخمة إلى حين يرتفع الثمن إلى المستوى الذى يغريهم بطرحه فى الأسواق. وإذا بهم يعيدون الكرة بالضغط

---

(١) ذكر " يورن – ياكوب " بعاليه أنه أصبح مالكا لـــ ٢١٠ رؤوس من مختلف أنواع الحيوانات، من بينها ٨٠ بقرة قد يصل حجم ما تنتجه بمفردها من الروث يوميا حوالى ٣ أمتار مكعبة . ذلك لأن الخبراء حسبوا أن كل ٢٥ حيوانا من زنة ألف رطل تنتج نحو متر مكعب واحد من الروث خلال اليوم الواحد، والتى ينبغى رفعها حفاظا على صحة المواشى، إما للاحتفاظ بها على هيئة أكوام أو بجمع البوائل الناتجة فى خزانات يطلق عليها خزانات مواد السباخ السائلة الشائعة حاليا.

(٢) صار "المارك" إبان دولة الرايخ الألمانية عملة رسمية، وكان "مارك الرايخ الذهبى" (= ٠,٣٥٨٤ جرام من الذهب النقى) "والمارك الفضى" (= ٥,٥٥ جرام من الفضة). ونسبة المارك الفضى إلى الذهبى = ١ : ١٠.

مرة أخرى على أسعار إنتاجنا من البيض، من أجل الحصول عليه "بتراب الفلوس". أما نحن(١) فلا نستطيع بدورنا الضغط على الدجاج البياض حتى يكف عن وضع البيض أو يقلل من وضعه. ومن ثم لم يتبق أمامنا من مخرج آخر إلا ازدراد البيض بأنفسنا ازدرادا، وكأننا ضوار جياع، نكاد من كثرة ما أكلناه منه أن نصيح صياح الديوك: كى كى ريكى.. كى كى ريكى! وصرنا نتوهم الكرة السماوية بأجرامها ونجومها على هيئة "بيضة مقلية عيون". وأصبح يخطر بروعنا أن شمس الأصيل ليست إلا مجرد قرص من عجة البيض.

قبل العامين الماضيين، كان قد فاض بنا من كثرة إنتاجنا للبيض، وأصبحنا نشيح عنه بوجهنا حتى لا نراه رأى العين، وكأننا نتجنب إحدى ضربات البلاء العشر التى حلت بفرعون(٢). ومما زاد الطين بلة، تدهور أسعار الخنازير فى الوقت نفسه، مما حدا بنا إلى إهداء الشارى خنزيرا فوق البيعة بغية التخلص من كثرتها، ولكن بدون جدوى. زد على ذلك الارتفاع الملحوظ فى معدلات ولادة إناث الخنازير على نحو لم نشهد له من قبل مثيلا. أصبحنا نسمع صراخها وعويلها من كل حدب وصوب. ولكن كيف خرجنا من ذلك المأزق الخانق؟ توجهت بسؤال إلى "ليزا": هل تعرفين ماذا قال فلاح قريتنا "هانيورن تيمرمان" عندما واجه أزمة مماثلة؟ همست "ليزا" بشغف عظيم وهى تتمتم: وبماذا نصح؟ أجاب بأن جدته عندما مرت بضائقة مماثلة قالت له بحسم، بأنها لم تتوان فى إطعام الدجاج بلحم صغار الخنازير. حقا لقد كانت جدة " تيمرمان" امرأة ماهرة.

هتفت "ليزا" بتأفف وامتعاض بالغين: "إيه اللى بتقوله ده يا "يورن– ياكوب"، ده صدق اللى قال إن العقل زينة. دا أنا ماكنت باحسب إنك من اللى بيصدقوا

---

(١) بمعنى من لا حول ولا قوة لهم من منتجى البيض. أغلب الظن لعدم انضمام هؤلاء إلى تنظيم اقتصادى نوعى (مثل: جمعية تعاونية للتسويق لا تهدف إلى معظمة الربح) قادر على حماية مصالحهم على جانبى العرض والطلب. وذلك بتشكيلهم قوة ضغط مقابلة لقوة التجار (بارونات البيض) تصون حقوق المنتجين والمستهلكين فى الوقت نفسه.

(٢) راجع العهد القديم، سفر الخروج، الإصحاح السابع وما بعده.

الكلام الفاضى ده.. ده تهريج بصحيح.. آل الفراخ تاكل لحم خنزير آل. مش نظام ربنا هو إللى خلى الفراخ تاكل قمح ودرة وعيش وبطاطس. أما إن إحنا نأكلها لحم خنزير، فدى حاجة مترضيش ربنا، ومتمشيش كمان مع النظام اللى شرعه ربنا لخلايقه". – قلت لها: عجبا لأمرك يا " ليزا". أراك قد نسيتِ قصة السبع بقرات العجاف التى أكلت السبع بقرات السمان[1]." ودى بقى حاجة مكتوبة حبر على ورق فى التوراة. وعلشان كده ما تبقاش ضد نظام ربنا". قالت وقد ارتسمت الدهشة على محياها: "ده اللى إنت قلته كان حلم وبس". وهنا نظرت إليها نظرة ود وحنان وراضيتها بعبارات طيبت خاطرها حتى اقتنعت بوجهة نظرى للخروج من الأزمة. ولم يمض وقت طويل حتى تعاونا سويا على ذبح صغار الخنازير ثم سلقنا لحمها وقدمناه علفا للدجاج. وبذلك خرجنا من الضائقة "بصنعة لطافة"!.

ولكن، ماذا ترتب على ذلك؟ الذى حدث هو أن الدجاجات بدأت تبيض بيضة فى إثر أخرى بدون انقطاع وكأنها قد أصيبت بلوثة من الجنون . ودخلنا بذلك فى حلقة مفرغة أعيانا الدوران فىّ ركابها وبدا لنا أن لا مخرج منها. دب اليأس فى نفسى ونفس "ليزا" من تكاثر إنتاج البيض ومما أكلنا منه، وإذا بها تصيح بصوت ملسوع لتقول: "دا العملة اللى احنا عملناها خلتنا بقينا جرسة بين الخلق وسيرتنا بقت على كل لسان". وقد علمتنى طول العِشْرة أن ارتفاع صوتها على هذا النحو يدل على أنها غاضبة بالفعل. قلت لها: هدئى من روعك يا "ليزا" لأنه لا تزال فى جعبتى خطة. وإذا بها تنفجر قائلة: "بتقول إيه.. خطة تانى؟ إنت باين عليك عاوز تخرب بيتنا كمان وكمان". قلت لها محاولا إقناعها: إنها خطة جادة يا "ليزا" ويا حبذا لو قمنا بتنفيذها. أنصتى جيدا حتى يتسرب ما أريد أن أفاتحك فيه إلى إدراكك: "إنت لسه عاوزه تاكلى بيض أكتر من كده؟" أجابت فى دهشة مبغوتة: "طبعا لأ!". "هى لسه نفسك مفتوحة لأكل العجة؟". لم تنبس وآثرت السكون لأنها لم تعد تستطيع سماع كلمة عجة! "يعنى دلوقتى بقينا متفقين، زى راسين فى طاقية،

---

(١) راجع العهد القديم، سفر التكوين ٤١ : ١-٤.

والاتحاد معناه قوة". وبكده أبدأ أشرحلك الخطة: بعد أن تخلصنا من صغار الخنازير، لم يبق أمامنا إلا أن نعلف العجول بالبيض، حتى نتخلص من إنتاجه الوفير بالمثل. وسوف ترين نتائجها المبهرة تبشر بالخروج من أزمتنا بالتغلب على هذه الحلقة المفرغة وكسرها.

جاء ردها غاضبا، إذ قالت: "يورن– ياكوب، إنت باين جرى لعقلك حاجة! وإذا كانت حتجيلك أفكار تانية زى دى، يبقى لازم تلحق نفسك قبل ما يفوت الأوان! الأول تعلف الفراخ بلحم الخنازير الصغيرة، ودلوقتى عاوز تؤكل العجول بيض، ويظهر إنك حتدبح بعد كده العجول علشان تسمن الخنازير على هبر اللحم المشوى علشان ما تبطلشى ولادة زى الأرانب! وبكده يبقى مش ناقص من حلقة اللف على شغلنا فى الفلاحة إلا إنك تكمل المشوار وتسمن التيران بفراخ مشوية ؟! ده مبقاش شغل فلاحين، ده مبقاش شغل خالص! دى بقت عيشة تطهق!".

وما لبثت أن جلست بعصبية فى المقعد الهزاز. وما كادت تجلس حتى غيرت رأيها وهبت واقفة لمغادرة المكان مسرعة . تعقب بصرى خروجها كسهم وامض، ثم قلت لنفسى: إن ما ذكرته "ليزا" عن جولة المشروعات المزرعية لهو أمر ينم عن بعد نظر، بل ويستحق التمحيص بروية، ذلك لأن دورة الأنشطة المزرعية أشبه ما تكون بأرجوحة من نوع "صينية الخيل الدوارة" التى تتوالى تباعا على فروع الإنتاج الحيوانى المختلفة وعلى محطات التاريخ الطبيعى برمتها. وما إن اختمرت الفكرة فى رأسى حتى وجدت نفسى أعبئ جيوبى بالبيض وأتوجه إلى مأوى العجول الرضيعة. وعندما لاحظت "ليزا" أن اللعاب يتحلب للبيض فى أفواه العجول، تلاشت ثورة غضبها سريعا، وطفقت تملأ جيب مئزرتها بالبيض مثلما ملأت جيوبى من قبل، ثم هرعت لمساعدتى فى تغذيتها. وهكذا تعاونا سويا على علف العجول بالبيض، بينما ارتسمت ابتسامة الرضا على وجه "ليزا" كما اهتز طربا قلب الفحل الأسود، وسرت رعشة السعادة فى جسده.

الصديق العزيز، أقول لك، بعد إقبال العجول على ازدراد البيض بشراهة صار جلدها أملس فى نعومة جلد ثعبان الماء بعد تسويته على الدخان وإذا حلت بمزرعتنا ذات يوم أزمة مشابهة فى إنتاج البيض والعجول مثلا، فسوف نكرر التجوال بين الأنشطة المزرعية من جديد. ولكنى أستسمحك يا صديقى بعمل استثناء هذه المرة، فلا تقرأ هذا الفصل من الرسالة على أسماع أهل القرية كما جرت عليه العادة، منعا للجرسة وحتى لا يضحك على فعلتنا القاصى والدانى منهم: بداية من سكان البيوت على حافة كثيب "لاسين" وحتى سكان الأكواخ على سفح جبل "شنيلين- برج".

كان البيض زهيد الثمن خلال السنوات الأولى التى صرنا فيها ملاكا للمزرعة. وكنا نبتهج آنذاك إذا ما بلغ سعر دستة البيض ٨ سنتات. وفى تلك الأثناء حدثت حكاية الديك المقدام، حينما كانت المزرعة لا تزال محاطة بغابات وأدغال كثيفة ترتع بداخلها صنوف من صغار الحيوانات المفترسة. وكانت قوافل الدجاج قد اعتادت على التجول فى أرجاء حقول المزرعة المتاخمة لأطراف الغابة. لكن بعض الدجاجات كانت تضل الطريق وتواصل السير إلى داخل الدغل فى رحلة اللاعودة التى لا تؤوب منها إلى المزرعة أبدا. لم يكن لدينا فى ذلك الحين دجاج كثير، ولذا كنا نحصى عدده، ونلاحظ تناقصه شيئا فشيئا. توجهت إلى "ليزا" بالقول: هذا أمر لا ينبغى السكوت عليه ولا بد من وضع حد للاختفاء المتكرر للدجاج، لكن ماذا تعتزم القيام به؟ قلت لها: انتبهى قليلا. سوف أقوم بشراء جرس صغير لأعلقه فى رقبة الديك الأسود المنفوش، بصفته الرأس الكبيرة لقطيع الدجاج. وبذلك تفزع الحيوانات المفترسة عند سماعها صليل الجرس وتولى الأدبار، كما يعرف الدجاج فى الحال موقع زعيم القطيع، الديك المقدام، فيلجأ إليه عند الحاجة طلبا للحماية.

أجابت "ليزا" وقد ارتسمت الدهشة على محياها: "يورن– ياكوب" ليس من الحكمة عمل ذلك. ألا تخشى كلام الناس و"تلسينهم" علينا؟ قلت لها: إن الكلام معفوّ عنه من الضرائب، وأنا لا أعبأ بما يقوله الآخرون.

لكن الديك الأسود سوف يصاب بمس من الجنون، فهل يرضيك ذلك؟ هدئى من روعك يا "ليزا" ولا تتعجلى الأمر! راحت تنتقل من موضوع لآخر ولم تفارق البسمة ثغرها أثناء ثرثرتها، وهى علامة طيبة تدل على موافقتها على فكرتى.

وهكذا علقت الجرس حول رقبة الديك الأسود. لكننى خفت فى مطلع الأمر عندما ثارت ثائرته وراح يتخبط على غير هدى كأن به لوثة. وكان كلما زاد صخبه، كلما علا رنين الجرس. فقد حاول الديك نقر الجرس بمنقاره عساه يتمكن من انتزاعه من حول رقبته، لكن كل محاولاته باءت بالفشل. ثم أخذ يتمرغ على ظهره فى التراب ويرفس برجليه فى الهواء دون أن يجديه ذلك نفعا. أشفقت على الديك الذى جن جنونه وقلت لنفسى هلعا : وماذا لو أقدم الديك المسكين على الانتحار بإلقاء نفسه فى الماء حتى يتخلص من حياته غرقا؟– وكانت قوافل الدجاج تبادر بالفرار منتفضة فى كل اتجاه حالما يهل الديك بالجرس مصلصلا، فتجوب جيئة ورواحا فى أرجاء الحقول كما كانت تكاكى وهى تصيح من الفزع ضاربة بأجنحتها فى الهواء كلما مرق الديك فى سرعة البرق والجرس يصلصل من حول رقبته.

قلت لزوجتى "ليزا": لم نعد نرى حتى فى سلالة الدجاج إلا نزرا قليلا من الولاء والحب والوفاء . ولحسن الحظ أن الأمر يختلف بين البشر. قالت "طيب قوم وعلق جرس زى ده فى رقبتك وامشى بيه رايح جاى زى العفريت وشوف إيه اللى حيحصل!" وبذلك نلت نصيبى من التقريع، وكما هو معروف فإن التعود والتطبع هو نصف الحياة. فما لبثت أن عادت المياه إلى مجاريها فى نهاية المطاف، وبدا الديك الأسود شديد الزهو بجرسه وهو يجوب فى أرجاء الحقل متبخترا فى قنزعة وإفراط فى العجب والخيلاء بنفسه، وسرعان ما تعود قطيع

الدجاج على الوضع الجديد. وبذلك ثبت بالتجربة أن تعليق الجرس فى رقبة الديك وسيلة ناجعة جدا ضد افتراس حيوانات الغابة للفراخ.

حدث آنذاك أن مرت على مزرعتنا امرأة روسية من أصل ألمانى وهى فى طريقها لزيارة ابنها المهاجر إلى أمريكا. ترامى رنين الجرس إلى أسماعها، ورمقت الديك بأم رأسها فتسمرت أقدامها وهى تراقب الديك من بعيد فى هدوء. وما فتئت أن انفجرت قائلة: رباه، ما هذا الذى أراه بعينى وأسمعه بأذنى! لقد عشت ستين عاما بطولها، وقطعت المسافة من روسيا إلى أمريكا، ومع هذا فلم أر مثل هذا العجب العجاب من قبل. ثم تساءلت وهى تتمتم فى دهشة: هل أذنت حكومة هذه البلاد بتعليق الأجراس حول رقاب الديوك؟

شرحت لها بجلاء وإسهاب سبب إقدامى على تعليق الجرس حول رقبة الديك. إلا أنها استمعت إلى كلامى بإحدى أذنيها ليخرج من الأخرى دون إدراكها لمقصدى. وإذا بها تهز رأسها فى تأفف غير عابئة بتوضيحى قائلة: أكاد لا أصدق حدوث ما تراه عينى! "إن هذا البلد لا شك عبيط"! إننى لو كتبت لأهلى فى روسيا خطابا وذكرت لهم فيه أنهم يعلقون هنا الأجراس حول رقاب الديوك، وأنها تتهادى فى مشيتها مزهوة بها فى خيلاء، فلا بد أنهم سوف يظنون بى الظنون ليقولوا: لقد جن جنون صاحبتنا أو "ركبها" عفريت من الجن. يا ليتنى بقيت فى روسيا ولم ابارحها مطلقًا!– لكننى هدأت من روعها وأنا أتمتم: لا تجزعى لحضورك إلى أمريكا، واعلمى أن قيصر روسيا لن يعوضك بشراء ديك أو دجاجة إذا ما التهمتها ثعالبه. أما موضوع الجرس فنحيه جانبا؛ إذا كنا نحن معشر البشر نحب أن تشنف الموسيقى آذاننا، فلماذا نحجر على الدجاج من الاستمتاع بأنغامها، خاصة وأنها تساعده على أن يضع البيض بسهولة ويسر؟ إننى على يقين من أنك سوف تقومين بإقناع ابنك بتعليق جرس حول رقبة الديك، ولن تأسفى على ذلك، بل سوف تشكرييننى على الأخذ بتلك الفكرة النافعة. لذلك أنصحك بالعدول عن الكتابة لأقاربك فى روسيا تفاديا للإحراج.

انفرجت أساريرها ولانت عريكتها وإذا بها تقول : حقا إن الظروف هنا فى أمريكا جد مختلفة عنها بالمناطق الجنوبية من روسيا، لذا بات من الضرورى أن أعيد النظر فى سابق تصرفاتى، وكانت مسألة طاقم أسنانى من أكثرها إلحاحا. فعندما شاع أننى عاقدة العزم على السفر، زارنى طبيب أسنان من مدينة "يكاترينو سكلاف" وقال لى: إذا أردت دخول الأراضى الأمريكية بدون مشاكل، فينبغى أن تكون أسنانك سليمة تماما. هذا وإلا أقدموا على ترحيلك إلى روسيا من حيث جئت، ذلك لأن قيصر أمريكا شديد الصرامة فى حرصه على تنفيذ القواعد المنظمة لدخول البلاد بكل دقة. بادرت بسؤال الطبيب: هل المعلومة التى قمت بنقلها صحيحة بالفعل؟ فأجابها دون تردد: نعم إنها كذلك. علاوة على أن صاحب الجلالة قد أصدر فرمانا يتضمن سبعة شروط تتعلق كلها بضرورة سلامة أسنان الوافدين إلى أمريكا. وأصدقك القول بعدم استيفاء أسنانك لتلك الشروط المعلنة، الأمر الذى سيترتب عليه عدم السماح لك بدخول الأراضى الأمريكية. سألته بتوجس ساذج: وماذا عساى أن أفعل حيال هذا الأمر؟ أجابها الطبيب بدهاء: لقد أوصى القيصر الأمريكى بتحرير خطاب يخطرنى فيه بالسماح بدخول البلاد لكل هؤلاء الذين أتولى بنفسى تركيب أطقم أسنان تعويضية لهم قبل شروعهم فى السفر، وسوف أركب لك طقم أسنان جديد مراعاة لظروفك. – هل تقول الحقيقة؟ – طبعا إنها الحقيقة بعينها. لقد بعث لى القنصل الأمريكى فى "أوديسا" بالخطاب سابق الذكر. – لكنى سوف أسافر عبر "بريمن". – الأمر سيان، لأن الكشف سوف يتم عند وصولك إلى نيويورك. وهكذا قام بعمل طقم أسنان كامل لى وحصل منى على أتعاب مرتفعة. وفى المقابل تمت إجراءات الجوازات دون أى مشاكل، ثم تعرفت على قدر كبير من المعالم الأمريكية، ولكنى لم أر مثل ما رأيته عندك.

عاودت المرأة النظر إلى الديك الأسود ثانية، وكان يقف على حافة السور صائحا مصلصلا، وقد انتفش ريشه و"تقنزع" بالعرف الأحمر. وبعد أن احتست

فنجانا من القهوة أعدته لها "ليزا"، بارحت المزرعة لكى تواصل رحلتها من جديد. ولكنها استدارت عدة مرات لكي تلقى نظرة أخيرة على الديك وهى تودعنا.

ناهز ارتفاع عيدان الشوفان فى العام الماضى طول قامة الرجل اليافع، فطالت رقابنا زهوا على نحو ما جرت عليه عادة المزارعين عندما يجود المحصول. وبعد هذه البداية المفرحة توالت المتاعب. كان أولها ظهور العفن البنى على النبات. وتلا ذلك هطول الأمطار بغزارة ثم انحناء العيدان على الأرض الرخوة التى أصبح "عاليها واطيها" بفعل غزارة المياه. واستغرق تدهور المحصول بعض الوقت، لكن فترة سقوط الأمطار كانت أطول، وفى النهاية تبعثر الشوفان فى الحقل وكأن هراس الرصف قد تدحرج من فوقه. وبذلك تأكد ما كنت أقوله دائما بأن طقس هذه الأيام لم يعد بديعا مثلما كان فى سالف العهد، فكل شىء أصبح أكثر سوءا فى عالمنا هذا. فلا عجب أن الحصاد الآلى للمحصول المبلول كان فى غاية الصعوبة، إذ تبين أن كمية ما يجمع منه لم تكن تكفى لتغطية ثمن الدوبارة المستخدمة فى ربط الحزم. ولذلك أقدم مزارعون كثيرون على إضرام النار فى المحصول الذى تلف وصار هشيما. أما عن نفسى فلم أتنازل عن جمع المحصول، واحتجت إلى حوالى ٦٠ رطلا من الدوبارة لحزم إنتاج ٤٠ آكرًا. بيد أنه رغم الاستعانة بآلة الحصاد لم أتمكن إلا من حزم نصف المحصول.

يعجز المرء بكل أسف عن نشر الصيف المطير على حبل الغسيل لتجفيفه كما نفعل بالغسيل المبلول. إذ لم ينقطع انهمار المطر لمدة أربعة أسابيع متواصلة، نما خلالها الزرع دفعة واحدة، وأتلف البلل طلعاته وعناقيده الزهرية. وبذلك لم نعد فى حاجة لتشوين الشوفان المتعفن، فقمت بتكديس البقية الباقية منه فى كومة مستطيلة، وجئت إليها بالأبقار والثيران لتأكل منها، لكنها أشاحت برءوسها عنها فى بادئ الأمر تبطرا وامتعاضا، لافتقادها لما كنا نضعه لها فى المذود من علف شهى تحلّب له لعابها. ومن ثم لم يبق أمام الماشية من خيار آخر سوى أن تلوك ما بالكومة من حزم العلف الضامر. وبحلول بشائر الخريف الأمريكى كانت البهائم

تجر على الأرض آخر ما كانت تعف عن التهامه من الحزم المكومة فى مطلع الأمر وتدوس عليها بأظلافها ازدراء. أجل، هكذا تسير الأمور أحيانا على غير ما يشتهيه المزارعون، مما يفقدهم القدرة أحيانا على رفع رءوسهم المنكسة من مرارة البلوى نتيجة لضياع المحصول . ولكنها سُنَّة الحياة التى لا تعرف الدوام وتجبر الإنسان من حين لآخر بحرمانه صاغرا من بسط الرزق حتى لا يبغى فى الأرض بطرًا واغتزازًا.

صار استئجار الخدم هنا مشكلة عويصة بالفعل، إذ أصبح العثور عليهم من الصعوبة بمكان، أما الاحتفاظ بهم فى عملهم فمشكلة أكثر صعوبة. وينسحب هذا القول بصفة خاصة على الشغالات. وفى بداية عهدنا مهاجرين كانت "ليزا" تتقاضى عن عملها بالمزرعة أجرا لا يتعدى ٣ دولارات فى الأسبوع. أما اليوم فندفع للشغالة أجرا أسبوعيا يتراوح بين ٣ و ٤ دولارات نظير قيامها بالأعمال الخفيفة فقط. هذا فى حين يوكل إلى الرجال بالأعمال التى تتطلب مجهودا عضليا مضنيا. وعادة ما تزداد الأجور بالمدن ارتفاعا على هذا الحد؛ إذ يبلغ أجر الطباخة ٧ دولارات فى الأسبوع، كما يرتفع أجرها الأسبوعى إلى ٨ دولارات فى حالة تكليفها بأعمال إضافية. علما بأن هذا الأجر يعادل ما كانت تحصل عليه الشغالة فى قريتنا فى ألمانيا خلال عام كامل، هذا بالاضافة إلى تكليفها فى نفس الوقت بأعمال شاقة أخرى قد تستمر من الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة من الليل. حقا لقد كانت سنوات عصيبة كنت أنا و "ليزا" نعمل خلالها فى الغالب حتى الحادية عشرة مساء عاكفين على حزم عيدان الذرة. صدقنى لقد كانت أياما شاقة عسيرة. إلا أننا استطعنا مع ذلك الحفاظ على صحتنا. كنا نعمل آنذاك فى مزرعة صغيرة استأجرناها. أما الآن فلدينا مزرعة كبيرة نمتلكها.

أصبحنا نستعين فى مزرعتنا بالآلات لإنجاز كافة الأعمال. وصار سير النقل الدوار يتولى نقل ما كان العمال يحملونه على الأكتاف وينتعونه بالأيادى. فاستخدام الآلات فى العمليات الزراعية هو أمر لا بد منه ويستحيل الاستغناء عنه

فى أمريكا، بدءا بالبذار ومرورا بالحصاد فالدراس وحتى تشوين المحصول. وهكذا حلت الآلات الزراعية محل العمالة ولم نعد فى حاجة للعمال. وعلى أى حال فإن الأيدى العاملة تفضل العيش فى مدن الساحل الأمريكى الشرقى، حيث لا تزيد فترة عملهم على ثمان ساعات يوميا. كما أنهم يأنفون النزوح غربا حيث العمل الشاق بالمزارع وتضاعفه فى موسم الحصاد بوجه خاص. ولماذا ينزحون إذن وأجرهم اليومى يتراوح بين ٤و ٥ دولارات، علاوة على أكل اللحم حتى الشبع بالمجان، الأمر الذى لا يشجعهم على استبدال بعملهم السهل الذى يؤدونه فى الظل خشونة العمل المضنى تحت الشمس الحارقة فيوم العمل بالمزرعة طويل ويمتد من طلوع الشمس حتى الغروب. هذا بخلاف بزوغ الشمس مبكرا فى موسم الحصاد. ولا يعرف موسم الحصاد راحة أو نظافة لأنه موسم التقشف فى استهلاك الماء؛ إذ عادة ما يمسك فيه الفرد عن الاغتسال كما يقلع عن تمشيط شعره. ولن أصف لك كثافة ما يطير هنا من حشرات وهوام لأنك لن تصدقنى فهى لا تكف عن وخز وقرص ولسع البشرة حتى يبدو وجه الإنسان على هيئة "شكاكة إبر"، مثل تلك التى تستخدمها "ليزا" عند رتق الثياب، أو قل إنها على هيئة قنفذ (دلدل) مدجج ظهره بالأشواك. ولكن ما يحول بين المرء وبين مواصلة وخزالهوام هو تلك الطبقة السميكة من الوسخ التى تكسو الوجه نتيجة لجفاف ذلك المزيج من العرق والغبار.

وهى طبقة سميكة أشبه بوحل داكن غطى وجوه العارقين غير الوضيئة، فبدت كالمتخفية بقناع قد تَسَوَّد بالسناج. ولك أن تتخيل ملامح سَهْوَان مسح فى غفلة منه أثناء العمل المضنى بظهر كفه على جبين لوحته الشمس وهو يتفصد عرقا. لا ريب أن طلعته لن تكون بذلك أكثر حسنا وبهاء، لأن الوجه الملطخ بالقذر سوف يزداد بالتالى "شخبطة" على تشويه. (وفى عهد لم تكن آلات التصوير قد انتشرت فيه بعد) حمدنا الله لعدم وجود رسام يرسمنا بعد أن غير موسم الحصاد ملامحنا كما عبث بشعورنا الشعثاء. وحتى لو افترضنا حضور رسام تولى رسم صورة طبق الأصل لوجوهنا، ثم عكفنا على التطلع إلى محاكاة رسمه لسحنتنا،

فأغلب الظن أننا كنا سنحدجه بنظرة ملؤها الارتياع، لفظاعة ما آل إليه شكلنا من جراء عدم الاهتمام بالنظافة والمظهر. وربما كان وقع الصدمة لرؤية ملامح وجوهنا مرسومة على غير ما ألفناه سوف يرغمنا على القول: هيهات أن تصور تلك اللوحة وجوه آدميين، بل هي تعبر عن سحن أبالسة وشياطين، أُذِنَ لهم في التو واللحظة بالخروج من جهنم التي كانوا في سعيرها يصطلون، فبدت جباههم كأنها كوتها النار، ووجوههم كأن سودها الهباب. وما كانت تنطفئ جذوة الأشغال الشاقة في موسم الحصاد، حتى تشتعل شرارة الاشتياق المحموم إلى النظافة وإلى التعطش المقصود لاستعمال الماء والصابون للتخلص من الأدران العالقة بالجسد لكي تتفتح فيه مسام الانتعاش وإصلاح المهج. وربما يتعذر عليك تقدير كمية الصابون التي تستهلكها المزرعة خلال فترة ما بعد الحصاد. فهي بهذا الكم الذي ربما يستطيع به رئيس هذه البلاد أن يوصي بتبييض بشرة بضع عشرات من الزنوج بشكل يستحيل معه على أمهاتهم التعرف عليهم ثانية.

وكذلك في موسم الحصاد، غالبا ما ينخرط الطلبة في سلك الأعمال المزرعية المساعدة، ومنهم أبناء أساتذة وأبناء قسيسين. وفي مضمار تشغيل الطلبة تختلف أمريكا عنها في ميكلينبورج. فهنا يقبل طلاب المعاهد على العمل خلال الإجازات في المزارع. ولما كانوا لا يعملون طوال ساعات النهار، لذلك فهم يتقاضون أجرا أقل. وعندما تشرف الإجازة على الانتهاء، يكون في جيب كل طالب بين ٩٠ و ١٠٠ دولار، تعينهم في فترة الدراسة الشتوية على تحصيل العلم والتفرغ لقراءة المراجع العلمية. لذلك فإن العمل بالمزرعة لا يجعلهم أكثر غباء. وهناك بون شاسع بين احتكاك الطلبة بالأرض وبالناس في المزرعة بأنفسهم، وبين التعرف عليها (نظريا) من خلال الكتب الدراسية. ذلك لأنه ربما يحجب الورق العيون عن التبصر. فأن يعمل الطالب بضعة أسابيع في المزرعة وقد ارتدى القميص والبنطلون لهو شيء شديد الاختلاف عن زيارتها في "بدلة الإيافة" السوداء خلال سويعة في المساء لكي يقول: أخي العزيز.. أختي العزيزة.. كيف حالكم

وطاب مساؤكم! ففى المزرعة يعى الطلبة مقدار العرق اللازم لإنتاج رغيف من الخبز؛ فهم يعانون الأمرين لبذلهم مجهودا عضليا لم يألفوه، فتسمعهم من الإرهاق يتنهدون، وفى دجى الليل تراهم إلى النوم لماما ما يخلدون. أما فى وضح النهار فتخور أحيانا من التعب قواهم فيقعدون. حينئذ تقوم "ليزا" بتطبيبهم. لكن ما إن كانت تجف على وجوههم تلك الطبقة السميكة التى مزيجها عرق و"عفار"، حتى يكتسبوا مناعة تعصمهم من وخز ولدغ ولسع الحشرات والهوام، فإذا بهم يتوافقون مع وضعهم الجديد، ويصبح كل شىء على مايرام.

وهناك فئة أخرى من الطلبة تقضى الإجازة فى تجوال وقرع على الأبواب من أجل بيع الكتب والتصاوير. وهو عمل أقل جهدا ومشقة، وبالتالى فهو أقل عائدا، كما أنه غير مضمون النتيجة. إلا أننى تعرفت على واحد من هؤلاء، كان على حذق ودراية فى ترويج الكتب وبيعها. إذ كان كثير الكلام، حسن الحديث، طليق اللسان، مثل طاحونة تدور بقوة دفع الماء المتدفق فى الأعوام الغزيرة الأمطار. أدر عليه ذلك العمل قدرا كبيرا من النقود، وقد استطاع ذات مرة حصد ٤٠٠ دولار خلال إحدى الإجازات.

فى موسم الحصاد تقتصر استعانتنا بالمحشات الطويلة الذراع فى حصد إنتاج المساحات القزمية فقط. ذلك لأن المحشات المصنعة فى أمريكا أقل جودة منها عندكم لسهولة كسرها. لذلك نحرص فى بعض الأحيان على التوصية بإرسالها من ألمانيا، نظرا لجودتها ولمرونة سيوفها، حيث يطرقها الحدادون الألمان بعناية فلا تنكسر فى الاستخدامات العادية. ويعزف الأمريكيون عن تقليد طريقة تصنيعها عندكم، لتعذر استخدامها فى المزارع الأمريكية المترامية الأطراف. فمن أين يأتى هؤلاء المزارعون بتلك الأعداد المهولة من الأيادى العاملة التى تتولى حصد الإنتاج الوفير من المحاصيل فى مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية؟

حاولنا مرارا، وباءت بفشل ذريع جميع محاولاتنا للاستعانة بالشغالات. لذلك لم نكن راضين عن جهودنا التى لم تكلل بالنجاح، ولم ترقنا التجربة كلها أو كان فيها ما يبعث على الابتهاج. أرسلنا بادئ ذى بدء فى طلب عدد من الشغالات البولنديات. أولئك أعرضن خلال فصل الصيف عن لبس قمصان داخلية. وقد سألتهن "ليزا" فى هذا الأمر، كما تحققت بنفسها من صحته. ومن ناحية أخرى كن فى فصل الخريف حريصات على ارتداء قمصان داخلية من نسيج صفيق، تميز بأنه أكثر سمكا مما ترتديه نساؤنا. وكذلك اعتدن على عدم خلعها أو استبدالها طول فصل الشتاء. وبحلول فصل الربيع كن يتخلصن منها، أو على الأحرى ما تبقى منها، بكل ما كان يسرح فيها ويتنطط. أما أن يقدمن على تغيير تلك القمصان التحتية قبل حلول الربيع، فكان أمرا إدا، وخطيئة تكاد تدخل فى عداد الكبائر، التى لا يجوز الاقتراب منها أو حتى التفكير فى الخروج عليها. وعندما فاتحتهن "ليزا" فى هذا الأمر، نظرن إليها بعيون اتسعت حدقاتها، وكأن مجرد التفكير فيه من المحرمات على البشر. يا إلهى كم هى واسعة عيون ما خلقته من البوم! وبالتالى فإنهن لم يكن يبدلن الفساتين والنصفيات (الجونيلات) حتى يتنسل نسيجها أو يتمزق. وعلى الرغم من هذا فقد كانت الشغالات البولنديات تعملن بهمة كبيرة، وهو حقهن الذى أشيد به ولا أنكره عليهن. لكنها كانت محاولة استمرت نحو عامين و لا نود تكرارها مرة أخرى. فأن ندع هذا الصنف (؟؟) من الشغالات يعملن بالمطبخ لإعداد طعامنا بأيديهن، كلا .. إنه شيء طارد للشهية " يعنى حاجة تسد النفس".

ثم داهمتنا فكرة استخدام شغالات أمريكيات. ولذا سافرت إلى "شيكاغو" من أجل استئجار عدد منهن. وزرت لهذا الغرض "فيلهلم زاس" ابن قريتى. وعندما راقبت عن قرب أسلوب عملهن لبضعة أيام، فضلت الإقلاع عن الفكرة من الأساس والعودة بدون شغالات. لكنى لم أفعل ذلك عن طيب خاطر، لأننى كنت قد وعدت "ليزا" بإحضار عدد من الفتيات ليساعدنها فى العمل. ولما عدت خالى الوفاض

بدأت تعاتبنى عتابا مريرا وأنا سادر فى صمتى أستمع إليها، ذلك لأن أفضل ما يفعله المرء هو أن يدع زوجته تكمل كلامها دون أن يقاطعها. وعندما فرغت من كلامها قلت لها: انتبهى إلى ما سوف أقصه عليك يا "ليزا"! رأيت فى "شيكاغو" لفيفا من الشغالات فى الشارع. وأعتقد أنك كنت ستترددين فى سؤالهن عما إذا كن يردن الالتحاق بوظيفة فى المزرعة. صدقينى إنك ما كنت لن لتجرُئى على سؤالهن وقد ارتدين فساتين فاخرة ناصعة البياض، الأمر الذى كان يوحى برغبتهن فى الذهاب إلى التياترو وليس إلى تواضعهن للعمل فى الحظيرة.

- ماذا تقول: شغالات يهوين الذهاب إلى المسرح؟ - نعم يا "ليزا" إنه شىء يدعو للاستغراب حقا. ومع هذا، فإذا كان لا يزال عندك الرغبة فى توظيف عدد من تلك الفئة من الشغالات، اللاتى يرتدين فساتين بيضاء وتزين معاصمهن بساعات ذهبية براقة، فما عليك إلا الإفصاح حتى ألبى طلبك بالكتابة للتعجيل بإرسالهن إليك.

لكن "ليزا" لم تكن تريد منى أن أكتب، إذ قالت : لقد كنت موفقًا تماما لعدم إحضارك أيا منهن معك. ولكن، أكمل بالله عليك رواية ما شاهدته فى شيكاغو بخلاف ذلك.

"ليزا" لقد رأيت تلا من الغرائب . خذى مثلا هؤلاء الصغار الذين رقدوا فى عربات أطفال متشابهة يزقونها للفسحة. كانت أعمارهم لا تتجاوز العام على ما أظن. غير أن أصابع الأيدى الرقيقة والسواعد البضة الصغيرة والأعناق البيضاء لهؤلاء الأطفال كانت مزدانة بالخواتم والأساور وما إليها من "شخاليل ودلايات" وقد تراكمت فوق بعضها البعض. دعينى أعاتبك يا "ليزا" كيف طاوعك قلبك أن علمت أطفالنا المشى دون أن تزينيهم بالأساور الذهبية؟ أرى يا "ليزا" أنك قد حملت نفسك وزرا لإهمالك أطفالك على هذا النحو المشين!

"يورن – ياكوب" دعك من هذا الهزار والنقار فإنك لن تستفزني، وواصل عوضا عن ذلك روايتك لما شاهدته بالمدينة.– تصوري، لقد رأيت بالمثل حمالي الفحم وعمال النظافة وهو يجوبون الشوراع وقد ازدانت أصابعهم بخواتهم ذهبية كبيرة أثناء تأديتهم لعملهم.

قالت: حسنا، لقد سمعت بما فيه الكفاية، ثم تناولت "فردة شراب" أخرى لرفو ما بها من الثقوب. ثم واصلت كلامها لتقول: ما هذا الذى سمعته: خواتم، أساور، أحذية بيضاء، فساتين ناصعة البياض، ساعات ذهبية "عيره"، كم أنا آسفة لأن "مارتن لوثر" المصلح الدينى البروتستانتى المتقشف لم يطل به العمر ليشاهد تلك البدع بنفسه.

– ولماذا تأسفين؟

– لأنى كنت أتمنى لو أنه تصدى لمعالجة ما أصبح هنا فى أمريكا مكملا لما جاء بالطُلْبَة الرابعة ("خبزنا كفافنا أعطنا اليوم")

– بادرتها بالقول: "ليزا" أرى أن الحق بجانبك فى هذه المرة أيضا.

– ثم أجابت: طيب، هل لك أن تواصل رواية ما رأيته فى شيكاغو؟ أم هل نفد كل ماقى جعبتك؟

قلت لها: إننى لم أسرد عليك ولا حتى نصف ما فى جعبتى، وما يتبقى منها يكفى لقيامك برفو كوم كامل من الجوارب. وإليك مثلا حكاية المضغ. اعترضت على ذلك بقولها: إنك لم تكن بحاجة للسفر إلى شيكاغو حتى تحدثنى عن المضغ، إذ يمكنك مشاهدة ذلك هنا وبدون مشقة، وما عليك إلا أن تضع قطعة من الخبز فى فمك ثم تنظر إلى نفسك فى المرآة.

– "ليزا" انتبهى إلى ما أقوله ولا تقاطعينى. إن المضغ الذى أعنيه هو نوع آخر يختلف عن المضغ هنا بالمزرعة الذى تعنيه، علاوة على أنه مضغ ليست له

علاقة بالغذاء. فقد رأيت الناس كلهم يمضغون فى شيكاغو، حتى فترة ما بين الوجبات، شاهدت الكبار يمضغون التبغ، والشبيبة تلوك "شيوينج- جم" يعنى اللبان، لدرجة أنهم لا يقلعون عن عادة المضغ هذه حتى فى المدارس والكنائس. وليس هذا كل شئ، ذلك لأنهم هنا يبصقون أثناء مضغ اللبان بخفة يحسدون عليها وذلك بإطلاق اللعاب رذاذا من بين الأسنان، ومن المتعذر أن تعثر حتى بين العارقين بالحقول عندكم على من يجيد تقنية البصق المتفشية هنا.. هذا ولو قطعت بلدة "جرابوف" طولا وعرضا أو حتى لو جبت فى أنحاء بلدة "لاند دروست".

ركبت الترام فى "شيكاغو" ورأيت عجبا. شاهدت السائق واقفا فى مقدمة القاطرة وقد اعتاد على البصق خارج العربة إلى الأمام. كان لا يكف عن البصق على ناصية كل شارع يقف فيه الترام فى المحطات المتوالية، حيث تكون الفرصة سانحة له لكى يبصق على هواه، أما الكمسارى، عامل التذاكر، فكان يتبوأ مكانه فى مؤخرة العربة، حيث درج بدوره على البصق إلى الخلف والترام يسير، ذلك لأنه لم يكن يجد متسعا من الوقت لكى يبصق عند الوقوف فى المحطات. ومن ثم كنت ترى كلا من السائق والمحصل وقد واظبا على تبادل البصق على التتابع بطريقة تلقائية . ورأيت أيضا أثناء تنقلى فى الممر الطويل لعربة الترام صفين طويلين من الركاب الجلوس على المقاعد على الجانبين. لكن الدهشة عقدت لسانى عندما لمحت الركاب وهم يهمون على التوالى بفتح أفواههم لكى يلفظوا مضغة اللبان فى الاتجاه الآخر. ثم ما لبثوا أن عاودوا مضغ اللبان من جديد هل تعرفى يا "ليزا" فيما فكرت آنذاك؟

– قالت: لا أدرى ولكن أخبرنى بما جال بخاطرك؟

أجبتها بقولى: لقد خطر ببالى وكأنى أرى صاحب المزرعة الذى عملت عنده فى صباى رأى العين

– ولكن لماذا فكرت فى هذا الفلاح بالذات؟

– طرأ هذا الخاطر ببالى وأنا أقطع الممر الطويل لعربة الترام، وكأنى قد صرت أتقمص شخصية صاحب المزرعة "هانيورن تيمرمان" وهو يحث الخطى كما كانت عادته أثناء سيره على المشاية الخشبية العريضة التى تتوسط حظيرة الماشية، لكن مع فارق طفيف هو أن ممر عربة الترام كان أقل عرضا منها. وهكذا تصورت أثناء تنقلى بين صفى مقاعد الركاب الذين كانوا لا يكفون عن مضغ اللبان، وكأنى أمر بين مراقد الأبقار المصطفة على جانبى الحظيرة وهى لا تكف عن مضغ العليقة أو الاجترار مقرقعة مشخشخة بصوت مسموع. أجل لقد لمست وجها للشبه بين ما رأيته بالترام وبين ما علق بذهنى من ذكريات الماضى.

قالت "ليزا": إذن دعنا نحتفل بسلامة عودتك، ولأحضر لك فنجانا من القهوة بعد أن جف ريقك من كثرة الكلام. قلت لها: أحسنت، إنها لفكرة طيبة حقا. ولكن صبى لنفسك فنجانا آخر حتى أستمتع بطعم القهوة، وأرجئى إلى الغد رفو البقية الباقية من الجوارب. وحمدنا الله أثناء احتساء القهوة بأنه أنعم علينا بسكنى المزرعة ولأنه لم يحشرنا فى زمرة سكان المدن.

قلت لزوجتى: "شوفى كل اللى قلتهولك شُفْتُه بِعَنَيّا دول وأنا بَدَوَّر على الشغالات".

جلست "ليزا" فى مقعدها الهزاز وبدت عيناها كما لو كانت تنظر إلى اللاشىء. والنساء فى أمريكا مولعات بالمقاعد الهزازة، ولذا فهى موجودة فى كل بيت. ويشبه هذا المقعد الأرجوحة التى يتأرجح عليها الصبية عندكم، فيهتز لانثنائهم وهم عليه جلوس. فلا غرابة أن أطلق عليه البعض اسم "كرسى مرجيحة" ولا شك أن "ليزا" قد تعرفت على المقعد الهزاز فى المهجر. ومهما امتد بنا المقام فى أمريكا، فلا محالة أن مآلنا فى نهاية المطاف إلى الضعف والشيخوخة. فها هو الشيب قد بدأ يشتعل فى لحيتى، ولم تعد الضروس قادرة على طحن الطعام كما ينبغى، فقد تلخلخت الأسنان وبدأت فى التساقط حتى لم أعد أقوى على قضم

شريحة خبز مُجَمَّرة. ومع هذا فما زلت أستطيع القراءة دون الحاجة إلى نظارة. كما أننى لا أعانى من داء طول البصر الذى يجبر المرء على الاستعانة بالذراعين لإبعاد الكتاب لمسافة مناسبة عن العينين حتى يتمكن من قراءة النص. هذا علاوة على قدرتى على الكتابة بسهولة رغم التيبس الذى أصاب يمينى. لقد أثقلنا على أنفسنا حقا خلال السنوات الماضية بالعمل الشاق الدءوب فلانت عظامنا ووهنت، حتى لم نعد نستفيق من همومنا أو نتبصر أمورنا إلا خلال فترات قصيرة تقل فيها المشاغل فى فصل الشتاء.

والآن لقد دق جرس الباب معلنا عن قدوم زائر. هبت "ليزا " بالوقوف لكى تفتح الباب، ولم تظهرعليها علامات الكبر بعد، كما لم ينل من نضارتها تعب السنين. وكان ذلك إيذانا لى بأن أضع ريشة الكتابة جانبا لأعاود الكتابة من جديد بعد ذهاب الضيف. وقد خمنت بأن القادم لا بد وأن يكون جارنا، فأنا أعرف سلفا سبب مجيئه، إنه يريد منى أن أقوم بنشر الأطراف المدببة الحادة لقرون عجوله بواسطة المنشار.

هذا ويتحتم على المزارع الأمريكى أن يكون ملما ومتمرسا لكل حرفة، وماهرا فى كل شئ. ذلك لأن طبيعة العمل فى مزرعة نائية مترامية الأطراف تتطلب من صاحبها إتقانه لكافة أعمال النجارة، من إصلاح للأثاث، النوافذ، الأبواب، تعريشات الأسقف الجملون ثم العربات الخشبية، مرورا بأعمال الحدادة والبناء، وحتى عندما تضطره الظروف، أن يكون إسكافيا أيضا فى بعض الأحيان. وكذلك يقع على عاتق صاحب المزرعة توليه بنفسه إصلاح الآلات والمعدات الزراعية وصيانتها. ومن ثم أصبح لزاما علىّ، من أجل النهوض بالمهام والأعباء المنوطة بى بصفتى صاحب مزرعة، أن أعمل على توفير عدد من الورش الصغيرة المجهزة بالمعدات وقطع الغيار اللازمة لمختلف الحرف. هذا علاوة على اضطرارى أيضا الى اقتناء آلة لثقب الحديد مع توفير كميات من المسامير البريمة (القلاووظ) من كافة المقاسات وما يتناسب معها من الصمولات. ذلك وإلا اضطر

المرء إلى الاعتماد على الـ "مدنية" فى كل كبيرة وصغيرة. علما بأننا لم نكن نجنى من وراء المدينة إلا إنفاق ما بالجيوب من النقود . ومن هنا كان حرصى الشديد على الاعتماد على الذات فى قضاء جميع حوائجنا، حتى نحرر أنفسنا من إغراء المدينة بقدر الإمكان. أضف الى ذلك أن فى ارتياد المدينة مضيعة للكثير من الوقت الثمين. وكذلك قمنا بتكليف من حفر لنا بئرا بعمق ٢٥٠ قدما. ثم أقمنا من فوقه طاحونة هواء لضخ المياه من الأعماق وفى مطلع الأمر لم أعثر على رد شاف على سؤال عويص ظل يحيرنى: هل تقوم طاحونة الهواء حقا بطحن الماء؟ بدا لى هذا التساؤل من حيث الشكل بمثابة عالم مقلوب يفتقر إلى المنطق السليم. لكننا سرعان ما تعلمنا كل شيء بسهولة ويسر فى رحاب العالم الجديد. ربما على نحو لم يكن متوفرا فى وطننا القديم. كما أننا لم نترك أى فرصة تضيع هباء. نظرا لتعطشنا الشديد إلى التزود بكل جديد من علم ينفع.

تحتاج المزرعة الكبيرة إلى استخدام وسائل عديدة حتى تغِل غلتها الاقتصادية القصوى بالعمل على تسهيل وتجديد وتجويد الخدمة الزراعية وإنجازها فى أوقات مناسبة بتكاليف معقولة. وتشتمل مزرعتى على ماكينة لحصاد الذرة، وأخرى لحش الحشائش علاوة على معدة نقالى يجرها حصانان لحزم الدريس وتكويمه، وآلة لتحميل الدريس (ويمكنك رؤية هذه الآلة فى الصورة الشمسية المرفقة طيه والتى التقطها ابنى "هاينريش" أثناء الإجازة بما يسمونه آلة التصوير الفوتوغرافى). هذا بخلاف زحافة ذات أقراص متوازية لتخطيط التربة، وقصابية عادية لتسوية الأرض. وكذلك آلات الحرث، والمحاريث القلابة، وآلة بذار لزراعة حبوب الذرة. ولدى بالطبع أيضا آلة لإنزال الدريس وأخرى لتحميل السباخ. وسوف أقتنى عما قريب آلة بذار أخرى، ولكنها نفدت من معرض تاجر الآلات الزراعية فطلب غيرها لحسابى بالفعل. وأرجو ملاحظة أنه عندما أتحدث فى رسائلى إليك عن الحبوب فإننى أعنى بذلك الذرة على الدوام. وبالتالى فإنها ليست مرادفة للحنطة السوداء التى تسمونها حبوبا عندكم. وعلى أى حال فإن مساواة

الحبوب بالذرة هو أمر دارج عند الأمريكان. ومن الجدير بالذكر أنه لا توجد عندنا فى أمريكا تلك المجرفة اليدوية ذات الأسنان المصنوعة من الخشب والتى يحركها الفلاح الألمانى بواسطة الذراع ليمشط بها الحقول بعد حصادها وليجمع ما بها من مخلفات حقلية للانتفاع بها. أما مالا يستطيع المزارع الأمريكى جمعه من الحقول المحصودة بواسطة المذراة أو المجرفة الكبيرة التى يسحبها حصانان فيظل مبعثرا بالحقل مثل الكم المهمل. وكما ترى يا صديقى فإن التعامل مع مخلفات ما بعد الحصاد يختلف هنا عنه عندكم. ذلك لأنكم مضطرون فى ألمانيا إلى عدم التفريط فى أى عود من الحطب أو أى سنبلة أو حزمة من الدريس مهما صغرت، نظرا لأنكم تعيشون فى تجمعات مكتظة بالسكان، فضلا عن محدودية الأراضى المأهولة والمنزرعة. ولو حدث تطور مماثل فى أمريكا (يؤدى الى زيادة الكثافة السكانية– المترجم)، فأغلب الظن أن المجرفة اليدوية سوف تنتشر هنا نظرا لزيادة إقبال المزارعين عليها.فكل سنبلة تضيع هباء دون أن ينتفع بها الإنسان هى خسارة يؤسف لها، لأنها تعنى التفريط فيما رزقنا الله من فيض بركاته. ولكن من أين يأتى المزارع الأمريكى بالوقت والعمالة اللازمين حتى يلجأ الى الجرافة اليدوية المستخدمة عندكم فى جمع مخلفات ما بعد حصاد المحاصيل؟ إذن فلا مناص من إهماله لها.

الصديق العزيز، أخبرك بأن الاستعانة بجرافة يدوية لجمع مخلفات الحقل المحصود هى أشبه ما تكون بسلوك للمسنين عندما يعودون بذاكرتهم إلى الوراء ليتأملوا مشوار حياتهم. أما الذين ما زالوا ينعمون بمرحلة الشباب فبين سلوكهم وسلوك المعمرين بون شاسع. فهى مرحلة يحث فيها الشاب الخطى. مرحلة يتقدم فيها إلى الأمام . مرحلة لا يعبأ فيها الشاب بما يلقيه خلف ظهره، ذلك لأن لا وقت لديه لمراجعة نفسه. أما عندما يتقدم بالشاب العمر، فحالما يتوقد ذهنه ليغوص بفكره إلى أعماق لم تخمد فيها جذوته، فيجتر ذكريات الماضى اجترارا، مرة ومرتين ومرات عديدة. حينذاك يقتطف من شريط الذكريات أحداثا ومواقف من هنا ومن

هناك. ويالها من مجاهدة للنفس يستطيع من خلالها أن يتدبر أعماله التى أسهمت فى صياغة حياته. وأصدقك القول بأن الإنسان المسن تواق إلى تكرار السير فى دروب حياته الماضية، شغوف باقتفاء أثرها وقد أمسك بالمجرفة فى يده لعله يعثر فى خريف العمر على شئ من أعمال الخير التى قدمتها يداه. ولكن ما هى جدوى أن يَجِدَّ فى البحث، ما دام قد بلغ من الكبر عتيا، ذلك لأنه لن يعثر فى الحقل المحصود إلا على الجُذَامة والجذور فى أغلب الأحيان. وهيهات له أن يستدرك ما فاته إنجازه فى مقتبل العمر بالعود إلى بدء حياته ليعيد سيرتها الأولى مرة أخرى كيما يحرث ويزرع ويحصد من جديد. ولكن ما يدريك فلعله يعثر ذات مرة على بعض السنابل المهملة ملقاة فى الحقل بين مخلفات ما بعد الحصاد. إذ ذاك تهفو نفسه إلى التقاطها بمزيد من الرضا والطواعية كلما ناءت بكلكله السنون.

تبلغ مساحة مزرعتى ٣٢٠ آكر. وتُصَنَّفُ هذه المساحة هنا على أنها مزرعة كبيرة. أما المزرعة المتوسطة الحجم فتتراوح مساحتها بين ٨٠ و ١٦٠ آكر. وقد اقتنيت إلى جانب مزرعتى الكبيرة مزرعة أخرى متوسطة الحجم من فئة ١٦٠ آكر. إلا أننى غيرت نشاط الثانية فشيدت على أرضها عدة منازل وعرضتها للإيجار. وبذلك تجنبت القيام بخدمة مساحة تفوق طاقتى و تحاشيت مشكلة تشعب الإنتاج حتى لا أفقد السيطرة على نشاطى المزرعى. وهذا هو ما يفعله أصحاب المزارع فى الغالب عندما تتعدى مساحة مزرعتهم حدود الـــ ٣٢٠ آكر. ومنذ أول العهد بتوطين المهاجرين صار من المألوف اعتبار مساحة الزمام البالغة ١٦٠ آكر مزرعة، ذلك لأن الحكومة خصصت مثل هذه المساحة النمطية لكل مستوطن ليتخذها مستقرا ومقاما ومصدر رزق له ولذويه. كما تولت الجهات المختصة مسح جميع أراضى المنطقة بالميل المربع، فضلا عن شقها طريقا عاما يلتف من حولها، بحيث أصبح الميل المربع الواحد يشتمل على ٤ مزارع، مساحة زمام كل منها ١٦٠ آكر. وينبغى أن أوضح لك ما هو الآكر بالنسبة للمقاييس المعروفة عندكم فى "ميكلينبورج". إذ يشتمل الآكر على ١٦٠ "روتة" مربعة، كما أن المقياس الذى

تعرفونه باسم "مورجين" يعادل ١٢٠ "روتة" أى أن الـ"مورجين" يعادل ثلاثة أرباع الآكر وبذلك تبلغ مساحة المزرعة الكبيرة حوالى ٥٠ ألف "روتة". هذا حتى تستطيع تكوين فكرة عن حجم مزرعتى، التى تعادل مساحة مزرعتين لاثنين من كبار الفلاحين بقريتنا.

الصديق العزيز، كما ترى، لقد أصبح الحلم حقيقة؛ حلم اليقظة الذى داعب خيال الصبى الأجير الذى عمل باليومية قبل إبحاره الى البلد الغريب حينما غاصت قدماه فى كثيب رمال "هورن كاتن" وهو يمنى نفسه بامتلاك قطيعين من الأبقار. لقد أسبغ الله علينا نعمته وأصبح كل شئ عندنا "بلينتى" أى بوفرة؛ الأرض بلينتى والماشية بلينتى، لكن الثمن الذى دفعناه فى المقابل كان أيضا بلينتى عرق.

تتوقف مفاضلة المزارع بين تربية عدد أكبر من الأبقار أو عدد أكبر من الخنازير، بمعنى ترجيح كفة أحدهما على الأخرى، على جودة التربة وعلى توافر الأيدى العاملة. أما عن مزرعتى فقد كان الحظ حليفى لأن تربتها من ذلك النوع الذى يسمح بتربية الأبقار والخنازير فى آن واحد. ومع هذا فقد كان من واجبى الاحتراس من تكثيف زراعة الذرة بهذه الأرض. صحيح أن تغذية الخنازير على الذرة يجعلها أعلى جودة وأكثر مبيعا بالأسواق، لكن تعاقب زراعتها ينهك الأرض ويهدر خصوبتها على المدى الطويل. ومن ثم ينبغى مراعاة أمور كثيرة فى إدارة شئون المزارع الكبيرة. فأنا لا أستطيع مثلا أن أضع خطة لتربية الخنازير فى هذا العام ثم أنتقل إلى التركيز على اقتصاديات الألبان فى العام الذى يليه. ذلك لأن تنفيذ الخطة بعد أن يعتمدها صاحب المشروع يحتاج إلى سلسلة من السنين. فالبدء فى مشروع لتربية صغار الماشية بغرض تحقيق عائد من ورائه يتطلب سنوات عدة. ولا يخفى أن تنظيم خطوات تنفيذ الخطة والتنسيق فيما بينها هى من ضرورات الاقتصاد المزرعى. ولكن هيهات أن يتم تنفيذ الخطة وفقا لأولوياتها المرسومة، بينما أسعار السوق لا تكف خلال مدة التنفيذ عن التأرجح صعودا وهبوطا لمرات عديدة، الأمر الذى يجعل صاحب المشروع لا يجنى إلا الخسائر

على مدار عدة أعوام. وهذا هو ما حدث لى بالضبط حين اضطررت لاستنزاف مدخراتى لإصلاح الأضرار التى سببها تحرك الأسعار أثناء تنفيذ مشروعى لتربية الأبقار والخنازير. وتحت وقع هذه الصدمة قلت لنفسى : إن الله لم يخلق للإنسان عقله حتى يطرق برأسه ويفقد صوابه فيكف عن التفكير. كما لم يعطه ذراعين ليتدليان على جانبيه بدون عمل، لأن تصرفا كهذا يتعارض مع نظام الخالق فى خلقه كما يتنافى مع رشادة التنظيم والتدبير. إذن عليك أن ترفع رأسك وأن تعيد تشغيل عقلك، نعم عليك أن تنظر الى الأمام وأن لا تمتثل لليأس والانهزام، كما عليك أن تستخدم يديك فيما خلقتا من أجله. أما خسائرك فى المشروع فلم تكن سوى حادث عارض، أشبه بتعثر المحراث فى جذور أو أحجار. عليك يا "يورن ياكوب" أن تنعطف بمحراثك لتتفادى تلك العثرات حتى تواصل شق التربة فى خطوط مستقيمة كالمعتاد. وبعدما راضيت نفسى بتلك العبارات المحفزة، تحمست لمواصلة العمل من جديد، ومنذ ذلك اليوم استجدت علينا ظروف لم ينقطع فيها التوسع والانتعاش وفيض الخير باستمرار. ولا ينبغى للمرء أن يطأطئ رأسه أو يستسلم لليأس والقنوط، وإلا خابت آماله وتعرض كل شئ للضياع. ويسرى هذا القول على الأوضاع فى أمريكا بسرعة قد تزيد عشر مرات قبل أن يبدأ سريانه على أوضاعكم فى ألمانيا.

لقد طال الغلاء أسعار الأراضى وصارت باهظة الثمن فى الوقت الحالى، بحيث أصبح سعر الآكر يتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ دولارا . وعندما يكون موقع الأرض مناسبا وقريبا من السكك الحديدية فقد يصل ثمن الآكر إلى ٢٠٠ دولار. ولو عدنا بذاكرتنا إلى ربع قرن مضى لوجدنا أن سعر الآكر كان يتراوح بين ٥٠ و ٧٠ دولارا. أما قبل نصف قرن، حينما كانت الأراضى فى "أيوا" لا تزال ملكا للدولة، فقد كانت زهيدة الثمن. ويقال إن بعض أصحاب المزارع دفعوا فى الآكر الواحد بين ٣ و ١٠ دولارات. لقد كان زمنا غير زماننا، فإذا كان أحدهم قد جاء آنذاك ليقيم فى "أيوا" وكان يقبض فى يده على حفنة من الجنيهات الذهبية، فلا

ريب أنه كان سيحقق نجاحا كبيرا ويصبح فى عداد الميسورين، وأنا أقصد بذلك اعتماده على حسن فلاحة ما اقتناه من الأراضى ولا أعنى شيئا آخر. بيد أن من حطوا الرحال هنا ممن كانوا يقبضون فى أيديهم على حفنة من الذهب لم يزد عددهم وقتذاك على عدد أصابع اليد الواحدة، ولم يكن هناك أى داعٍ لتكملة العد على أصابع اليد الأخرى، بدءا بالإبهام أو الخنصر. أما نحن "الآخرون" فقد كنا من العصاميين الذين بنوا أنفسهم بأنفسهم واعتمدوا فى ذلك على سواعدهم. لم نكن بحاجة إلى نقود وكان يكفينا ذراعانا القويان لتحقيق آمالنا.

يقطن ابن قريتى "هانز فيكبولد" الذى يمتلك مزرعة صغيرة مساحتها ٨٠ آكر، على بعد ٦ أميال جنوبى مزرعتى. أما أخوه البدين الذى لم يفارقه النعاس أبدا فى فصلنا بالمدرسة، ولم يكن قادرا على متابعة الدروس أو الانتباه إلى شرح المعلم أثناء الحصص، فقد تبدلت أحواله واستيقظ أخيرا من سباته هنا فى العالم الجديد. قام هذا الأخير ببيع أطيانه بسعر ١٥٠ دولارا عن الآكر الواحد، ثم اشترى أرضا غيرها مساحتها ٣٢٠ آكر بجنوب "داكوتا" ودفع ثمنا للآكر مقداره ٥٠ دولارا. لكن مساحة ذلك الزمام لم تكن متصلة بل مجزأة الى قطعتين . مساحة الأولى ١٢٠ آكر وكانت صالحة للزراعة . أما القطعة الثانية فمساحتها ٢٠٠ آكر، ولكنها غير مستصلحة وظلت على حالها منذ خلق الله الأرض ومن عليها. قام صاحبنا بشراء الأرض بثمن بخس، هذا إذا لم يكن الوسطاء قد غشوه وباعوها له بسعر يتجاوز قيمتها الحقيقية بالفعل. وعموما فقد صار من الشائع هنا أن الأرض الرخيصة أمر مشكوك فيه. ولذا وجب على الشارى تفتيح عينيه حتى لا يتعثر ويقع فى حبائل النصابين إذا ما غفل. ونصيحتى لمن يريد أن يكون مزارعا أن يبقى فى "أيوا"، نظرا لأن كل ما يلزم للنهوض باقتصاد مزرعى ناجح موجود هنا وبكثرة بمعنى "بلينتى": فلدينا بلينتى ماء، .بلينتى دريس، بلينتى ذرة وبلينتى بطاطس أما "يوهان شرودر" الذى يقيم حاليا على بعد ٨ أميال شرقى مزرعتى، فقد قام قبل أربع سنوات بتجربة حظه فى "داكوتا". لكن المحاصيل التى زرعها هناك ظل حصادها ضعيفا لثلاث سنوات متتالية. وبعدها ضاق ذرعا بالموقع سيئ الطالع

ولم يطب به المقام هناك وكر عائدا الى "أيوا" يجر أذيال الفشل. وكان فى أول عهده بالإقامة فى "داكوتا" يعود إلينا زائرا وقد عبأ خُرْجهُ بزبيبها الذى تمتاز حباته بكبر الحجم ليروج لـ "داكوتا" بكلام معسول لا ينتهى. والآن وبعد أن هداه الله أخيرا لم يعد يتحمل مجرد سماع اسمها ليقول بغضب: "لو سمحت بطل سيرة" داكوتا "علشان العفاريت حتركبنى!". ويحضرنى فى هذا المقام مثل قديم يحض على ضرورة أن يعمل المرء على تخليص نفسه بنفسه من المآزق: عندما "يأكلك" جلدك فلا بد من الحك بظلفك.

أما "كارل شنايدر" فيسكن بالشمال من مزرعتى على بعد ٨ أميال أيضا. قام بشراء ٣٢٠ آكر لقاء ١٢ ألف دولار . وهو يعتبر سعرا رخيصا هنا. لكن هذا الزمام تخللته مساحات تنخفض فيها درجة الجودة. ونظرا لأن مدخراته قلت عن ثمن الأرض المتفق عليه، فقد اضطر لاقتراض ٥٠٠٠ دولار واجبة السداد على أقساط. جاهد " شرودر " بقدر ما استطاع فى سبيل العناية بشئون مزرعته كما بذل قصارى جهده لسداد الأقساط بحلول آجالها . وربما كان سيوفق فى مساعيه، لولا الظروف الصحية لزوجته التى اشتد عليها المرض منذ أمد بعيد . وهكذا ظل ذلك المسكين يرزح تحت عبء الديون من جهة ومرض شريكة حياته من جهة أخرى. لكن ينبغى مراعاة الفارق بين هذين الحملين الثقيلين اللذين ظل يئن من تحتهما؛ ففى حين بدأ تل الديون يتقلص، زادت منغصات حياته لأن زوجته قيل إنها لن تسترد عافيتها ثانية لاستمرار تدهور صحتها. وللعلم فإن مسقط رأسها هو قرية "هوهين فووس" من أعمال "ميكلينبورج". بعد وفاة زوجته، قام عديلى ببيع أرضه هنا ثم استأجر ٣٢٠ آكر هى عبارة عن أرض بلولة عالية الرطوبة وتقع فى منطقة شديدة البرودة. ولذلك أصبح يشعر بالضيق والاكتئاب وصمم على أن يكر عائدا إلى "أيوا"، ولكن بعد فوات الأوان لأنه لن يتمكن من حيازة أراضٍ بمنطقتنا لعدم وجود أراضٍ غير مستغلة. ولا يختلف الأمر من حيث ندرة الأراضى بالنسبة للمناطق الأخرى التى تقع شرقى خط الطول المائة، نظرا لأنها مستوية وتروى

على الأمطار. أما الأراضى المرتفعة والشحيحة الأمطار والواقعة غربى خط طول ١٠٠ فينبغى أن يتحاشى المرء التورط فى استئجارها، هذا وإلا خسر الجلد والسقط.

سألتنى عن أحوال "يوخين يالاس". وأقول لك إن حكايته كانت حكاية، أولها فرح وسرور ونهايتها ترح وشجون. فقد هل علينا فى أحد أيام الصيف قبل ٤ سنوات خلت ثلاثة رجال جسام من ذوى اللحى الكثة. وكان أحدهم أشيب الذقن. وما لبثوا أن ملأوا المكان حتى ضاق بهم نظرا لفحولة أجسامهم وعرض مناكبهم. ثم طفق أحدهم يقول: جئنا لزيارتك ولنستعلم عما إذا كانت هناك أراضٍ معروضة للبيع؟ ثم قالوا فى صوت واحد: غريبة لأنك لم تتعرف علينا من أول وهلة، ألا تعرفنا حقا؟ جعلت أدور من حولهم ناظرا إليهم من الأمام ومن الخلف لكنى لم أتمكن من التعرف عليهم. قلت لهم : إنى لأرى فيكم ما يجعلنى أظن أنكم الجواسيس من إخوة يوسف[١]. أخشى أنكم لم تحضروا إلينا إلا للبحث عن أراضٍ تشترونها بغرض الاستزراع. إلا أننى أتعرف من لهجتكم على أنكم من "ميكلينبورج" وتحديدا من منطقة الرمال الخشنة قرب بلدة "إلدينا". ومع ذلك فأنا عاجز عن التعرف عليكم. أفصحوا عن هويتكم، دلونى من أنتم ومن أين جئتم ؟ ثم كشفوا أخيرا عن أنفسهم، وتبين لى أن هؤلاء الثلاثة الجسام من قريتنا بدون استثناء. أما الشخص الأشيب اللحية فهو "يوخين يالاس" الذى سألتنى عن أحواله. والثانى ذو اللحية الشقراء هو "فريتس شولت"، أما الثالث ذو اللحية الكستنائية فكان شقيق الآخر. وأرجو أن تتقبل عظيم شكرى، فقد بلغونى سلامك وسلام أخى فضلا عن تحيات كل من سأل عنى من أهل القرية وهم كثيرون. وبعد فترة وجيزة عمت الفرحة بيتنا، وقضينا نحن الأربعة الذين أطلقوا لحاهم الكثة وقتا طيبا وحميميا فى أحاديث طريفة طلية، واستعدنا ونحن نتجاذب أطرافها ذكريات الماضى التى مست شغاف القلوب. ومما لا شك فيه أن السمر والفرفشة فى صحبة الآخرين أفضل من

---

(١) راجع العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح ٤٢ : ٩.

الانبساط منفردا. هذا وقد سافر ثلاثتهم إلى أمريكا بتذاكر مجانية لم يدفعوا ثمنها من حر مالهم، بل تحملها عنهم غيرهم. وعادة ما يجذب المهاجر غيره من المهاجرين، وكثيرا ما يتقاطر باقى الأقارب تباعا حتى لا يكاد يتخلف منهم فى الوطن الأصلى أحد. ولكن من هو الذى تحمل تكاليف سفر "يوخين يالاس"؟ لقد كان شقيقه الأكبر.

وصل "يوخين" إلى بيت أخيه الأكبر ليجده طريح الفراش، لكنه لم يتمكن من التعرف عليه. وكيف يتعرف عليه وهما لم يلتقيا خلال ٤٧ عاما؟ فحين اعتزم الأخ الأكبر على الرحيل إلى أمريكا كان "يوخين" يستعد للالتحاق بالمدرسة بعد الاحتفال بعيد القيامة. ولذلك فهو لم يصدق عينيه أن رأى أخاه الأصغر وقد خط الشيب لحيته. وبعد مرور فترة من الوجوم بينهما بدت لانهائية فى قصرها، بدأ يدرك أن الواقف أمامه هو أخوه. عندئذ اغرورقت عيناه بالدموع، واستسلم للبكاء بحرقة، وراح يمسح على خديه بعطف شديد وكأنه ما زال طفلا صغيرا فى عمر الزهور لم يستهلك بعد أول قلم إردواز فى الكتابة على اللوح.

ونظرا لمعاناة أخيه الطريح الفراش من لوعة الغربة، لم يكن هناك مفر من جلوس "يوخين" على حافة السرير، مثله كمثل القاعد على كرسى الاعتراف، ليحكى له شيئا يشفى غليله عما آلت اليه أحوال أترابه من العواجيز فى مسقط رأسه.

لكن حادثا جللا حدد نهاية "يوخين". وكانت نهايته فظيعة ومحزنة. فبعدما استعاد الشقيق الأكبر صحته أراد اصطحابه معه إلى الـ"تاون" لكى يبادل كمية من الذرة بالدقيق، ثم انضم إليهما أحد بلدياته من قرية "كرينسلين". استقل ثلاثتهم المركبة [١] بعد قيامهم بتركيب عجلاتها على قضبان السكك الحديدية لتنزلق عليها، نظرا لأنها مجهزة هنا بحيث يمكن تعشيقها على قضيب القطار العريض. وعلى

---

(١) عبارة عن عربة ديكوفيل وهى عربة صغيرة للشحن تسير عادة على قضبان حديدية ضيقة.

حين بغتة ظهر من بعيد قطار اجتاز على التو منعطفا دورانيا كان يحجبه عن الرؤية. وفى لمح البصر قفز الأخ الأكبر من المركبة طلبا للنجاة وتبعه فى نفس اللحظة رفيق الطريق، ثم ألصقا جسديهما بسور السلك الذى يفصل خط السكة الحديد عن الطريق العام. ونادى كلاهما "يوخين" بأعلى صوتيهما لكى يحذو حذوهما فورا، لكنه اعتقد أن بإمكانه تفادى التصادم بفك تعشيق عجلات العربة من فوق القضبان فى سرعة البرق وقبل وصول القطار. لكن القطار كان أسرع، فأطاح بالمركبة فى الهواء وقلبها على جانبها ودهمه. قضى نحب "يوخين" نحبه بعد أن بقى على قيد الحياة دقائق معدودات. لقد كان الفقيد عاملا نشيطا، محلا للثقة ورجلا يمكن الاعتماد عليه. وكم أنا آسف لرحيله عن عالمنا.

لا ريب أنك سوف تتعجب لأنهم ساروا بمركبتهم فوق القضبان، ولأن المسافة بين عجلات المركبة كانت مطابقة للمسافة بين القضبان، بحيث أمكن تركيبهما فوق بعضهما "عاشق ومعشوق". الصديق العزيز، أرجو الإحاطة أنه بالاطلاع على أمثلة ومفارقات كهذه يمكن للمرء ملاحظة أن أمريكا تقع فى النصف الآخر من الكرة الأرضية. وإذا تصادف عندكم فى ألمانيا وسارت مركبة فوق القضبان ثم صدمها القطار، فلا بد من إجراء تحقيق دقيق للتوصل إلى المتسبب فى الحادث. كما يؤدى حدوث شىء من هذا القبيل طرفكم إلى مناداة الجميع بضرورة تدخل الدولة والسلطات المعنية من أجل حماية أرواح الناس. أما فى أمريكا فالأمر مختلف. فهنا لا توجد حواجز عند مزلقانات السكك الحديدية . وعندما يدوس القطار شخصا، فسوف يكون التعليق على ذلك : لماذا يسير هذا الشخص فى نفس الوقت الذى يمر فيه القطار؟ إنه تصرف أحمق ولم يكن ضروريا، وكان عليه أن يأخذ حذره. فهنا لا ترعى الدولة شئون الإنسان الفرد بالشكل الذى عهدتموه عندكم. إذ يتحتم على الإنسان هنا أن يرعى شئونه بنفسه.

أما عند حدوث كارثة قطار عندكم فى ألمانيا فسوف تقرأ بعد ذلك فى صحفكم وبالبنط العريض عنوانا كهذا : قتيلان وخمسة جرحى فى حادث قطار. ثم

يتناول التحقيق الصحفى بإسهاب أسماء الضحيتين والمصابين، من أين أتوا، وماذا كانت حيثيتهم. وفى النهاية يعدد الخبر قيمة الأضرار المادية الناشئة عن الحادث. أما هنا فى أمريكا فيحدث العكس. إذ تستهل الصحف هنا فى تناولها للخبر بالكتابة عن الأضرار المادية باستفاضة ثم تذيل التحقيق بالبنط العادى قائلة: ١٦ قتيلا و ٤٨ جريحا. علما بأن قطارات السكك الحديدية غالبا ما تكون هنا ملكية خاصة وخفيفة البناء، كما يشتهر العديد من الخطوط بسوء السمعة لتكرار الحوادث عليها.

إنك تسألنى عن محل إقامة "أورج فارنهولتس" الذى كنا نسميه بالمدرسة، على ما أتذكر "الشاخص إلى السماء" نعم إنه هو . ولكنى لا أستطيع أن أدلك إلى أين ذهب؟ ومن يعرف، فربما يكون شاه الفرس بما أوتى من العلم أقدر على معرفة مكانه! لقد انقطعت عنى أخباره منذ إبحاره إلى العالم الجديد. إلا أن ابنته تسكن على مقربة منا، لكنها لا تتحدث عن أبيها من قريب أو بعيد. كما أنها لم توفق فى حياتها الزوجية. قيل إن الرجل الذى مكث لمدة أسبوع فى دارها، وظل يتأرجح فى المقعد الهزاز الوثير التنجيد، قد استهنأ خلاله بما قدمته له من شهى الطعام والشراب. جاء هذا الرجل إلى أمريكا وهو فى الثانية عشرة من العمر ولم يتمكن خلال حياته حتى من ادخار ١٢ دولارا. وماكان منها إلا أن ألقت إليه بالقفاز، كما يقول المثل الدارج هنا، أى أنها آثرت الانفصال عنه.

الصديق العزيز، لقد هل موسم الشتاء وأرى ندفات الثلج تتطاير بالخارج مثل الريش فى الهواء، وأغتنم هذه الفرصة لكى أضرب لك مثلا على مدى رخص ثمن الأراضى فى أمريكا فى سالف العهد. فعندما استقر المقام فى منطقتنا بأول اثنين ممن هاجروا من أبناء قريتنا، هما الأخوان "دوبه"، كانت أسعار الأراضى زهيدة جدا وبشكل لا يصدقه عقل. لم يرق للأخ الأكبر الإقامة فى "مينيسوتا" فنزح إلى "ويسكونسين". وحرر آنذاك لأقاربه رسالة، أتيح لى وأنا فى سنى الصبا الاطلاع عليها فيما بعد. وما زلت أتذكر تاريخ هذه الرسالة، وهو ١٨ فبراير سنة ١٨٥١. جاء فيها أنه اشترى مزرعتين مساحة كل منها ٤٠ آكر، ودفع فيهما معا

٨٥٠ دولارا. وتجدر الإشارة إلى أن مبلغا كهذا يعتبر فى وقتنا الحاضر بمثابة بقشيش على سبيل "الشبرقة" لا أكثر. وفيما يخص المزرعة الأولى، فقد تضمنت الصفقة بخلاف الأرض، أربعة ثيران، بقرتين، ١٤ خنزيرا،٥٠ دجاجة، علاوة على بعض المعدات، وكمية من الذرة تقدر بنحو ٨٠ شيفيل، فضلا عن ٢٠٠ شيفيل من البطاطس. ولما كانت الضيعتان متجاورتين، فقد حولهما إلى مزرعة واحدة. وبذلك اشتملت المزرعة على مبانٍ جيدة، وأراضٍ مستوية سوداء التربة كانت تنمو فيها خلال الأعوام الوفيرة الإنتاج سنابل للغلال فى كل سنبلة ٤٠ حبة. أما فى السنوات المتوسطة الإنتاج فكانت السنبلة تشتمل على ٢٥ حبة . كل هذا فى مقابل ٨٥٠ دولارا فقط . ألا ترى أنه شيء يصعب تصوره! إذ لا يقل ثمن مزرعة مساحتها ٨٠ آكر بكافة مشتملاتها عن ٤٠٠٠ دولار بأى حال من الأحوال فى الوقت الحاضر (أى على أعتاب القرن العشرين تقريبا – المترجم).

كما ورد بالخطاب السابق الذكر أيضا أن الأمريكان، الذين لم يألفوا أكل الخبز الألمانى الداكن اللون، اعتادوا على أكل العيش الأبيض المصنوع من دقيق القمح الخاص. تعجب أهل قريتنا عن بكرة أبيهم آنذاك لما تطرق إلى أسماعهم خبر الخبز الأبيض الذى لم يعلموا بوجوده من قبل. فقالوا فى دهشة: إن خبز الأمريكان يكاد يكون مثل خبز أرض الميعاد.

ولم تخل تلك الرسالة من ذكر الشهد أو العسل أو ما شابه ذلك. إذ تحدثت عن كثرة ما عنده من أشجار الإسفندان والقيقب التى يعجز عن حصر عددها. وقال إنه كان يقوم بجمع عصارتها وتصفيتها وغليها حتى يتبخر الجزء الأكبر من مائها لتصبح غليظة القوام مثل الشراب السميك الذى يتحول بعد ذلك الى سكر الإسفندان وعسله. وبلغ ما أنتجه منهما فى عام ١٨٥١ حوالى ٦٠٠ رطل من السكر و٢٠٠ صفيحة من العسل.. وقد أرفق طى رسالته آنذاك قطعة من سكر الإسفندان– الذى لم يكن معروفا عندكم – فتلقفتها أيدى القرويين لتتذوق طعمها. إلا أننى لم أر قطعة السكر بنفسى، لأنهم كانوا قد لحسوها شيئا فشيئا.

وذكر فى خطابه كذلك أنه صنع عسلا من القرع. وأنه نقل فى فصل الخريف إلى بيته حمولة عشر عربات من القرع. علما بأنه لم يكن ينمو عندكم بمركز "جرابوف" بأسره مثل هذه الكمية من القرع العسلى. كما كانت ضيعته تشتمل على عدد كبير من أشجار الفاكهة علاوة على غابة صغيرة من أشجار البلوط، الزان، الأرز وأنواع أخرى من الأشجار لم يكن يعرفها. وعند تحريره للرسالة قال إنهم لم يكونوا يقدمون العلف للخنازير فى المذود بعد، نظرا لأنها كانت ترعى فى العراء حتى منتصف شهر فبراير (شباط). كما قدر ما دفعه فى ذلك العام من الضرائب بخمسة دولارات، تمت جبايتها منه بالمنزل. وفيما عدا ذلك فهو لم يكن مدينا بأى مبلغ لأحد، ولا حتى بما قيمته مليم أحمر واحد، كما لم تكن عليه مطالبات من أى طرف ولا حتى لرئيس البلاد ذاته. غير أنه أشار الى ارتفاع أجور العمال. فعندما طلب من نجار العربات تصنيع عربة كارو له وقدم للمصانع الخشب اللازم لذلك بعد تقطيعه. لم يحسب صانع العربات ثمن الخشب، لأن تكاليف المركبة بلغت ٤٦ دولارا. وهى نفس سعر بيع العربة الكارو فى الأسواق.

وبخلاف ما تقدم فقد كان وقع الرسالة المفعمة بالإطراء والمديح إيجابيا فى آذان السامعين : إذ قالوا إنه لم يدفع فى المزرعة سوى ٨٥٠ دولارا، تصوروا أيها الناس! وعندما تطرق إلى أسماع القرويين ذكر العيش الأبيض، وسكر الإسفندان، عسل الإسفندان، انخفاض ثمن الأراضى وقلة ما يُجْبَى من الضرائب، تعجبوا أشد العجب وقالوا: هل من المعقول فى عالمنا هذا وجود مثل هذا البلد الذى لم نكن نعرف عنه شيئا حتى يومنا هذا! وما لبث أن عزم الكثيرون منهم على شد الرحال إلى العالم الجديد، وكان أخوه وزوجته أول المهاجرين، بعد أن أرسل إليهما تذكرتى سفر مجانيتين تحمل هو ثمنهما. وشد الرحال إلى هناك أيضا " فيلفور" العجوز الذى بلغ الثمانين من عمره. وهو القائل : أريد أن أشبع ولو مرة واحدة فى حياتى من أكل عيش القمح الأبيض. لكن القدر لم يمهله حتى يتمكن من تحقيق رغبته، إذ وافته المنية وهو فى عرض المحيط.

لكن "ياورت" العجوز حذر الناس مما ورد بالرسالة محتجا على فحواها بقوله: وما قيمة خبز القمح إذا لم أستطع وضع طبقة سميكة من الزبد فوقه؟ إن ذلك المهاجر يقول إنه عنده مزرعة كبيرة، مع أنه لا يمتلك إلا بقرتين لا ثالث لهما. ألا ترون أن كلامه لا يركب على بعضه، ولا يتوافق أوله مع آخره، ذلك عندما نضع فى اعتبارنا أن الفلاح عندنا يذبح إحدى بقراته فى كل خريف. لا أيها السادة إن خيارى هو التمسك بخبزنا الداكن مع الاستمتاع بطبقة من الزبد نضعها فوق شطائره لأن فيها رَمًّا لعظامنا. أما ذلك الهراء الذى كتبه عن عسل الإسفندان، فأنا فى غنى عنه، وأرفض تلصيق معدتى بقوامه الغليظ. ثم ألم تلتفتوا إلى قوله بأنه ترك الخنازير ترعى فى العراء لتتضوى فى زمهرير شهر فبراير. ألا يتعارض هذا مع نظام الكون الإلهى، الذى يستوجب إدخال الخنازير فى حظائرها فى فصل الخريف لكى تُعلَّف بدشيش الحبوب الذى يجعلها تكتنز شحما سميكا ؟ إن تركها ترعى فى العراء بالمخالفة يعنى اكتنازها بشحم شاحب، قد ينفع لإضاءة مصباح، ولكنه لا يغنى من جوع، كما ترفضه معدتى. أما العمل فموجود فى ألمانيا مثلما هو موجود فى أمريكا، ولذا فإننى فى قريتى باقٍ ولن أبرحها. تركت عبارات "ياورت" العجوز وقعا مؤثرا فى نفوس القرويين جعل الكثيرين منهم يقتنعون وينحازون لوجهة نظره، فأقلعوا عن فكرة الهجرة إلى العالم الجديد، لشعورهم بصدق توجهاته ونواياه، وهو ما عمل على خمود جذوة عزمهم على الرحيل، مفضلين عليه البقاء فى مسقط رأسهم. لكن موجة الهجرة الكبرى ما فتئت تعلن بإغراءاتها عن أنها آتية لا محالة وإن تأجل زخمها وعنفوانها إلى حين. وكنت أنا أحد من ساروا فيما بعد فى ركابها، الأمر الذى لم أتأسف له أو أتحسر لإقدامى عليه. ولا يخفى أن مزرعة عالية الكفاءة وتغل غلتها الاقتصادية لا بد أن تقدر أصولها بمبالغ عالية. أما مسألة أن لا يزيد ثمن مزرعة مساحتها ٨٠ آكر على ٨٥٠ دولارا فقط، فأمر فيه مدعاة للتعجب على وجه العموم.

قالت "ليزا": إنك لا تكف عن الكتابة فى مسائل الاقتصاد. ألم تحن الفرصة بعد لكى تكتب شيئا عن أولادنا؟ قلت لها "ليزا" إننى عندما أتناول شئون الاقتصاد وإدارة المزارع يكون عندى الدافع إلى ذلك؟ ولكن قولك بوجوب الكتابة عن الأولاد، فهذا أمر له وجاهته أيضا. فقد كنا موفقين فى تكوين أسرة طيبة، كما اعتنينا عناية فائقة بتربية أولادنا ولذا يسعدنى أن أكتب عن أسرتنا.

أتم ابننا الأكبر دراسته فى "أيوا – سيتى" وهو يريد أن يكون طبيبا ونطاسيا جديرا بعلاج البشر. اعترضت "ليزا" على ذلك فى مطلع الأمر. فقد كانت أمنيتها أن تراه قسيسا. فكم تحب الأم أن ترى ابنها وهو يعتلى المنبر ليعظ الناس. لكن ابننا أعلن عن عزوفه عن التدرج فى الخط المهنى للقسيسين. ومن ثم سار على النهج الذى اختاره لنفسه. لقد كلفتنى دراسته "بلينتى مونى"، قدرا كبيرا من المال، لكنه كان متوقد الذهن وذا عزيمة لا تلين مما ساعده على التقدم فى دراسة الطب. ونظرا لذيوع موضة التعرف على أعضاء الجسم الداخلية فى قاعة التشريح التعليمية، بادرت بسؤاله : لماذا تفعلون ذلك؟ وهل تحدثون ثقبا بالبطن لتنظروا من خلاله إلى الأحشاء التى تضمها الضلوع؟

– لا، إننا نقوم بفتح البطن.

– هل تفعلون ذلك من أجل أن يتنفس الجسم بشكل أفضل؟

– لا، بل لتشخيص نوع المرض الذى تسبب فى وفاة صاحب الجثة.

– وهنا بدأ يشرح لى بدقة المتمكن، كيف أن فى ذلك فائدة تنفع سائر البشر، أولئك الأصحاء الذين يحملون اليوم تاج الصحة على رؤوسهم، وربما يتعرضون غدا للإصابة بالأمراض. اقتنعت بما قال بعد أن تسربت إلى إدراكى ضرورة التشريح، ثم قلت له: إذن فلتفعلوا فى مدرستكم ما تشاءون. ولكن عندما يلم بى مرض، فإياك والإقدام على تحسس الأعضاء الداخلية لجسمى لأن بطنى ليست للفرجة. ينبغى لك أن تعدنى بذلك. تردد ابنى فى أول الأمر ثم قال : قد

يحدث لا قدر الله أن تصاب بمرض باطنى يقتضى أن يجرى لك الطبيب عملية جراحية لإنقاذ حياتك. قلت له: هذا أمر علمه عند ربى، ومع هذا فلا ينبغى أن تكون أنت الطبيب المعالج فى هذه الحالة. أحضر حينذاك طبيبا سواك لكى يعالجنى، نطاسيا آخر موثوقا فيه . فأنا لا أستسيغ ولا أطيق فكرة أن تتحسس بأصابعك أحشائى ذات يوم، أحشاء والدك الذى رباك والذى له عليك حق. وأخيرا قطع على نفسه عهدا بتنفيذ ما أوصيته به.

لم أنته بعد من الحديث عن ابنى الأكبر وسوف أوفيه حقه من الكلام لا سيما أن لدى فسحة من الوقت فى غضون الأسابيع القادمة لكى أروى لك تجربتى مع ما طرأ على سلوكه من تغيير. فقد بدأ يهتم بأشياء دنيوية مظهرية خلال دراسته بالكلية فى الشتاء الماضى، إذ فاجأنى برغبته فى اقتناء ساعة ذهبية مرة، وخاتم من الذهب الخالص مرصع بحجر كريم مرة أخرى، ومشبك ذهبى ثالثة، وما إلى ذلك من كماليات لزوم "التقمع والقنزعة" والإفراط فى الخيلاء. لم أجد فيما طلب أمرا معيبا فى حد ذاته، لكن ما لم يعجبنى كان ذلك المعنى الكامن وراء المطالبة بإحاطته بتلك الأشياء التى تدل على "الفشخرة"، الأمر الذى شذ عما تنشأت عليه أسرتنا. وما كان منى إلا أن اصطحبته معى لكى نتمشى سويا بضعة أميال بين الحقول حتى أعيده إلى رشده . نجحت المحاولة. ولكن كيف تسنى لى ذلك، هذا ما سوف أرويه عليك:

بادرته بالقول: أصبحت صورة بيتنا بقريتنا القديمة الذى كنا نعيش فيه قبل هجرتى إلى أمريكا لا تفارق ذهنى كلما ناء كاهلى بالسنين. دعنى أقص عليك كيف كنا نعيش هناك حتى تستطيع أن تُكَوِّنَ صورةً ذهنيةً لنفسك عن ظروف نشأتنا. فمن الأفضل دائما أن يعرف الإنسان أصله وفصله ومن أين أتى.

كان الكوخ القديم المتداعى الذى آوانا مشيدا من طين مؤلف بينه تبن، سقفه الداخلى منخفض، لكن سقفه الجمالونى الخارجى، المصنوع من جدائل البوص

المقصوص، بدا للناظرين على هيئة سنم هائل يغطى سطح الكوخ الذى كان من أكثر أكواخ القرية طولا. وكان كوخنا عبارة عن مجمع سكنى مقسم إلى وحدات لإيواء عدد من الأسر. عشنا فى إحدى هذه الوحدات السكنية التى اشتملت على قاعة فسيحة وغرفة مجاورة. إلا أنه لم يكن يحسن لمن كان ذا قامة فارعة أن يقيم بكوخنا، وإلا اضطر باستمرار إلى تفادى اصطدام رأسه بالعروق الحاملة لتعريشة السقف الخشبى. هذا إذا لم يقف بقاع حفرة من الحفر المنثورة بأرضية القاعة، حيث يكون باستطاعته أن يتمطى بنيانه قائما وهو مرفوع الهامة. فقد كانت أرضية الكوخ عبارة عن تربة طينية تم دكها بعد نقلها من جبل "بوتبرج" القريب، لكنها كانت تتشقق على مر الأيام ثم تتحول الشقوق إلى نقر تزداد عمقا واتساعا. ولذا اعتادت أمى على رشها فى أيام الأحد بالرمل الأبيض لتبدو بهية الطلعة قشيبة بما يليق بيوم الأحد.

كان تخزيننا للبطاطس مريحا جدا. فلم نكن بحاجة لإحضاره من السرداب (البدروم) أو من الكرار عند المطبخ. فقد كنا نخزن البطاطس تحت السرير المنصوب بالقاعة خلال فصل الشتاء حتى لا يعطب حباتها الصقيع. لكن المكان أسفل السرير ظل فيه متسعٌ لإقامة خنزير، كان يتولى بعوائه إيقاظنا كل صباح. وبذلك وفر علينا ثمن منبه نشتريه. ولما رحل الوالد عن عالمنا مبكرا، أصبحنا نستيقظ من تلقاء أنفسنا بإيعاز من عقلنا الباطن. كانت جدران الكوخ عبارة عن هيكل مسيج بدعائم خشبية تم ملء فراغاته بالطين المخلوط بالتبن بعد تسويته من الجانبين "بالمسطرين"، وبذلك أمكن الحفاظ على متانته لمدة طويلة. لكنه نتيجة لتمطى وانكماش مادة البناء بفعل العوامل المناخية، كانت تنفصل عن الدعامات الخشبية فى بعض أجزائها، لتظهر بها تشققات ينفذ من خلالها فى فصل الربيع شذا شجيرات الليلك (سنبوق أو خمان) الذى كنا نستمتع بشم نسماته العطرة ونحن داخل الكوخ. كما كانت أشعة الشمس الساطعة تنفذ فى الصيف من خلالها، فيجتاح نورها أرجاء القاعة لتوفر علينا بذلك عناء فتح الباب. ولعلك تلاحظ أن ظروف

حياتنا اليومية كانت مريحة إلى أقصى حد. أما بحلول فصل الشتاء فلم يكن هناك ما نشتم رائحته. ولذلك كنا نسد تلك الشقوق بتربيح حزم القش عليها درءا لتسرب ندفات الثلج الريشية إلى داخل الكوخ. وكان الكانون الذى عندنا مبنيا بطوب الآجر وتغطيه طبقة من التربة الطينية التى جيء بها من جبل "جوتبرج" بالمثل، إلا أنه كان يتميز بلون أخضر بديع. وكنت إذا تيسر لك سؤال أرباب حرفة النقاشة بسائر الولايات المتحدة الأمريكية عن بكرة أبيهم عن تركيبة ذلك اللون ذى الاخضرار الفريد، ومّم مزج، لما استطاع أى منهم أن يدلك عليه. وبالتالى سوف يتضح لك عجز رئيس البلاد – على الرغم من كل ما تحت يده من المعلومات – عن التوصل إلى الإجابة الصحيحة, ذلك لأن السيد الوالد لم يبح بسر تركيبة اللون قبل وفاته. هل تعرف ما الذى أضفى على الكانون تلك المسحة الخضراء المميزة ؟ سوف أكشف لك عن المستور لقد كانت "المحارة" خليطا من التربة الطينية وروث الأبقار!

لم ندفع شيئا فى مقابل أثاث بيتنا، لأن الوالد أنجز بنفسه كل أعمال النجارة، فصنع الأسرّة، صندوق الثياب (السحارة)، المنضدة ودكك الجلوس. وكان للسحارة، حسب موضة تلك الأيام، درج على الجانب الأيسر بأرضيته مكان مسحور لإخفاء "شراب النقود" وفقا لإملاءات الموضة أيضا. لكن ذلك الجورب ظل فى مكانه خاليا من النقود فى معظم الأحيان. ولذلك كنا ننام ملء جفوننا لعدم احتوائه على ما كنا نخشى من الاستيلاء عليه. وكانت هناك مرآة صغيرة معلقة على الجدار انطفأ بريقها وتعكر، لأن بعض أجزاء ورقها العاكس بلى "وتصنفر" من الخلف. ومع هذا كنا نستمتع برؤية أنفسنا متى شئنا وإن شوهت صورتنا سحابة من الغمام. وكنت ترى على الجدار بالمثل صورتين مثبتتين بالمسامير، إحداهما تمثل يسوع المسيح مصلوبا، والأخرى للقديسة العفيفة "جينوفيفا" المفترى عليها. لم يكن لهاتين الصورتين إطار أو زجاج لحمايتهما، وظلا فى مكانهما على حالهما معلقتين منذ وعيت هذه الدنيا.

اعتاد ثلاثتنا، الأم وأخى وأنا، فى أيام جمع الحطب على أن ندفع بعربة اليد ذات العجلة الواحدة فى الطريق المؤدى إلى موقع أشجار التنوب الصنوبرية خلف غابة " رودين زوكين" من أجل جمع قطع الحطب الجاف. وكانت رحلتنا إلى هناك تستغرق ساعة فى الذهاب وأخرى فى الإياب نقضيها فى مرح ودعابة. وأحيانا كان السرور لا يسعنا أثناء مراقبتنا لحيوان السنجاب وهو يتسلق بخفة فائقة إحدى شجرات التنوب الممشوقة رافعاً ذيله المنفوش عاليا. وظلت أمنا تزق عربة اليد بمفردها حتى بلغنا أشدنا، وكثيرا ما كانت تريح ذراعيها وتسترد أنفاسها بإنزال المقبضين لترتكز العربة على رجليها من الحديد. كانت يومية أبى آنذاك ٤ شلنات، لكن العمل لم يكن متاحا طوال العام، إذ اقتصر على موسمى الحصاد والدراس. وكان الدراس يبدأ فى الثالثة بعد منتصف الليل. أما بالنسبة لنا ولأترابنا من الصبية فكان موسم الدراس بمثابة عيد بحق، فكنا نذهب فيه إلى دار الفلاح صاحب المزرعة لنلعب ولنتمرغ فوق حزم القش المكومة. وأحيانا كانت زوجته لا تبخل علينا بشطائر من الخبز وضعت عليها طبقة من الزبد. وكم كنا بذلك سعداء.

بقينا على هذا الحال حتى توفى الله أبانا. فقد كانت له رئة هزيلة. ولما أصيب فى موسم الحصاد بنوبة برد سرعان ما ساءت حالته الصحية ليتطور المرض إلى التهاب رئوى عضال. وقال لأمى فى آخر يوم فى حياته بصوت خفيض : إنى أفارق الحياة فى ظروف غير ملائمة، لأن موسم الحصاد ما زال قائما على قدم وساق، ولكن ما العمل ولم يبق فى العمر بقية. أصغِى جيدا إلى ما سوف أقوله لك : لقد وعدنى جارنا "بوزاكر" بإعطائك عدة ألواح من الخشب. وقطع " كون" العجوز على نفسه عهدا أمامى باستخدام تلك الألواح فى عمل التابوت بدون مقابل . وكذلك عبر المدرس عن عزمه الأكيد على إحياء حفل التأبين بالإنشاد بصحبة جوقة من الأطفال نشيد "المسيح هو حياتى". وما كاد ينهى كلامه حتى شبك أصابع يديه فى بعضهما قبيل صعود روحه إلى بارئها. وأثناء انهماك "كون" فى دق المسامير فى نعش أبى، كنت أنا الذى أناوله تلك المسامير،

وشعرت حينها بأنى على قدر كبير من الأهمية . لقد كنا جميعا أطفالا صغارا لم نشب عن الطوق بعد. ولاحظت فى أعقاب الوداع الأخير أن عينى أمى حمراوان من شدة ما كان يدميهما البكاء.

وبعد سردى لتلك الوقائع توجهت إليه بالقول: والآن أصبحت تعرف يا بنى من أين جئت. أما إلى أين أنت ذاهب فأنت على دراية بالطريق الذى تشقه لنفسك. وأهم شئ عندى حتى تحقق مرادك هو أن تتزود بالقدرة على مواجهة الحياة بمهارة، وعلى إتقانك لعملك مع إدراك أبعاد مسئولياتك ومهامك. ونصيحتى التى أسديها إليك هى أن تقوم بعد حصولك على إجازة الطب بالسفر إلى ألمانيا لأن فيها أطباء أكفاء. وعليك أن تواصل دراساتك لمدة عام آخر هناك ثم تقفل عائدا إلى أمريكا. ولا تنس أثناء إقامتك فى أرض الآباء أن تقوم بزيارة قريتنا لترى كوخنا القديم، ولن يضيرك شيئا فى مستقبل حياتك أن تطبع صورته فى رأسك وفى قلبك.

وأوصيك بالتقاط صورة للكوخ بالاستعانة بآلة للتصوير الفوتوغرافى ولكن "حاسب" حتى لا تتسبب قرقعة آلة التصوير فى هدمه لأنه آيل للسقوط! وسوف أخصص لتلك الصورة مكانا لائقا بغرفتى. ولكن ينبغى أن تكون الصورة جيدة، نظرا لأن التقاط الصور يتطلب مهارات خاصة، هذا وإلا صارت عديمة النفع والجدوى. اذهب فى غضون الأيام القادمة لشراء آلة تصوير فوتوغرافى جديدة، وتمرن على حسن استخدامها. ذلك لأن الآلة القديمة قد عفا عليها الزمن. فالصورة التى التقطتها لنا بواسطتها مؤخرا تظهر عليها الشخوص مهزوزة، الشىء الذى أخاف الناس عند تفرسهم فى ملامحنا. وتعليقى على الصورة التى التقطتها لى ولأمك هو أنها تتعارض مع رابع الوصايا العشر القائلة : أكرم أباك وأمك[1]. أما إذا عدنا إلى بداية حديثنا عن التحلى بالذهب "والشخاليل" البراقة فأقول لك: ألقِ بها وراء ظهرك وانساها تماما، فلا حاجة لأسرتنا إلى مثل هذه الأشياء المظهرية.

---

(١) راجع العهد القديم، سفر الخروج ٢٠ : ١٢، وهى الوصية الرابعة بحسب ترتيب " مارتن لوثر"

لم ينبس ابنى ببنت شفة، ونظر الىّ بعينين لامعتين معبرتين عن استيعابه واستجابته لما قلت، وضغط أثناء ذلك على يدى بحرارة المقتنع المطيع. وبانتهاء تجولنا بين الحقول قفلنا عائدين إلى المنزل . وبعد أن اجتاز الامتحان سافر إلى ألمانيا لمواصلة الدراسة لمدة عام . ولما عاد أخبرنى بزيارته لك وبأنه قضى ثلاثة أيام عندك علاوة على مكوثه ثمانية أيام بالقرية. كما أحضر معه صورة للكوخ أصبحت مصدرا لسعادتى ولمواساتى ومؤانستى كلما تقدمت فى العمر. وكذلك جلب معه صورتين، أولاهما لك وأنت تدرس بالفصل، والثانية التقطها لطائر اللقلق وهو قابع فى عشه المستدير يتسنم ذروة سقف بيت آل "برونينج". ذلك الطائر الذى يتفاءل بقدومه الناس عندكم، والمعروف بأبى السعد. تصور أن ابنى لم ير طائر اللقلق من قبل لأنه لا يعيش فى منطقتنا. هل تتخيل أن هناك من الناس من لا يعرف اللقلق؟

وعلى الرغم من استجابته لنصائحى فقد ضحك على ذقنى فى النهاية. فلم يمضِ عام على عودته من ألمانيا حتى ابتاع لنفسه خاتما من الذهب ازدان به إصبعه. لكنه كان من الذهب الأملس على أى حال، الأمر الذى لم أبد اعتراضا عليه وكنت راضيا عنه.

لن أسترسل طويلا فى الحديث عن ابنى الثانى. فبوسعه أن يكتب إليك بنفسه. لقد أوتى عقلا عمليا، ولذا كان على التعليم العالى عصيا. وقد وهبه الله هيكلا عظميا متينا يكفيه مدى العمر دون أن تهش عظامه أو تتآكل مفاصله وفقراته. أما جسمه فما زال لا يكف عن النماء، وأينما تعاظم نموه زاد تضخمه. وبالتالى ازداد لحم الكتفين اكتنازا حتى صار منكباه أكثر عرضا وامتدادا. وله رجلان من ذلك النوع الذى عندما يمد بهما فى المشى بخطواته الواسعة يكاد أن يجوب الحقل من أوله إلى آخره فى سرعة النعامة. ولحسن الحظ أننا شيدنا بيتاً جديدا تتناسب حجراته مع ضخامة جسمه، هذا وإلا كان من العسير عليه أن يقيم فى حجرة صغيرة. وعلى الجانب الآخر فإن له حضورا يتسم بخفة الظل، وأينما

ولى وجهه يحل الأنس والسرور، نظرا لانشراح صدره وابتهاج قلبه ورضاء نفسه. وهذه هى طبيعته . فهو يحفظ عن ظهر قلب ألف باء الشئون المزرعية ويحسن إدارة المزرعة بما له من أفق يتسع لمثل هذه الأمور حتى صرت لا أقدر على مجاراته فيها. نعم لقد أحسنا تربيته أيضا.

يصعب فى هذا النهار التعامل مع زوجتى "ليزا" وابنتى "بيرتى" لأنهما مشغولتان اليوم بالعجين وخبز العيش. ويتكرر نفس الشئ فى يوم الغسيل. دخلت المطبخ وقلت مداعبا أثناء مرورى العابر: أعتقد يا "ليزا" أنه قد آن الأوان لعمل توسعات بالمطبخ بحيث يزيد طوله عشرة أقدام أخرى. نظرت إلىّ وقد علا وجهها الدهشة لتسألنى: ولم هذه التوسعات؟ هذا بينما عقد الاستغراب لسان "بيرتى" أثناء انشغالها بتزرير سترتها. قلت لها: نعم لأن المطبخ أصبح أقصر طولا مما تخبزينه من العيش، فبينما تكون مقدمة قالب الخبز فى الفرن فإن مؤخرته تتعرض للبرد فى الحوش. وهو وضع غير صحى للخبز بدون شك. وهنا ارتفع صوتها لزجرى، وساعدتها "بيرتى" فى انتهارى. لكن أكثر ما سبب لها الحنق وزاد من ضيقها بكلامى هو تلميحى لها بأننى سوف أشفع هذه الواقعة إحدى رسائلى إليك. ولم تستطع " بيرتى" إخفاء عتابها لى، إذ نادت من المطبخ قائلة: ماما إنه لأب فظيع حقا. أليس كذلك ؟ ثم واصلت كلامها بدلال ظاهر، لقد حان الوقت لكى أعود ثانية إلى شد لحيته حتى لا يتمادى فى استفزازنا والاستخفاف بنا. الصديق العزيز، إن النساء اللائى تزررن ستراتهن من الجانب الأيسر هن عالم مختلف تماما عن دنيا الرجال، أولئك الذين يزررون ستراتهم من الجانب الأيمن.

لدينا موقد من الصلب المدرفل له ثلاث وظائف. يستغرق خبز العيش فى فوهة الفرن نحو ٣٠ دقيقة، فى نفس الوقت الذى تستخدم فيه شعلاته الست فى الطبخ. كما يوجد أسفل فوهة الفرن فتحة إضافية لتجفيف الفواكه إذا اقتضى الأمر، علما بأنه لم تكن هناك فواكه لتجفيفها هذا العام. وقد بلغ ثمن الموقد ٦٨ دولارا، بدون حساب قيمة أجرى عن أتعابى فى النقل والتركيب. هذا فى حين لا يُعْرَفُ هنا

ذلك الكانون المستدير الشكل والمشيد من الطوب الأحمر المسطوح بطبقة من الطين، وهو كانون مثيل لذلك الذى كان عند آل " كون" فى مؤخرة الحديقة تحت أشجار البرقوق. ولا تفارق بالى صورة "كون" العجوز فى الفترة الأخيرة من حياته، إذ اعتاد جارنا بعد إدخاله عجين الخبز فى فوهة الفرن على الجلوس فوق حجر أمام الكانون فى خشوع وقد شبك أصابع يديه فى بعضهما وكأنه كان يصلى متضرعا من أجل خروج الخبز من الفرن سليما غير محروق. هذا مع أنه لم يسبق له على الإطلاق أن خبز عيشا محروقا. حقا لقد كان ينطبق على ذلك الجار لقب "الجار المخلص" الذى أورده " مارتن لوثر" فى الطِّلْبة الرابعة.

الصديق العزيز. لم أستطع فى الشهر الماضى الكتابة لوهن أصاب الريشة فلزم استبدالها. أما الآن فأنا جاهز للانطلاق من جديد. ذلك لأننى مغرم جدا بالكتابة، كما أستعذب طرح أفكارى على الورق، خاصة عندما يتحرر معصمى قليلا من قيد العمل فى فصل الشتاء.

أصبحت أحوالنا ميسورة الآن لحسن الحظ. فقد اجتزنا بنجاح فترة البدايات الصعبة التى أناخت بكلكلنا سنوات طوال. كنت أحلم خلالها بمد قدمىَّ تحت مائدة تخصنى، حتى أشعر بحريتى الشخصية فى بيتى. لذلك عبرت المحيط. صحيح أن القدمين المطلوب مدهما كانتا موجودتين. لكنى كنت أفتقد المائدة وكذلك السقف الذى ستكون من تحته. كنت قد عقدت العزم على تحرير نفسى من براثن الشريحة الاجتماعية سليلة الأقنان والأجراء غير المستقلين. ولم يشذ رأى " ليزا" عن رأيى فى هذه المسألة. بدأنا حياتنا الجديدة باستئجار قطعة صغيرة من الأرض حتى نتعرف على نوعية التربة، وعلى وسائل خدمتها، من أجل الحصول على العائد الاقتصادى المجزى. ثم عاودنا الكرة لنفس السبب فى منطقة أخرى. بعد ذلك اختمرت فى رأسى فكرة الإقدام على اقتناء قطعة أرض ولكن بحذر شديد، فاشترينا مزرعة صغيرة فى بادئ الأمر. كانت جودة تربتها بين بين. فلا هى بالجافة ولا

بالرطبة البلول. تحلقتها الغابات والأدغال من كل جانب.وكانت على بعد أميال من أقرب مزرعة مجاورة. أما سعر الأرض فكان رخيصا فى متناول اليد.

كانت أول خطوة خطوناها هى تشييد كوخ من الكتل الخشبية اصطلح على تسميته "بلوكهاوس". فلم يكن هناك أكثر من الأخشاب، وبعد انتقائى لأفضل أشجار الغابات الملائمة، توليت قطعها بالبلطة من فوق الجذور، ثم نزعت عنها الأفرع والبزوز واللحاء. وقمت بتثبيت أربعة جذوع ضخمة ومتينة فى الأركان الأربعة المخصصة لإقامة المنزل حتى تصمد أمام العواصف. سمرت بالعرض فوق تلك الجذوع الركنية سيقان أشجار أخرى بعد شقها بالطول إلى نصفين بحيث بدت الجدران الخارجية على هيئة صفوف متموجة. عكفت بعد إقامة الجدران الأربعة على سد الشقوق والثغرات بالطين من الداخل ومن الخارج ثم طليتها بالجير. وفى النهاية صار الكوخ الخشبى حسن المظهر ومتينا فى نفس الوقت.

شيدت فى أعقاب ذلك حظيرة منفصلة . وجعلت تحت السقف مباشرة حجرة شيدتها بألواح من الخشب (طقيسى)، علاوة على قيامى بحفر سرداب (بدروم) صغير أسفل الحظيرة . أما الدار فقد اشتملت على غرفتين . إحداهما غرفة معيشة ومطبخ فى آن . والثانية غرفة نوم بها سريران. توليت عمل الصوان بنفسى، إلا أن الباب ظل مستعصيا على القفل حتى صوبت له ضربة قوية بركبتى فى بطنه، وإذا به يمتثل للإغلاق فى الحال. وفى المقابل بدأت تظهر عليه أعراض جانبية، إذ بدأ يصدر عنه صرير أشبه بعواء الخنازير، ظل ملازما له طوال عمره . كذلك نجحت فى إنجاز أعمال نجارة المائدة والكراسى. وعلى الرغم من حرصى على خرط عدد الأرجل اللازمة لها، فقد تبين لى فيما بعد أنها عرجاء بعض الشئ، نظرا لتفاوت أطوال الأرجل التى ترتكز عليها نتيجة لعدم مطابقتها للمواصفات، وهو ما كان ينبغى له أن يكون. وكان للكوخ نافذتان صغيرتان اشتملت كل منهما على درفين من الزجاج. كما انتصبت فى أحد الأركان مدفأة حديدية صغيرة، لم يعبها عائب فى الصيف القائظ، أما فى فصل الشتاء القارس فكانت تفوح منها

رائحة كريهة نتيجة لتدفق الدخان منها بدلا من إشعاعه للحرارة والدفء فى أرجاء المكان. وعلى ما يبدو أنه من المحال إرضاء كل الناس على مدار العام. وجدير بالذكر أن المدافئ الحجرية المكسوة ببلاط القاشانى غير معروفة فى هذه البلاد، لأن كل من يعيش عندنا يستخدم تلك المدافئ الحديدية.

عندما انتهيت من تشطيب دارى من الخشب شعرت بالارتياح، ذلك لأنى أنجزت ما ينبغى عمله بمجهودى الذاتى وأنا على أعتاب حياتى الجديدة. لم يساعدنى الجيران سوى فى إقامة هيكل البيت. ولا يخفى أن تشييد بلوكهاوس يتم خلال فترة وجيزة، لأن الأعمال التحضيرية السابقة للتشييد هى بيت القصيد. أما إقامة هيكل البيت ذاته فلا يحتاج إلا ليوم أو اثنين. كدت أطير فرحا بما أنجزت. لكنى لمحت "ليزا" مرارا وهى تقف مكتئبة بأحد أركان الدار أو فى خارجه وهى ممسكة بطرف مئزرتها لتكفكف بها دموعها الذوارف. أخذت زمام المبادرة محاولا ترضية خاطرها بكلمات ودودة عساها تصلح مهجتها، ولكن هل تعرف ماذا قالت لى؟ لقد داهمتنى فى عصبية بقولها : يا ليت حجرة المعيشة فى كوخنا الخشبى هذا كانت فى بهاء حظيرة الخنازير فى بيتكم الجديد. أنارت تلك المقارنة بصيرتى، فقلت لنفسى فى همس ملح: حذار أن تدع الأمور تمضى هكذا على عواهنها. ينبغى يا "يورن- ياكوب" أن تعمل على إدخال البهجة فى نفسها، حتى ترفع من معنوياتها، فيتعدل اتجاه تفكيرها. هذا وإلا غاص كلاكما منذ البداية فى وحل الإحباط ثم يتسرب معكما الاكتئاب إلى عقر داركما. حينئذ لن ينتشلكما من دوامة الهم والغم عون إنس أو إله. وعندما ينعم الله عليكما بإنجاب الأطفال فسوف تمر هذه المحنة من تلقاء نفسها مثل سحابة صيف. وإلى حين مجئ الخلف الصالح، فعليك أن تجد الوسيلة المناسبة حتى لا تلجأ زوجتك إلى مسح دموعها بطرف المئزرة مرة فى إثر أخرى.

سحبتها من يدها برفق ثم درت بصحبتها حول بيتنا الخشبى وخطونا بعد ذلك عتبته إلى الداخل وكأننا ندلف إليه أول مرة. وجدتنى مضطرا لكى أريها كل

شئ فيه وأقنعها بمحاسن مشتملاته. قلت لها: انظرى يا "ليزا" إن كل شيء بديع عندنا ومصنوع من أمتن الأخشاب. لقد أسبغ الله علينا من واسع عطفه وجعل هذه الأشجار تنمو خصيصا من أجلنا. كنا نجهل وجودها إلى أن ساقتنا الأقدار إلى هذا المكان. لم تكن الأشجار على علم بأنها تنمو من أجلنا. كما خفى على رئيس هذه البلاد وعلى كل إنسان سواه أنها كانت من نصيبنا. الله وحده هو الذى خص نفسه بهذا العلم المسبق. انظرى، إن خليل الله ابراهيم كان يسكن مع سارة فى معقل من كتل الخشب. وقام يوسف النجار بتشييد بيوت تشبه بيتنا. ولكن هيهات له أن يكون قد استخدم خشبا فى جودة ومتانة خشبنا.

انظرى إلى تلك الجذوع الضخمة المثبتة فى أركان البيت! إنها متينة وقادرة على حمايتنا من الأعاصير، كما أنها تشير بالضبط إلى الجهات الاصلية الأربعة التى تعلمناها فى المدرسة. انظرى من حولها لا، بل أمعنى النظر فى هذا الاتجاه نعم ثبتى عينيك فى هذا الخط المستقيم إلى نهايته، إنك سوف ترين فى نقطة النظر جبل "بينكين برج" ومن ورائه مباشرة تقع قريتنا، مسقط رأسنا، أليس ذلك تيمناً بأن نعقد أصابع أيدينا فى خشوع لنتذكر الوطن الذى تهفو إليه نفوسنا. أما إذا نظرت فى الاتجاه الآخر فسوف ترين خلف هذه المرتفعات مقر رئيس البلاد. وعند تحققك من ذلك يمكنك الانحناء احتراما لتحيته، ولن يكلفك ذلك شيئا.

أما إذا نظرت إلى شبابيك بيتنا، فسوف تجدين أن عندنا شباكين، بينما لم يكن فى فلك نوح سوى طاقة واحدة. هذا بخلاف طلوع الشمس كل صباح لكى تحيينا بقولها : صباح الخير يا أحبائى، هيا انهضوا إلى العمل لا تتقاعسوا. ألا ترون أننى قد نهضت من الفراش مبكرا. وعندما تؤوب إلى المغيب تطل على الآخرين لتقول لهم: كفاكم عملا فى يومكم هذا، فأمامكم يوم آخر هو الغد. هيا اذهبوا إلى مخادعكم، فإنه لكل يوم أعباؤه التى ينبغى النهوض بها.

صحيح أن الجدران بها فتحات كثيرة، لكن لا تنسى ما لها من المنافع.
– قالت: أى منافع تقصد؟ هكذا وجهت لى هذا السؤال بدون إمساكها طرف المريلة

لكي تجفف دموعها. قلت لها: أعنى أنها تسمح بدخول الهواء النقى وبخروج الدخان. ومما لا شك فيه أن ذلك أفضل وأرخص من فتحات التهوية العصرية التى ابتكرها أهل المدن. انظرى يا "ليزا"، وعندما نرقد ليلا فى السرير ويطل علينا خسوف القمر أو ما عداه من الظواهر الطبيعية، فإننا لن نحتاج إلا أن ندير وجهينا فى اتجاهه، ولا نكون مضطرين للنهوض من الفراش مثلما يفعل الأغنياء.

قالت: ولكن كيف نتصرف إذا ما أمطرت السماء؟

– كانت إجابتى: إذن أهلا برذاذ المطر، ولتبتل رؤوسنا، ففى قطرات المطر علاج للشعر بالمجان يضاهى مقويات الشعر ويعمل على نمائه. كما قلت أيضا إن المطر مفيد للتربة. لكنى لاحظت نظرات الاسترابة فى عينيها، إذ عقبت على الفور وهى تتمتم: ربما يكون المطر مفيدا للتربة لكن ذلك لا ينسحب على السراير بكل تأكيد! وأعقبت قولها بضحكة لم تخل من تشفى بادى، إذ "قفشتنى" بفطنتها "متلبسا" بمسايستها وبمحاولة استرضائها. ومع هذا كنت راضيا لرد فعلها، اقتناعا منى بأن الضحك خير من البكاء. فالضحك يضفى مسحة من الصفاء على العيون، وينقى القلوب من الهموم. قلت لها: صدقت يا" ليزا" ولكن هل تعرفين ماذا نفعل لو طالنا المطر فى فراشنا؟ فى هذه الحالة نفرد المفرش الكبير من المشمع فوق أعمدة السرير على هيئة خيمة ثم نعود للنوم ملء جفوننا من جديد. ولا شك أن ذلك الحل أفضل بكثير من اعتمار قبعة تقينا من البلل. "ليزا" إن ما يعجبنى فى أمريكا هو سكن الناس في بيوت خاصة بهم ينعمون فيها بحريتهم الشخصية، علاوة على أن لهذه البيوت سقوفا معروشة ولكنها جوفاء من الداخل. ولا ريب أنه تقليد محمود.

دعينى أكمل حديثى، فما زال للحديث بقية. فهنا فى جهة الجنوب ثقب كبير يمكننا أن نمد أيدينا من خلاله لكى نسلم على الجيران عندما يمرون علينا ونبادر بسؤالهم عن أحوالهم. وكذلك عندما يمر ببيتنا غريب أثناء عملى بالحقل، فلا تكونين مضطرة إلى فتح الباب إذا لم ترغبى فى ذلك. وليس فى هذا ما يسىء، لأن من بين العابرين صعاليك و"متسكعين" يمكنك التحقق منهم من خلال الفتحة التى بالجدار.

الصديق العزيز، أقول لك إن ذلك الثقب الذى بالجدار الجنوبى لدارنا لم يُقَصِّرْ أبدا فى القيام بمهامه على أكمل وجه ولسنوات طوال. فكان إذا جاء أحدهم فى وقت غير مناسب نقول له من خلال الثقب: نهارك سعيد وطريق السلامة. وأثناء تواجدى خارج المنزل و "ليزا" بداخله، كانت تناولنى ما أريده مباشرة عبر ذلك الثقب. أما فى فصل الشتاء فكنا نسده بالخرق والأطمار البالية. سها على "ليزا" ذات مرة أثناء عملى بالحقل أن تُوصِدِ باب المنزل بواسطة المزلاج. وفجأة ودون مقدمات وجدت نفسها أمام بائع متجول يعرض للبيع ما يحمله فى جعبته من الحاجيات. ولما ساءها اقتحامه المنزل بدون استئذان، أحجمت عن الشراء. وعندما رأته يتعسس ويتشمم فى أركان الغرفة مبديا احتقاره لما يرى وهو يقول: من الواضح أن سليلة الفقر تعشش هنا! ما كان منها إلا أن هوت بذراع المكنسة على كتفيه عدة مرات وهى تقول له: والآن أصبحت تعرف أين تضرب سليلة الفقر! وهكذا ردته على عقبيه دون تمكنه من عقد صفقة معها.

وللتسرية عنها، وحتى تنحسر موجة اكتئابها، طفقت أتوسع فى تفخيم محاسن بيتنا على الصورة التى تأملها وإن لم تكن له، وقلت لها فى تودد آخذا فى الحسبان المثل القائل "اليوم سلام وغدا كلام": إذا كنت تعتقدين يا "ليزا" أن بيتنا يشتمل على غرفة واحدة، فإنك تتجنين بذلك على الحقيقة وترتكبين خطأً فى حق نفسك. ذلك لأن بيتنا يشتمل فى واقع الأمر على ثلاث غرف ومطبخ. رأيت عينيها تدوران فى محجريهما من الدهشة، وإذا بها تشخص ببصرها إلى الجدران وهى ترمقنى بنظرة فاحصة وكأنها "تطقسنى".

– نعم، إن عددها كما أخبرتك، وسوف أبرهن لك على ذلك. ولذا سأتناول قطعة من الطباشير لأرسم خطين بطول القاعة وعرضها، هذا كل شئ. وبذلك يكتمل عدد الغرف. هذا بالطبع لو أهملنا وجود الجدران الفاصلة غير مأسوف عليها، فما لها من وظيفة إلا الاصطدام بها فى الظلام. ها هنا تقع حجرتك الخاصة بك يا "ليزا". وهنا سوف نعلق نتيجة الحائط بصورها الزاهية التى وعدنى بها التاجر بمناسبة حلول العام الجديد. صدقينى إن نتيجة رئيس هذه البلاد لا تشتمل على عدد أكثر من الأيام.

أومأت برأسها ضاحكة وهى تقول، وسوف تتاح لى بذلك الفرصة لكى أواظب على تسجيل مواعيد الزيارات بالجزء الأسفل من النتيجة.

- حسنا، وهنا تقع حجرتى بجوار حجرتك. وهكذا يستطيع كل منا الجلوس بصالونه الخاص به، وعندما يطيب لنا أن نتبادل أطراف الحديث، فلن تشكل الجدران حائلا بيننا. هزت رأسها علامة على الموافقة وقد أخذها الحماس الذى دفعها إلى القول: وهناك بالطبع مطبخى فى مكان الكانون، وبجانبه حجرة السفرة تكاد لا تتسع إلا لنصف المائدة.

- لا فض فوك يا "ليزا"، وعندما نعزم على التمشى بعد تناول الغذاء كوسيلة تساعد على الهضم، فما علينا إلا أن ندلف من الباب لنجد الغابة أمام ناظرينا وجها لوجه . بالله عليك يا "ليزا" قولى قولة حق، ماذا يكون بستان قصر أمير "لودفيجز لوست" بشمال ألمانيا بجانب بيتنا وغابتنا الفسيحة؟ أقولها لك يا عزيزتى وبالفم المليان، إن قصره وبستانه لا يمثلون إلا شيئا تافها لا يقاس بما لدينا. ولذلك فأنا لا أحب أن أستبدل جنتنا الصغيرة بقصره وبستانه.

عادت المياه إلى مجاريها، فارتفعت معنوياتها، وتعدل اتجاه تفكيرها، ولم يعد يخالجها حزن أو اكتئاب. ذلك لأن بدء مشروع جديد للحياة، مترع بالعمل الدؤوب، إذا ما اقترن بقلب حزين مكلوم، فلا ريب أنه سيؤدى إلى الاستعانة بأطراف المئزرة لكفكفة العبرات التى تجود بها العيون الذوارف، وهو أمر مرفوض. وما ينبغى لى قوله فى هذا المقام، هو أن إنجابها للأطفال قد عمل على انفراج أساريرها، وعلى توديع سابق اكتئابها. إذ قلصت كثرة مشاغلها البقية الباقية من وقتها. ولما نضب وقت الفراغ لم يعد يخالجها الشجى أو كسوف البال. ولحسن الحظ أن توافقت كثرة مشاغلها مع الظروف المستجدة التى داهمتنى فجعلتنى مضطرا للعمل خارج المنزل معظم الوقت. لكنى أدركت أن اشتهاء العمل يتعاظم، عندما يعرف المرء لمن يكون مردود ما بذل، وعندما يتعين على مدخنة الدار أن لا تكف عن بثها للدخان نتيجة للطهو والتدفئة. فلا غرابة أن صارت البلطة تجتث

الشجر اجتثاثا، كما أصبحت المحشة تحشّ الحشائش حشًا وتحصد المحاصيل حصدا، وذلك على نحو لم أعهده من قبل. من هنا بدأ تقدمي لتحقيق الآمال، ومن هنا بدأت أتدرج السلم صعودا مع صفوة المزارعين.

بمجرد الانتهاء من تشطيب الدار، صرت حاطبا يحترف الاحتطاب. جعلت البلطة تنهش الغابات والأدغال نهشا، وتقطع أشجارها تقطيعا، حتى تقلصت مساحتها[1]. كدست كمية هائلة من الحطب فى أكوام بعد تقطيع سيقان وجذوع الشجر بأحجام مناسبة. لذلك لم يكن هناك ما يدعو للتقشف فى استخدام الحطب وقودا على مدار سنوات عديدة. وغالبا ما عجلت فى التخلص من المخلفات اليابسة من أغصان وفروع ومن بقايا الشجر بإضرام النار فيها. وعلى هذا النحو شرعت فى فك أسر البيت مما يحيط به من غابات كثيفة شاسعة، وعملت على طيها إلى الخلف طيا حتى أزيل ما يحول دون التمتع بإبداع الطبيعة، ولم أتقاعس فى إنجاز هذه المهمة عاما فى إثر عام. قمت باجتثاث القرم والجذوع كلما استطعت إلى ذلك سبيلا. وكنت أتركها فى مكانها إذا عجزت عن إزالتها. وشرعت فى الزرع ونثر البذور من حول القرم والجذور، فصارت الأرض مبقعة مبرقشة متعددة الألوان. أما ما حصدته من الذرة بعد ذلك فلا يمكنك تصديق مدى جودتها. وكان ثخن عيدان الذرة فى سمك البوص. ولم يمض وقت طويل حتى قمت بتفجير "القرم" والجذور مستخدما الديناميت بصفتها الوسيلة الأسرع. كما اشتريت جوادين للعمل، وارتأيت أنهما يكفيان فى مرحلة البداية. لم تكن هناك طرق أو مسالك. فحيثما استطاع المرء السير بعربته على الأرض المُضَرّسَةِ وغير المعبدة أصبحنا نسميه طريقا. كان هذا هو نظام السير فى الطرق عندنا الذى وضعناه بأنفسنا. لكن انقلاب العربات فى الدروب الوعرة كان جزءا لا يتجزأ من نظام المرور الذى لم يتخلف عن اتباعه أحد. وقد ناهز عدد ما إنقلب لى من عربات النقل الجارّة خلال السنوات الاولى عدد العربات التى انقلبت بمسقط رأسى خلال ٢٠ عاما. لكن انقلاب العربات أصبح فى نهاية المطاف شيئا

---

(١) يعتبر الاحتطاب غير المنظم عملا منافيا لحماية البيئة وتترتب على ذلك آثار مخربة.

عاديا. وكان لا بد من مرور أعوام طويلة حتى تمكنا من شق الطرق المستقيمة. أما الآن فقد أصبح كل شئ "أوول رايت"– على ما يرام. إذ أصبحت الطرق مثل الخط المستقيم بعد أن كانت ضيقة وتتلوى كالثعبان.

لا أستطيع الكتابة باستفاضة عن العمل، إذ يستعصى على القلم تقصى كم سال فى سبيله من عرق غزير. لقد عرفنا بما فيه الكفاية لأن العمل والعرق متلازمان. لكن المرء لا يكتب عن العمل ولا ينبغى له ذلك . فقد كان العمل يستغرق اليوم بطوله، وكانت كل الأيام سواء. من ثم فلن أخوض فى التفاصيل. لكنى حولت على أى حال الغابات والأدغال عاما فى إثر عام إلى أراضٍ صالحة للزراعة وإلى مراعٍ، واصلت دحر الغابات السوداء إلى الوراء حتى خفت كثافتها وانحسرت رقعتها فنحلت. وبامتداد الحقول، ومع تكاثر أعداد المهاجرين، أخذت أسعار الأطيان فى الارتفاع.

الصديق العزيز، لقد تطرق إلى آذانى أن العواصف الثلجية تصبح أكثر ندرة عندما نستمر فى تحويل الغابات إلى أراضى صالحة للاستزراع. هل هذا صحيح؟ إن هذا الأمر أصبح يحيرنى. ولحسن الحظ أن العواصف الثلجية لا تهب بكثرة فى منطقتنا. ولكنها إذا عصفت بنا ولم تخلف أضرارا، فلا يبقى أمامنا إلا التوجه بالشكر لله، لأنه حفظ بيتنا من الدمار، وصانه من الضرب كما يُضْرب البيض عند عمل العجة. هبت علينا ذات مرة عاصفة ثلجية شديدة عندما كنا نسكن فى بيتنا المشيد من جذوع الشجر. حينذاك اضطررنا لشد أحبال بين البيت والشونة حتى نستند عليها للاهتداء بها. هذا وإلا كنا قد ضللنا الطريق إلى الشونة نظرا لاحتجاب الرؤية نتيجة لهبوط ندفات الثلج الناعمة الدقيقة التى صاحبتها بللورات ثلجية صغيرة مدفوعة برياح شديدة. وأغلب الظن أنه لولا شدنا لتلك الأحبال لكنا قد ضللنا الطريق ولقينا حتفنا. إلا أن تلك العاصفة الهوجاء تسببت فى زعزعة أحد الجذوع الركنية الأربعة الحاملة لسقف المنزل وكنا نحسب أنها لا تميد. ولحسن حظنا أن تلك العاصفة مرت بسرعة. لكن الحقول والأدغال اعترضت طريق

موكبها العاصف، الأمر الذى وفر علينا إجهاد أنفسنا فى حصاد المحصول الذى تحول إلى عصف مأكول، كما أغنانا عن بذل مجهود عضلى خارق فى قطع الأشجار التى اقتعلت وتبعثرت مثل أعواد الكبريت. اهتزت ثقة "ليزا" فى قدرة أعمدة الأركان من الجذوع الضخمة على الصمود وأيدتها فيما ذهبت اليه، ولذلك قمنا فى العام التالى ببناء بيت من الطوب.

إننى لا أعمل فى يوم الأحد. وكان أبى لا يروقه العمل فى أيام الأحد بالمثل وكذلك كانت أمى. ومن ثم لا يطيب لـــ "ليزا" ولا لى أن نعمل فيه . فقد جبل الإنسان على الراحة يوما واحدا فى الأسبوع. وما يسرى هنا على الإنسان يسرى بالمثل على بهائمه. فضلا عن أن الوصية الثالثة تحرم العمل فى عطلة الأحد[1]. إلا أن معظم المزارعين الأمريكيين يعتبرون يوم الأحد بمثابة يوم للنوم. ونحن ننام فيه أيضا إذا لم نذهب للصلاة فى الكنيسة أو إذا لم نقم بزيارة أحد. وكنا لا نستخدم العربة التى يجرها حصان فى أيام الأحد خلال السنوات الأولى إلا نادرا، ذلك لتحرجنا من قيام الجواد بالجر، لأنه كان عملا بالنسبة له، مثلما كان عملا بالنسبه لنا سواء بسواء. ولما كان السفر لمسافة ٥ أميال ذهابا ومثلها إيابا يُعَدُّ فى ذلك العهد رحلة طويلة، فلذا كنا نؤثر النوم على مشقة الطريق.

ولا يساورك الاعتقاد بأننا نعيش هنا وحدانيين مهجورين مثلما تعيش وحوش الأدغال الكاسرة. فهذا أمر مخالف للواقع المعيش، لأن عندنا ما يكفى من الأحداث التى تترى وزيادة. فذات يوم اغربت إحدى الأبقار عن المزرعة وانتأت مكانا لا علم لنا به. ولا يجوز مقارنة ذلك الحدث بأحداث مثيلة عندكم، حيث إن عودة البهيمة عندكم إلى أصحابها بسرعة أمر مألوف. أما عودة بقرتنا إلينا فكانت تبدو فى صعوبتها مثل قصة "شاول" فى العهد القديم عندما ضلت حمارة (فى الأصل: أُتُنُ) قيس والد شاول[2]. كنت خارج البيت لقضاء بعض الأعمال، ثم

---

(١) راجع العهد القديم، سفر الخروج. الوصية الثالثة، حسب ترتيب " لوثر".

(٢) راجع العهد القديم، سفر صموئيل الاول ٩: ٣.

عثرت على البقرة فى بقعة جرداء وسط الغابة، حيث عكفت على التهام الحشائش بنهم وكأننا نمر بقحط أو مجاعة. لم أؤاخذها على الفرار من المزرعة، بل عذرتها لأن الدابة تريد ولو لمرة واحدة التعرف على مكان آخر لتغيير الهواء. لكنى شعرت بالإهانة وبالطعن فى الكرامة لإقبالها بشراهة على أكل النباتات الحمضية، بينما كنا نقدم لها أحسن الأعلاف. ولذا لقنتها درسا لن تنساه بضربها بالعصا، وعند الانتهاء من العلقة عدنا أدراجنا إلى المزرعة ثانية. كانت الفرحة دافقة فى عينى "ليزا" عندما رأتنا سويا، ذلك لأننى كنت أصطحب معى أحسن بقراتها الحلوب.

وإليك حدثًا آخر . قمت بنقل الخنازير إلى المدينة. كان ذلك فى الفترة التى كنا نعيش فيها فى الدار المشيدة من جذوع الشجر. اعتليت المقعد المثبت على القفص الخشبى للعربة المعدة لنقل الخنازير. وما كادت العربة تتحرك حتى هاجت وعلا عواؤها وضجيجها. أردت تهدئتها بكلمات ودودة ولكن بدون جدوى. ثم صِحْت فيها بصوت جهورى مدوٍ، مرة بلهجة الشمال الألمانى، وأخرى باللهجة الأمريكية لعلها تكف عن الصياح والعويل. لكن تلك الحيوانات المزعجة لم تنصع لأوامرى سواء بهذه اللهجة أو بالأخرى . وما هى إلا بضع لحظات حتى ثار كبير الخنازير فى تحد ظاهر ثم شعرت بهزة شديدة زلزلت القفص من تحتى لدرجة أننى لم أستطع تحاشى الوقوع رأسا على عقب فى خط منحن ومن ورائى المقعد الذى كنت أجلس عليه فوق العربة. وبعد أن استجمعت قواى تنبهت إلى أن الخنازير طارت فى طرفة عين. قلت لنفسى لعلها أرادت الاستمتاع بجمال الطبيعة. إلا أننى ركضت من خلفها ركض الخنازير. وقد كلفنى ذلك جهدا وعناء كبيرين إلى جانب ما تفصدته من عرق غزير حتى تمكنت من إعادتها مرة أخرى إلى القفص المثبت فوق عربة النقل. وكانت العواقب سليمة باستثناء خنزير واحد كسرت ساقه نتيجة "لشقاوته وعفرتته". وسببت لى تلك الساق المكسورة خسارة كبيرة.

صادف عديلى "هاينريش" حادثا مماثلا ولكنه من نوع آخر. إذ قام بنقل أحد العجول إلى المدينة. رقد العجل فى هدوء فى أحد أركان العربة، بينما جلس عديلى فى هدوء مماثل فوق مقعده فى مقدمتها. وهكذا سارت بهما العربة وهى تتهادى على الطريق وكلاهما يطارد النعاس فى خمول. لم يخطر ببال أحدهما نذير سوء، وهما فى إغفاءتهما سادرين. كان الحصان البنى اللون صامتا فى المقدمة، والعجل صامتا فى المؤخرة، ومن بينهما عديلى لا ينبس ببنت شفة. وأنت على دراية كاملة بميل عديلى للسكوت. كان ذلك اليوم قائظا، ولذا راح فى غفوة خفيفة متقطعة. وبينما كانت العربة تتهادى فى رتابة بين تقلقل واهتزاز فوق الأرض الوعرة، إنخلع الحاجز الخشبى الخلفى وسقط على قارعة الطريق ومن ورائه العجل. ووصل على هذا الحال إلى المدينة حتى أوقف العربة عند دكان القصاب. خرج الجزار ليسأله "جايب معاك إيه النهارده؟" أجابه "هاينريش": "معايا عجل"، وكان يشير بتراخ من فوق كتفه إلى الخلف مستعينا بقبضة الكرباج. ومن المعروف عن عديلى عدم ميله لكثرة الكلام. قال الجزار باستغراب: "هو فين العجل؟ الله أعلم إنت وديته فين لأن مالوش لا حس ولا خبر". وأخيرا بدأ "هاينريش" يتلفت بتأن شديد إلى الوراء، ولما أتم استدارته عقد ملامحه فى الحال. ويا ليتنى كنت أستطيع رؤية محياه فى تلك اللحظة، نظرا لأننى شغوف بدراسة مثل هذه الوجوه المعبرة. وما لبث أن عاد أدراجه حتى أدرك العجل الذى كان راقدا فى عرض الطريق يترقب وصول صاحبه؛ ذلك لأن العجول الجائعة لا تقوى على المشى. لكن وقوع العجل من العربة لم يلحق به أى أذى، وكأنه مثل القطط بسبعة أرواح.

وأعرج الآن على موضوع آخر لأحدثك عن الظَربان الأمريكى. وهذا الحيوان يطلقون عليه أيضا اسم العِرْسَةِ المنتنة أو الكركدون المنتن. وهو غير معروف فى ألمانيا . ولكن تمهل ولا تتحسر على عدم وجوده عندكم، لأن للظربان رائحة كريهة تلازمه طوال حياته. ولذا يساورنى الاعتقاد بأنه بمثابة هفوة بين الخلائق. والظربان فى حجم القطة تقريبا، لكن ذيله أطول من ذيلها. ورغم فظاعة

ما يفوح من الظرابى من النتن الخبيث، فإن ذلك المخلوق المزعج يهوى الاقتراب من البيوت فى الأيام المطيرة . حينئذ يدرك المرء بالتجربة أن أنف الإنسان كحاسة للشم يؤسف لوجودها أحيانا.

رأيت الأطفال ذات صباح يرفعون أنوفهم فى إباء حسبته للوهلة الأولى تكبرا. لكننى نظرت إلى تصرفهم بحسن نية. قلت لهم: لماذا كل هذه العجرفة؟ ولماذا كل هذه الأنفَةِ والشمم؟ ثم بادرت بفتح الشباك قليلا لأنهم كانوا يشيرون بأنوفهم فى اتجاهه. ولكنى لا أتذكر أننى قمت بإغلاق نافذة بمثل هذه السرعة من قبل. فلم تكن الكبرياء هى التى جعلتهم عزاز الأنوف، لكن أحد الظرابى تَغَوَّط بالخارج ففاحت رائحته الخبيثة، وهيهات لها أن تبارح المكان رغم فراره بعد قضاء حاجته. بعد عاصفة رعدية شديدة قمنا بفتح النوافذ والأبواب للاستمتاع بالهواء النقى المنعش. وفجأة دخل من كافة المنافذ ما يشبه السحابة المصحوبة برائحة نتانة لا تطاق. بادر الأطفال بإحكام قفل الأبواب والنوافذ. لكن الرائحة الكريهة كانت قد تسربت إلى الداخل ولازمت المكان، وأنى لها أن تتطاير إلا بعد مرور فترة طويلة، ربما حتى نستمتع بريحها وبعبير نفحاتها العطرة! قام ابنى الثانى ذات يوم باصطياد أحد الظرابى ببندقية عن بعد. وربط بعد ذلك أرجل الظربان بخيط طويل وجره من خلفه. فعل ذلك بحذر شديد وعن بعد حتى لا يناله شيء من نتانتها. لكننا اضطررنا رغم حرصه إلى دفن جوربه وحذائه بالأرض عدة أيام. الصديق العزيز، إنك لن تصدقنى ولكنك ينبغى أن تصدق ما أقول . فقد درج أناس على اصطياد الظربان بإطلاق النار عليه ثم يقومون بفصل دهنه وتسييحه لكى يستخدمو كدواء ضد البرد والزكام. ولا شك أن تعاطى ذلك النوع من العلاج يحتاج إلى قدر هائل من الاعتقاد بنجاعة مفعوله، فضلا عن معدة ذات مواصفات خاصة. ذلك لأنك لو استطعت على مدار عام كامل تجميع كل ما يفوح بقريتنا القديمة من كريه الروائح ثم عبأتها فى قنينة خاصة، فإن محتواها يعتبر بمثابة شذا وعطر وأطياب فى مقابل النتانة التى تفوح من ظربان واحد. الصديق

العزيز، لكن الظربان من الحيوانات ذات الفراء الثمينة. ويقال إن هناك سيدات أنيقات من شيكاغو تقبلن على التزين بفراء الظربان فى الشتاء، سواء على هيئة فروة لغطاء اليدين، زيق، "ياقة" أو قلادة من الفراء يضعنها حول الرقبة. وهن يجزمن بأن فراء الظرابى تفقد رائحتها الكريهة بعد حين. سألت "ليزا" عن ذلك فقالت : هذا شئ ممكن الحدوث. ثم سألت "بيرتى" فقالت إن فراء الظربان الذى يعرف هنا باسم "سكونك" هو فراء فاخر ونفيس، وأنها تود أن يكون لديها سترة منه. فكان ردى عليها هو أنني لا أريد نتانة فى بيتنا. كما قلت لها: يمكنك عوضا عن فراء الظربان وضع فروة شاة حول رقبتك طلبا للدفء من لفحات برد الشتاء . لكنها حدجتنى بنظرة عتاب "وَبَوَّزت" ثم قالت : لقد خلق الله الظربان أيضا. وكان ردى عليها : نعم هذا صحيح، ولكنه ليس أحسن خلق الله. ونظرا لأنك تطرقت للحديث عن الخليقة، فأقول لك إن حواء كانت تكتفى بورقة توت لستر عورتها. وما كان منها إلا أنها تركت المكان غاضبة. الصديق العزيز، إنك قد لا تصدقنى ولكن ينبغى أن تصدق ما أقول: إن النساء اللواتى تضعن فراء الظربان حول رقابهن، هن نوع خاص من البشر. فأغلب الظن أن أنوفهن تفقد وظيفتها كحاسة للشم بمجرد تأنقهن بفراء الظربان الثمين.

الصديق العزيز، سوف أخوض فى موضوع آخر لأقص عليك قصتى مع إنسان أنقذته من الإدمان على الخمور والمشروبات الروحية. اسمه "سميث" وكان جارى لمدة طويلة. كما كان بمنطقتنا التى نعيش فيها حالات كثيرة أيضا من المدمنين. كان ذلك الجار متغطرسا ويتصرف وكأنه انتقل للسكن عندنا من باب العطف والإحسان علينا. هذا مع أن الناس كلهم تحت الثياب فى العُرى سواسية. وعندما يأتى المساء كنت تراهم ينصرفون من الحانة، من "سالون" المدينة، وقد غابوا عن الوعى من الثَمَلِ، "ليتكوموا" سكارى على حافة الرصيف. تأكدت من ذلك بنفسى فى العام الماضى عند مرورى فى نفس الشارع ومشاهدتى لستة منهم وهم فى هذه الحالة المزرية.

أبدع جارى "سميث" فى ثلاثة فنون، هى: العجرفة، "التنبلة" ومعاقرة الشراب. ولذلك اعتاد على ارتياد الحانة. كان يبدأ يومه فى كل صباح والزجاجة فى يده ثم لا يفارق ارتشاف الكأس طوال النهار. درج على اللهج بالشراب ساعات النهار صامتا. أما فى المساء فكانت تنحل عقدة لسانه ويبدأ فى الثرثرة مكررا عباراته الثلاث: لقد ولدت مسيحيا، وتعمدت مسيحيا وأتممت تثبيت العماد كمسيحى. وكانت تلك العبارات النمطية يلوكها لسانه فى رتابة دوران حجر الرحى. ولكثرة ما سمعته يرددها، كنت أقول لنفسى وكأنى أزجره فى همس: "طيب إستنى لما ييجى وشى فى وشك علشان أوريك إزاى تمشى على العجين ما تلخبطو". وحقيقة الأمر أننى كنت أتألم من معاناة زوجته. ولذا ثنيته عن إدمان الشراب من أجلها وتم ذلك على الوجه التالى:

اضطررت ذات يوم للذهاب إلى المدينة لقضاء "مصلحة"، وأثناء سيرى بالعربة فى الشارع لمحت من خلال نافذة الحانة جارى العزيز " سميث" جالسا داخل الـ"سالون" على حريته وكأنه فى داره. وغالبا ما كان الأهالى هنا ينظرون بازدراء إلى من يكثر التردد على الحانة. وعندما شاهدته فى قعدته. أوقفت الجياد ونزلت من العربة ثم دلفت إلى داخل الحانة. طلبت من النادل كوبا من الجعة. أما الآخرون فكان الويسكى مشروبهم الروحى، قد لعب برؤوسهم وجعلهم كالهائمين فى ملكوت روحانى كاذب. رمانى "سميث" بنظرة عطوفة وكانت عيناه المضمرتان تتقلبان فى محجريهما من أثر الثمل، فقال لى: تعال يا جارى واجلس بجانبى فإنى أريد استضافتك.

– لستُ بحاجة لاستضافتك . فأنا أستطيع استضافة نفسى بنفسى. سوف أعود إليك ثانية بعد ساعة تكون قد انتهيت فيها من الشرب ثم سأصحبك معى إلى زوجتك التى فى انتظارك.

– هلى فهمت قولى؟

- بدا عليه الارتباك، وحملق بنظرات زائغة فى وجهى تارة ثم فى وجه ندماء الويسكى أخرى. وكرر الحملقة فيما بيننا عدة مرات على التوالى ذلك لأن إحساسه الداخلى جعله يتردد بين الطرفين. لكن أصدقاء السوء ضيقوا عليه الخناق حتى يكون لهم القرار. إذ قالوا: لا تنصت إلى ما يقول فهو ليس وصيا عليك. ومن هنا ركبه العناد وبدأ يتفوه بكلمات من على شاكلة أنه إنسان حر وأنه ولد مسيحيا... الخ . قلت له: إذن "سأفوت" عليك بعد ساعة ثم انصرفت. عدت ثانية بعد انقضاء الساعة، ولم أعثر لندماء جارى على أثر. وأغلب الظن أنهم ذهبوا لنفاد نقوده التى كان يستضيفهم بها. وهكذا تأبطت ذراعه وسحبته إلى العربة وقد استسلم لى فى موافقة اضطرارية.

وبعد أن أخذ مكانه بالعربة ودارت عجلاتها، قلت له : إنى أرى قنينة مملوءة بالشراب فى جيب سترتك. ولذلك فأنا أحذرك أن تشرب نقطة واحدة منها طالما كنت بعربتى . وقد أعذر من أنذر. "مفهوم!، وبعد أن تركنا المدينة من ورائنا بعدة أميال، دلفنا إلى داخل الغابة، "وأدغشت" الدنيا بين الأشجار، ثم تظاهرت بأننى فى إغفاءة وأغلقت أهدابى نصف إغلاق تاركا فتحة ضيقة بين جفونى المتدانية لكى أحسب عليه حركاته وسكناته محاصرا إياه بالرقابة واليقظة. وبعد وهلة لمحته يتلفت. بدأ بالنظر نحوى، ثم راح يجوس بعينيه فى أنحاء الغابة، وبعد برهة حانت منه التفاتة فى اتجاهى من جديد. واصلت إغفاءتى المصطنعة دون أن أغفل الفتحة الضيقة التى سترتها الرموش. مد يده إلى جيب سترته خلسة وتناول الزجاجة منه ثم رفعها إلى فمه ليمصمص عنق الزجاجة. وبضربة من قبضتى سددتها إلى يده طارت الزجاجة فى إثرها لتستقر بين الأشجار. لم أنبس بكلمة واحدة، بينما "برطع" الحصان بصعوبة لوعورة الطريق. وحالما عاد جارى إلى وعيه من أثر الصدمة التى عقدت لسانه، شرع فى ارتجال خطبة. بدأ بهمهمة غير مفهومة كأنها حشرجة وكأن الكلام "محشور" فى زوره، بعدها علا صوته وانطلق لسانه محتدا وقد انتفخت أوداجه غيظا وحنقا ليقول فى عصبية: إنك لست وصيا على. وليس لك أن تتدخل فى شئونى، لأنه تدخل مرفوض لا أرحب به ولا أحتمله. إننا نعيش فى بلد حر. كما أنه ليس من الأخوة أو المسيحية فى شئ أن

تهوى بقبضتك على يدى فتتسبب فى إضاعة زجاجة الويسكى التى دفعت ثمنها من حر مالى وعملى الشريف. وليكن فى علمك أننى ولدت مسيحيا.. وهلم جرا.

وعندما شفى غليله وجد فى نفسه طريقا مسدودا لا مخرج منه، ناديت الجوادين بعبارة "يس" فوقفا وسط الغابة. وتوجهت إليه بالكلام: أجل إننى أعرف أنك تعمدت كمسيحى. أما الآن فسوف أصلح من أمرك وأقودك على طريق الهداية. سحبته فوق الخرج برفق، وجعلته يرقد منكفئا على وجهه فى وضع مريح، ثم انهلت عليه بالضرب ضربا وجيعا بيد الكرباج. وكنت قبل عام قد قطعت يد الكرباج الخشبية، وهو صنف من الخشب جدير بالاعتماد عليه فى القيام بدور المقرعة. وبذلك تلقى "علقة" ساخنة فى تؤدة وكما ينبغى لها أن تكون.

وبعد الانتهاء من هذه المهمة عدلته فوق الخرج ثم واصلنا المسير. قلت له : والآن قد أنجزنا ذلك الجزء من المشوار وأنا أتفق معك عندما تقول إن هذا البلد حر. ولذلك أخذت لنفسى الحرية حتى تعود إلى جادة الصواب وتجتاز محنتك. وأنا أتحمل المسئولية أمام الله وأمام رئيس هذه البلاد إذا ما سئلت عما اقترفته يداى. سوف أضعك تحت رقابتى إلى نهاية الشوط وإذا سولت لك نفسك العودة إلى الإدمان ثانية، فسوف تلقى نفس الجزاء. وهذا قول جاد لا هزر فيه. كما أن هذه المسألة ستبقى سرا بينى وبينك ولن تتجاوزنا إلى غيرنا. ولا تتوهم أننى قد فعلت ذلك من أجلك، إنما من أجل زوجتك المسكينة، وحتى لا تنهار أعمالك وتفلس مزرعتك . وإذا لم يكن الويسكى قد "لحس" عقلك تماما، فينبغى أن تقول لنفسك : إن حبى المُتَيَّم لقنينة الويسكى ما هو إلا "هيافة"، ولا يرجى من وراء إدمان الخمر إلا ذهاب العقل وفساده، كما أن عشقىَ لقنينة الويسكى بمثابة إلقائى بنفسى إلى التهلكة، وسوف يودى الإدمان بى إلى القبر حتما فى أسرع وقت. ثم سنذهب كعادتنا فى أيام الأحد لزيارة المقابر. وعندما نصل إلى قبرك سوف يقول أحدهم: أجل إنه قبر "سميث" الذى ظل يتعاطى الويسكى على مدار سبع سنوات وهو يقول: سوف أفرغ زجاجاتك كأسا وراء كأس فى جوفى. وفى العام الثامن كان الويسكى

هو الذى قصف عمره وأودى به إلى القبر. وسيقول زائر آخر: عندما كان طفلا رضيعا فى المهد لم يطل احتياجه إلى زجاجة الرضاعة، وسرعان ما استبدلها بزجاجة الويسكى فلم تفارق يده واستولت عليه، وظل يلهج بشرابها حتى فطم عن الإدمان فى اللحد. دعونا من هذا القبر يا رفاق ولنذهب لزيارة قبر آخر! هذا هو ما سوف يقوله الناس عن عشقك لقنينة الويسكى عندما يمرون بقبرك فى أيام الآحاد.

إذ ذاك بلع ريقه قليلا ثم مسح على عينيه براحة كفه. وما زلت لا أعرف حق المعرفة إذا ما كانت ردود فعله تلك قد جاءت نتيجة للتعامل معه بيد الكرباج أم لما رددته على أسماعه من تعليقات الناس المحتملة على قبره. ثم توجهت إليه ببعض الكلمات فقلت له : إذا قُدِرَ لك الإقلاع عن إدمان الشراب فيمكنك من وقت لآخر تحميل عربتك بالقش بضع مرات من مخزنى حتى لا تجوع مواشيك، كما بوسعك تثقيلها بزكيبة ذرة حتى لا يتطاير القش. وربما أعطتك " ليزا" فخذا من اللحم المملح أو عددا من أصابع السجق، لأن ذلك أفضل للمعدة من إتراعها بالويسكى.– توكلنا على الله "حا". هكذا ناديت الحصانين ليواصلا السير. وبعد ذلك ظل "سميث" يسكن فى الجوار عدة سنوات وضعته خلالها، وبعلمه، تحت رقابتى المشددة حتى لا يَحِن من جديد لمعاقرة الويسكى. ولكن يتحتم علىّ القول بأنه ظل ملتزما على نحو يبعث على الرضاء إلى أن قام ببيع مزرعته ثم انتقاله إلى جهة أخرى. وفى تلك الأثناء تحسنت أحوال المزرعة بعض الشيء عن ذى قبل. انظر هكذا جعلته يقلع عن الإدمان على الشراب. إلا أن الناس مختلفون فى طبائعهم وفى مشاربهم.

فبعضهم يبرأون من الإدمان بتمسكهم بكلمة الله وبمواظبتهم على الصلوات، والبعض الآخر عندما يقهرهم المرض أو تضطرهم الحاجة: والبعض الثالث عندما يحتذون حذو قدوة حسنة. ولكن هناك فئة معينة من البشر لا تقلع عن السكر إلا بيد الكرباج، وكان جارى "سميث" واحدا من هذه الفئة.

قد يحدث أن يفرط المرء فى الشراب فيسكر. إلا أن بيده الإقلاع عن السكر. ذلك لأن الشراب ليس أمرا ضروريا. كما أن الإنسان ليس بحاجة للتمادى فى الشراب فيملأ الشراب بطنه مثل امتلاء الإناء حتى يفيض وينضح بما يحويه. وأنا أتفق فى هذه المسألة مع ما تنادى به الناشطات الصاخبات من أجل العمل على منع تعاطى الخمور والمشروبات الروحية تحت شعار "تجفيف البلاد من الخمور" ولكنى لا أوافق أبدا على الأسلوب الذى اتبعنه لمكافحة سوء استعمال الكحوليات. فقد قامت فئة من أولئك الناشطات الصاخبات بتأسيس رابطة تهدف إلى تجفيف حاضرة ولايتنا بجعلها مدينة يحظر فيها تعاطى الخمور. لكن الحظ لم يكن حليفهن لأنهن لم يُحْسِنّ اختيار العنوان المناسب لنشاطهن، بمعنى فشلهن فى اختيار طرف يتجاوب مع هدفهن.

طلبت الناشطات الصاخبات من صاحب حانة أن يبادر بقفل أبواب " سالونه" الذى يقدم الخمور والمشروبات الروحية لرواده: رجوه، ألحوا عليه، قدموا له الالتماسات والشفاعات حتى أرهقوه. بإلحاحهن. ثم انتقلن من الرجاء والإلحاح فى الطلب إلى التهديد والوعيد، فقلن له بأنه إذا لم يغلق الحانة فسوف يلقى عذاب النار ليصلى فى جهنم أبد الآبدين . وأخيرا تكلم إليهن : إذا لم أكن قد استطعت إقناعكن بوجهة نظرى، فلا يبقى أمامى إلا أن أجيبكن إلى مطلبكن، لأنى لا أريد أن يكون مصيرى نار جهنم. ولكن إذا كنت سأستجيب لمطلبكن، فلا بد أن تقدموا لى شيئا فى المقابل.

– قلن، إن طلبك مجاب وعن طيب خاطر. فقال بفجور حسنا، إذن عليكن خلع أحذيتكن حتى أرى كعوب جواربكن! اعتبرت الناشطات ذلك خروجا على آداب اللياقة، وانصرفن على التو، ولم ير وجوههن بعد ذلك أبدا. لا، إن تحول "أيوا" إلى ولاية للاعتدال ونبذ الشراب أسوة بـ"كنساس" لن يتم بهذه السرعة. ذلك لأن "أيوا" يسكنها عدد كبير من الألمان المغرمين باحتساء البيرة. أما عن نفسى فأنا ضد كثرة الشراب وأميل الى الحد منه. ولكنى عندما أرى إنسانا لا يكف عن عب

الماء عبا، فيتناول كوب الماء من وراء الآخر، فأشعر بأن الضفادع بدأت تنمو فى بطنى وتنق لمجرد رؤيته على هذا الحال.

إن ألسنتنا لتعجز عن أن تلهج بالحمد والشكر الواجبين لله عز وجل على أننا نكاد نتمتع بدوام الصحة والعافية. فأنا لا أستطيع أن أتصور مثلا مدى ما سوف تؤول إليه أحوالنا من الخلل لو أُصِبْتُ أو "ليزا" بحالة إغماء وسط الأدغال. فالمسافة بعيدة لإحضار طبيب. إذن فلا بد من الحرص على أن تقوم قوى الطبيعة الكامنة داخل أبداننا بمساعدة نفسها بنفسها. فإذا ما اعتور جهاز المناعة عوار، فينبغى شد اللجام قليلا حتى يستعيد عافيته من تلقاء نفسه، ويقوم ذاتيا بوظائفه الحيوية مرة أخرى. قبل حوالى عشر سنوات خلت وجدت نفسى مضطرا لعيادة الطبيب، ولكنى لم أكن أتوق لهذه الزيارة. ذلك لأنه ينتابنى شعور عند زيارة الطبيب بأننى أشتم رائحة القبور. ولذا كان عقابى أن صار ابنى الأكبر طبيبا هو الآخر. أُصبت ذات مرة على غير عادتى بالإمساك. ولم تنفع الوصفات المنزلية الشائعة فى التخفيف من معاناتى. أعطانى الطبيب دواء وقال لى: تناوله وسوف يساعدك، لكن الدواء لم يشفنى. عاودت الذهاب إليه فسألنى : "هو مش مشى الحال برضه بعد تعاطيك الجرعة؟"

– لا. إن ذلك لم يكن ممكنا لأن الدواء الذى وصفته لى كان ضعيفا– ماذا تقول؟ دوائى عديم المفعول؟ إننى أعطيتك علاجا لو تناولته بقرة المراعى لكانت أصيبت بالإسهال. إذن فانتظر حتى أريك كيف يكون الإسهال.

– أعطانى جرعة دواء. وجرى لى فى إثرها ما جرى. إذ جربت الإسهال على أصوله. كلفنى العلاج دولارا ونصف الدولار. ما عليه. فينبغى للطبيب أن يعيش هو الآخر، وهو لا يريد بطبيعة الحال أن يعيش عيشة ضنكا. هذا بخلاف أن الأطباء نادرا ما يرون أصحاب المزارع بعياداتهم.

هل تعرف ماذا يفعل بعض المزارعين حينما يصيبهم المرض؟ إنهم يتصرفون على النحو التالى: يقومون بالاحتفاظ بما يتبقى لديهم من الأدوية والعقاقير. وربما يعودون لاستعمالها بعد مرور عام فى علاج مرض آخر. وأسوق إليك تلك الواقعة التى حدثت لابن قريتنا "يوهان كلوس". فقد أصيب حصانه البنى اللون بداء فى أحد قوائمه. وعلى الرغم من مرور فترة طويلة على إصابته بالمرض فى رجله فلم يعاف ثانية منه. أعطاه الطبيب مرهما ليدهن به قائم الجواد المصاب. وسرعان ما تم شفاء رجل الحصان تماما. وبعد انقضاء نصف عام على ذلك أصيب صاحب الحصان بألم حاد فى قدمه استمر لعدة أيام.

- فماذا فعل الرجل؟ استعمل البقية الباقية من المرهم فى دهن قدمه. وتصور ماذا حدث، لقد قال إن ذلك المرهم قد ساعده على الشفاء حقا وصدقا!

لا شك إنها نادرة، تلك التى أقدم عليها "سميث"، جارى، ذلك الذى سبق لى أن عاقبته للإقلاع عن الشراب. أحضر ذات مرة دواء لكى تدهن به زوجتى قدمها الذى أصيب بالتهاب مفصلى. وبعد مرور عامين على ذلك قام بالتهام ذلك المرهم لعلاج نفسه من الكحة، لأنه على حد قوله دفع فى شرائه مبلغا كبيرا. أجل، لقد كان " سميث " بشحمه ولحمه من تلك الفئة من الناس التى يجرى فى جسمها الغباء مثل جريان الدم فى العروق.

جربت بنفسى ذات يوم أسلوبا للعلاج العنيف. كانت الحالة ميئوسًا منها، لكنها مرت بسلام. كان ابنى الأكبر فى السادسة من عمره، أصيب بالدفتريا، واعتقدنا أنها مجرد التهاب بالزور. قلنا لأنفسنا : الحالة بسيطة وسوف تؤول تلقائيا إلى الشفاء. وعندما لاحظنا أن الحالة تشير إلى خناق غشائى، كانت فرصة العلاج قد ولت. سارعت لإحضار الطبيب الذى امتطى صهوة جواده على الفور وتبعنى. كشف على الصبى ثم هز بكتفيه وقال: لقد قُضِىَ الأمر ولم يعد بالإمكان عمل شئ. إنك استدعيتنى بعد فوات الأوان. سوف أترك لك دواء هنا. يمكنك أن تحاول ولكن

الدواء لن يستطيع أن يغير من الأمر شيئا. اعتلى الطبيب ظهر الحصان وما لبث أن اختفى عن الأنظار. كان الليل حالك الظلام ومصباح الزيت يدخن "هبابا".

وقفت عند الشباك وهام بصرى فى الليل البهيم. توجهت بالدعاء لله تضرعا. أجهشت "ليزا" فى البكاء. وَحْوَحَ الصبى بصوت متقطع مكروش وكأنه يختنق. أنفاسه محشرجة . وجهه تعلوه الزرقة. ثم طرأت على بالى فكرة، بدت لى كضوء فى نهاية نفق مظلم. ناجيت نفسى: لقد يئس من شفائه الطبيب وتستطيع أنت كأب أن تقوم بمحاولة أخيرة لا ضرر من ورائها. ملأت فنجانا بالبترول وجعلته يغرغر ذلك السائل فى حلقه بعض الوقت. ثم خرج من فمه سائل وبلغم أسود اللون نتيجة لكشط ما كان يغطى اللسان والزور، كان كل شئ أسود كالسخام وبعد ذلك بدأ يستعيد أنفاسه بشكل عادى، وبهتت شيئا فشيئا تلك الزرقة التى كانت تغطى محياه. لكن مؤخرة الزور بدت لفترة طويلة وكأنها مسلوخة مثل لحم نيىء، نظرا لأن البترول عمل على تآكل كل شئ بما فيه الطبقة التى تغطى اللسان والبلعوم. لهذه النتيجة المفرحة توجهت إلى الشباك ثانية وتطلعت إلى السماء لأشكر الله فى خشوع وخضوع على إنقاذه حياة ابنى. أما "ليزا" فقد بكت بحرقة وسالت الدموع من مآقيها. قلت لها "ليزا" إن النوم قد طار من عينى ولا أرغب فى الذهاب الى الفراش ولذا سأذهب إلى الحظيرة لألقى نظرة على المواشى. أما أنت فاستريحى فى المقعد الهزاز لتغفى إغفاءة أنت فى أشد الحاجة إليها. وفى هذه الأثناء كان ابننا ينام ملء جفنيه.

الصديق العزيز، أخبرك أيضا بطرق غريبة للعلاج هنا. قبل ثلاث سنوات خلت قمت فى الشتاء بزيارة أحد بلدياتى فى "ميشيجان" وكان ابنه قد أنهى دراسة الطب وأصبح دكتورا. ولكنه دكتور تخصص فى القرص. كان قد عالج مريضين فقط بطريقته المألوفة هذه. ولم يكن الناس قد وثقوا فيه وفى طريقته بعد. إذ شاع أنه يقرص المرضى إلى أن يطيبوا. كان يقرصهم فى جسدهم الحى. وكانت جلسة القرص تستمر مدة ساعتين وتكلف المريض دولارين. هذا مع أننا كنا نقوم بقرص

أترابنا فى سنى الصبا بدون مقابل. وجدت فى نفسى الرغبة لتجربة هذه الطريقــة. ادعيت أننى أعانى من الصداع. شرع الطبيب فى قرصى بالأصــبعين أعجبتنــى الطريقة واستمتعت بها ولكن فى البداية فقط. وعندما وصل إلى منطقــة الــضلوع القصيرة توقف. اغتنمت الفرصة وقفزت من مكانى وغادرت العيادة لأنى ســريع التأثر بالزغزغة. وبذلك لم يحصل على الدولارين. غير أنى لمحت ابــن الطبيــب يلعب أمام المنزل فأعطيته خمسة سنتات وقلت له مداعبا : اشتر بها بقرة لنفــسك! لكن "ليزا" علمت بما حدث فأرسلت إلى زوجة الطبيب فخذا من اللحم المملح.

الفصل الخامس

حكايات عن الهنود الحمر وخطابات أطفال

أشعلت الغليون ثانية وبدأ دخان قاتم يعبق أجواء الحجرة. امتعضت "ليزا" قائلة: ألا تخشى أن يتسبب الدخان الأسود فى اصفرار الستائر البيضاء. أجبتها: ماذا دهاك يا "ليزا"؟ إننى لا أعرف كيف يتسبب الدخان الأدكن المتصاعد من غليون بنى اللون فى اصفرار الستائر البيضاء؟ لكنها طفقت تقول: إذن أخبرنى، كيف تسنى لبقرة فلاح قريتنا التى كانت سوداء اللون وتغذت على الحشائش الخضراء أن تعطينا حليبا أبيض وزبدا أصفر؟ ثم تطرق إلى أسماعى من المطبخ صوت ضاحك. إنه صوت ابنتى "بيرتى" التى أدلت بدلوها هى الأخرى لتقول: أبت، وكيف يتسنى لوميض البرق الناصع البياض أن ينشق عن أكثر السحب قتامة؟ وبذلك نالنى نصيب من الإحراج. وهذا هو جزاء من يورط نفسه فى دردشة مع ذوات الشعر الطويل، ذلك لأن مجتمع النساء عالم شديد الاختلاف.

كتب لى أحفادك فى الشتاء الماضى عن رغبتهم فى أن أقص عليهم عددا من قصص الهنود الحمر. لكنى لن أفعل، لأن حكاياتهم غاربة عن بالى، ولا أعرف عن أولئك القوم شيئا . فمصدر معلوماتى هو الجريدة والمفكرة فضلا عن الكتاب المقدس، كتاب الترانيم وكتاب "الإيمان الإنجيلى". وأنا على علم بما فى هذه الكتب الناطقة بكلمة الرب. ومن ثم فأنا أستقى منها معلوماتى عن الكريتيين والعرب وعن غيرهما من "بطون كسالى"[1]. وكذلك عن أقوام يصعب نطق

---

(١) يشتمل النص على لبس لخلطه بين آيتين من العهد الجديد، إذ يصف العرب بما لم يرد بالإنجيل على أنهم كسالى. ففى حين جمع سفر أعمال الرسل (٢: ١١) بين: "كريتيون وعرب. تسمعهم يتكلمون بألسنتنا بعظائم الله"، إذا برسالة القديس بولس الرسول إلى تيطس تخص أهل كريت وحدهم قبل تتصيرهم بالأوصاف الآتية (١: ١٢): " ......أهل كريت كذابون أبدا ووحوش خبيثة وبطون- -كسالى" على حد زعم واحد منهم وهو نبيهم. وتشفع لكاتب الرسائل عفويته فى إطلاق هذا الحكم المسبق هنا عن الغريب المجهول.

أسمائها من أمثال: الـ "قرتيون"، الـ "ماديون"، الـ "عيلاميون"، والساكنون "كيد وكية" والنواحى الليبية فى اتجاه قيروان.[١] لكن الهنود الحمر لم يرد ذكرهم بسفر أعمال الرسل.

كما سألنى أحفادك عن مشاهداتى وخبراتى مع الهنود الحمر، لأننى على حد قولهم أعيش على مقربة منهم. وأصدقك القول بأنى لم أشاهدهم بمنطقتنا، كما أننا لا نحتك عادة هنا بمن شاع بهم أنهم همج ورعاع. هذا علاوة على اندثارهم وصغار الحيوانات المفترسة منذ أمد طويل. ويكاد لا يعمر المنطقة التى نعيش فيها هنا إلا من يتكلمون لهجة الشمال الألمانى والذين لا تختلف طباعهم عن طباع أهلنا فى "ميكلينبورج". بيد أن بمنطقتنا أيضا طائفة تتخاطب بالألمانية الفصحى وأخرى من الإنجليز. وكان الوضع مختلفا تماما حينما هاجر الأخوة الأربعة من آل "دوبه" فى أربعينيات القرن التاسع عشر إلى "مينيسوتا"، إذ كان فى ذلك الوقت يسكن على مقربة منهم هنود حمر كثيرون من أهل البلاد الأصليين درجوا على التحدث بلغة أخرى. وعلمت أنهم كانوا يعيشون على وفاق معهم.

وقد رأيت بنفسى قبل عامين أناسا يميل جلدهم إلى الحمرة، وذلك أثناء زيارتى لواحد من بلدياتى هو "هاينريش فرونت" فى "مينيسوتا". وأعتقد أنك ما زلت تتذكر أباه الذى كان بيته خلف جبل "يونكين برج"، ذلك الذى انقلبت عربته بما كان ينقله لك من القش، ثم كاد ينقلب بها ثانية بمجرد وصوله إلى الشونة لولا اصطدام العربة بالجدار. وقد درس ابن "هاينريش" الأصغر، الذى قمت بزيارته، علم اللاهوت وصار قسيسا. وهو يزاول عمله ببلدة صغيرة على مقربة من محل إقامة والده. ولا يزال يسكن هناك هنود حمر تيسر لى معاينتهم بنفسى. وتقع المناطق المخصصة لسكناهم على بعد سبعة أميال منهم. ولكنى لم أر ما اشتهروا

=كسالى" على حد زعم واحد منهم وهو نبيهم. وتشفع لكاتب الرسائل عفويته فى إطلاق هذا الحكم المسبق هنا عن الغريب المجهول.

(١) راجع العهد الجديد، سفر أعمال الرسل : ٢ : ٨ وما بعدها.

به من أغطية الرأس المزينة بالريش، أو "بلط" الحرب التى يسمونها" تمهوك" ولا الشوى (جمع شواة) المسماة "سكالب"[1] وما إلى ذلك من الرموز التى تنسب إليهم. وسلوك "هنود أمريكا" ينم عن رجاحة عقل مثل غيرهم من البشر، كما أنهم لا يعرضون أنفسهم للسخرية أو ليكونوا أضحوكة بين الناس. وهم لا يشذون عن سواهم من الناس إلا بميل بشرتهم إلى الحمرة.

وأنا لا أعرف إذا ما كانوا يجيدون ركوب الخيل. وقد ظهر عدد كبير من الهنود الحمر فى الاحتفال بافتتاح معرض شيكاغو الدولى. لكنه تبين لى لاحقا أنهم كانوا جميعا من البيض الذين صبغوا وجوههم باللون الاحمر وارتدوا زى هنود أمريكا. وكان اسم أحد هؤلاء الهنود هو "ليمبيكر" المهاجر من إقليم "ميكلينبورج" من بلدة "تيتروف" القريبة منكم. وقد جعل ذلك الرجل الأبيض البشرة من نفسه أضحوكة بين الناس. وأنا لا أميل شخصيا إلى مثل هذا الابتذال. أما الشوى أو الــ"سكالبس"الأربعة التى كان يحملها معه، فكانت "عيرة" ومن صنع الحلاق.

غالبا ما كان الهنود الحمر الحقيقيون يحضرون من المناطق المخصصة لإيوائهم وقد امتطوا ظهور أفراسهم الصغيرة (سيسى). وهذه الأفراس القصيرة الطول لا تختلف عن مثيلاتها من حيث عدم صلاحيتها للعمل جميعا. وتعيش هذه الحيوانات فى العادة طليقة وسط الغابات والأدغال. وعندما يحتاج إليها أصحابها يستدعونها من مراعيها ثم يعيدونها إلى أماكنها بعد ذلك. أما فى الشتاء فيحتفظون بها فى الحظائر. وتنمو لها أثناء وجودها فى أماكن مغلقة، فروة حقيقية من الشعر.

لكن للهنود الحمر عيب واحد كبير هو السُكْر حتى غياب الوعى. ومع أننى لست من أنصار تحريم الشراب أو من أشياع حركة الاعتدال، إلا أننى أرفض السكر. وعندما كنت أعود مساء من زيارة القسيس بالمدينة كنت أراهم سكارى مرصوصين فى صف على حافة الغابة أو فى الطريق العام، وكانت تفوح منهم

---

(١) وهى جلدة رأس العدو المقتول بشعرها بعد سلخها كعلامة على الانتصار.

رائحة مميزة من كثرة ما تعاطوه من الويسكى. ووقفت بعد ذلك فى صمت وأنا أنظر إليهم واحدا بعد الآخر، ثم قلت لهم: أأنتم تطمعون حقا فى الصعود إلى السماء كما تتعشمون فى دخول الجنة؟ إنى أكاد أجزم أن الرب لن يحفل باستقبالكم، ولن يكون راضيا عنكم وأنتم على هذه الحالة من السكر البين أيها الأوباش. وإنى لأتعجب كيف سيعاملكم حامل مفاتيح الجنة وهو يمنعكم من دخولها. لكنهم لم يكونوا فى وضع يسمح لهم باستيعاب ما قلته لهم بينما انبعثت منهم رائحة مُنفرة من كثرة ما شربوا.

وحتى عندما لا تتعدى المسافة لبلوغ المناطق المخصصة لإيواء الهنود الحمر سوى بضعة أميال قليلة، فتراهم يستعطفون الناس من أجل المبيت عندهم، لكن أحدا لا يحب استضافتهم فى داره، وذات مرة جاء أحد هؤلاء الهنود إلى بيت قسيس بعدما انداح وجه الشمس.. كان فى حالة سكر بَيِّنْ ورب البيت مسافر. ارتعدت أوصال زوجة القسيس من الخوف، وبعد أن أفاقت من رعبها استجمعت قواها ودفعته إلى خارج البيت وقفلت من ورائه الباب بالمزلاج. إذ يقال عنهم إنهم يحبون نهب ما يملكه الغير، علاوة على إضرامهم النار فى بعض الأحيان " سهوا" فى إحدى الشون. وهم فى ذلك أخف يدا من الغجر. ويحكى أن أحدهم قد وجد حدوة حصان ذات مرة، لكن تلك الحدوة كانت "بمحض الصدفة" مدقوقة فى حافر جواد. ومع هذا فإننى غير متأكد من صحة كل ما يلصق بالهنود الحمر من التهم. فمن المعروف عن النساء- قياسا على ذلك- أن ديدان الأرض تروعهن عندما تعترض طريقهن إحدى هذه الديدان فى ممرات الحديقة، مع أنها لا تؤذى أحدا بسوء.

لكن السكر هو الذى حط من شأنهم، وكان الترويج لبيع المشروبات الروحية لهم هو ذنب اقترفه البيض فى حقهم. لقد جعلوا شيطان الكحوليات يستحوذ عليهم فاستزلهم بما زين لهم من إدمان الشراب. ومع أن السلطات منعت تعريض الناس وغوايتهم على السكر. إلا أن فئة من البيض من مروجى المشروبات الروحية ظلوا

فى غوايتهم لبسطاء الهنود الحمر سادرين. وكانوا لا يعدمون الحيلة فى تنفيذ مأربهم على الوجه الآتى: جاءهم ذات يوم بائع متجول رث الهيئة مقوس الظهر ذو حدبة كبيرة. راح يعرض عليهم الشرائط الملونة، الإبر، الدبابيس، السلاسل، الكريات الزجاجية وما إلى ذلك من أشياء كانت تستهويهم. لكن الظهر المُحْدَوْدب للبائع كان مصطنعا بحيث أمكن فصله عن جسمه ليصبح عبارة عن وعاء أجوف على هيئة قتب، غير أن صاحبه عبأه بالنبيذ المقطر الذى يعرف بالبراندى، وهو من المشروبات الروحية.

جاء إلى مناطق سكنى الهنود الحمر صاحب أرجوحة دوارة مثبت على قرصها تماثيل على هيئة جياد وأسود وأفيال. وسرعان ما حقق صاحب الأرجوحة أرباحا فاقت توقعاته. ذلك لأنه ما كاد "يهل" أول الليل حتى كان عملاؤه من الهنود الحمر يترنحون ويتعثرون ويقومون ويقعون. ظن البعض أن كثرة ترددهم على ركوب الأرجوحة ربما أدى إلى إصابتهم بالدوار، إلا أنه تبين لهم أن لترنحهم ولفقدانهم التوازن سببا آخر هو البراندى. فقد كانوا يمتطون ظهور تماثيل جوفاء ومعبأة بشراب البراندى. كما تفنن صاحب الأرجوحة بتركيبه الصنابير تحت ذيولها وفى بطونها بحيث أمكن فتحها وغلقها حسب الطلب. وكذلك كانت الأرضية الخشبية المثبتة عليها التماثيل مجوفة ومملوءة بالبراندى . وأخيرا قبضوا على صاحب الأرجوحة وزجوا به خلف القضبان عقابا له على فعلته الشنعاء. ثم قاموا بتحطيم الأرجوحة وحولوها إلى حطب للوقود. وهكذا نال الجزاء الذى يستحقه قصاصا لما اقترفت يداه. ذلك لأن ترويج فئة من البيض للكحوليات بين الهنود الحمر فى ذلك الوقت كان عملا لا يدعو للمباهاة أو للفخار، بل هو وصمة عار فى جبينهم عند الله وأمام الناس. لقد كان حَرِيًّا بهم أن يعملوا على هدايتهم إلى المسيحية وعلى تعويدهم على العمل، عوضا عن تزويدهم بأردأ أنواع البراندى والويسكى. وكان ينبغى لهم أن يعملوا على إنهاضهم مما هم فيه من التخلف، ولكنهم يفسدون عليهم حياتهم فى المقابل. ذلك لأن الهنود الحمر فى سبيلهم للانقراض على أيدى فئة من البيض تعمل على تسميمهم بالكحوليات.

إنى لأستنكر حقا ذلك السلوك المشين. لكن هناك سببًا آخر لاندثار الهنود الحمر ينبغى إلقاء الضوء عليه، ألا هو أنهم لا يعملون[1]. ومن المعروف أن ملكية الأرض تكون للشعب الذى يفلحها. ويسرى ذلك العرف السائد فى أنحاء العالم قاطبة مثلما هو نافذ فى الولايات الأمريكية. فأمريكا لا تنهض ولا تنمو إلا بالعمل. وقد استطاع بعض الهنود الحمر خلال السنوات الأخيرة تشييد بيوت صغيرة تسر هيأتها الناظرين. إلا أنهم كانوا من الكسل بحيث تعذر عليهم تأثيثها والمحافظة على نظافتها. ولما كان الكسل هو طبعهم الغالب، لذلك ينبغى وضعهم بقوة القانون فى مركز للتدريب الزراعى، على غرار المركز القائم عندكم فى " جوستروف"، من أجل تنمية قدراتهم الفلاحية وإكسابهم المهارات المزرعية. علما بأن الهنود الحمر بدون تدريب لا يصلحون للعمل بالمزارع. غير أن البعثات التبشيرية تنشط حاليا لهدايتهم إلى المسيحية. ويرى قسيسونا بأنهم سوف يتعودون على العمل بتنصيرهم. هذا كما لو كان رجال الدين يريدون بذلك إصلاح ما أفسده الإدمان على المشروبات الروحية. لكنى أعتقد بأنهم جاءوا بعد فوات الأوان. فحتى لو افترضنا جدلا أن اعتناقهم للمسيحية سوف يعمل على تغيير طبائع الهنود الحمر وعلى تعويدهم على العمل، فإنهم فى تلك الأثناء سوف يكونون قد اندثروا عن بكرة أبيهم بالولايات الأمريكية.

أما ما يمكن روايته عن حياة الهنود الحمر بخلاف ما ذكرته فتستطيع "بيرتى" ابنتى أن تقصه عليك وعلى أحفادك. لقد وعدتها منذ فترة طويلة بالقيام برحلة، ولذا فقد اصطحبتها معى إلى آل "فرونت" حيث ستمكث عندهم خلال أعياد الميلاد. وتجد طيه خطاب "بيرتى" الذى حررته لك:

---

(١) يفهم من سياق الكتاب أن كاتب الرسائل ربما يقصد أنهم لا يعملون فى ظل اقتصاد عصرى ينتج للأسواق. لكن تجار المشروبات الروحية روجوا لسلعة تقاضوا ثمنها عينيا، ذلك لأن الهنود الحمر عاشوا فى جماعات تقليدية كانت تعمل فى الصيد والزراعة والصناعات الحرفية فى ظل اقتصاد الكفاف الذى مدهم بضرورات الحياة من أجل البقاء. ولما لم تكن الخمور سلعة حرة، فقد أدوا ثمنها بمقايضتها بفراء وجلود ما اصطادوه من الحيوانات البرية على سبيل المثال.

الصديق الأعز، أستسمحك بدورى أن أسطر لك هذا الخطاب لكى أرسله إليك فى رحلة عبر المحيط. وسوف أحرص على تغليفه بعناية حتى لا تتلفه المياه. أما إذا ابتل فأرجو أن تخبرنى بذلك. لو سمحت. اصطحبنى أبى خلال عطلة الصيف الماضى إلى ثغر "موسكاتين". وهناك رأيت لأول مرة فى حياتى سفينة بخارية. وقد ركبت السفينة فى رحلة بحرية بديعة. وعندما يكون لدى متسع من الوقت فسوف أسافر بطريق البحر إلى ألمانيا لكى أزورك. إنك أعز أصدقاء أبى وبالتالى فأنت أعز أصدقائى. أما أعز صديقاتى فهى زوجة القسيس "فرونت"، كما أننى مولعة بصحبة قرينة مُعلمنا الجديد التى أتعلم على يديها أشغال الكروشيه. وللعلم لقد كانت عندنا بالمدرسة شجرة تنوب مخروطية . والآن أصبح عندنا شجرة مثلها بالكنيسة التى تم تثبيت تعميدى بها(١).

استلقى أبى على المتكأ وبدأ الدخان يتصاعد من غليونه مما سيجعل الستائر الناصعة البياض بمرور الوقت أقرب للاصفرار. لذلك تجلس أمى فى المقعد الهزاز مغتاظة . لكن أبى يضحك ولا يبالى لأن الستائر التى لا يقوم بغسلها بنفسه لا تعنيه فى شيء. وفيما عدا مسألة الستائر فأنا أحبه حبا جما. لقد تعلمت ركوب الخيل قبل سنتين. وقد اعتدت أثناء زيارتى لأسرة " فرونت" بصحبة أبى على الذهاب إلى حيث المناطق المخصصة لإيواء الهنود الحمر، وذلك برفقة زوجة القسيس وقد اعتلت كل منا صهوة جواد, وسوف أكون سعيدة إذا ما وجد حفيدك الوقت لزيارتنا. فأنا تواقة للتعرف عليه . أرجو أن تخبره بذلك. لا تنس . وعلى فكرة ما هو اسمه؟ وعندما يزورنا فسوف تكون الفرصة مواتية لركوب الخيل . وأبى يقول لك بأنه لا داعى لأن يحضر جوادا معه.

أخبرنى أبى بأن أكتب لك نبذة عن الهنود الحمر. وسوف أفعل ذلك بكل ممنونية. ولذا بادرت فى اليوم التالى مباشرة بالذهاب إلى المدينة وأحضرت معى قلم رصاص. ومر علىّ هناك بمحض الصدفة اثنان من الهنود الحمر الحقيقيين. ولا

---

(١) تثبيت العماد فى ألمانيا يتم ببلوغ الفتيان والفتيات سن الرابعة عشرة من أعمارهم.

يذهب أولادهم عادة إلى المدرسة الألمانية، بل يلتحقون بالمدرسة الحكومية. وليس الهنود الحمر على هذا النحو من السوء الذى يشاع عنهم. لكن أبى لا يحب فيهم عزوفهم عن العمل، وهو سلوك لا طاقة له به. ومن الملاحظ أن صغار بنات الهنود الحمر خجولات متهيبات، كما أنهن دائما فى حياء وخفر بحيث يتهيبن رفع رؤوسهن مثل صغار الكتاكيت، أنوفها فى الرغام. أما الغلمان فيعشقون اللعب بالكرة ويصوبون الأهداف بدقة. وهم فى غاية الألفة، سواء أكانوا فى المدرسة أو بالكنيسة.

لكن تغييرهم لدينهم لا يزال مسألة تكتنفها الصعوبة، الأمر الذى يحفز القسيس على مضاعفة جهوده. وتقوم زوجته بمساعدته فى المقر المخصص لتبشير الهنود الحمر، لكنها لا تستطيع القول بأنها كانت ناجحة فى مسعاها، لأن عدد الذين تم تنصيرهم كان محدودا. وحينما كان القسيس على سفر فى ذات يوم أحد، قام "هانز" بدق ناقوس الكنيسة. و"هانز" هو أخو زوجة القسيس الشاب وهو ذو عينين زرقاوين وشعره بنى اللون. كما أنه يدرس علم اللاهوت ليصبح بدوره قسيسا. وما إن كف عن دق الناقوس حتى شرع فى العزف على أرغن الكنيسة. وتوليت بنفسى مساعدته فى نفخ الهواء بمنفاخ القدم ليتدفق فى أنابيب الأرغن الآلية.

وقامت زوجة القسيس بوعظ المصلين، واستهلت الوعظ برواية قصة من الإنجيل. لقد روت يا سيدى المعلم قصة انتهار يسوع للرياح والبحر حتى صار هدوء عظيم. وذلك بعدما دخل يسوع السفينة وتبعه تلاميذه. وإذا اضطراب عظيم قد حدث فى البحر حتى غطت الأمواج السفينة. وكان هو نائما. فتقدم تلاميذه وأيقظوه قائلين: يا سيد نجنا فإننا نهلك ... إلخ[(١)]. وفى الختام عزف "هانز" على آلة الأرغن مرة أخرى وعاونته فى ضخ الهواء. إنه عازف ماهر على الأرغن. وهو يريد دراسة الموسيقى أيضا. وقد وعدنى بإعطائى دروسا فى العزف على آلة الأرغن. وكم أنا تواقة لذلك.

---

(١) راجع إنجيل متى ٨ : ٢٣ وما بعدها.

مر يوم آخر ولم يغير دينه هندى أحمر واحد، وهذا أمر يؤسف له. لكنى لا أستطيع معرفة السبب الكامن من وراء ذلك. أبى يقول إنهم من الكسل بحيث يتعذر هدايتهم. بيد أن أمى تقول إنها مسألة وقت لأن كلمة الرب هى أشبه ما تكون بما يقوم به المزارع. فهو عندما يزرع لا يستطيع الحصاد إلا بعد مرور فترة وأنا أعتقد أن الأمور تسير على نحو ما قالت، وهو شيء لا يشق علىّ فهمه. والآن أنتقل للكتابة فى موضوع آخر هو عن قطتنا.

إنها تقفز فوق المقعد ومنه إلى المائدة. وهى تحسس الآن بكفها على خدى فيقشعر جسدى بأكمله. وعندما أمشى ببطءٍ فى أنحاء الحجرة فإنها تسير إلى جانبى مثلما يتبع الكلب سيده. وهذه هى طبيعتها. واسم القطة "بوسى" الصغيرة. لكن أبى يسميها "ميس"[1]. ولونها مبرقش أبيض فى أسود. إلا أننى سوف أطردهاالآن خارج الحجرة.

لا ترتدى نساء الهنود الحمر القبعات، بينما تُرْسِلن الشعر على طبيعته طويلا متهدلا. وتحتاج هنديات أمريكا لتفصيل النصفية (الجيبة) الفضفاضة إلى قماش طوله بين ١٢ و ١٥ ياردة. كما يرتدين سترات واسعة مسترسلة من غير حبك أو "تكسيم"، وتغطين أكتافهن بشيلان كبيرة. شاركتهن فى الاحتفال بأعياد الميلاد. وقد تبرع المجلس الكنسى لإحيائه بمبلغ ٢٥دولارا. لكن أصحاب المزارع قدموا شيئا يؤكل وشرابا يدفئ الأبدان. قامت زوجة القسيس بشراء لفة كاملة من الشيت (كاتون)[2]. ورافقت "هانز" لإحضارها من المتجر. قلت له: دعنى أحملها عنك. لكنه تمنع بقوله : هذا شيء لا يليق بالهوانم الصغار. وكان يعنينى بهذا الإكبار المتحذلق. وقلت لنفسى يا لها من لهجة مترعة بالمبالغة والإغراق.

---

(١) أى السيئة المتذمرة.

(٢) "الكاتون" عبارة هولندية أصلها عربى من القطن. وهو نسيج رقيق متين اصطلح على تسميته (فى مصر بصفة خاصة) " بفته"، "دبلان" و"شيت". والشيت هو بفتة ملونة ومطبوعة. والكاتون الذى يعرف بالإنجليزية باسم " كاليكو" يعتبر من أهم المنتجات النسجية فى "مرحلة المصانع اليدوية". وهى إحدى مراحل التطور الاقتصادى التى مهدت لنشأة النظام الرأسمالى.

ويدخل التفصيل والحياكة ضمن مهام القسيس. ولذلك أرشدته زوجته إلى كيفية إنجاز هذه الأعمال. ولا يخضع تفصيل النصفية بطبيعة الحال للطُرُز السائدة حاليا في عالم الموضة، إذ كان يكفي قص وحياكة ٥ خرط متشابهة من القماش حتى تستطيع الهندية الأمريكية في ثوبها الفضفاض ركوب الفرس. لكننا زينا النصفية بستة شرائط ملونة على الأقل. السيد المعلم المبجل، يمكنك أن تتصور ذلك القدر من أعمال الحياكة الذى كان علينا أن ننجزه.

وبحلول المساء كان يطيب لقطتي "بوسي" الصغيرة اللعب والمزاح. فبينما كان أبى عاكفا على تدخين الغليون منكبا على الكتابة، كنت وأمي منهمكتين في رفو الثياب وترقيعها، وإذا بالقطة تعتلي المائدة وكأنها رئيس يراقب أيدى مرءوسيه الذين لا تكف أصابعهم عن العمل الدءوب في خفة ونشاط. ثم نهضت بهدوء لتقترب منا في رشاقة ولتداعب بكفيها إبر التريكو ويد الريشة الخاصة بأبى. وفجأة شدت القطة البكماء على محابس نطقها تريد الإفصاح عن شيء بدون جدوى، فتجهمت قسماتها واستحالت عباراتها الخرساء إلى إشارات إيمائية معبرة تقول: لم كل هذه العجلة يا أحبائي؟ تمهلوا وكفاكم انهماكا في إنجاز أشغالكم اليدوية بكل هذه الهمة. إن حماسكم المفرط صار شيئا لا يحتمل. أسديكم النصح لا تستمروا في الكد على هذه الوتيرة التي لا تعرف راحة أو همدة. لقد حان الوقت لكي تنالوا قسطا من الراحة بعد عناء. ألم ينبهنا رب الأسرة مرارا وتكرارا إلى مثل من أمثال سليمان معناه، أن كل شئ مرهون بوقته. وما إن عبرت "بوسي" عن وجهة نظرها، بدون كلام، حتى كرت عائدة إلى القرقرة في مكانها المعهود. وبعد هنيهة أرقد أبى ريشة الكتابة كما نحينا، أمي وأنا، إبر الخياطة جانبا وضحكنا بملء أشداقنا. لكن اللياقة تقولب السلوك بقيود الأدب بَحضّها على عدم الضحك أثناء العمل، لأن الهزل والعمل لا يجتمعان. مكثت الهرة في رقدتها لا تحرك ساكنا أو تنفرج لها أسارير. وانتهز أبى فرصة وسنها ليقول: ليت تلك "المعجونة بمية عفاريت" تحذو

حذو هرتها. تصور، إنه يعنينى بهذا القول. وهو كثيرا ما دأب على مشاكستى على هذا النحو.

تميز القماش الشيت بنقطه البيضاء المطبوعة على أرضيته الزرقاء القاتمة. لكننا أضفينا على الزى التقليدى لنساء الهنود الحمر لمسات من الأبهة والوسامة، حلت محل ما كان يشوبه من آثار التزمت والكآبة، بأن قمنا بتثبيت شرائط حمراء اللون على خاصرة النصفية وفوق كتفى الصدرية كما جعلنا حاشية (كنار) تزين الأكمام. وكذلك حرصنا على إنتاج مقاسات متعددة من ذلك الزى المنمق لكسوتهن احتفاء بأعياد الميلاد. أضف إلى الحلة النسوية سالفة الذكر ما قدمناه لهن من أحذية، وجوارب، "وفيونكات" شعر، ومناديل جيب حتى ندخل عليهن البهجة. وقد ألمح "هانز" إلى أن هؤلاء النسوة كن قد اعتدن قبل ثلاث سنوات خلت على ربط مناديل الجيب الكبيرة حول رقابهن على سبيل الأناقة. ثم أردف يقول : لكنهن أقلعن عن تلك العادة وأصبحن يستخدمنها فى تنظيف أنوفهن. كما أعطيناهن شيلانا لكى يتلفحن بها اتقاء للفحات البرد بالمناطق المخصصة لسكنى الهنود الحمر. وماذا قدمت أنت لتلميذاتك بمناسبة حلول عيد الميلاد؟

وحصل غلمان الهنود الحمر بدورهم على بنطلونات، قمصان، مناديل جيب، أمشاط علاوة على المكسرات وسكر النبات. بيد أنهم لم يوجهوا الشكر لنا على ما قدمناه لهم من الهدايا. ذلك لأن عاداتهم المتوارثة منذ العهود الغابرة تحرم عليهم تقديم الشكر. ومع هذا فقد أدخلت الهدايا السعادة إلى نفوسهم. لقد شاهدت كيف اتسعت عيونهم من الفرحة وهم يرمقوننا بنظرات تلهج بالمودة وتنم عن العرفان.

ويتميز الهنود الحمر بأنهم قوم مهذبون. وهم فى ذلك أكثر تأدبا من الألمان والإنجليز. وتراهم يحنون هاماتهم للآخرين بود وأدب جم سواء أكانوا بالكنيسة أو بالطريق العام. وسمعت "هانز" يقول : إن هناك من الألمان من يمكنهم أن يتعلموا منهم شيئا. وأحيانا تسمع الهنود الحمر وهم ينادون علينا بأسلوب لطيف ليقولوا: "هاو دو" أى كيف أنت! بدلا من ترديدهم عبارة "هاو دو يو دو؟" أى كيف حالك ؟

وهم لا يرددونها فى صيغة سؤال، بل كتحية بدون علامة استفهام. وكأنهم يلقون التحية علينا بقولهم : "سعيدة" أو يومك سعيد. وقد قابلنا ذات يوم هندى أمريكى بالغابة فتحدث إلينا بالفرنسية، وقال "هانز" إن طريقته فى التحدث بالفرنسية كانت لا تخلو من "الشياكة".

وغالبا ما ترى الهنود الحمر سكارى يترنحون. الأمر الذى يؤيد نقد أبى لهم. ولهذا السبب كنت أتحاشى السير مساء فى الطريق المؤدى إلى سكنهم. وكذلك عدلت البنات الأخريات عن ارتياده، لأنهم كانوا فى الغالب سكارى يتسكعون على امتداد الطريق المحاذى للغابة.

وعندما أغادر البيت فلا تبرح قطتى الصغيرة "بوسى" جانبى بتعقبها لخطواتى وكأنها كلب يتبعنى مثل ظلى. ولذلك درج أبى على القول بأنها صارت قطة بطريق الخطأ، وبأنه ينبغى تسميتها "بوبى" مثلا أسوة بما تشتهر به الكلاب عندكم أحيانا. وقد اعتادت قطتى على اصطحابى فى زياراتى للأصدقاء والمعارف. كما لاحظت أنها كانت تتوق إلى اقتفاء أثرى إلى داخل الكنيسة فى أيام الآحاد. لكنى كنت حريصة على منعها من تعقبى إلى هناك. وذات مرة حدث ما لم تحمد عقباه، إذ تبعتنى خلسة إلى داخل الكنيسة، الأمر الذى سبب لى ارتباكا انبهرت له أنفاسى أن رأيتها تقبع من ورائى. وزاد الطين بلة أن علا صوت الغلمان محدثين هرجا ومرجا تسبب فى إزعاج من جثوا فى صلاتهم خاشعين. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، إذ شرعت القطة فى المواء بين جموع المصلين فى صحن الكنيسة. امتقع لون وجهى فى الحال، ثم تبدل ليصبح أشبه بألوان "قوس الضباب" [وهى عبارة عن لون باهت ناصل فى صفرة الأموات تشوبه الزرقة فى داخله وحمرة الخجل فى أطرافه الخارجية]، ذلك لان "كسوفى" بلغ حدا هوى بى إلى عمق الطبقة الرمادية، وهو مثل من إقليم "ميكلينبورج " يردده أبى للتعبير عن شدة حياء من اقترف ذنبا . وأخيرا قام بطردها إلى الخارج أكبر أعضاء شعب

الكنيسة سنا. وما إن وصلنا بعد ذلك إلى المنزل حتى ثارت ثورة أبى. فقلت له: أعدك بعدم تكرار مثل ذلك النزق والطيش غير اللائقين مرة أخرى. وما لبثنا أن تصالحنا ولم يتكرر حدوث مثل هذا الموقف على الإطلاق. لكن خجلى من نفسى ظل يلازمنى لمدة أسبوع على الأقل ولم يفارقنى فيه لحظة واحدة.

صار بإمكانى أيضا العزف قليلا على آلة الأرغن. فأنا أتلقى دروسا عند معلم المدرسة. ولدينا أرغن منزلى يتصدر حجرة المعيشة. وقد أبدى أبى رغبة فى أن يسمع فى المساء تلك الأناشيد التى كان ينشدها فى صغره وهو يجلس أمامك على القمطر فى المدرسة. انظر إلى بقع الحبر التى نثرتها طريقة أبى فى الكتابة. فقد اعتاد الضغط بشدة على ريشة الكتابة إلى أن يقصفها "ويتطرطش" منها الحبر. ويتكرر تناثر البقع نتيجة لثقل قبضة يده، المعتادة على الضغط بها على المحراث فى الحقل.

إنى مغرمة جدا بأبى. لكنه لا يحلق ذقنه إلا فى أيام الآحاد. ولذلك فهو "يخربشنى" خلال أيام الأسبوع بما ينبت على الخدين من شعر كالشوك القصار. أما فى أيام السبت فتكون لحيته قد طالت لتصبح مثل الغابة الكثيفة. وأبى عريض المنكبين بحيث يمكن اختباء أفراد الأسرة جميعا خلف ظهره. وهو عندما يفرد ذراعه فى الهواء إلى جانبه، فما زلت لصغر سنى أستطيع المرور من تحته مرفوعة الهامة. وعندما تتحسس باطن يديه تجدهما فى خشونة لحاء الشجر. ولو جس المرء كفيه اللذين لوحتهما الشمس وأجهدهما العمل، فإنما يمر بيده على مبرد من جراء القشف. وعندما يَجِدُّ أبى فى مشيته، فلا بد لى أن أعدو من ورائه حتى ألحقه. لكن بؤبؤ عينه اليمنى به بقع عسلية نمنمية، وقد أخبرنى أبى بأنه أراد توريثها لى، لكن خطأ ما قد حدث، وبذلك أصبحت حدقتا عَيْنَيَّ عسليتين بالكامل. أما "هانز" فيرى أن الحدقتين، على حد قوله، لونهما "عسلى فى ذهبى داير ما يدور" قلت له إن وصفه ليس إلا محض هراء لا يعتد به. ومع ذلك فقد شنف آذانى

بهذا الإطراء. لكننى ألاحظ أحيانا أن حدقتى العينين تميلان إلى الزرقة. أرجو أن تكتب لى فى المرة القادمة من أين يأتى ذلك التغير. لا تنس الإجابة على تساؤلى من فضلك.

أحب أن أداعب أبى أحيانا. فعندما أراه مستغرقا فى القراءة، أقترب إليه من الخلف وأنا "أتسحب" على أطراف أصابع القدمين فى هدوء لأشده من ذقنه. إلا أنه حالما يطبق علىّ بيديه، فأصاب بالذعر وأقفز إلى الوراء. وبعدها نتسامر سويا ونتضاحك. ثم ما يلبث أن يعبس وجهه ليقول: هل تعرفين رابع الوصايا العشر(١) يا بنيتى؟ وهل للابنة أن تتسلى بعد ظهر يوم الأحد بشد لحية أبيها المسن فى أنحاء الحجرة؟

تهفو نفس أبى إلى سماع أغانيكم القديمة، إلا أنه لا يحفل كثيرا بتغريد الطيور. وذات مرة مدحت أمامه تغريد البلابل، فلم يتوان فى التعليق على إطرائى بقوله: إذا بلغت زنة البلبل ١٨ رطلا فى عيد القديس مارتين [يوم ٧ نوفمبر الذى تعد فيه عادة وجبات الأوز]، وأصبح يكاكى محاكيا الأوز، فسوف أتوق لسماع تغريده. وأبى من تلك الفئة من الناس التى تعشق شهى الطعام وكثرته، وتعاف أن تتضور جوعا. وقد أعددنا فى يوم الأحد الفائت وجبة من الدجاج على طريقة الزنوج. وقمنا بطهوها على النحو التالى: تولت أمى تقطيع الدجاجات إلى قطع مناسبة الحجم. وقمت أنا بتقليبها فى دقيق الذرة المطحون خشنا. بعد ذلك شرعت "كورا" فى قلى قطع الفراخ فى زيت يغلى على شعلة الموقد. ومن المعروف أن سخونة الزيت وخشونة الدقيق تكسوان قطع اللحم الأبيض بقشرة متماسكة تحفظ على اللحم طراوته كما لا تفقده عصارته. وتعتقد أمى أن الطريقة الزنجية فى إعداد وجبة الدجاج أفضل من الطريقة الألمانية . هذا بينما عبر أبى عن رأيه فى الأكل بعد أن مسح بيده على فمه بقوله: إن شعبا يبدع فى إعداد وجبة شهية بهذه الطريقة لا ينبغى وقوفه على أدنى درجات سلم التفوق بين الأمم. و"كورا" هى

---

(١) الوصية الرابعة بحسب ترتيب "مارتن لوثر" – "أكرم أباك وأمك ..." راجع سفر الخروج ٢٠: ١٢.

زوجة أخى الأكبر الذى يشرف على علاج مرضى كثيرين. وهى هنا فى زيارة بصحبة صغيرها "شارلى". حمل أبى الطفل الرضيع بين ذراعيه وقد تجسدت فيه أصفى مشاعر الحنان. فالجد "ولْد الولْد" يربطهما حب متيم. وبالأمس حمله بين ذراعيه بالمثل وجال به فى أرجاء الحجرة. وتوقف أبى فجأة عن الحركة ثم تناول ساعته من جيب الصدار الأيسر ليضعها فى الجيب الأيمن. ولما انتهى من حركة التنقل هذه، إذا به يرفع سبابته مخاطبا الحفيد وهو يقول له: حتى لا تبلل يا كتكوتى جيب الساعة ثانية مثلما فعلت يوم الأحد الماضى وتسبب فى وقوف الساعة. وعلاقة أبى بساعته هى علاقة خاصة جدا قد تصل إلى حد التزمت. فهو يعلق ساعته عادة على مسمار بالحائط لكنه لا يستطيع رؤيتها من مكان جلوسه . وكذلك تعلق "كورا" ساعتها على مسمار آخر بحيث يستطيع أبى التعرف على الوقت وهو قابع فى مكانه. وعندما يريد أبى معرفة الوقت فهو لا يتطلع إلى ساعة "كورا" التى أمامه مباشرة، بل يدير جسمه دورة شبه كاملة باتجاه ساعته هو ليستطلع الوقت. سألته "كورا" لماذا تجهد نفسك وساعتى أمامك ؟ فأجابها وهو ينظر إليها بصرامة: لأنى لا أريد يا ابنتى أن أقصر عمر ساعتك من كثرة الاستعمال! نعم هكذا يكون تصرفه [الرافض للتطفل] أحيانا.

وذات مرة تصرف أبى معى على نحو مماثل. فعندما كان يتعذر على فهم بعض ما ينشر بالجريدة من موضوعات أو أخبار، تعودت على اللجوء إليه لكى أستوضح منه ما استغلق عليه فهمى. ولما تعددت شكاوى القراء من قطارات السكك الحديدية بدعوى أن السفر فى عربة الركاب الأخيرة أصبح شيئا لا يحتمل من شدة ما يعانيه المسافرون من قرقعة وارتجاج. سألت أبى مستفسرة: أليس هناك ما يمكن عمله للحد من غربلة المسافرين فى العربة الأخيرة من القطار وصم الضجيج لآذانهم؟ هل هناك من وسيلة يتحرر بها الركاب من ذلك الإزعاج المزمن؟ وجاء رده قاطعا إذ قال: إن الطريقة المثلى والأكيدة المفعول هى فصل العربة الأخيرة عن القطار! ماذا تقولين فى ذلك الحل ؟ نعم، هكذا يكون حسمه للأمور أحيانا.

ولما أصيب أبى فى الشتاء الماضى بنزلة برد، وصفوا له شرب فنجان من بذر الكتان المغلى كل مساء. لكن هذه الوصفة أصابته "بالقرف" والغثيان. لذلك نبه حب الاستطلاع حواسى كلها لاختبار مدى تقبله لتجرع هذا العلاج الشعبى. وسوف أصف لك فيما يلى، كيف تجرع الدواء:

(١) بدا عليه التردد وطاف حول الفنجان مرارا

(٢) كتمت أنفاسى بالمنديل

(٣) تبرم واستاء مستبشعا شرب الدواء

(٤) واصلت كتم أنفاسى بمنديلى

(٥) بعد لأى تجرع الشراب وسرت فى جسده ارتجافة الاشمئزاز

(٦) لم أستطع منع نفسى من الضحك أكثر من هذا

(٧) شدنى برفق من ضفيرتى وهو يكيل المديح لشراب بذر الكتان المغلى معددا فوائده بالنسبة لى أيضا، وكأنه يروج له عندى محاولا إقناعى باحتساء فنجان منه كل مساء

(٨) كانت إجابتى مباشرة لا تعرف المواربة، إذ قلت له : كلا إننى لن أحذو حذوك يا أبت، فعندما أراك تتقزز من تجرع بذر الكتان المغلى، فإن اشمئزازك هو خير علاج لى.

لا يمل أبى من ترديد كلمته المأثورة: ينبغى لكل إنسان أن يراعى النظام فى تسيير أمور حياته. وهو يقصد بذلك أن لا حرج على المرء من المزح فى المواقف التى تستدعى المزاح، لكن عليه الالتزام بالجد فى المواقف التى تتطلب التحلى بالجد والرزانة. إلا أنه يُصِر، عند أداء صلوات المساء، على محاسبتنا على ما اقترفناه من الزلات أثناء النهار. وهى مواقف عصيبة لا تخلو من التوبيخ. وسوف أروى لك فيما يلى مثالا يلقى الضوء على رهبة الموقف: زارنا فى الأسبوع الماضى "رويش" العجوز، أحد معارف أبى وأرادت أمى بهذه المناسبة إعداد

كومبوت التفاح، وهو حلو من التفاح المطبوخ. إلا أننى و"كورا" كدنا نأتى على معظم ما قمنا بتقشيره منه. حدجتنا أمى بنظرة عاتبة زاجرة لتقول: كفاكما ازدرادا، فأنتما تعلمان أن ما عندنا من التفاح قليل. لكننا لم نعبأ بما قالت وتمادينا فى الضحك والتهريج. وبحلول المساء تناول أبى الكتاب المقدس ثم طفق يحدثنا عما سنفعله قائلا: سوف نقرأ اليوم فى العهد القديم أمثال سليمان، سفر الأمثال، الإصحاح ٢٨. وبعد مطالعته للنص لبعض الوقت، قال: لنقرأ إذن الآية ٢٤. ومهد لذلك بملاحظة أنه كثيرا ما لا يلتفت الأطفال والشباب إلى مغزى هذه الآية، مع أن النشء هم المعنيون بذلك أساسا لأنهم الفئة التى ينبغى لها إدراك فحواها وجعلها نبراسا لحياتهم. ما فتئ أن تلا علينا نص الآية ٢٤ القائل: "السالب أباه أو أمه وهو يقول: "لا بأس" فهو رفيق لرجل مخرب".

عقبت أمى على ذكر تلك الآية بقولها: آه.. حكاية التفاحات اللذيذة ظهر اليوم! أما أبى فلم يعلق على ما قالت، وشرع مرة أخرى فى تلاوة الآية ٢٤ بتأنٍ وروية. علا الاحمرار وجهى ووجه "كورا" خجلا لشعورنا بأن أبى يعاقبنا مستخدما كلمة الرب. لكنه واصل القراءة حتى ختم تلاوة الإصحاح. ثم تفرس فى وجوهنا الواحدة بعد الأخرى. وباغتنى بالسؤال : فى أى إصحاح يوجد ذلك المثل؟ لم أعرف كيف أرد عليه، فقد نسيت. وطفق يسأل "كورا" من بعدى فأُسقِط فى يدها ولم تجد ما تقوله هى الأخرى. ثم تحدث أبى إلى الضيف "رويش" تتمة لسلسلة أحاديث سابقة، قائلا له: لقد قلت لى صباح اليوم بأننى قد اعتنيت بتربية أسرة صالحة، ولكن عندما يسأل المرء ناشئة تلك الأسرة عن الكتاب المقدس، فلا حياة لمن تنادى. عقبت أمى على ذلك بقولها: إنهما لا تزالان فى ربيع العمر. تفحص أبى وجه أمى ثم سألها : هل ما زلت تعرفين فى أى إصحاح كنا نقرأ الآن؟ أجابت بنعم، وطلبت منه أن يناولها الكتاب المقدس حتى تستطيع الكشف عن النص المطلوب. وما لبث أن قال أبى معلقا: إنه لشريط رفيع حقا ذلك الذى يفصل بين حقل البرسيم وحقل الذرة. وكذلك يكون الحد الفاصل بين ما هو دنيوى وما هو

مُقَدَّس. ولذا وهب الله الإنسان عينين وعقلا ليتبين الفارق بين الدنيوى والمقدس، فلا يخلط بينهما، ولا يلتبس أحدهما بالآخر. قال ذلك فى هدوء الواثق، مما جعل الصمت والخجل يخيم على ثلاثتنا. أما اليوم فقد أصبحت أنتبه بكل حواسى إلى كلام أبى. وصرت أحفظ سفر الأمثال، الإصحاح ٢٨، الآية ٢٤ عن ظهر قلب.

الحمد لله. لقد أتممت الخطاب الذى استغرقت فى صياغته وكتابته ٧ أسابيع. ولذا فأنا سعيدة بهذه النتيجة. هل أنت سعيد بقراءته أيضا؟ سوف أكون فى غاية الامتنان لو أعلمتنى برأيك فيما كتبت.

أطيب التحيات من أحب صديقة

بيــرتــى

كما تجد طيه خطابا آخر كتبه لك ابنى الثانى "هانز" الذى يعاوننى فى المزرعة:

الصديق المحترم، أود أنا أيضا القيام بمحاولة لإرسال خطاب عبر المحيط. كيف حالك؟ إن أحوالى على ما يرام. الصديق المحترم سمعت أن الناس جميعا يتكلمون عندكم الألمانية. ولذلك فسوف أكتب إليك بالألمانية بالمثل. ولما كنت أكثر تمكنا من اللغة الإنجليزية، فمن الضرورى أن يتولى أبى مساعدتى فى الصياغة بالألمانية. وقد واظبت على الذهاب إلى المدرسة الألمانية طوال الصيف. كما صرت أعرف كافة بلدان العالم بالاعتماد على خريطة من مقاس ٣×٧ أقدام. وكذلك أعرف أنكم تعيشون على ظهر نمر، ذلك لأن ألمانيا تبدو على الخريطة على هيئة نمر. غير أننى عبثا حاولت العثور على بيتكم على خريطتى. لكن أبى علل لى ذلك بأن جبل "بينكين برج" هو الذى حجب رؤيته.

عندنا ثلاثة أنواع من كتب المطالعة. وبعد انتهائى من قراءة الكتابين الأول والثانى، فها أنا ذا أطالع الآن كتاب" الإيمان الإنجيلى" المسمى " كاتيشيزم" المقرر علينا بالمدرسة الألمانية، لكى ننكب على دراسته بعناية . وكذلك ينبغى لنا حفظ أناشيد عديدة . علما بأن الحفظ غيبا أمر لا يستسيغه الجميع. ولذلك عوقب بعضنا بالبقاء بالمدرسة فترة إضافية بعد نهاية الحصص من أجل تجويد حفظ الأناشيد، الأمر الذى كنا نتقبله على مضض. هذا وإلا كانت العصا من نصيب من عصى. لكن العقاب بالضرب ظل قصرا على الكسالى وحدهم دون غيرهم. وكنا نحرص على أن لا ينفذ الضرب الوجيع إلى أجسادنا بلبس العديد من قطع الثياب فوق بعضها، مثل: "فنلات" عدة، صدارات صوفية، سويتر، سترة وأخيرا المعطف. إلا أنه لم يكن من اللائق ارتداء المعطف بالفصل. وهيهات أن تكون عصا المعلم أو المعلمة تستطيع، من خلال تلك الطبقات العازلة بلوغ أجسامنا. أما فى الصيف فكان الأمر مختلفا بالطبع عند توقيع العقاب. إذ كان أبى يلحف ويلح بإصرار على خلع معظم ملابسى أولا، وبذلك كانت عصاه تنفذ إلى جلدى فى كل الأحوال. وعندما كنت أقول له: ألا ترى يا أبت أن فى خلع الملابس مضيعة للوقت؟ فكان رده يتسم بعدم المبالاة بقوله: لا عليك فلدى الوقت الكافى. وكانت العلقة عادة مصحوبة بألم كاوٍ جعلنى أتساءل: هل هكذا تكون الحياة؟ وإذا بى أجيب على تساؤلى بنفسى لأقول: "دى عيشة هباب.. ما أتعسها!". لكننا كنا نتصالح فى النهاية ثم يعود الصفاء بيننا.

عندما تغطىَ الأمطار الغزيرة الطرقات بالأوحال عادة ما لا تذهب البنات إلى المدرسة. هل تفضل تلميذاتك البقاء بالمنزل أيضا؟ وأحيانا كنا لا نبارح البيوت بالمثل، وكان هذا مبعثا لسرورنا. إلا أنهم كانوا يغضون البصر عن الحضور إلى المدرسة متأخرين بسبب الأمطار. وسوف ألتحق بالمدرسة الألمانية ثانية خلال هذا الشتاء. كما سوف أعود لتلقى الدروس بالإنجليزية فى الصيف القادم. ويقول أبى إننى فى المدرسة إنجليزى اللسان، ولكنى ألمانى قلبا وقالبا. عندما كنت صغيرا

أردت أن أصبح مليونيرا. وعلق أبى على ذلك بقوله: هذا أمر طيب. وكان بحوزتى دولاران آنذاك. وقلت لأبى: بماذا تكافئوننى عندما أكملِ المليون الأولى؟ قال: عندما تكمل المليون يمكنهم حصرك فى التعداد العام للسكان المقبل.

الصديق العزيز، أستطيع القول بأننى أشتهى الأكل. وفى ذلك يقول أبى: إن ذلك يرجع إلى كونى "ميكلينبورجى" الأصل. ولكنى أعتقد أن سبب ذلك هو شعوى الدائم بالجوع. إننا نتناول وجبة الغداء بالمدرسة نظرا لبعدها عن المنزل. ولذلك كنا نحضر معنا وعاء الأكل، وهو عبارة عن علبة فارغة كانت تستخدم فى حفظ العسل. وكنا نستعمل غطاء تلك العلبة كطاسة لتسخين الطعام. فنضع الغطاء وبه الشطائر وأصابع السجق وقطع الدهن فوق السطح الذى يعلو مدفأة المدرسة ثم نتركه هناك إلى أن يتم تسخين الأكل . وقد قالت معلمتنا إن المدرسين كانوا يسدون أنوفهم من انبعاث الروائح وانتشارها فى كل مكان. وعلق أبى على ذلك بقوله: لقد كانت شدة انبعاث الأبخرة وغرابة الروائح تزكم أنوفهم. أما أنا فأقول: إن حاسة الشم عند المعلمة لم تتعود سوى على روائح الأكل الأمريكى ولذا كانت روائح أكلنا الألمانى غريبة على أنفها. هذا وكانت وجبة الغداء المدرسية تشتمل على حلو من الفواكه المحفوظة منزليا [فى برطمانات مخلخلة الهواء]. وكانت فسحة الظهيرة المخصصة للأكل وللعب معا لا تتعدى ساعة واحدة. وهى بدون شك فترة قصيرة. ولذلك فعندما أصبح رئيسا لأمريكا فسوف أعمل على مضاعفة المدة المخصصة لفسحة الظهيرة إلى ساعتين.

كنا نلعب لعبة "الصياد والآيل" (الاستغماية)، كما كنا نأتى بلوح من الخشب لعمل أرجوحة لنستمتع بالترجح عليها. وكذلك كنا لا نسلو "لعبة عسكر وحرامية" لنجاحنا فى أغلب الأحوال فى التملص من قبضة الشرطى الذى كان يقف محبطا كسيف البال لعجزه عن الإمساك بنا.

أما فى فصل الشتاء فكان مرحنا وتهورنا "وعفرتتنا" تتخطى كل حد. فتارة كنا نقف فوق حاجز الثلوج لنقفز بالرأس "زرع بصل" مخترقين سمك طبقة الثلج

الريشية ذات الوثارة الهشة فى جرأة صبيانية بريئة. وتارة أخرى كنا نتوجه إلى "منط" الانزلاق لندفس رؤوسنا فى أكوام الثلج المنفوشة فنثقب بها جحورا لنزحف بداخلها حتى نكاد نختفى عن الأنظار تماما. وقد تعذر على أحدنا ذات مرة الخروج من "حشرته" الاختيارية، فاضطررنا إلى شده من قدميه لكى نفكه من أصفاد ورطته.

وكذلك كانت البنات قِبلْنَ على ألعاب الأطفال بشغف كبير. ولكن شتان ما بين شقاوة الصبية وعزوف أنثوى عن "العفرتة" بوجه عام. ذلك لأن البنات يفضلن أداء الألعاب الحركية الغنائية على وقع أوزان ما يحفظنه من حكايات شعبية شعرية تتسم بعفوية التعبيرات الحركية المصحوبة بالارتجال الغنائى الجماعى مما يشيع فى نفوسهن المرح والتسرية. ومن ألعاب البنات مثلا "مارى اللى قاعدة على الحجر" (بفتح الحاء والجيم)، "ياللا مروا من تحت الجسر الذهبى" أو "يا تعلب إنت اللى سرقت الوزة".

ونحن لم نكن نلعب فى أوقات الفراغ أثناء الفسح فحسب، بل كنا نلهو فى الفصول أيضا، ولكن من خلف ظهر المدرسين، خشية أن يوقعوا بنا العقاب. أما عن نفسى فقد تلقيت ذات مرة "علقة" ساخنة جزاء لما تسببت فيه من إزعاج. ومن الأمثلة على "شقاوتنا" أيام التلمذة أن كان بعض التلاميذ يبادرون بإلقاء أعواد الثقاب المشتعلة على أرضية الفصل، ثم يقومون بإطفائها بأقدامهم فتفوح منها رائحة نفاذة تملأ الحجرة. لكنه كانت لمعلمتنا حاسة شم قوية سرعان ما كانت تدلها على الفاعلين، الأمر الذى كان يعجل بإسدال الستار على العبث اللذيذ. وكنا بحلول الخريف نصنع من سيقان ريش الأوز[(١)] شيئا ننفخ فيه لإحداث صوت كالزمير. لكن إرهاف أذن معلمتنا كان ما يلبث أن يدلها على الزمارين. وبذلك كانت تتكرر مأساة الإنهاء المفجع لما كنا نستعذبه من لهو ممتع. الصديق المحترم، يبدو لى أن كل شئ يدخل على النفس البهجة والسرور عمره قصير فى قصر عمر الزهور.

---

(١) الخريف هو موسم ذبح الأوز الذى كانت تشح فيه الأعلاف.

ولذلك فعندما أصبح رئيسا أمريكيا، فسوف أعدل النظام المعمول به فى المدرسة بنظام آخر، يُلزم المعلمة بإعادة ريش الأوز إلى التلاميذ ثانية.

ذات مرة كلفتنا المعلمة بتكوين جمل مفيدة من الذاكرة لنقوم بتدوينها فى كراساتنا. كتبت تلميذة فى كراستها: الدجاجة طائر يلامس الأرض برجليه. ضحكنا كثيرا لما كتبت. كما ضحك أبى بدوره عندما كررنا تلك الجملة على مسامعه. وجاء فى كراسة تلميذة أخرى: تبيض الأرانب فى شهر مارس، ويفقس بيضها فى أغسطس. وعندما تكاثرت أعداد الأرانب وغزت جحافلها منطقتنا، اكتفى أبى بتمنى نفيها إلى حيث الزمهرير فى "سيبيريا" النائية. أما أنا ففضلت اصطيادها بالمصيدة لمواجهة هجمتها الشرسة.

كدت بمفردى خلال الصيف الماضى أنجز كافة العمليات الزراعية لمحصول الذرة. وعندنا آلة مجهزة بسير نقال لتحميل الحشائش الجافة[(١)] بعد حزمها فى عرمات(حزم) يصل عرض العرمة منها إلى نحو ٨ أقدام. وتلحق تلك الآلة عند تشغيلها كمقطورة بعربة كارة بسلالم[(٢)]، فتقوم "كباشاتها" الشبيهة بأمشاط على هيئة مذارٍ بالتقاط عرمات الدريس المكومة فى صف بطول المرعى لتضعها تباعا على سير النقل الدوار الذى يتولى رفعها إلى العربة الكارة. وكنت أنا أقف فى المقدمة، فى المكان المخصص للحوذى. أما أبى فكان يعتلى عارضة العربة ليلتقط بدوره العرمات التى تترى بواسطة السير الدوار، لكى يكدسها فوق العربة وهى تسير. وكان يتصادف أحيانا أن يقع أبى فوق ما يبسطه من الحشائش، فيستلقى على ظهره، ثم ينهض ليواصل تحميل العربة بدون هوادة. إلا أننى كنت فى هذه الحالة أشد اللجام لتكف الجياد عن الحركة، وبوقوفها كان السير الدوار

---

(١) تسمى بالألمانية "هُوى – أويفلادر" وبالأمريكية " هاى – لودر".

(٢) تستخدم عربة السلالم التى تجرها الجياد فى نقل الحشائش الجافة (الدريس) وهى عربة كارة (كارو) محوطة بما يشبه السلالم الراقدة على جانبيها بزاوية منفرجة إلى الخارج لتستوعب أكبر كمية ممكنة من الدريس. وتنطق " لايتر – فاجن" بالألمانية " و"ريك واجون " بالأمريكية.

يتوقف عن الدوران حتى يتمكن أبى من تكديس ما يكون قد تراكم من حزم الحشائش الجافة. وعند الانتهاء من تحميل العربة بكمية مبعثرة من الدريس، كنا نقفل عائدين إلى البيت وقد ارتسمت على وجهينا علامات الرضا لاعتزامنا تشوين حمولتنا الثمينة. وكان تفريغ الحمولة لا يستغرق إلا ٥ دقائق. ذلك لأن المخزن العلوى [الطقيسى] الكائن تحت السقف الجمالونى كان له باب جرار يفتح ويغلق على عجلات وتبلغ مساحته ٧×١٠ أقدام. وعلى الرغم من اتساع الفتحة، فقد كان يتعذر أحيانا إدخال ما تحمله المذراة من العرمات نظرا لفائق عرضها.

قمنا على النحو المبين بتشوين حمولة ٨٠ عربة من الحشائش الجافة خلال الصيف الماضى. وكنا عند انتهائنا من تفريغ حمولة العربات وتشوينها بالمخزن، نقوم بتحميلها بالروث لنعود به إلى الحقل لتسميد التربة وإخصاب الأرض. ولا يخفى أن ترك الروث مهملا فى "الزريبة" لمدة طويلة يؤدى، على حد تعبير المزارعين إلى "احتراقه"(١). علما بأن روث البهائم المصفوفة على جانبى الحظير كان يتسرب إلى مجرى مخصص لتجميعه، تمهيداً لنقله إلى الحقول بالعربات على الوجه التالى: كنا نقوم بشد سلك معدنى تحت سقف الحظيرة، بحيث يثبت طرفه الأول بالسقف، أما الطرف الآخر فكنا نقوم بتثبيته خارج الحظيرة على ارتفاع أقل للحصول على ميل معين للسلك. وبذلك علقنا على السلك المشدود عربة صغيرة تتحرك على بكرات فوق السلك. وعند تشغيل مفتاح معين تتدلى العربة إلى أسفل بواسطة آلية خاصة لتقترب من مجرى الأرواث حيث يتم تعبئتها يدويا باستخدام شوكة الروث. بعد ذلك يشغل المفتاح ثانية فتسحب العربة من وضعها المتدلى باتجاه السلك المشدود لتستقر فى وضعها السابق . وبدفع العربة باليد تتدحرج على البكرات الموضوعة على السلك المائل إلى خارج باب الحظيرة. وهناك يتم قلب ما تحتويه العربة من الروث فوق العربة الكارة ذات السلالم لكى تنقله إلى الحقل.

---

(١) بمعنى انبعاث الغاز الطبيعى الناجم عن التفاعلات البكتيرية بالروث فى الجو، مما يفقده خواص السماد الطبيعى فى إخصاب الأرض.

ونظرا لأن مزرعتنا كبيرة، الأمر الذى تطلب بالضرورة تعدد الأسلاك المعدنية المشدودة، لكى تتحرك عليها العربات الصغيرة على البكرات للمساعدة على كسح الأرواث. وبذلك تحولت الحظيرة إلى ما يشبه الخطوط المصغرة للقطارات المعلقة ["تليفريك"]. وعلى النحو المبين نقوم برفع الروث من أقسام الحيوانات المختلفة، ذلك لأننا قوم عمليون.

صرت أجيد الحصاد. ولم يكن الأمر كذلك فى البداية. إذ كان سيف الحصاد يتذبذب فى السابق بين يدى يمنة ويسرة، فيحش كيفما اتفق، حشة من هنا وحشة من هناك. ظل أبى يراقب عملى باستغراب وهو يهز رأسه لما ينقصنى من الخبرة، ثم قال: إن ما تفعله يذكرنى بقول "يؤاب" (رئيس جيش داود):".... السيف يأكل هذا وذاك..."[١] لكن سيف الحصاد لم يعد يستخدم فى هذه الأثناء هنا إلا نادرا، لأن الحصاد أصبح من مهام الآلات.

يكبرنى الصبى "جون وليامز" بعام، لكن قامته تطول عن قامتى بنحو قدم. ومع هذا طرحته أرضا، ووقع على ظهره، "وتمطوحت" فى الهواء ساقاه. ثم ما لبث أن وجه لى الشتائم ثم "شلّت" نحوى رافعا عقيرته ليقول: اللعنة للألمان! وذات مرة تمكن منى وضربنى "شلوتا فى المليان" أوجعنى. فما كان منى إلا أن "كمشته" من رجليه بقوة وأوقعته ليستلقى على ظهره سطيحا فوق مخلفات حصاد القمح والجذامة. ثم أدخلت فى نفسه الرعب بقولى: إذا سددت لى "شلوتا" مرة أخرى فسوف أسحبك من رجليك "وأسحلك" على ظهرك من هنا وحتى شيكاغو. وبعدها لم أسمع منه إلا غمغمة أشبه بالجؤار. ولاحظت أن سمانة رجله كانت فى ضخامة الشاة السوداء التى عندنا. وعلق أبى على رد فعلى بقوله: لقد أحسنت صنعا أن طرحته أرضا.

---

(١) راجع، العهد القديم، سفر صموئيل الثانى ١١: ٢٥.

تسببت الكوليرا فى نفوق نصف خنازير ولاية أيوا لكننا لم نفقد أيا منها فى مزرعتنا، نظرا لعنايتنا بها بأن علفناها من العام الفائت بالتفاح الذى كان محصوله وفيرا. غير أن الصقيع الليلى جاءنا مبكرا هذا العام مما أدى إلى عطب التفاح على الأشجار. وكانت خسائر أحد جيراننا فادحة لأن حوالى ٣٠٠٠ بوشيل من التفاح قد أصابها العطب. طلبنا توريد سعة ٣ براميل من الكمثرى من "ميتشجان". وبلغ ثمن البرميل الذى سعته ٤ بوشيل ٦٥ سنتا للبوشيل الواحد، كما بلغت تكلفة النولون عن البرميل الواحد ١,٤٧ دولار. وقد استغرق وصولها سليمة حتى باب مزرعتنا ١٠ أيام.

أصبح عندنا تليفون بالمنزل، وكذلك عند الجيران. وقد اكتشفت أن الهاتف قادر على الرطن بلهجة شمال ألمانيا. كما قام أبى بشراء بيانو. الصديق المبجل، هل تعرف ما هو البيانو؟ لقد كانت آلة البيانو هذه معروضة بمدينة "سبرينجفيلد" بمبلغ ٤٥٠ دولارا. إلا أن أبى اشتراها فى شيكاغو ودفع ٣٧٥ دولارا ثمنا لها. وقد حفزنى أبى على التمرن على العزف على البيانو كما حبب إلى نفسى تعلم العزف على آلة الأرغن المنزلى الذى بلغ ثمنه ٨٥ دولارا. لكننى أفضل العمل على ماكينات الحرث والبذار والحصاد على العزف على البيانو بالطرق على مفاتيحه البيضاء والسوداء المتصلة بأوتار. والأحب عندى من هذا وذاك أن أقوم بطرح "جون وليامز" أرضا. ومع أنى أمتلك بندقية "رش" فما زلت لا أستطيع صيد الأرانب بها لقدرتها الفائقة على الكر والفر والمناورة. ولكنى أحسن التنشين على الدجاج بشكل أفضل نظرا لبطء حركته. وعندما أصطاد دجاجة تنهرنى أمى ثم تقوم بطبخها.

يحدونى الرجاء أنك كنت تترقب وصول خطابى هذا منذ مدة طويلة . كما أرجو أن لا يتلف الماء الرسالة أثناء عبورها المحيط الخضم. إنى أعرف أن ذلك الخطاب طويل فقد قمت بصياغته وكتابته خلال أربعة أسابيع.

مـــن صديقك

هانــــــز

الفصل السادس

زيارة معرض شيكاغو الدولى

حال الحول على الشتاء الذى كتبت لك فيه آخر مرة. وها هو قد كر عائدا من جديد منذ عدة أسابيع، فبسط دثارا ناصع البياض من كثبان الثلج التى غطت الحقول على امتداد البصر بلون مسيح. وهكذا انزويت داخل جدران الغرفة الدافئة لأخط لك هذه الرسالة بهذه اليد. وسوف أقص لك على صفحاتها نبأ زيارتى لمعرض شيكاغو الدولى. علما بأن المدة التى قضيتها فى تفقدى لأجنحته كانت أطول من رحلة الذهاب والإياب معا. وأتوقع استمرار تَلَحُف الأرض بطبقة من الثلج الجليدى إلى حين انتهائى من تحرير رسالتى إليك. فقد تساقطت بغزارة نتف الثلج الريشية حتى حجب تراكمها سور المزرعة عن الأنظار. وعلى الرغم من مضى سنوات عديدة على زيارتى للمعرض، إلا أن كل ما شاهدته بأم عينى لا يزال حاضرا فى ذهنى وكأنه حدث بالأمس القريب، وما علىّ إلا الغوص فى أعماق الذاكرة لتعويم ما ترسب فيها من انطباعات حية.

جاءنى الصديق "شولت" وقال لى: هل تحب أن ترافقنى لزيارة معرض شيكاغو الدولى؟ لقد وافق "فولس" على اصطحابى إلى هناك. قلت له مستفسرا: وماذا تريدان بالمعرض؟ من باب العلم بالشىء، وللاطلاع على ما هو جديد. لكن الزيارة تتكلف "شيئا وقدره!" إذن ليعمل كل منا حسابه، ويضع قدرا كافيا من النقود فى جيبه. لكنى أخشى من شدة الزحام هناك. "لا تأخذ فى بالك"، فعندما نصل إلى المعرض سوف يذوب ثلاثتنا بين جمهوره الحافل. هل سترافقنا نساؤنا؟ لا.. لأن من يحب زوجته حقا يتركها فى البيت. هذا وإلا فإننا لن نجد عند عودتنا من ينصت إلى ما سوف نحكيه عما شاهدناه بالمعرض. هذا قول واضح لا لبس فيه. لكنه يذكرنى بحكاية صاحب دكان البقالة فى "سبرينجفيلد" الذى تزوج ثم عقد العزم

على القيام برحلة شهر العسل ولكنه لم يكن "يحتكم" على ذلك القدر الكافى من المال لتغطية النفقات. احتار فى مطلع الأمر ثم هداه تفكيره إلى ترك العروس فى البيت وحدها وقيامه برحلة شهر العسل بمفرده تخفيضا للنفقات. عاد إلى عروسته الشابة وفى جعبته باقة من ذكرياته عن رحلة شهر العسل الانفرادية ليشنف آذانها برواياتها. لكن ذلك البقال لم يبح لنا عما إذا كانت زوجته قد عبرت له عن رضاها أم عن سخطها. أما هى فقد تكتمت بدورها على ما كان يعتمل بصدرها وآثرت الصمت.

فكرتِ فى الأمر مليا ثم قررت السفر بمفردى، وكذلك فعل الآخران. لبست أحسن حذاء برقبة عندى استعدادا للسفر واحتفاء بالمعرض الدولى. توجهنا إلى محطة "سبرينجفيلد" سيرا على الأقدام، وأقلع القطار من هناك فى التاسعة مساء. كان القطار مكتظا بالركاب ولم نعثر على مقعد فى عرباته ولا فى الممرات، لكننا وجدنا موطئا لأقدامنا وقوفا. "صلبنا طولنا" فى مطلع الأمر بهامات مرفوعة وقامات ممدودة حملتها سيقان بدأت مفرودة ثم "سابت" مفاصلها شيئا فشيئا فتنثنى وتتقرفص حتى تخشبنا وصرنا مثل تماثيل مقعية جمدت ملامحها من المشقة وطول السفر. وأخيرا بلغنا ونحن على هذا الحال محطة شيكاغو فى السابعة من صباح اليوم التالى. شرعنا على التو فى السير إلى النزل. وهناك دفع كل منا دولارا نظير الإعاشة من مبيت وطعام. سلمونا وجبة الغداء بحصول كل منا على لفافة، فاستسهلنا وحشرنا لفافات الأكل فى جيوبنا. وعند حلول موعد الغداء وجدنا محتوى اللفافات مفعصا ومهروسا وكأن قد طحنته الرحى حتى صار طاردا للشهية فعففنا عن تناوله. ولم يكن امتناعنا عن أكل ما كان بجيوبنا أمرا مستغربا، فقد مشينا على الأقدام مسافة ميل حتى وصلنا إلى بحيرة ثم ركبنا قطارا لمدة ثلاث ساعات ودفع كل منا ١٠ سنتات ثمنا لتذكرة الركوب، كما دخلنا أرضية المعرض لقاء ٥٠ سنتا للفرد. ولما تبين لى بطء الصديقين وميلهما للتسكع افترقت عنهما فى مطلع الأمر. حذرنى "فوس" بقوله: انتبه وإلا تسببت فى حدوث كارثة! أما أنا فقد

تقدمت حثيثا إلى الأمام. وكنت أعرج على ما يهمنى أمره من المعروضات لكى أتطلع عليها فى تمهل وروية، بينما لم ألتفت كثيرا إلى ما لم يكن يعنينى !

سمعت صراخ طفل فجأة. نظرت من حولى فوجدت طفلة فى الثالثة من عمرها واقعة على الأرض. ساعدتها على النهوض. قلت لنفسى: يا لها من قلة عقل أن يصحبوا معهم بُنَيَةً صغيرة وسط الزحام.. ما هى الفائدة التى ستجنيها الطفلة من وراء اصطحابها إلى المعرض؟ وما لبثت أن لمحت الأم تندفع نحوى صائحة وهى تزجرنى بقولها: "هو ما فيش فى قلبك رحمة، تدوس على العيلة الصغيرة برجليك وانت طويل كده وعامل زى النخلة! مش كنت تحاسب شوية علشان متوقعش البنت!".

لم أتوان فى مغادرة المكان على الفور، وهرعت بخطوات حثيثة حتى وصلت إلى الجناح الألمانى. وهناك وجدتهم قد أقاموا تماثيل بالحجم الطبيعى لتلاميذ[١] المسيح الإثنى عشر، وكانت عيونهم تنظر فى سكون إلى حشود الزوار. وجدتنى أسلط عينىَّ على وجه الرسل لانبهارى بملامح الورع والصلاح التى أبدع الفنان إبرازها. وقبل وصولى إلى التماثيل بمسافة ١٦ قدما، لم ألحظ وجود سُلمة تقل نحو قدم عن مستوى أرضية القاعة. زلت قدمى وتهاويت فى لمح البصر على الأرض منكبا على وجهى وأنفى إلى الأمام محدثا دويا مسموعا أثناء انبطاحى تحت أقدام الحواريين . وقبل أن ألتقط أنفاسى وأعى ما حدث، شعرت بتعاطف الزوار معى على ما ألم بى وكانت عيونهم تتفحصنى بنظرة ملؤها الرثاء والإشفاق بينما تناثرت بعض الضحكات من حولى. لكن تماثيل الرسل لم يضحك لها ثغر، ولم يشذ عنهم " يهوذا"[٢] الواقف بينهم.

---

(١) ويلقبون أيضا بالرسل وهم الحواريون.

(٢) يهوذا الأسخريوطى هو أحد تلاميذ المسيح الإثنى عشر . خان معلمه وباعه للحاكم الرومانى بثمن بخس ثم انتحر أسفا على فعلته.

ذهبنا فى اليوم التالى إلى المعرض مرة أخرى. وفجأة سمعنا أحد الباعة يسب ويلعن بحرفية لا تجارى أعجبتنى! أصغيت إلى ما قاله باهتمام، ذلك لأنه كان يبذل جهودا حقيقية فى اشتقاق مفردات ثم جديدة لم يسبق لى سماعها ! لكن "شولت" نبهنى إلى أننى أنا المعنى بهذه الشتائم، ذلك لأننى لم ألحظ أثناء هرولتى أننى تسببت فى قلب كوم الموز الذى كان يعرضه للبيع. وتفاديا لما قد لا تحمد عقباه أسرعنا بمغادرة المكان، وقلت لنفسى مؤنبا: ينبغى أن تأخذ حذرك من الآن فصاعدا حتى لا تتسبب فى حدوث مصيبة تؤدى إلى الإلقاء بك خلف القضبان. ثم عاهدت نفسى على توخى الحذر مستقبلا. دلفنا بعد ذلك إلى جناح كاليفورنيا. وهناك عرضوا نبيذ البرتقال الذى سال له لعابى وأغرى السامعين نداؤهم بلذة المذاق. قال "شولت": سوف أطلب ثلاثة أكواب تحية لكم. وقال "فوس": وأنا "سأعزمكما" بالمثل . ثم قلت: وكذلك أنا . وهكذا تجرع كل منا ثلاثة أكواب. ولَمَظَ " شولت" شفتيه بلسانه تلذذا، كما أومأ برأسه مستحسنا طعم الشراب. وكذلك فعل " فوس" ولم أتخلف أنا بدروى. وبعد برهة شخص "شولت" بعينيه إلى السماء وقد عقدت الدهشة لسانه نظرا للاضطراب الحاصل فى معدته. وما لبث أن سمعته يقول" إننى أشعر بكركبة فظيعة فى بطنى. قال "فوس": وأنا بالمثل . وصدقت على قولهما من ناحيتى . ثم عبر "شولت" عن اعتقاده بأن تلك "الكركبة" غير العادية فى الأمعاء لا بد أن سببها نبيذ البرتقال. وأيده "فوس" فيما قال، وكذلك أنا . وعلى حين فجأة صاح "شولت" قائلا "الحقونى يا ناس أنا مزنوق. دلونى على الأدبخانة. دلونى على المستراح". وعبر "فوس" عن ذات المعاناة، وكذلك أنا. عبرنا الميدان بخطوات سريعة لنبلغ المراحيض العمومية على عجل. وكان يقف أمامها واحد "يانكى"[1] طوله ٦ أقدام واضعا فوق رأسه قبعة الرسميات العالية. لاحظت أن ذلك الرجل كان يرمقنا بعين فاحصة منذ لمحنا عن بعد وهو ينادى بلكنة أمريكية قائلا: "إتفضلوا يا سادة.. ادخلوا يا جينتلمن.. قربوا.. بخمسة سنت النفر.. يا بلاش!" لكن

---

(١) "يانكى" هى كنية سخر بها أمريكيو الجنوب إبان حرب الاستقلال (١٧٧٥- ١٧٨٣) على أحد الأمريكيين الشماليين. ومصطلح " يانكى" هو فى الأصل تصغير للاسم الهولندى " يان"، اسم الشهرة للمستوطنين الهولنديين . و"يانكى" رديف لـ " أمريكى" على سبيل الاستهجان وجمعها " يانكيز".

كلاً منا إضطر بعد الانفراجة إلى دفع عشرة سنتات زيادة على السعر المعلن. وبعد ذلك قلت لنفسى هامسا: ما عليه، لأن الرجل عنده ذوق لقيامه بتعليق ستائر مطرزة على شباك المرحاض. وذلك قيمة فى حد ذاته. غير أننى كنت عاتبا لأن الطرف التحتانى على شمال أحد الستائر كان ممزقا وأغفلت زوجته رفوه. وأغلب الظن أن بائع نبيذ البرتقال كان يمزج الشراب بزيت الخروع أو بأى مُلَيِّن سواه. ولذا يساورنى الاعتقاد بأنهما كانا شريكين يكمل كل منهما الآخر. ولا شك أن "تجارة" ذلك الأمريكى المديد القامة كانت رابحة خلال الصيف الذى أقيم فيه معرض شيكاغو الدولى.

استرعت أمور متعددة أنظار زوار المعرض، منها على سبيل المثال لا الحصر مرور فئة من "جيش الخلاص"[(١)] فى طابور سير من الأتباع وهم ينتحبون، يتنهدون، يبتهلون بالأدعية والصلوات، يرفعون الرايات، يلهجون بالتسبيح لله وهم يرددون "هللويا". وما لبثوا أن توقفوا عن الحركة فى وضع "محلك سر"، وشرعوا "يدبدبون" على الأرض بأقدامهم، ويضربون بالأيادى على صدورهم، وإذا بالعيون تدور فى محاجرها محدثين جلبة عظيمة، ولو كانت الأمور قد سارت على هواهم "وعمنا على عومهم"، لكانوا قد أدخلوا فى روعنا أن شيكاغو والمعرض الدولى قد تحولا فى حاضرنا إلى ما يشبه "سودوم وعمورة"[(٢)]،

---

(١) يعرف "جيش الخلاص" باسم "سالفيشن آرمى" بالإنجليزية، "آرمى دى سالوت" بالفرنسية و"هايلز أرميه" بالألمانية، وهو منتشر بأنحاء المعمورة، خاصة فى الولايات المتحدة وإنجلترا. كما أنه جماعة مسيحية رافضة للطقوس الدينية، وعضويتها من الشرائح الاجتماعية محدودة الدخل، ومبتغى الحركة هو عصرنة الديانة. وهى تعمل على تيسير أمور معاش الأعضاء وتحضهم على هجر الرذيلة من أجل الخلاص. وهذا الجيش مؤسس وفقا للنظام العسكرى، بحيث تكون القسس ضباطا والأعضاء جنودا دعاة. أسسه "وليام بوث" سنة ١٨٥٦ بعشوائيات لندن وأحيائها الفقيرة. والأساس الروحى لجيش الخلاص هو مفهوم الجهاد فى المسيحية الذى عبر عنه "بولس الرسول" فى رسالته إلى تلميذه "تيموثاوس" الإصحاح الثانى، الآية الثالثة: "فاشترك أنت فى احتمال المشقات كجندى صالح ليسوع المسيح".

(١) اسمان لمدينتين ورد ذكرهما بالكتاب المقدس، وتلقبان أيضا "سودوم وجمورا" ويرمز إليهما للتعبير عن أدنى مراتب الرذيلة والفجور. يقال إن "سدوم" هى بلدة "لوط " أما "عمورة" الفلسطينية فهى البلدة التى أمطرها الله أيضا بغضبه وحرقها تحريقا. سفر التكوين، ١٩: ١-٢٩

بؤرتى الفجور فى سالف الدهر. ولكانوا قد أوعزوا إلينا، بأن إليهم وحدهم يرجع الفضل- بسبب نبذهم الرزائل والخطايا- أن الله لم يمطر شيكاغو والمعرض بالنار والكبريت مثل سابقتيهما عقابا لهما على اقتراف أهلهما الموبقات. وهكذا واصلوا موكب الهرج والمرج بغرض التبشير لمبادئ عقيدتهم عسانا نعتنقها. لكن الجمهور كان ينصت إليهم إنصاته إلى دندنة دَلال يروج لأقمشة الشيت (الكاتون) على ناصية الطريق وهو ينادى: "مين يشترى الشيت منى وأنا بنادى وأغنى". وبعدها واصلوا مشوارهم. أما أن يختلى الإنسان إلى نفسه لكى يصلى فى خشوع إلى ربه فى غرفة نومه تاركا الباب مواربا من خلفه فهذا أمر غير مألوف فى أمريكا. وكانت هناك أيضا جمعية" المرمون"[1] التى نشطت بأنحاء المعرض لوعظ الكفار ودعوتهم إلى اعتناق مذهبهم. وكان أولئك المبشرون يعتبروننا كفارا. غير أننا أعرضنا عن التحول إلى ما يدين به "المرمون". يا إلهى، ماذا يكون تعليق "ليزا" لو رأت بعينيها ما رأيناه!.

اعتلى أحدهم صندوقا كالحا على ناصية شارع وأعلن من فوقه عن معتقد جديدهدفه إصلاح أحوال العالم وإبرائه من العلل. وما إن ختم خطبته حتى دار مساعده والطبق فى يده ليجمع النقود من النظارة، لكن معظمهم انصرف لحال سبيله بمجرد اقترابه منهم. أردنا بدورنا الاستماع إلى موعظته الرامية إلى إصلاح شئون البلاد والعباد فى خوافق السماء. فالمرء متعطش أبدا إلى سماع المواعظ، طالما ظلت التكلفة فى متناول اليد. شققنا طريقنا وسط الحشد، وتقدم الصفوف"

---

(٢) تأسست طائفة "المرمون" الملقبة "كنيسة يسوع المسيح لقديسى الأيام الأخيرة" فى عام ١٨٣٠ بالولايات المتحدة الأمريكية على أصول مسيحية على يد ابن المزارع" جوزيف سميث" الذى له ٣ مؤلفات منها "كتاب المرمون". تسببت إباحة المؤسس لتعدد الزوجات فى مقتله على يد منشقين ثم ألغى تعدد الزوجات نهائيا فى عام ١٨٩٠. وفى حين بلغ عدد الأتباع ١,٥ مليون عضو فى عام ١٩٥٠، فقد بلغ عدد أعضاء الطائفة ١١ مليونا فى عام ١٩٩٥ فى جميع أنحاء العالم. ومن أقوال رئيس الكنيسة الحالى "ج.ب هنكلى": إن تفكك الأسرة سوف يحيق الكوارث بالأفراد والمجتمعات والأمم" (١٩٩٥).

كريشان هازينبوت"[١]، أحد بلدياتنا القادم من نجع ناءٍ فيما وراء بلدة "جرابوف" الريفية، والذى استقر به المقام بمنطقتنا بعد انتقاله إليها، والناس كما هو معروف مختلفون، فالبعض ينتمى إلى هذه الفئة، والبعض الآخر ينتمى إلى تلك، وعادة ما يصنف "كريشان" على أنه من الفئة الأخيرة. الصديق العزيز، أستطيع القول إن "كريشان هازينبوت" شخص مُشَوَّشُ الفكر "وعقله على قده حبتين". فهو لا ينبس بكلمة فى معظم الأوقات. ثم تنثال من فيه عبارات تدعو للاستغرب فى بعض الأحيان. بيد أن بعض ما يتردد على لسانه أحيانا لا ينم البتة عن حمق أو غباء. هذا هو صاحبنا الذى تقدم الصفوف لكى ينهل من النبع الصافى للمعتقد الجديد الواقف مُروجه فوق الصندوق. وبدا للواعظ أنه قد عثر فيه على ضالته المنشودة. ولذا خصه بالكلام دون غيره، عله يستميله إلى ما يدعو له. بدأت عظته بالتركيز على مرضين خطيرين، هما دائى "النرفزة" والاضطراب العصبى، محاولا فى طرحه الإجابة على سؤالين: أين تتركز مكامن "النرفزة"؟ وما هى أسباب حدوثها؟ وجه كلامه إلى "كريشان" بقوله: أخشى أنك مصاب باضطراب عصبى، كما ألمح "النرفزة" فى عينيك. نعم، إنك ممسوس. لقد ركبك عفريت إدمان الويسكى. ولا يسكن بدنك جنى واحد فحسب، بل جاء عفريت الويسكى بصحبة نصف دستة من إخوته العفاريت الذين استولوا على بدنك وكلبشوه حتى صرت تحت رحمتهم وأصبحوا يسيطرون على مقدراتك. لقد آن الأوان للإقلاع عن إدمان الشراب، كما حان وقت الإفاقة من السكر. هيا تحول إلى ما ندعو إليه. هيا اتبع طريقتنا حتى يتحرر بدنك المسكون. هذا وإلا فإنك سوف تكون خلال هذا العام فى عداد الأموات.

حاول الواعظ ومساعده احتواء "كريشان هازينبوت" بعبارات الترغيب والترهيب، وكانا يَرْبُتَان على كتفه أثناء ذلك لاسترضائه واستمالته. بدأ "الفار يلعب

---

(١) "كريشان" باللهجة الألمانية الشمالية هى "كريستيان" بالألمانية الفصحى وبالمثل ترادف "هازينبوت" فى معناها "كف الأرنب" بالألمانية الفصحى. و"كريشان كف الأرنب" هو أغلب الظن شخصية هزلية وربما مختلقة.

فى عبه" وهو يصغى إلى قولهما فى انفعال فاغرا فاه من هول البغتة والاندهاش، ذلك لأنه لم يسبق له أن تذوق نقطة ويسكى واحدة منذ ولدته أمه، كما لم يعرف الثَمَلَ طوال عمره! وعندما أوهمه الرجل الواقف على الصندوق بأن جسمه مسكون بسبعة عفاريت من الجن، وبأنه مدمن على اللهج بالشرب، ثم أن الموت أقرب إليه من جسده، هز "كريشان" رأسه عجبا وقال[1]: "إبليس وز وقال: دى حاجة تزكم وعاوزة نشوق، قام الصياد خَوّفه وضربه عيار رش فى منخره!". وبطبيعة الحال لم يفهم الواقف على الصندوق تلك العبارة بلهجة "جرابوف" المحلية المتفرعة عن اللهجة الألمانية الشمالية. ومن ثم شدد "الواعظ" حصاره التبشيرى لاستقطاب "كريشان" إلى طريقته، إذ قال: لقد جئنا، أخى وأنا، إليك اليوم خصيصا لأن روحينا تهفوان إلى هدايتك. نظر إليهما "كريشان" نظرة تنم عن الصرامة ثم أومأ برأسه إليهما مرددا: "إبليس وز وقال: إنما الطيور على أشكالها تقع، وبعدين راح اتفسح مع أفوكاتو ألعيان"

– قال له: لقد جئنا إليك من آخر الدنيا، وما كنا نفعل ذلك إلا بدافع حبنا لك كحبنا لأنفسنا.

– رد "كريشان" على ذلك بقوله: "التعلب مكر وقال: التلاقى بين أهل العلم عادة حميدة، بعد كده راح يتفسح مع وزة عبيطة وسمينة".

– وما فتئا أن كالا له عبارات المديح المترعة بالمودة والرقة، لأنه على حد زعمهما بدأ يتحول إلى ما أسموه مذهبهما، فأخذاه بالأحضان، وقبلاه ذات اليمين وذات اليسار. لكنه انسلت من قبضتهما "بصنعة لطافة" ثم نظر إليهما مجاملا وهو يقول: "إبليس قال: دى صحيح فكرة بديعة، لكن اللى بيحصل غير اللى بيترسم!". شخصا بعيونهما نحو السماء، ثم شرعا يترنمان بأنشودة تحض الناس على اتباع

(١) فيما يلى تتركز ردود فعل " كريشان" على ادعاءات ذلك المتاجر بالدين ومساعده فى تطارحه لعبارات تشبه فى غموضها الألغاز، لكن صياغتها أقرب إلى صياغة المثل الشعبى.

ذلك الذى يروجان له. ولأخذا بعد إنشادهما يخففان ما بزغ على جبينهما من حبات العرق. وانتهز "كريشان" الفرصة ليقول لهما: "حَوِّد على المكان اللى فيه غنا وطرب، بعدين قعد فى منحل وسط أزيز الشغالات".

وما لبث أن أخرج الرجلان قنينة صغيرة من صندوق كان معهما ثم أخذا يروجان لها بين الجمهور الذى تحلقهما وهما يناديان على ما تحويه: "معايا الدوا اللى سره باتع.. تعالوا شوفوا المعجزة الكونية اللى تتحط على الجرح يطيب.. تعالوا اتعرفوا على العلاج الشافى المعافى.. ولمعلوماتكم الخاصة، الدوا ده كان فى الأصل وصفة مباركة من الأراضى المقدسة.. نزل بيها قبل ٣٠٠٠ سنة ملاك من السما لجل يعافى الناس من بلاوى كتيرة.. وبعد مدة توصل الهنود الحمر لسر التركيبة.. أخفوها عن العيون.. وتكتموا عليها كتكتمهم على كنزهم المدفون. جاءنى عفريت من الجن.. أمرنى بتأديب النفس بالجوع.. وبالتعبد فى خشوع وخضوع.. ووجهنى إلى السير فى مناكب الأرض .. وقال لى : ابحث، اكشف، تعلم، اشف! نفذت الأوامر صاغراً إلى أن توصلت إلى سر تركيبة الدواء لتكون بين أيديكم أداة طيعة للعلاج. فهى بحق معجزة كونية للإبراء من الأدواء .. مزيج سحرى بكر منذ الأزل!" ما كاد "كريشان" يسمع ذلك القول حتى اشرأب عنقه، وتمطى طوله الفارع متمتما: "إبليس قال: دا علاج تركيبته بسيطة لكنه فى إزازة ظريفة، وعلشان يتجمل قام داهن ديله أخضر بلون الزرع".

– واصلا النداء: بهذا العقار الطبى أمكن شفاء البرية من المحيط إلى المحيط، بما فى ذلك سكان فرنسا وبيرو، فى غضون سنوات قليلة . ولما ذاع صيت هذا الدواء أرسلته إلى المبشرين فى أفريقيا. كما طلبته منى إمبراطورة بلاد الصين لعلاج ابنها. صحيح أن حجم القنينة صغير، لكنها معبأة بدواء قمين بشفاء الناس وإبرائهم من العلل والأسقام. طفق "كريشان" يتمتم: "إبليس قال: الدوا اللى زى ده أحسن من قلته، وراح حاطط ديله فى القطران من حسرته".

– لا شك أن الأعمار بيد الله وحده ولا راد لقضائه، لكن مفعول هذا الدواء فى الشفاء أكيد. فبمجرد أن يمزج المريض من ٥ –١٠ نقط منه بالماء فى ملعقة ليتجرعها هنيئا مريئا حتى تخرج عفاريت الويسكى فى التو واللحظة من البدن المسكون أو تخلصه من الأرواح الشريرة ومن أفعال الأسياد. ولا عجب لذلك لأنه مزيج سحرى بكر لا يُثنى، ومعجزة الشفاء التى طبقت الآفاق: علاج ناجع مفعوله أكيد ضد السل وطنين الآذان، ضد الإسهال والإمساك سواء بسواء. اعتملت فى صدر "كريشان" خلجة انفعال لما سمعه من الهراء فعبر عن استغرابه متمتما: "إبليس قال: داحنا بقى نكون بكده محظوظين على التعافى من دى البلاوى، لكن الفار بدأ يلعب فى عبى عن الفايدة اللى حتعود من ورا الدوا ده على الإتنين بتوع المدخنة اللى وقعوا على جدور رقابيهم من فوق السطح الجمالون المايل". لم يكف الرجلان عن مواصلة الترويج لسلعتهم: صدقونى، إن الأعمى سوف يستعيد حاسة البصر لو مس عينيه بهذا الدواء. لقد تسلمت خطابا من المكسيك لضابط اضطروا لبتر ساقه أثناء الحرب جاء فيه، أنه ما إن دهن موضع البتر بهذا الدواء حتى نمت الساق المقطوعة من جديد. نعم لقد أرسل لى ذلك الضابط رسالة خطية بهذا المعنى يمكنكم الاطلاع عليها، وهى ممهورة بتوقيعه شخصيا . حقا إنه عقار طبى متعدد الأغراض صالح لعلاج كل داء فضلا عن أنه معجزة أقرباذينية تشفى الخلق جميعا أينما استقر بهم المقام على ظهر البسيطة! جربوا يا سادة التركيبة السحرية البكر! ثمن القنينة اليوم فقط دولار واحد! "قرب وخد الإزازة اللى فيها الشفا بدولار واحد.. يا بلاش!"

دار الدلال ومساعده على النظارة الواقفين حولهما وفى أيديهما قنينات الدواء وطبق جمع النقود. لكن الناس أعرضوا عن الشراء وأمطروهما بوابل من السباب. ذلك لأن حيلتهما لم تنطل عليهم. علق "كريشان هازنبوت" على ما رآه قائلا: "إبليس قال وفى إيده دودة أرض: هى مالها تعابين الميه السنة دى هزيلة!".

ما لبثنا أن عدنا أدراجنا إلى الجناح الألمانى بعد تلك التجربة المثيرة. وهناك فوجئنا بأن ثمن كأس البيرة عشرة سنتات، فى حين لم يتعد ثمن الكوب نصف هذا

الثمن فى أى مكان آخر. عكرت المغالاة فى الثمن صفوى وكدرتنى، فشعرت برغبة ملحة فى تدخين سيجار. ولكن كم يبلغ ثمنه؟ تصور ٢٥ سنتا؛ تجهمت وتبرمت ثانية، ولم أستطع منع نفسى من الكلام، فقلت : لقد أصبح الألمان أسوأ حالا من اليانكيز.

- قال البائع ضاحكا: هدئ من روعك وكفاك سبا، لأنك ألمانى بالمثل، حينذاك شعرت بالسكينة والهدوء يتمشيان فى أوصالى، فهدأت أعصابى، لكنى لم أشتر السيجار رغم ذلك.

انتقلنا إلى مكان آخر من المعرض، وإذا بنا نمر بخيمة وقف أمامها واحد "يانكى" كان ينادى: "تعال شوف الدنيا بحالها وادفع ١٠ سنت!". قلت لنفسى: هذا مبلغ زهيد للاطلاع على العالم، لا بد لنا من الدخول! دلفنا إلى الخيمة وفوجئنا ببعض الصور المعلقة، ولا شئ آخر. تمتمت دهشا: يبدو أن ليس بهذا المكان ما نشاهده. هل تعمد الرجل استغفالنا؟ همست بسلامة طوية: لعله يمكن رؤية الدنيا خلف ذلك الستار الأحمر المسدل. ولما هممنا برفع الستار وجدنا أنفسنا خارج الخيمة، ولم نجد أمامنا إلا ما نعرفه من دنيانا، بالإضافة إلى كوم من القمامة "فوق البيعة". تناثرت ضحكاتنا سريعة كالشهب، وكنا نضرب كفا بكف على "المقلب" الذى وقعنا فيه. توجهنا بعد ذلك إلى الجناح الإيرانى. وقف أمامه أحدهم وكان ينادى: هنا يرقد ملك الفرس محنطا فى التابوت. ادفع ٢٥ سنتا وانفرج. قلت له: إذا أعطيتنى ملك الفرس المحنط والراقد هنا فى محلول من الخل أو الملح لقاء ٥ سنتات فلن آخذه لأن قيمته عندى لا تساوى هذا المبلغ. وأسدى لك النصح بترك الرجل الكبير الذى كان ملكا وقورا فى حاله بعد انتقاله إلى عالم الأموات.

- أما فى الجناح المصرى فقد آلينا على أنفسنا أن نلقى نظرة على فرعون، ملك مصر، الذى جاء ذكره فى الكتاب المقدس[1]، ولذلك لم نبخل بدفع ٢٥ سنتا.

---

(١) راجع سفر الخروج ١٤ : ٢٨.

لكنه بدا لنا محنطا أن شكله قد تغير كثيرا، بحيث تعذر التعرف على ملامحه. ولا عجب لذلك فقد رقد دهرا فى البحر الأحمر. كما لا يستهان بمشقة السفر من مصر إلى شيكاغو، ولا عجب أن يكون قد أصابه الإعياء!.

زرنا بعد ذلك الجناح التركى. لمحنا أمامه فتاة تركية قح، كانت تتحدث الألمانية والإنجليزية وتعرض مناديل جيب للبيع. حانت منى التفاتة إلى بعض هذه المناديل لأن صورة "ليزا" طافت فى هذه اللحظة بخاطرى. قالت الفتاة: إنك الشخص الوحيد فى هذا المعرض الذى يمكنه شراء المنديل بدولارين ونصف الدولار فقط وعلى سبيل الاستثناء، أما الآخرون فقد اشتروه بخمسة دولارات. ولكن برجاء أن لا تشيع ذلك السعر المخفض بين الآخرين. شكرتها بعبارات ودودة على أن خصتنى بسعر متهاود، وقلت لها إنه كرم زائد يستحيل قبوله. ثم سألتها عن موطنها. قالت: إنها قادمة من دمشق، أقدم مدن العالم قاطبة.

- قلت لها: مهلا.. مهلا.. ففى قريتنا بيوت ترجع إلى حرب الثلاثين عاما[1]، كما يوجد ببلدة "جرابوف" مبانٍ أكثر قدما. ولكن أخبرينى أين تقع دمشق؟ حملقت بعينين تائهتين زاغتا فى حيرة فى كل اتجاه . وبعد هنيهة أشارت بيمناها قائلة: هنالك فى ذلك الاتجاه تقع دمشق! لكنها كانت تشير إلى الاتجاه الشمالى- الغربى.

قلت لها: لقد دلنى الحدس منذ البداية على جهلك بالخوافق الدالة على الاتجاهات الأصلية الأربعة. تسربل وجهها بالعجرفة وقالت بنبرة خشنة: ماذا تعرف أنت عن دمشق؟

---

(١) اشتعل أوار هذه الحرب خلال الفترة من ١٦١٨ - ١٦٤٨ بين الكاثوليك والبروتستانت فى أوربا، بينما يرجع تاريخ دمشق إلى ٥٠٠٠ عام . أما إقليم "ميكلينبورج" فقد استقرت به القبائل الجرمانية اعتبارا من سنة ٦٠٠ بعد الميلاد، مما يعكس ضحالة معرفة العوام عن عراقة تاريخ الشرق. كما لم تكن دمشق حتى فى العصر العثمانى تركية!

– أجبتها قائلا: تمهلى فأنا أعرف دمشق حق المعرفة، إذ أشار العهد الجديد إلى ذلك "الزقاق الذى يقال له المستقيم" [أعمال الرسل ٩: ١١]، ويلوح لى أنك لا تسكنين هناك

– قالت: ليس من المستبعد أن يكون ذلك الزقاق فى أقصى الطرف الآخر من المدينة.

– نعم، أغلب الظن أنه هناك بالفعل. ولكن ينبغى لك استئجار سكن فى ذلك الزقاق عند عودتك إلى دمشق. كما لا تنسِى مراجعة الكتاب المقدس لتعرفى موقعه. رمقتنى بعينين مروعتين مشدوهتين، مثل عينى البقرة حين تعود من المرعى فتجد نفسها أمام باب جديد لحظيرتها لم يسبق لها رؤيته. ثم تركتها وانصرفت. وقمت بعد ذلك بشراء بضعة مناديل من أحد محلات شيكاغو لكى أهديها إلى "ليزا".

وعندما نزلنا من القطار فى المساء، واصلنا السير فى شارع مزدحم بجمع غفير من الناس، وإذا بى أرى قبعة اسطوانية تتدحرج فى الطريق، وتدوس عليها أقدام المشاة . قلت لنفسى والحسرة تعتصرنى : لقد فقد أحدهم تلك القبعة. وعلى ما يبدو أنها كانت لا تزال جديدة . وصاح أحدهم من خلفنا وكان يصب جام غضبه بالسباب. هامست نفسى قائلا: إنها حقا لشتائم تجرى على لسان رجل يتقن كيف يكون السباب. لا بد أنهم اصطدموا به بعنف وسط الزحام . وربما كانت القبعة التى انهارت هيأتها تحت أقدام المارة هى قبعته. وإذا بصديقى "شولت" يوجه الكلام لى بقوله: إنك أنت المقصود بالشتائم مرة أخرى. لقد شاهدت اصطدامك به أثناء هرولتك، وكيف طارت القبعة من فوق رأسه. أما عن نفسى فلم أدر بأى شئ مما جرى!.

وفى نهاية المطاف كنا قد سئمنا من المعرض، ومللنا من مشقة التجوال فى أجنحته. لذلك عقدنا العزم على العودة إلى بيوتنا. وكان موعد إقلاع القطار الواحدة

ظهرا. وقفنا على رصيف المحطة المزدحم بالمسافرين. وبلغ علو الرصيف ثلاثة أقدام، وعرضه ٢٠ قدما، أما طوله فكان على امتداد البصر. قلت لرفيق الطريق "فولس": عجل بالذهاب إلى دكان الجزار على الناصية القريبة لشراء بعض أصابع السجق، حتى لا نتضور جوعا أثناء السفر. ولا تنس أن لدينا عشر دقائق فقط.- مضت خمسه دقائق ولم يظهر لشارى السجق أى أثر. قلت لـ"شولت": سوف أطل عليه "على الناصية" لاستعجاله، وانطلقت فى سرعة البرق إلى هناك. لكنه نظرا لكثرة الزبائن بدكان القصاب لم يتمكن من إنجاز المهمة بعد وأخيرا اصطحبته إلى المحطة ثانية. لكن القطار كان قد تحرك. ثارت ثائرة "شولت" وتذمر مؤنبا، إذ قال له: لقد تسكعت طويلا، "وعوقت" فى إحضار السجق، فتحرك القطار فى موعده من أمام أنوفنا. غضب "فولس" بدوره لاعتقاده أن المعاتب ينصب نفسه قاضيا يرتدى ثوب العدالة، ويجعل منه بالسخافة مذنبا. لذلك قال له مداعبا: لم يكن من الضرورى مروق القطار من أمام أنفك.

- وكيف يتسنى ذلك؟ كان يمكنك أن تدير ظهرك للقطار فيمرق من ورائك وليس من أمام أنفك.

وعلى هذا الحال قضى الاثنان فترة الانتظار فى مناوشات كلامية لم تنته إلا بوصول القطار التالى، فاستقله ثلاثتنا فى رحلة العودة. الصديق العزيز، يمكننى القول إن الأمور تسير فى الحياة على النحو التالى. فعند إقدام الناس على السفر تتلاقى أرواحهم ولا يسلو بعضهم بعضا. أما فى إيابهم فيدب الشقاق بينهم ويتخاصمون. لكن جودة السجق كان لها أثر طيب فى عودة الوفاق بين الصديقين، هذا بخلاف حثهما "من طرفى" على التراضى ونبذ الشقاق. بيد أنهما سرعان ما انقلبا علىّ وخاصمانى. وراح "شولت" يزجرنى بقوله: "إنت بقى تنقطنا بسكاتك. دا كان بختنا كويس بحق إن احنا سبنا شيكاغو فى الوقت المناسب قبل ما يقبضوا علينا ويحطونا فى الحجز. مش إنت برضه إللى قعدت تخبط فى نص زوار المعرض. وآخرهم كان عسكرى البوليس اللى زقيته من فوق الرصيف ووقع فى

القناية. وفضل المسكين متقرفص بطوله وعرضه فى الميه، والمطر كمل على الباقى وبل اللى لسه ما تبلش. وكده مش كفاية لأن البرنيطة اتدحرجت كمان فى الشارع". ولكن حصل خير، لأن الشرطى استجمع قواه ونهض بخفة من كبوته وكان مبتسم الثغر. حانت منى التفاتة إلى الشرطى وتوجهت نحوه بدافع الشهامة لكى أعينه فى تنظيف ثيابه، وإذا به يتمتم بلطف: هذا جزاء سنمار الذى كوفئ بالإساءة إليه. علمت فيما بعد أنه لما رآنى مهرولا أراد سؤالى عن ما إذا كنت فى حاجة إلى مساعدة. ولكن تطور الحدث جعل السؤال يتراجع إلى حلق الشرطى المهذب. وأغلب الظن أن كوعى كان قد احتك به عن غير قصد وأنا أهرول بين حشود الناس على الرصيف مما أدى إلى فقدانه لتوازنه وانبطاحه على الأرض. وهذا أمر ممكن الحدوث، وهو ما جرى بالفعل. لكننى لم أكن أعرف أى شئ عن كل ما حدث.

والآن أصبحت تعرف كل شئ عن انطباعاتى عن المعرض. وأضيف إلى ذلك قولى: إن أقدامى لن تخطو عتبات معرض دولى كهذا ثانية. حتى لو جرجرتنى عشرة جياد إلى هناك. فتكاليف الزيارة باهظة جدا. ولحسن الحظ أننى نفدت بجلدى ولم ينحلوا وبرى تماما. وفى حالة إقامة معرض دولى كهذا طرفكم بمدينة "شفيرين"، فأسديك النصح، إذا ما عقدت العزم على زيارته، أن لا تكتفى ببيع العجل، بل عليك أن تعمل حسابك على المبادرة ببيع البقرة، نظراً لأن ثمن العجل لن يغطى التكاليف المترتبة على زيارة المعرض. ناهيك بحشود جماهير الزوار التى تجعلك تظن أنك تتجول فى مستعمرة نحل !وهناك بون شاسع بين الحشود هنا وبين مثيلتها بسوق [أو مولد] القديس مارتين السنوى ببلدة "إلدينا". فأنا أخشى على أى حال أن أصيب الناس بمكروه من جراء هرولتى. فقد ألفت التحرك بحرية بالحقول الفسيحة التى فيها متسع لخطواتى القوية المنفرجة، حيث لا يعوق سيرى فى أرجائها لا الأطفال الصغار ولا رجال الشرطة، ولا أكوام الموز ولا القبعات الاسطوانية العالية . حقا إننى أفضل العيش بالمزرعة، حيث لا قيد على حركة سيقانى وأذرعى.

إنى أتوق لتلقى رسالة منك. ويحدونى الرجاء أن يكون الشعور متبادلا عندما تطول الفترة التى تترقب فيها رسالة منى. ولا ينبغى لك أن تتسانا أو تتجاهلنا. فكم من المرات قطعت "المشوار" إلى مكتب البريد بالمدينة عساى أعثر على رسالة منك فى صندوق البريد رقم ١١٨ الخاص بى. إلا إننى كنت أعود أدراجى خاوى الوفاض لعدم عثورى فيه على شىء آخر غير إعلانات المحال التجارية. قلت لنفسى فى همس ملح: واحسرتاه.. ها هى نشوة الانتظار السابقة لوصول خطابك المأمول تذهب أدراج الرياح مرة أخرى!.. فرحة لم تكتمل جعلتنى أعود إلى المزرعة كسيف البال وغير "مجبور الخاطر". إننا نتحدث هنا عنك كثيرا. وقد رأيتك فى المنام مؤخرا : حلمت أنك جئت لزيارتنا، لكن كل شئ بدا غريبا فى نظرك، حتى الأبقار والخنازير بدت غريبة عليك. ثم ناديتنى قائلا: "يورن– ياكوب" كنت أظن أن مزرعتك تختلف بعض الشىء عما أرى. ولكنى ألمح أنك نشيط، وتبذل مجهودا كبيرا فى عملك، وهذا أمر يسعدنى. وأرجو أن تجعلنى أكثر سعادة عندما آتى لزيارتك فى المرة القادمة. ثم مسست شغاف قلبى بنظرة عطوفة منك وأنت تصفق الباب خلفك.

وحينما استيقظت من النوم، كان الصباح قد انبلج، فامتطيت صهوة جوادى قاصدا مكتب البريد. إذ ساورنى الاعتقاد، بعد أن رأيتك بلحمك وشحمك فى المنام، أن رسالة منك لا بد وأن تكون فى صندوق البريد الخاص بى، لكنى وجدته فارغا. فقلت عائدا من حيث أتيت محبطا، وقلت لنفسى: حتى أحلام هذه الأيام فقدت قيمتها ولم تعد مثل أحلام "أيام زمان"، حين كانت الدنيا لا تزال بخير ولم تتدهور أحوالها كما هى عليه الآن. أقول لك: لا تنسج على منوال "البعيد عن العين بعيد عن القلب". نعم لا تنسونا ها هنا، لأننا نلهج بذكر معلمنا ما بقى فى جوانحنا رمق. وكلنا أمل أن تتيح لك الظروف الفرصة لزيارتنا يوما ما، كما نتعشم أن نحظى برضائكم عنا. ولكن "اعمل حسابك" على البقاء بيننا طوال موسم الصيف، حتى تتمكن من زيارة تلاميذك الواحد تلو الآخر. حينئذ سوف تكتحل عيوننا برؤياك، كما ستسعد قلوبنا بلقياك. وقد اعتدنا حيث نقيم، نحن تلاميذك الأوفياء، على

الالتقاء سويا من حين لآخر فى أيام الأحد. حينذاك ينتحى الأطفال جانبا لكى يلهوا ويلعبوا سويا. أما نحن الكبار فيجتمع شملنا فى لمة حميمية لا نسلو خلالها الحديث عن عاطر ذكراك، ونتناول فيها ذكريات القرية التى هجرناها ونتصيد أخبارها، كما تتطارح ألسنتنا باقة من المُلَح والأفاكية والنوادر العالقة بأذهاننا منذ الأيام الخوالى، نغتبط لسماعها فى كل مرة، وكأننا نسمعها أول مرة. وقبل أن يتفرق شملنا تجتمع فى بؤرة الأمانى رغبتنا الملحة فى أن تقوم بزيارتنا لكى تكتمل سعادتنا بحضورك، وحتى تساعدنا على فهم أحداث الماضى التى عاصرت بنفسك تسلسل وقائعها، وأدركت خلفياتها وتكشفت لك خباياها وأسرارها. ولا شك أنك عندما ترانا رأى العين، سوف تعقد الدهشة لسانك، لأن من كانوا ذات يوم تلاميذك، قد تحولوا إلى كهول تسلل إلى رؤوسهم المشيب على استحياء وشابت أفوادهم. وكثيرا ما يلح على سؤال عن الحياة التى لا تعرف الدوام، حين تغير السنون أشكال الناس وسحنتهم، فترى وجوها عاثت فيها الأخاديد ورؤوسا قد لاحت فيها لوائح المشيب فى كل مفرق. عندئذ أستعيد شريط حياتى الماضية فى همس متسائلا: ألم تكن بالأمس غلاما يجلس على القمطر لينهل العلم بالمدرسة؟ ثم تبدلت الأحوال وأصبحت ذا لحية خطها المشيب، وصرت تحكى لمعلمك عن مشاهداتك بالمعرض الدولى! وأحيانا تنبت بمخيلتى الخصبة أمانى خضر لكنها بعيدة المنال وهى من قبيل أننى لو عدت إلى ألمانيا ثانية فسوف أرتد غلاما تتوق نفسه للتتلمذ على يديك مرة أخرى، ذلك لأن التعلم فى سنوات الطفولة كمثل النقش على الحجر، تظل أخباره محفورة بالذاكرة، وأنى لها أن تتمحى أبدا. لكن الوقت فى العالم الجديد يمضى سريعا وكأنه برق أو وميض. وحتى يستطيع المرء اللحاق بذلك الزمن الذى لا يُزْمِن، فعليه أن يكون شديد البأس فى بذل الجهد، لتعويض سرعة مروقه كالشهب. أما عن نفسى فقد عملت بكل ما أوتيت من قوة طوال حياتى، ولم أعرف خلالها طعما للتوانى أو التراخى. بيد أننى بدأت أشعر مؤخرا بأن خطوى لم يعد يقوى على اللحاق بخطو الزمن. فمع تقدم سنوات العمر يصبح المرء بحاجة لالتقاط الأنفاس، وإلى الاستعانة باليد لسند الرأس، وإذا به يشعر بكبوته بعد سبق، وبتخلفه عن الركب شيئا فشيئا. وعلى الرغم من ذلك، هل تعرف

لماذا يعتبر الإنسان سعيد الحظ؟ أقول لك، لأنه توفيق من الله أن جعل للشمس نظاما محكما يقسم الزمن بمقتضاه إلى فترات طبيعية استعملت منذ القدم فى إعداد التقويم[1] لحساب الزمن. ولولا التقويم لكان الوقع السريع للحياة الأمريكية- الأسرع بكثير منه عندكم فى ألمانيا- قد عمل على انفلات معايير الزمن نتيجة لما يبذله الناس هنا من جهود مضاعفة من أجل العيش فى يسر وبحبوحة. بقى شئ أريد منك أن تخبرنى عنه. فأنا تواق بالفعل لمعرفة ما إذا كان المشيب قد تسلل إلى لحيتك بنفس القدر الذى تسلل به إلى لحى تلاميذك. هذا مع مراعاة الفارق فى سرعة وتيرة الحياة الأمريكية عنها عندكم فى ألمانيا. هل تعلم فيم كنا نفكر فيه، "ليزا" وأنا، فى كثير من الأحيان؟ كنا نمنى أنفسنا أن نستطيع تكرار تجربتنا بإلحاق أطفالنا بالمدرسة التى تتولى أنت إدارتها. لكنى ما لبثت أن قلت لها بعد تمحيص: لا يا "ليزا" إن تحقيق تلك الرغبة أمر مستحيل، نظرا لبعد المسافة، ولتعرض جوارب الأطفال للبلل فى رحلتهم اليومية عبر المحيط. ناهيك عن وصولهم يوميا متأخرين، مما سيعرضهم للعقاب بالبقاء لفترات إضافية وبالفصل بعد انتهاء اليوم المدرسى. لكنى قطعت عليها حبل التحليق فى عالم الخيال والتمنى بتذكيرها بما يتحتم علينا إنجازه من أعمال مزرعية، إذ قلت لها: أظن أن الوقت قد حان لحلب الأبقار. أما عن نفسى فسوف ألقى بدورى نظرة على الثيران للوقوف على أحوالها.

الصديق العزيز، أحيطك علما بأن "ليزا" قد ابتهجت بإهدائها المناديل. لكنها لم تستعملها، كما لم تسألنى عن المعرض الدولى إلا بكلمات عابرة. تعجبت لذلك كثيرا، نظرا لأننى تعرفت فيه على أشياء كثيرة كنت أريد أن أحكيها لها. لذلك ترانى فى حيرة من أمرها!.

---

(١) التقويم هو نظام لتقسيم الزمن إلى مراحل معروفة منذ القدم بالسنة والشهر واليوم الشمسى. فالأرض تدور حول الشمس فى عام (حوالى ٣٦٥ يوما وربع اليوم)، والقمر يدور حول الأرض فى شهر، والأرض تدور حول محورها فى ٢٤ ساعة. ومن التقويمات المعروفة تقويمان شمسيان، هما التقويم الجريجورى والتقويم القبطى. أما التقويم الهجرى أو العربى فيتبع السنة القمرية- للاستزادة راجع تونى، يوسف: معجم المصطلحات الجغرافية، القاهرة بدون ذكر السنة، الطبعة الثانية، اطلب باب تقويم صفحة ١٢٥ وما بعدها.

الفصل السابع

الأم على فراش الموت

الصديق العزيز ومعلمى الجليل. كلماتى إليك اليوم مقتضبة، وأملى كبير فى أن أستطيع ختام هذه الرسالة فى غضون الأسابيع القادمة. إنى فى غاية الأسى، ويكاد قلبى أن ينفطر من الحزن على وفاة أمى وانتقالها إلى مثواها الأخير فى يوم الأربعاء الموافق الثانى عشر من أبريل. وقد كلفتنى الفقيدة وهى فى الرمق الأخير أن أبلغك تحيات الوداع مقرونة بشكرها الجزيل على كل ما أسديته نحوها من أريحية ونبل. وحبيب إلى قلمى أن يسجل لك آخر وصاياها لأنقلها إليك عبر هذا الخطاب.

بلغت أمى من العمر ٧٢ عاما و٦ أشهر و٥ أيام. قضت منها عندنا آخر ستة أعوام فى حياتها. وحينما أرسلت إليها تذكرة السفر خالصة الثمن، انبثقت الرغبة فى أعماقها الباطنة تستعجلها لعبور المحيط. ولم لا، فنحن لم نلتق خلال مدة امتدت إلى ثلاثين عاما، كما أنها تقدمت فى السن ولم تعد قادرة على العمل كما كانت تعمل من قبل. إلا أن أحوالها تدهورت سريعا فى أمريكا، مثلما تدهورت أحوال معظم من نزحوا فى سن متقدمة إلى العالم الجديد. وصارت حالتها تماثل حالة "فيلاند" العجوز الذى أدار ظهره لقريتنا لكى يستقر فى أمريكا. وعلى الرغم من عيشه فى بحبوحة وترف بين أولاده، إلا أنه ظل مفتقدا لشىء ما أقض مضجعه، ولم تستطع أمريكا بكل ما أوتيت من عزة الجانب والثراء أن تعوضه عن ذلك الشىء العزيز الذى كانت تهفو نفسه إليه. ذلك لأن تأقلم الطاعنين فى السن على ظروف حياة جديدة فى محيط لم يعتادوا عليه، هو أشبه ما يكون بقلع أشجار معمرة، ثم إعادة زرعها فى بيئة مختلفة، حينئذ تعتل وتذبل رويدا رويدا حتى يدركها العفاء ويستضيفها الفناء.

لم تشعر أمى على الإطلاق أن بيتنا هو بيتها. مع أننا كنا نبذل قصارى جهدنا من أجل إرضائها. كانت رغباتها أوامر نستوحيها من بصيص عينيها حين تؤشران بأصابع نظراتهما فنستجيب لها ونلبيها. كنا "نشيلها على كفوف الراحة". لم تسمع أذنها قط كلمة سوء. لكنها لم تكف عن اعتبار أمريكا البلد الأجنبى الغريب، وكذلك بيتنا ظل الدار الغريبة التى لم تأنس العيش فيها. أما تعدد النشاطات بمزرعتنا فقد استغلق عليها فهم ما هيتها. ناهيك عن أن أولادنا كانوا قد شبوا عن الطوق ولم يعودوا بحاجة إلى من يحملهم على ذراعيه ليهدهدهم. كما لم تكن عندنا قوافل من فرخان "الوز" والكتاكيت التى عادة ما تنشغل بها النساء فى مثل عمرها. ولم يكن من المستحب أن تنكب من طلعة الصبح وحتى أول الليل على "شغل الإبرة" لصنع الشرابات الصوف ولرفو الثقوب. كانت أمى قد نشأت على العمل الدائب، فأنفت التكاسل وفتور الهمة والجلوس مكتوفة الأيدى تضرب أخماسا فى أسداس، لدرجة أنها امتنعت عن الاسترخاء فى المقعد الهزاز. فقد سمعتها ذات مرة تقول: إننى لا أريد فى هذه المرحلة من العمر أن أتعلم من جديد كيف أقعد وكيف أرقد. فأنا أجلس على الكرسى نهارا وأهجع على السرير أثناء الليل. أما ذلك المقعد الهزاز فهو بين بين، فلا هو بالمقعد ولا هو بالسرير، لعدم صلاحيته للارتكاز على أربع. ولذا فأنا أرفض أن تكون لى به أى علاقة. والآن.. أين هى؟ لقد ذاقت كأس المنون وواريناها الثرى يوم الأربعاء الماضى.

لم يستغرق مرضها فترة طويلة. فقد عصفت ريح باردة فى ذاك الربيع فأصيبت بداء فى الصدر. استدعيت الطبيب سرا وبدون علمها، لأنها لم تكن ترغب فى تحميلى كلفة عرض نفسها على نطاسى. وبعد أن فحصها لتشخيص حالتها، شجعها وطيب خاطرها. لكنه أخبرنى خارج حجرتها بأنه لا يوجد لها دواء عند أهل الأرض. كانت طيعة ولم تعترض على تناول الدواء الذى وصفه لها. لكن شهيتها للأكل أخذت فى التراجع شيئا فشيئا، وصار جسمها واهنًا سقيما. وفى النهاية نحلت اليد لتنتهى بأصابع رفيعة نحيلة، وتحول الجسد إلى جلد على عظم.

أكثرت من الجلوس إلى سريرها لفترات طويلة، وكنت أضع كفها بين يدى ونتبادل عبارات مترعة بالرحمة والحب والحنان. شعرت خلال أسابيع مرضها أننى استعدت وعيى، وثُبْتُ إلى نفسى، "ورمش لى" جفن الإدراك بوجودى كإنسان، ذلك لأول مرة منذ وطأت أقدامى أرض العالم الجديد. فعند جلوسى بجانب فراش أمى الطاعنة فى السن، أحسست بأن كل ما كان ينوء به كاهلى من هموم العمل ومنغصات الحياة قد أزيح عنى، وكأنى قد تخلصت من سترة غريبة لا تعنينى، وعدت وأنا جاثٍ بين يديها إلى طفل كبير، ابن أمه الذى ربته صغيرا. قالت لى: يا ولدى لقد اعتدت على إنجاز أعمالك بحماس من يحمل رسالة مقدسة. أسديك نصحى بأن لا تواصل الكد والكدح بهذه الطريقة دون أن "تهمد" أو ترتاح.

إذ عليك أن تتمهل فى أداء عملك حتى تستحضر وعيك، وتستنهض استفاقتك، وتنبذ غفلتك. كما ينبغى أن يتسرب إلى إدراك الإنسان أن وجوده فى الحياة ليس من أجل العمل وحده أو وقفا عليه. لقد استهلكت وأفنيت أغلب ما عندك من سيوف الحصاد فى حش ما زرعته من الذرة فى حقلك، كما قمت بنفسك بدراس معظم محصولك. اعلم، أن محصولك الأخير هو أقرب إليك وأبكر مما تظن. عليك أن تمشى على الأرض هونا وأن لا تكون فيها عجولا. هكذا نصحتنى أمى . فقد كانت حياتها عبارة عن سلسلة متواصلة من العمل الدءوب والعناء وتجشم المشاق. خالج نصحها قلبى، وملك علىّ حواسى، فبادرت على الفور إلى إعادة النظر فى أسلوب حياتى. وتبين لى على مر الأيام كم كانت محقة فيما قالت. فالأم دائما على حق حين تسدى النصح لأولادها. ذلك لأن فكرها لا يكف أبدا عن البحث المتواصل عن الأفضل والأحسن بالنسبة لفلذات كبدها إلى أن تهتدى إليه فى نهاية المطاف.

كنا نتناول سيرة قريتنا فى معظم لقاءاتنا. وكثيرا ما كانت تحدثنى عنك وعن اهتمامك خلال السنين الماضية بالمواظبة على عقد أمسيات الأحد لقراءة المواعظ من كتاب "هارمز" أو"شيفين" على مسامع المسنين من أهل القرية، الذين

كان يتعذر عليهم الصلاة بالكنيسة. وكذلك حدثتنى مرارا عن عادتك السنوية فى الاحتفال بأعياد الميلاد فى المدرسة مع صغار أهل القرية وكبارهم. كما ذكرت أنهم كانوا يتطلعون قبل الأعياد بشهور إلى ذلك الاحتفال بشغف عظيم. وعبرت عن ترقبهم لذلك الحدث بقولها: كانت حياة المسنين خلال فصل الشتاء، ببرده وزمهريره وبثلجه وجليده، حياة تتفشى فيها الكآبة والرتابة، فيضطر فيه المعمرون إلى التزام دورهم. ولولا مواظبتهم على حضور أمسيات الأحد والاحتفال بأعياد الميلاد، فربما ما تمكنوا من الانعتاق من قيود عزلتهم من حين لآخر ليستشعروا طعم الرحمة والمحبة والتعاضد.

كشفت لى أيضا عن فصول من مرحلة طفولتها لم يكن لى سابق علم بها. وهكذا تتماثل أحوال البشر، فعندما تتقدم بهم السنون لا تقوى سيقانهم على حملهم، فتتعثر خطاهم، وتتعذر حركتهم إلى الأمام، كما تعود بهم الذاكرة القهقرى إلى الخلف لتقلب فى أضابير حياتهم الماضية. قالت لى أمى ذات مرة: عندما أعود بذاكرتى إلى الماضى ثم أكر بفكرى عائدة الى الوقت الحاضر، فيتهيأ لى كما لو كنت أهم بالخروج من حجرة لأدخل حجرة أخرى. بيد أن الباب الفاصل بينهما يفضى إلى نفق مظلم. لكن ما باليد حيلة، إذ على الإنسان أن يجتازه.

انظر، هكذا تحدثت السيدة المسنة الساجية فى رقدتها على فراش الموت. أصغيت إليها فى إجلال وإكبار، وكنت أربت على يدها بعطف وحنان وأنا أهمس فى أذنها قائلا: أماه، إن ما قلتيه حالا لهو بمثابة كَلِم مأثور يمكن أن تتضمنه مزامير الكتاب المقدس[١] مع الفارق فى صياغته بكلمات أخرى. وما لبثت أن

---

(١) المزامير هى سفر من العهد القديم يتضمن ١٥٠ مزمورا بمعنى نشيد أو تسبيحة حمد. وهى فى الغالب مواعظ تذكر فى الصلوات بالكنائس، ومنها مثلا: "ولك يارب الرحمة، لأنك أنت تجازى الإنسان كعمله"- المزمور ٦٢ :١٢. وترادف المزامير عن العرب "زبور" أو "زبر"، ويقال إنه لفظ سريانى معناه : كتاب وقد ورد ذكره فى القرآن فى عدد من السور، منها مثلا "وآتينا دواود زَبُوراً"- سورة النساء: ١٦٣ و "كُل شئ فَعَلُوه فى الزُّبُر"- سورة القمر :٥٢.

أدغشت الدنيا مع آخر لهثات الشمس الغاربة، بينما كانت "ليزا" مشغولة فى أعمال البيت والمزرعة. لاحظت رغبتها فى الإفصاح عن شيء على استحياء، فأرهفت السمع إلى نبسها بصوت خفيض مرهق، إذ تمتمت: ولدى "يورن - ياكوب"، والآن يمكنك أن تلثمنى، فلم يقبلنى أحد منذ أمد بعيد. إننى فى واقع الأمر لا أتذكر سوى ثلاث قبلات خلال سنوات حياتى. كانت أولى هذه القبل يوم زفافى على أبيك "يورن- يوخين". والثانية يوم ولدتك. أما الثالثة فكانت قبلة وداع طبعتها على وجنة أبيك يوم وفاته. لقد أزف الوقت لكى أُهَيِّئَ نفسى للقاء " يورن- يوخين". هيا إذن يا بُنَىْ، فيمكنك أن تلثمنى وأنا فى طريقى إليه. لكنى واسيتها بقولى : أمى، أما عن القبل "فالحال من بعضه" وليس هناك فرق بينى وبينك، فأنا ابنك الذى تربى على يديك. وعلى ما يبدو أنه ينبغى لكل منا استدراك ما فاته والتعويض عنه.

حنوت على سريرها برفق ثم قبلتها بحرارة شعرت فى أثرها بيدها رقيقة هشة تمسح على خدى بحنان وتودد وكأنى ما زلت صغيرها الذى اختزنت له شحنة من الحب الخالص الجياش. ثم عدلت رأسها على الوسادة وراحت فى إغفاءة وقد ارتسمت على محياها مسحة من الرضاء التام. غادرت غرفتها ووقفت وسط الحظيرة وقلبى يخفق بالدهشة. ووجدتنى أخاطب نفسى : " يورن – ياكوب سفين"، ها هى أمك قد أدركتها الشيخوخة، وأصبحت طريحة الفراش تتردى فى حضرة الموت. أجل، إنها أمك التى حالت ظروف الهجرة دون التعرف عليها خلال فترة طويلة من سنى حياتك. لقد دارت عجلة الزمن، وها أنت ذا تتعرف عليها وهى تصارع الموت.

إنداح وجه الشمس ثم عسعس الليل ولف المزرعة بظلام دامس دام حتى السحر، إيذانا بطلعة شمس جديدة، بددت تباشير نورها وانبلاج صباحها زرقة الفجر الذى شقشق. كان ذلك النهار هو يوم سبت، آخر يوم قضته أمى بين الأحياء. ولم يزد فيه طعامها وشرابها على قوت وسقى عصفور صغير. أنجزت عمل يومى قبل الغروب، وسارعت إلى الجلوس بجانب سريرها، ووضعت يدها

بين يدى، ولاحظت تسارعا شديدا للنبض فى عروقها. مكثنا على هذا الحال بعض الوقت فى عتمة صدعتها أشعة شمس الغروب، فتسربل جو الغرفة بقتامة دكناء مزجت النور بالظلام.

وأضفت على المكان إحساسا بالمهابة، فيما يشبه جو الخشوع الاحتفالى الذى ينتشر بصحن الكنيسة من ذبالة الشمعتين الكبيرتين المشتعلتين على المذبح بداخل الهيكل أثناء العشاء الربانى. أجل، هذا هو ما جال بخاطرى عندما أمعنت النظر فى عينيها. لم تكن زرقتهما غير عاديتين، ومع هذا لاحت لى فيهما فى ذلك اليوم إشراقة ساطعة لم أر لها من قبل مثيلا فى عالمنا هذا. وأغلب الظن أننى أجتليتها بروحى الحساسة وليس بمجرد العين الناظرة.

أشعلت "ليزا" ذُبالة المصباح الغازى المتدلى من سماء الغرفة، ثم عكفت على ترطيب شفتى أمى الجافتين بقطرات ماء، بينما كانت تطيب خاطرها وتشد من أزرها بعبارات تفيض بالرثاء والشفقة. وما لبثت أن سألتنى أمى هامسة: والآن اقرأ لى فقرة من الكتاب المقدس يا "يورن- ياكوب".

قرأت عليها قصة "لعازر" المسكين، ذلك الإنسان البائس الذى ضربته القروح والذى كان يتضوى جوعا ويشتهى لقيمات تقمن أوده من الفتات الساقط من مائدة الغنى "فمات وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم"[1]. وحالما انتهيت من سرد تلك القصة قالت: هناك مزمور يا ولدى لم أعد أتذكر بدايته، لكنه يتحدث عن البذر والحصاد. - أجبتها: إننى أعرف ما تعنيه يا أمى، ثم شرعت فى تلاوة المزمور ١٢٦: "عندما رد الرب سبى صهيون صرنا مثل الحالمين". حدجتها بنظرة حانية وقلت لها لعلى أثلج صدرها: هل تسمعين يا أماه؟.. مثل الحالمين!- نعم إنى أسمع يا ولدى.- ثم واصلت قراءة المزمور إلى آخر المطلع القائل: "... الذين يزرعون

(١) راجع العهد الجديد، إنجيل لوقا ١٦: ١٩ وما بعدها . وتكتب لفظة "لعازر" أيضا "أليعازر"، وهو غير الاسم الوارد بسفر "عازر" فى العهد القديم - وهو ما لا يخفى على القارئ اللبيب.

بالدموع يحصدون بالابتهاج. الذاهب ذهابا بالبكاء حاملا مبذر الزرع مجيئا يجيء بالترنم حاملا حزمة".- هل تسمعين يا أمي؟.. يحصدون بالابتهاج!- قالت: لكني سوف أعود إلى الرب خاوية الوفاض وبدون أن أحمل معي حزم الغلال. - نعم يا أمي هذا صحيح، ذلك لأننا جميعا سوف نئوب إلى بارئنا عرايا كما ولدتنا أمهاتنا وبأيدٍ خالية.

سكتت برهة ثم قالت: اقرأ يا ولدى من كتاب التراتيل ترنيمة: يسوع هو حياتي. وأثناء ترنمي لمحتها وهي تشبك أصابعها في بعضها في خشوع وخضوع وتصاحبني في الغناء. وحالما انتهيت بادرتني بالقول: لقد أنشد معلم قريتنا مع تلاميذه نفس الترنيم عندما وارينا أباك "يورن - يوخين" التراب. والآن أستسمحك في قراءة الترنيم الذى مطلعه: عندما يحين وقت الوداع وأتردى في حضرة الموت. استجبت لمطلبها بكل امتنان ورددت على مسامعها ما أرادت.

سقتها "ليزا" ثانية فأومأت أمي إليها برأسها وضغطت على يدها وهي تغمغم بالشكر والعرفان. تحفزت "ليزا" وقدمت لها كعكة، وبدا أنها اشتهت أكلها، وأخذت تقضمها بأسنانها الأمامية قضمات صغيرة وعلى مراحل حتى أتت عليها. وألححت عليها بدوري بأن تأكل كعكة أخرى، لكنها أكلت نصفها بالكاد. وبعد أن انفتحت شهيتها صارت الدنيا لا تسعني من الفرح لتعافيها كما ظننت، فقلت لها "كويس يا ستي إن نفسك انفتحت للأكل. وبكره لما ييجي الصيف والدنيا تدفى حتقومي من نمتك دى وتبقى صحتك عال العال بمشيئة ربنا".- مسحت بيديها برفق فوق طرف اللحاف وقالت بصوت واهن مرهق: "بتقول إن حالتى حتتحسن؟.. ده مستحيل. كل اللى أنا عاوزاه منك إنك تصلى لربنا علشان يريحنى وياخدنى لجواره ويخلصنى من الغلب اللى أنا فيه".- الصديق العزيز، ما كادت أمي تتمتم بكلماتها التي تدعو للرثاء والشفقة حتى لاح وجه الكآبة في الأفق، فشعرت كما لو أن نصل سكين حاد قد اخترق روحي في الجوهر والصميم فأدماها. ذلك لأن إقبالها على الطعام جعلني

أمنى النفس منذ قليل بأن الموت قد تجاوزها وبأن الشفاء صار على الأبواب. وتجرعت لشدة فرحتى كأس السعادة حتى الثمالة، فإذا بى قد هويت من ذروة سعادة مظنونة أو مأمولة إلى قاع حزن حقيقى أضحى يطالعنى من بين ثناياه نذر فراق الأم ولوعته.

عاودت المسح بيد مرتجفة فوق حافة اللحاف، بينما أرْهَقَ روحها نزاعها مع الموت. أما وقد أصبح الموت أقرب إليها من جسدها، فلم أجد غضاضة فى تصفح سيرة حياتها الماضية المنقوشة بالذاكرة فلم أعثر فيها إلا على عوز وحاجة وبؤس أناخ عليها بكلكله طوال سنوات عمرها. عادت من جديد إلى تشبيك أصابع يديها وهى تحدق فى وجهى بنظرة مستقرة فيها سكون وتركيز مما جعل عينيها تزدادان اتساعا وعمقا. ولمحت فى ناظريها بريقاً لم ألمحه فيهما من قبل، الأمر الذى يعجز قلمى عن وصفه بالكلمات. أمعنت النظر فى مقلتيها فإذا بى أغوص فى بحيرة بعيدة الأغوار. وضعت كفى فوق يديها مرة أخرى برفق وتودد شديدين ثم انتظرنا. لكن انتظارنا لم يطل. فقد عادت لتقول شيئا. قالت "كفاية كده. ياريت روحى تطلع بقه. دا طلوع الروح طول قوى". الصديق العزيز، إن كلماتها هذه سوف تظل ملتصقة بذهنى ما حييت ولن تمحى أبدا . وهى كلمات يمكن ورودها كما هى فى كتاب التراتيل. شعرت بأصابع يديها وهى تشبكها من تحت كفى المنبسطة فوقهما، ثم انهمكت فى دعاء خاشع هامس كانت قد تعودت على ترديده فى سنى طفولتها. وتعنى كلمات ذلك الدعاء على ما أتذكر: يارب شد من أزرى وخذ بيدى فى كل حين، وهيئ نفسى للخلاص والسعادة الأبدية. آمين.

وعندما قالت آمين أدارت رأسها قليلا نحو اليسار، وكأنها ترمق بنظرها ضيفا ليس من أهل الأرض، أتى من لا مكان ولا يراه الأحياء. وكذلك انتابنى شعور بوجود أحدهم بالغرفة لكننى لم أره رأى العين ولم أسمعه بأذنى. أنجز مهمته الأزلية، فقبض روحها وزهقت نفسها وأسلمت وديعة حياتها بحلول أجلها فى خفقة

هادئة واهنة كاد السمع أن يتجاوزها. وهكذا بدت لى لحظة الفراق الأبدى وكأنها مجرد انتقال من حجرة إلى أخرى أو قل من دار الفناء إلى دار البقاء. أجل، لقد انقطعت عن الخلق بموتها، وآبت روحها إلى بارئها، مثل إياب طفل إلى البيت متعبا عند الغروب. وقياسا على ذلك فهى لم تؤب إلى بلد غريب.

فتحت النافذة حتى تخرج روحها. وكانت ليلة عاصفة حالكة السواد، عبثت فيها ريح عاتية بغصون الأشجار فتمايلت ذات اليمين وذات اليسار. وكادت ذُبالة المصباح المتدلى من السقف أن تنطفئ بعد انتهاء العمر الافتراضى للفتيل بعد طول اشتعال.

كانت أمى زوجة عامل زراعى بسيط. لكنى أنوب وجدا كلما استحضرت فى ذاتى ساعة وفاتها، حين خطا القدر المحتوم وتذوقت كأس المنون. إنها لحظات يختلج فيها قلبى بخفقات من المشاعر والأحاسيس التى تفيض رقة ونعومة. هدوءًا وسكينة.. بهاءً أو ابتهاجا وذلك على نحو لم يعهده من قبل فؤادى. مشاعر وأحاسيس يعجز لسانى عن وصف النغم الرقيق فى خلجاتها ليدرك السامع إيقاع معنوياته ومعانيه، مثلما يستعصى على قلمى سكب دفئها المكنون ليتدفق على الورق. وأحيانا عندما أخطو خلف المحراث فى الحقل أجدنى قد توقفت عن الحرث هنيهة لكى أنصت إلى نداءات جوانية صادرة من أعماقى. حينئذ أتمكن من استحضار آخر ما قالته أمى وهى على فراش الموت، فأسمع بوضوح تام نبرات صوتها الواهنة المهموسة. نعم، أسمع صوتها الآتى من داخلى. وما يلبث أن يتحول يومى إلى يوم عيد حقيقى. يوم يداهمنى فيه إحساس بأننى فى حالة وصل مع الذات العليا، وأنه قد انكشف عنى الحجاب، فيرتفع الستار الذى يفصل بينى وبين المقدس قليلا، فأختلس نظرة إلى ما ورائه، وأخالس بالنظر دخائله. وعندما أعود إلى الحرث ثانية تعقد الدهشة لسانى لما جرى. وفى كل مرة أتذكر فيها ساعة وفاة أمى يهزنى ذلك العجب العجاب الذى يفرزه الوجدان.

كنت لا أزال صبيا صغيرا. استيقظت من النوم متأخرا فى صباح عيد العنصرة[١]. وهو ما لم يكن يجوز لى لأننى سوف أكون بذلك آخر من يهش على الماشية إلى المرعى كما جرت عليه العادة فى ذلك اليوم بقريتنا. استفقت من نومى فجأة ودهمتنى اليقظة إذ شعرت بشىء ناعم "يهف" على وجهى. رأيت أمى بجوار فراشى وقد انحنت من فوقى وهى تداعب وجهى بباقة صغيرة من زهور الزنبق. فعلت ذلك برقة وحنان ورفق، وشملتنى بنظرة ارتسمت على وجهها الملائكى البشوش، فانفرجت أساريرى وانتعش قلبى. وهذا هو أول ما يلوح بخاطرى عندما أتذكر أمى.

(١) يحتفل المسيحيون بعيد العنصرة (عيد الخمسين) بعد ٥٠ يوما من عيد القيامة. وهو عيد ميلاد بداية الكنيسة بحلول الروح القدس على التلاميذ (الحواريين).

الفصل الثامن

كنيسة وقسيسون

أرفق طى رسالتى هذه صورة لكنيستنا الجديدة. لقد مضى على تشييدها عام واحد. أليست بهية الطلعة رشيقة العمارة؟ لكنه لا يزال عليها قرض مؤجل السداد مقداره ٢٥٠٠ دولار. ولما بارك الله هذه السنة بوفرة فى محاصيل المزارعين بمنطقتنا، فقد عقدنا العزم على الوفاء بالدين فى مطلع العام المقبل. ذلك لأنه لم يعد بمقدورنا الانتظار لمدة تتعدى التاريخ الذى حددناه لسداد المبلغ. هذا حتى لا يظن الرب بنا الظنون فيعاتبنا قائلا: عجبا لهؤلاء القوم الذين يعيشون هنا وسط الأدغال! لقد شيدوا بيتا جديدا لعبادتى. وها هم يجلسون تحت سقفه وينشدون ترنيما مطلعه: هيا اشكروا الله جميعا بالقلوب والأفواه وبالأيادى- فلماذا يحجمون إذن عن تسديد البقية الباقية من الدين البالغ ٢٥٠٠ دولار؟- لكن الكنيسة لا تزال متربعة فوق هضبة جرداء: فماذا يضير لو تأجل زرع حديقتها عاما آخر؟ ذلك لأن كنيسة جديدة رشيقة العمارة لا يحيطها فى مطلع الأمر شجر أو نبات، هى أفضل فى كل الأحوال من أخرى عاطلة من جمال البناء وإن توسطت بستانا بديع التنسيق. فأنا لا أستسيغ إضفاء مسحة من حسن الهندام على ثوب مهلهل بارتداء مئزرة أنيقة من فوقه.

ونحن فى طريقنا إلى الكنيسة فى كل يوم أحد، نلمح من بعيد برجها شاهقاً فى الفضاء منتصبا فى شموخ، فتغمر نفوسنا نفحة مترعة بالتفاؤل والابتهاج. ويعلو ذلك البرج ديك دوار ذهبى اللون يشير إلى اتجاه الريح، فيبدو مختالا بالقشرة الذهبية التى تغطيه. فلا عجب لعشقه الدوران فى انبهار حول نفسه. وكنا نحسبه وقد تموقع فى علاه، أنه كمن يحصى الحضور من شعب الكنيسة "ويتمم" على عددهم. وبما أن الديك الدوار لا يصيح، فلذا استعيض عن صياحه برنين الأجراس. حقا كم نحن سعداء بكنيستنا الجديدة، وكم كان حفل تدشينها بهيجا مهيبا.

فقد ألقى القسيس بهذه المناسبة كلمة كان موضوعها: "إلى هنا كان الله فى عوننا". كلمة عبرت عن ظروفنا أصدق تعبير، فتسربت معانيها إلى إدراكنا، وحفظناها فى قلوبنا.

وشرعنا على الفور فى إنشاء جبانة جديدة. أردنا فى مستهل مشاوراتنا دفن موتانا فوق الهضبة التى أقمنا الكنيسة فوقها. إلا أننا عدلنا عن هذه الفكرة لضيق المساحة المتاحة لإقامة المدافن، ولعدم جدوى دفن الموتى فوق الهضبة لتعذر استمتاعهم بمناظر الطبيعة من ذلك الموقع. لهذا السبب قررنا بناء المقابر أسفل سفح الهضبة، حيث ستغشى القبور تلك النداءات الوديعة لرنين الأجراس، علاوة على صدح الإنشاد الجماعى على ألحان آلة الأرغن. وهكذا أنشأنا ملتقيين متجاورين. أحدهما للأحياء، والآخر للأموات. وعندما يتجول الواحد منا بين هذين الملتقيين فى أيام الأحد، فلا يشق عليه التعرف على الملتقى الذى ينتمى إليه فى معاشه وعلى الآخر الذى سيوارى فيه الثرى بعد مماته. ونظرا لأن الإنسان قد جُبل على الانغماس فى الأمور الدنيوية، فماذا يضيره لو طابت له زيارة القبور من وقت لآخر، فيمكث هنيهة فى سكون وتأمل بين الأضرحة لمناجاة الأحبة الذين فرق الموت بينه وبينهم، فإذا بصوت يناديه فى همس يكاد يتجاوزه السمع: كيف حال أهل بيتى؟ هل لك أن تلقى نظرة على أولادى ومزرعتى؟ لقد وعدتنى بذلك عند عيادتك لى وأنا مريض. ويتبعه همس آخر: "ياه".. إنك لم تزرنى منذ أمد بعيد. أين كنت طوال هذه المدة؟ هل نسيتنى؟ وإذا بصوت ثالث يهمس فى وهن: لطيف منك أن جئت لزيارتى. لعلك تبحث لنفسك عن مكان مناسب للقبر الذى ستدفن فيه.

الصديق العزيز، يخيل لى أن الزائر لقبور موتاه فى أيام الأحد يظل طوال وقت الزيارة مشغولا بالتواصل والتحاور مع من فرق الموت بينه وبينهم باسترجاع الذكريات بالتأمل فى سكون. ولذا كان خليقا بالإنسان الذى يتقدم به العمر أن يقضى بعض وقته عند قبور من رحلوا عن عالمنا، وأن يتأنى فى مكوثه قليلا بينها، فلا يتعجل الرحيل ليعود من حيث أتى. ذلك لأن من يتعجل نهاية زيارته

للمدافن فيختصرها، يتنازل فيما بعد عن حقه فى تلهف الآخرين على زيارته فى مثواه الأخير بجبانة الكنيسة، كما لا يحق له وهو فى مرقده تحت التراب أن يتطلع فى نشوة إلى عروج الزوار على قبره لكى يتسمعوا إلى واهن نجواه، هذا إذا كان لديه ما يقوله. ولأضرب لك مثلا لتوضيح ما أقصد الإفصاح عنه. لك أن تتصور أننى أقف عند سور مزرعتى، وتشاء الظروف أن يمر من أمامى فى نفس الوقت صديق حميم. فرحت لرؤيته ولرغبتى فى سؤاله عن شيء يشغل بالى. لكنه لم يعرنى التفاتا وهو يحث الخطا على الطريق. ونظرا لأننى ما زلت حيا أرزق فيسهل علىّ اللحاق به لأسأله عما أريد. أما إذا كنت من سكان القبور فيستحيل علىّ أن آتى بمثل ذلك. ومن ثم لا يتبقى أمامى فى هذه الحالة إلا أن أتحرق شوقا لزيارة الأقارب والأصدقاء عساهم يمكثون عند قبرى بعض الوقت ليتواصل حبل الذكريات، فأرواح الموتى تتوق إلى أن يعبر أحباؤهم بزيارتهم عن مرارة الفراق. ولا يخفى أن زيارة القبور ما هى إلا فرصة سانحة قد يغتنمها الأحياء لكى يستفيقوا إلى أنفسهم عبر رحلة الحياة التى مصيرها الفناء.

لقد بعثت إليك منذ بضعة أسابيع برسالة تعرضت فيها لكنيستنا الجديدة وللجبانة القريبة منها. وأكتب لك اليوم تقريرا عن مدفأة الكنيسة التى بلغ ثمنها الإجمالى ٢٦٤ دولارا بما فى ذلك كافة لوازمها. وتجدر الإشارة إلى أن القائمين على تشغيل المدفأة يحرصون على إشعال الحطب فيها فى أيام السبت تحسبا للصلاة في كل صباح باكر من أحد ٍمقبل. وغنى عن البيان أن وجود مدفأة بالكنيسة أمر يستحيل الاستغناء عنه، نظرا لاضطرارنا خلال أشهر الشتاء الطويلة القارسة البرد إلى قطع مسافة تتراوح بين ٥ و ١٠ أميال إما سيرا على الأقدام، أوعلى ظهور الخيل أو فى عربات تجرها الجياد وذلك فى طرق وشعاب غير معبدة وموحلة لسوء المناخ. ولا يكون من المناسب، بعد ذلك الجهد الجهيد، أن نجلس على دكك الكنيسة ونحن نرتعد من قرس البرد بملابس مبتلة، وننوء بأحذية شتوية عالية (برقبة) محملة بطين لم يجف، فنعرض أنفسنا لوعكات برد لا يحمد

عقباها. ولا جدال فى أن وضعا كهذا لن يحوز على رضاء الرب، عندما يتطلع على حشود المصلين وقد ارتعدت فرائصهم، واحمرت أنوفهم، "ونشعت" الرطوبة إلى أصابع أقدامهم، ناهيك بعن الصعوبة التى تكتنف رفع الصلوات ابتهالا لله وسط غناء المترنمين وتسبيح المسبحين على وقع اصطكاك أسنان المصلين وهم "يُوَحْوِحُون" من البرد. وليست هذه المدفأة هى أول مدفأة اقتنيناها بل هى الثانية. كانت الأولى رخيصة الثمن، فلا عجب أن حصلنا فى المقابل على مدفأة أدت وظيفتها بالمقلوب، بحيث سربت الدفء إلى الخارج عبر المدخنة، ونفثت الدخان داخل الكنيسة، فعبقتها بغاز العادم وبسحاب داكن. وكنت قد اعتدت على القيام برحلات برفقة زميل هو أيضا رئيس لشعب كنيسة أخرى مثلى، وذلك لمعاينة الأراضى ولزيارة الأصدقاء علاوة على شراء الذرة والماشية، ولكننا لم نكن قد قمنا بسفريات بعد للاستعلام عن مدافئ الكنائس. ومن ثم عقدنا العزم هذه المرة على معاينة المدافئ بكنائس أخرى، من أجل التعرف على تقنيات تشغيلها من الداخل ومن الخارج. واخترنا الوقت المناسب لهذه المهمة وهو مطلع العام الجديد. تمكنا خلال سفرياتنا من جمع العديد من التجارب والخبرات، كما حشدت فى رأسى قصصا كثيرة وغريبة عن الناس وعن المدافئ. وسأروى لك، وبدون ذكر أسماء، عينة واحدة من هذه القصص على سبيل المثال.

وصلنا إلى إحدى الكنائس وكنا نرتعد من البرد القارس. كانت المدفأة مشتعلة وتنفث الدخان من الأنبوب الاسطوانى الذى انفجر فيه مكان اللحام. لكن القسيس الذى اعتلى المنبر كان يلقى موعظة تدور حول قصة من الإنجيل عن الضابط قائد المائة من كفر ناحوم الذى رجا يسوع أن يشفى غلامه الخادم من شلل ألم به جعله طريح الفراش يتأنى من شدة العذاب . فشفاه يسوع وبرىء من مرضه فى الحال[1] وكان جو الكنيسة معبقا بدخان أزرق داكن، الأمر الذى جعل القسيس يسعل "ويكح" حتى صار صوته "مخنوقا محشورا" وكأنه آت من وراء السحاب.

---

(١) قارن إنجيل متى ٨ : ٥-١٣

وفجأة هب واقفا رئيس شعب تلك الكنيسة. وهو للعلم رجل "شفابى" من جنوب غربى ألمانيا، هاجر إلى "بنسلفانيا" فى أول الأمر، ثم انتقل إلى تلك الدائرة الكنسية فى "أيوا" واستقر فيها. وكان ذلك الرجل رزينا وعضوا بمجمع رؤساء الطائفة الإنجيلية(سنودس)، أما أهالى الطائفة فكانت أغلبيتهم من شمال ألمانيا. رأى ذلك الرجل بعين خبيرة استحالة السكوت على استمرار المدفأة فى نفث الدخان. فكر هامسا: علينا الإقدام على إصلاح عطب الماسورة! وما لبث أن قام من مكانه ثم نادى مخترقا الدخان والسحابة الزرقاء الدكناء مخاطبا القسيس الواقف على المنبر يلقى موعظته وهو "يكح" ويسعل ليقول له: "إستنى شوية يا أبونا علشان نصلح ماسورة الدفاية!" – كف القسيس عن الوعظ ولم نعد نسمع منه إلا "كحته" وسعاله. لكن صاحبنا الـ"شفابى" الأصل نادى مرة أخرى فملأ الكنيسة بصوته الجهورى، إذ قال: "ناولنى دكة ياجون!" ولم يمض طويل وقت حتى استطاعا سد مكان اللحام المفكوك. وكنت أنا وزميلى نراقب الموقف باهتمام بالغ، ولاحظنا أنهما أنجزا المهمة بنجاح تام. كما بدا لنا أن ذلك العطب لم يكن حدثا عارضا حدث لأول مرة، بل لا بد أنه قد تكرر من قبل بهذه الكنيسة.

بعد تسرب معظم الدخان الذى لبد جو الكنيسة، صار الرجل الـ"شفابى" راضيا عن نفسه تمام الرضا. ثم ما لبث أن قال للقسيس: "طيب يا أبونا تقدر تكمل كلامك بقى!". وبذلك واصل القسيس إلقاء موعظته عن قائد المائة من كفر ناحوم وعن غلامه المشلول. ولما قضيت الصلاة كنا قد رأينا ما فيه الكفاية وقررنا عدم مواصلة السفر. سألت صديقى "شرودر": هل تريد معرفة رأيى فيما جرى؟ أجاب: أجل أخبرنى. قلت له: لقد مضى على وفاة قائد المائة ردح طويل من الزمن وكذلك على خادمه الأجير. إلا أننى أرى أنه من المعيب حقا أن يقطع القسيس موعظته وروايته لقصتهما ويجعلهما ينتظران حتى يتم إصلاح الأنبوب المعطوب. هذا مع أن الضابط والخادم كلاهما من القديسين. والأدهى من ذلك أننا إذا كنا قد واصلنا زيارتنا لكنائس أخرى، فربما تكرر نفس الشئ فى يوم الأحد التالى مع

"بولس الرسول" أو مع تلميذ سواه، فيضطر الواقف على المنبر إلى قطع موعظته، مما سيحتم على "بولس" الانتظار بالمثل إلى أن يتم إصلاح عطب المدخنة. ثم سألت "شرودر" عن رأيه فيما قلت: فأجاب قائلا: إنى أتفق مع رأيك تماما. وبذلك لم نواصل رحلتنا الاستطلاعية، وعدنا أدراجنا لنرفع تقريرنا إلى ممثلى شعب الكنيسة الذين أبدوا دهشتهم لما حدث. وكانت النتيجة أن قمنا بشراء المدفأة الجديدة ودفعنا ٢٦٤ دولارا ثمنا لها.

الموطن الأصلى لقسيسنا هو إقليم "بوميرانيا" المطل على بحر البلطيق. وهو نفس الإقليم الذى ترنمت البنات باسمه فى طرقاتنا قائلات: "بوميرانيا قد احترقت"(١). هاجر القسيس من مسقط رأسه بريف شمال ألمانيا إلى حيث نعيش فى أمريكا. ولذا توافقت طباعه مع طباعنا. ولما كان أبوه فلاحا مثلنا فلذا اعتبرناه الرجل المناسب فى المكان المناسب. ووجدنا فى طباعه تشابها كبيرا بطباع قسيسنا المسن "تيمرمان" الذى تولى الخدمة بكنيسة "إلدينا" قبل هجرتنا إلى العالم الجديد، والذى اشتهر بحسن معاملته للناس، نظرا لانحداره من أسرة بقريتنا كانت من الفلاحين أبا عن جد. وقد اعتاد راعى كنيستنا على التحاور معنا بلهجتنا الدارجة، وذلك بطلاقة لسان وبإتقان يحسد عليهما. أما باعتلائه المنبر فكان يتكلم بلسان ألمانى فصيح شارحا كلمة الرب فى مواعظه بنزاهة ونقاء جعلتها متماشية مع روح الكتاب المقدس، متحاشية التوسع فى تفسير نصوصه بما لا يسبغ عليها من عندياته معانى ليست لها. وبذلك لم تشب مواعظه- كما يقول الفلاحون - حب ضامر أو هشيم، ولا الغث من قول البشر. وظل يلقننا كلمة الرب كما لو كان يسقينا إياها على جرعات. لكنها كانت جرعات محترمة، مثل تلك التى كان يصفها

---

(١) هى مقطع من أغنية تقول: "... الأب فى الحرب، الأم فى إقليم بوميرانيا، وبوميرانيا قد احترقت...". وتعكس هذه الكلمات حالة" دوقية بوميرانيا" التى كانت يوما ما ألمانية. وقد احتلها سنة ١٦٣٠" جوستاف الثانى أدولف" ملك السويد لإحكام السيطرة على بحر البلطيق، وذلك باشتراكه فى حرب الثلاثين عاما (١٦١٨- ١٦٤٨)، التى اندلعت أول الأمر تحت دعاوى صراع دينى بين الكاثوليك والبروتستانت، ثم اختلط فيها الحابل بالنابل، ولذلك تعددت حول تقييمها وجهات النظر.

لنا طبيبنا "شتاينفات" بمدينة "لوفيجزلوست" القريبة من قريتنا. إذ كان يصف لمرضاه كمية كبيرة من الدواء تكفى لملء زجاجة مكرشة على سعتها. ومن ثم فقد كان يصف لنا تعاطى جرعات معتبرة من الدواء تتناسب مع نوعية من البشر مثلنا. وكنا على أى حال نفضل الجرعات الكبيرة على تناول كمية قليلة من الدواء لاعتقادنا أنها ربما تضيع فى الفم، ولا تتجاوز اللسان فيذهب مفعولها هباء. وما كان يسرى على زيادة جرعات الدواء، أصبح بالتالى ينطبق على مدة إلقاء الموعظة. فقد أردنا الاستمتاع بسماع فيض كلماتها حتى تتغلغل فى قلوبنا. ولذا أنكرنا على القسيس تعجله نهايتها، فى غضون ٢٠ دقيقة أو نحو ذلك ثم يتبعها بـــ "آمين" إيذانا بانصراف المصلين. هذا لو علمت أننا كنا نقضى فترة طويلة فى السير على الأقدام فى طرق وعرة حتى نصل إلى الكنيسة . ومن ثم تراءى لنا ضرورة أن يتناسب طول الخطبة مع طول المشوار. فنحن قوم إذا جلسنا يحلو لنا الجلوس ونستمرئه. وتنسحب هذه العادة على مدة جلوسنا فى الكنيسة بالمثل . وكانت النتيجة أن طول الموعظة لم يعد يقل عن ساعة فى الغالب. الصديق العزيز، لا أخفيك القول بأنه كان يخطب على المنبر فى حشود المصلين بطريقة من ينفخ فى بوق بكل ما أوتى من قوة، فتنثال عبارات رائعة من فيه. وكان يلقى موعظته بكلمات كأنها الرعد، أو قل مثل لكمات بدون قفاز. وبذلك باغت آذاننا وقلوبنا، فتسرب الفزع فى مسام أرواحنا، وكأن ميزان يوم البعث قد نصب وسط برق ورعد. ذلك لأنه كان يعظنا بصوت زاجر ناهر جهير فأخافنا، فزفرت النفوس وعرقت الأبدان. فقد كان يخدم الله فينا، الأمر الذى احتاج إلى مجهود شاق، جعله يتفصد عرقا مثلنا سواء بسواء.

وكذلك اعتاد قسيسنا أثناء إلقاء المواعظ على النقر بقبضة يده على حافة المنبر، ولعله ظن أنه يهشم رأس الشيطان بنقراته. وقد تعنى النقرة أحيانا: نعم أو آمين أو هذاعين اليقين! وكان يلوح لى فى أحيان أخرى أنه عندما يشبك أصابع يديه فى بعضها، كما لو كان قد جمع كل همومنا بين راحتى كفيه ليقوم بعرضها

على الرب. وكنا نحاكى حركاته وسكناته فى تلقائية لا إرادية، فنشبك أيدينا بالمثل. وعلى هذا النحو كنا نؤدى طقوس صلواتنا، فيطير النعاس من الجفون، ولا يفكر أى منا فى الإغفاء. وكنت تراه عند اقترابه من نهاية الموعظة، أنه قد كف عن الإطناب فى ترديد عبارات الترهيب الزاعقة، وتحول خطابه إلى وعظ روحى هادئ، كأنه المناجاة الوجدانية التى تمس شغاف القلوب برخاوة صوته وليونته المتناهية. وبذلك كان يعيد إلى شعب كنيسته الثقة بالنفس بعد تلك العاصفة المدوية للنهى عن ارتكاب الخطايا. وبعد هذا التحول المباغت فى مسار الموعظة إلى الرقة والنعومة فى جزئها الأخير بعد بدايتها الراعدة المزعزعة، كانت النساء لا تخرجن من الصلاة خاويات الوفاض تماما. ذلك لأنهن يفضلن الخطاب اللطيف الرقيق على خطاب التأنيب والوعيد.

حضرت له موعظة فى صباح باكر من يوم أحد لجأ فيها إلى الزجر الزاعق فضلا عن نقره بشدة بقبضة يده على حافة المنبر. وأثناء إلقاء خطبته الراعدة التى اهتزت لها أركان الكنيسة، انفصلت قطعة كبيرة من طبقة بياض الحائط المكونة من الملاط المطلى بالجير، وسقطت على أرضيتها، وتناثرت شظاياها. كان ذلك بالكنيسة القديمة التى شيدناها من جذوع الأشجار(بلوك– هاوس). وعلق على ذلك الجالس بجوارى بلهجة شمال ألمانيا الدارجة بقوله: "ودلوقتى إيده حتوجعه تمان تيام. وبعد كده إحنا إللى حنشيل تكاليف المرمة!".

لكنى كنت قد لاحظت منذ مدة أن قشرة البياض التى انفصلت عن الجدار، كانت قد حدبتها الرطوبة، "فنفشت" قبل تشققها وانهيارها. كما أتذكر أن تلك الرقعة المعطوبة من بياض الجدار ظلت على حالتها بدون ترميم ما بقيت تلك الكنيسة قائمة، ومما لفت نظرى أنها بدت بالمصادفة المحضة مطابقة للخريطة التى تمثل سطح إقليم "ميكلينبورج"، والغريب أنه قد ظهرت إلى جانبها بقعة عارية مشابهة لجزيرة "بول" القريبة من مدينة "فيسمار". وقد اعتدت أثناء تواجدى بالكنيسة على إمعان النظر فى تلك الخريطة الجدارية، بدلا من أن أجوس ببصرى فى أنحاء

المكان، ذلك لأن العين تتوق دائما إلى التركيز على شئ ثابت. كما يسأم المرء التطلع إلى القسيس طول الوقت.

نحن مدينون له بالولاء والاحترام، لأنه خدم الله فينا بتلاوته وتفسيره لكلمة الرب. كما نعترف بفضله علينا، لما تحمله من المشقة في مواجهة عنادنا وصلابة رؤوسنا. وكان ما يعجبنا فيه ويجعلنا نظهر له أصفى مشاعر الوفاء ويحظى منا بالتودد والرضاء، أنه لم يعتد على ارتداء "روب" رجل الدين فى كل أيام الأسبوع، كما لم يكن يتحذلق باللهجة المنبرية خلال أيام الأسبوع أيضا. ولذلك آلينا على أنفسنا أن نرد له الجميل بشكل عملى، هذا لو علمت أن دخله لم يكن يتعدى ٤٠٠ دولارًا[١]. ومن ثم أعنّاه على النهوض بأعباء الحياة، وأجرينا عليه رزقا عينيا، فكنا نحمل لزوجته أفخاذ اللحم المملح وأصابع السجق حتى المطبخ. وأحسب أنه عندما يتولى كل من القسيس والمعلم عنايتهما بشعب الكنيسة ويقتربان من الأهالى أكثر فأكثر، وذلك بتحسين ما يقدمانه لهم من خدمات رعوية وتعليمية، فسوف لا يضنون عليهما بمد يد العون إليهما بكرم وبسخاء.

لم يتهاون فى القيام بواجباته الرعوية، ولم يترك منطقة عمل الكنيسة أبدا، كما لم يقم بإجازة على الإطلاق. لكن نظرة الصقر الأمريكية النفاذه بدأت تزحف على عينيه خلال الفترة الأخيرة. وترتسم بهذه النظرة هنا علامات الاحتقان والصرامة فى عيون الكثيرين ممن تتطلب طبيعة عملهم القيام بمجهودات ذهنية متلاحقة، دون اعتدادهم بالحصول على قسط كاف من الراحة والاستقرار. فلا غرو أن شحب محياه، ونحل خداه، وعاثت فى وجهه الأخاديد. صحيح أن من واجبات القسيس تلاوة آيات الصلاة الربانية[٢]، لكن هل ينبغى لنا أن نقرأ الضمور مطبوعا على وجهه نتيجة للإلحاف فى طلب: "خبزنا كفافنا أعطنا اليوم"؟ وهكذا

---

(١) ربما كانت الـ ٤٠٠ دولار راتبا سنويا متواضعا حتى بمقاييس القرن الـ ١٩ فى أمريكا . وكان شعب الكنيسة يتكفل بدفع راتب القسيس والمعلم لكى ينهضا بالواجبات الرعوية والتعليمية نحوه.

(٢) راجع إنجيل متى ٦ : ١٠-١٤ وكذلك الهامش فى مطلع فصل " الإبحار إلى أمريكا".

قمنا بجمع التبرعات فيما بيننا حتى نمكنه من السفر إلى ألمانيا لقضاء إجازة هناك للاستشفاء والاستجمام. وقلنا لأنفسنا بعد جمع النقود: هل ندع الرجل يسافر بمفرده تاركا زوجته وحيدة بدون أنيس؟، استقر الرأى على أن تركها وحيدة أمر لا يليق. ولذا قررنا أن ترافقه فى رحلته. فتحنا باب التبرع لهذا الغرض ثانية. وبلغت الحصيلة الإجمالية ٨٠٠ دولار. قلنا له: سافر على بركة الله، ولا تعد إلى عملك قبل انقضاء ستة شهور. ونوصيك خلال هذه المدة بالعمل على زيادة وزنك عدة أرطال إضافية حتى يكتنز جسدك النحيل ويتورد وجهك الشاحب باستمرار. هذا وإلا عجزت عن مواصلة النهوض بمهامك الرعوية نحونا. وحاشا لله أن تظن أننا سوف ننقلب فى غيبتك عن صورنا المدنية فنتحول من الإيناس إلى الاستيحاش. وإذا فرض أن توحشنا، فليس هناك ما يمنع بعد ذلك من تقويمنا بوعظك الزاجر الرادع مرة أخرى. وما لبث أن رحل الاثنان إلى ألمانيا. انتهزنا فرصة غيابهما فأزلنا بيتهما الخشبى القديم الآيل للسقوط لتزعزع دعائمه. وقمنا ببناء بيت آخر لسكناهما. شيدناه أسفل سفح الهضبة المقامة عليها الكنيسة، وأحطنا البيت ببستان فسيح. ولما أنجزنا كل شئ، كان الصيف قد شارف على الانتهاء. وما كاد البناء يجف حتى حان موعد عودتهما، دون أن ينمى إلى علمهما شئ مما تم، حتى نفاجئهما به. كانت آخر بطاقة بريدية وصلت إلينا من القسيس يعلن فيها عن موعد الوصول قد حررها لنا أثناء توقفهما عند ابنك المقيم بمدينة "بريمن" المطلة على مرفأ الوصول من أمريكا. قالت نساؤنا وبناتنا: ألا تبدو واجهة البيت الجديد لسكنى القسيس عارية من كل زخرف؟ لذا نريد إضفاء مسحة من الأناقة على المدخل احتفاء بقدومهما، وذلك بتزيين حلق الباب بعناقيد من أغصان الشجر المورقة مع ترصيع ضفيراتها بالزهور، على أن تتوسطها لافتة ملونة للترحيب بسلامة الوصول. وبذلك يتأكد لك أيها الصديق العزيز، أن اللواتى تملن إلى الزخرفة بالزهور والرياحين، تشكلن عالما قائما بذاته. قلت لهن: يمكنكن تعليق الزينة على واجهة البيت، ولكن عليكن بتزيينها بشئ يؤكل. عليكن بتجميلها بأصابع السجق عوضا عن ضفيرات الخضرة المرصعة بالزهور، وبقطع الدهن بدلا من لافتة

الترحيب، لأن الزهور والرياحين لا تغنى ولا تسمن من جوع. أما الذى نصحتكن به فيسر الناظرين ويملأ البطن فى آن.- وهذا هو ما تم بالفعل، إذ امتلأت غرفة الخزين الجديدة بزاد فاتح للشهية اشتمل على ما لذ وطاب. إلا أن النساء لم يَتَخَلَّيْن عن تنفيذ فكرتهن، إذ بادرن بزخرفة مدخل البيت بعناقيد الزهور. وقلت لنفسى وكأنى أخاطب اللواتى تملن إلى الزينة والمظهر: "طب على البركة اعملوا ما بدالكم!"

جلس ثلاثة غلمان فوق سقف الشونة فى انتظار وصول عربة البريد لنقل الركاب التى تجرها الجياد، ذلك لأن قطارات السكك الحديدية لم تكن قد أنشئت بمنطقتنا بعد. وعندما ظهرت طلائع العربة من بين الغابات الكثيفة والأدغال وهى تنهب الأرض نهبا، "ظاط" الغلمان وصخبوا وأخذوا يلوحون لها بقلنسواتهم فى الهواء. عقدت الدهشة والبغتة لسانى القسيس وزوجته لرؤية بيتهما الجديد، وساورنى شعور بأن دموع الغبطة والابتهاج كادت تنحدر من مآقيهما من شدة التأثر. أما الزوجة فقد فرحت مرتين. وكانت الفرحة الثانية عندما عاينت غرفة الكرار بنفسها ونظرت بعين الرضا إلى ما تحتوية من زاد مغذ يزخر بأطايب الأطعمة. بادر القسيس بارتجال خطبة عصماء، لهج فيها بالثناء على ما فعلناه، وشكر لنا حسن صنيعنا. وكان لكلماته وقع خاص فى نفوسنا، ونكهة فريدة تمشت فى أوصالنا، فدغدغت عواطفنا بالفخار. وكم تروم نفس ابن آدم إلى أن يداعب المديح أوتار قلبه على ما قدمته يداه. وسعدنا كثيرا لاكتناز بدنه وازدياد وزنه نوعا ما، وكذلك لانقشاع نظرة الصقر الحادة من عينيه، التى بها اكفهرت ملامحه قبل سفره. فشعب كنيستنا يقدر راعيه ويوقره لذاته ولما يقدمه لنا من خدمة روحية. ومن ثم فهناك بون شاسع بيننا وبين ما أعرفه من شعوب الكنائس الأخرى، تلك التى تقدر قسيسيها فقط عندما ينجحون- إلى جانب قيامهم بالخدمة المنتظمة- فى زراعة حيازاتهم من الأرض، وفى الاحتفاظ بمخلفات المواشى على هيئة أكوام من السباخ، لأن ذلك يساعد على خفض ما يقدمونه لهم من الرواتب.

اقتنينا آلة أُرغن[1] جديدة لكنيستنا المشيدة حديثا. ذلك لأن آلة الأرغن القديمة أصبح ينبعث منها صرير ينذر بتقلب الطقس قبل وقوعه. وهو صرير صافر أشبه بالأنين، يظل دويه المزعج مستمرا لفترة طويلة لاحقة لاعتلاء القسيس المنبر. ولاح لى أن تلك الآلة الموسيقية التى أكل عليها الدهر وشرب قد تمرست فى شيخوختها على التنبؤ بتغير الطقس بما يصدر عنها من إشارات تحذيرية مبكرة تذكرنى بآهات جدتى عندما كانت تغمغم بالشكوى من آلام المفاصل، فتتكهن سلفا بتقلب الأحوال الجوية، لكن المعلم، ناظر مدرسة الفصل الواحد[2]، الذى أشرف على التقاعد، لم يكن فى واقع الأمر يجيد العزف بمهارة على أرغن الكنيسة. كما لم يؤت من سعة الحيلة ما يجعله يستطيع تدارك انبعاث صريرها المُنَفِر. ولذلك تولت زوجة القسيس بصفة مؤقتة مهمة العزف إلى حين تسلم المعلم/ ناظر المدرسة الجديد مكان زميله ضارب الأرغن المتقاعد. وما كاد المعلم الوافد يقوم بالعزف حتى أثبت كفاءة عالية فى الأداء لا تخلو من لمسات شخصية شيقة. لكن شتان ما بين حذق العازف على الأرغن وأداء عامل المنفاخ الطاعن فى السن على آلة الكنيسة العتيقة. صحيح أن عامل المنفاخ كان يؤدى عمله وهو يضخ الهواء[3] بهدوء ودماثة خلف آلة الأرغن باذلا قصارى جهده حتى لا "ينقطع النفس" عنها أثناء العزف، فينقطع بالتالى صوت الموسيقى على الفور، رغم استمرار العازف فى تحريك يديه على لوحة الأصابع. ومع أن عامل المنفاخ كان يؤدى عمله بآلية لا روح فيها، إلا أنه اعتبر نفسه من أئمة الدين (الإكليروس). فلا عجب أن سمعته يقول: لا تصدق من يشيع أن آلة الأرغن بكنيستنا لا تعمل بشكل جيد. فالمشكلة

---

(١) انظر ملحق الشروح والصور للتعريف بـــ "آلة الأرغن" مع تبسيط لأسلوب عملها، لأن النص يفترض معرفة القارئ لها.

(٢) كان يعهد إلى المعلم إلى جانب تدريسه للأطفال بمهمة العزف على آلة الأرغن القديمة بالكنيسة فى أيام الآحاد.

(٣) يتدفق تيار الهواء إلى أنابيب الصفارات بالنفخ محدثا ذبذبات يتغير بها طول عمود الهواء بداخل كل صفارة فتصدر عنها درجات الصوت المختلفة الأنغام أثناء عزف ضارب الأرغن.

تكمن فى أن الفنيين قد ركبوها بالعكس سهوا بحيث أداروا المقدمة بطريق الخطأ وجعلوها فى الخلف. وكانت النتيجة هى اختفاء دواسة المنفاخ وراء الآلة. وترتب على ذلك أن صرت أدوس على بدال النفخ وأنا منزو عن أنظار المصلين، هذا مع أننى أكثر أهمية من عازف الأرغن الذى يجلس فى مقدمة الآلة تحت السمع والبصر. فلو امتنعت عن النفخ على سبيل الافتراض، فلن يتمكن ضارب الأرغن من العزف، لعدم تدفق تيار الهواء إلى صفارات الآلة. وعندما يعجزه ناظر المدرسة عن عزف الموسيقى الدينية المصاحبة للترانيم، لما استطاع القسيس إحياء القداس، نظرا لأن الإنشاد الجماعى من طقوس العبادة. ومن هنا تتضح الأهمية القصوى لنفخى للهواء وأحقيتى فى أن يكون مكانى أمام آلة الأرغن وليس من ورائها.

نطق عامل المنفاخ بتلك العبارات التى لا يتفوه بمثلها إلا غطريس يضخم ذاته وأعماه الوهم عن معرفته لقدر نفسه. وإمعانا فى العجرفة توج رأسه بقبعة الرسميات العالية. لكنه والحق يقال كان خبيرا بتقنيات آلة الأرغن القديمة. ومع هذا لقد اكتوى بنار خبثها عندما انطلت عليه ذات مرة حيلة صريرها الخادع. فقد درج عند انبعاث الصرير على تكهنه فى يوم الأحد بتقلب الطقس فى وسط الأسبوع المقبل. لكن إشارات التحذير المبكرة الصادرة من آلة الأرغن ضللته فى إحدى المرات فتنبأ باقتراب عاصفة ثلجية[1] جارفة، الشئ الذى لا يستطيع أحد سواه، ولا حتى رئيس البلاد، التنبؤ بها. إلا أنها نبوءته لم تتحقق.

أصبح عامل المنفاخ بالممارسة ضليعا فى العد والحساب، إذ قضى سنوات طويلة فى تعامله مع صندوق الهواء، الأمر الذى أهله لمعرفة كم عدد المرات التى ينبغى له أن يدوسها على بدال المنفاخ فى كل ترنيم يترنم به المنشدون على ألحان الموسيقى الدينية التى يعزفها ضارب الأرغن. وظلت الأمور تسير على ما يرام خلال الفترة التى تناوبت فيها العزف زوجة القسيس والمعلم الذى أحيل إلى التقاعد

(١) هى عاصفة من الثلج الناعم تصاحبها بللورات ثلجية أحيانا تدفعها رياح شديدة غير مألوفة تعوق الرؤية.

على آلة الأرغن العتيقة. وما إن ظهر العازف الجديد على الساحة حتى تبدلت الأمور سريعا لما تبين عدم التزامه بالضرب على الأرغن بتؤدة وتقيد مثلما كان يفعل الذى سبقه. فقد تجلى العازف مطلقا لطاقاته الفردية العنان بمزيد من التفنن والتجويد، بابتعاده عن الأداء النمطى، وابتداعه إضافات زخرفية مرتجلة[١] ليثرى بها اللحن الأصلى للموسيقى الكنسية المحتشمة. بيد أنه أضاف تلك المحسنات والحركات السريعة الأداء، ليس فقط إلى مقدمات المعزوفات وخواتمها، بل تغلغل بها فى أواسطها أيضا. وبذلك أدت تفريعاته الشجية إلى مط طفيف فى الوحدات الزمنية للسياق النغمى، التى أخذت على قصرها تتوالى وتمتد ليستغرق عزف المقطوعة الأصلية مدة إضافية لم يضعها عامل المنفاخ فى حسابه المقنن. ومن ثم أصبح لزاماً عليه أن يواكب ذلك التوسع والإثراء الأدائى فى سياق النغمات بزيادة عدد المرات التى يدوسها برجليه على دواسات المنفاخ. وهذا هو بيت القصيد الذى دب النزاع بسببه بين العازف أمام واجهة الأرغن والنافخ من ورائه. ومما عمل على زيادة الأمور تعقيدا أن المعلم لم يقتصر فقط على الضرب على لوحة الأصابع، بل اعتاد أيضا على تلوين الألحان بشده المتواصل لمفاتيح ضبط الصوت (المسماة "ريجستر")، والتى يتحكم كل مفتاح منها فى ضبط مجموعة تشتمل كل منها على عشرات الصفارات المتماثلة الصنع، فتعمل على تنظيم انسياب النغمات المصاحبة لترنم المغنين بالترانيم الروحية بين القوة والخشونة والضعف والليونة. أضف إلى ذلك ما طرأ على آلة الأرغن من أعراض "تقطع الأنفاس" بسبب التهالك التقنى "قفصها الصدرى" لشيخوختها وتعديها لعمرها الافتراضى. ومن هنا اندلع شجار داخل الكنيسة.

---

(١) أشبه بالتقاسيم فى الموسيقى الشرقية.

ظهر ذات يوم أحد على "لوحة الأرقام"[١] المعلقة بمقدمة الكنيسة، رقم يعطى إشارة البدء للغناء الجماعى لترنيم "دستور الإيمان"[٢]. وكان عامل المنفاخ المخضرم يحفظ عن ظهر قلب عدد المرات التى ينبغى له أن يدوسها برجليه على دواسات المنفاخ أثناء عزف مقطوعة الموسيقى الكنسية المصاحبة لكلمات ذلك الترنيم. وتصادف فى ذلك اليوم قيام الضارب الجديد على آلة الأرغن العتيقة بالعزف لأول مرة أمام شعب الكنيسة. ولذلك طمح العازف بطبيعة الحال إلى بلوغ ذروة الإتقان فى الأداء لكى ينال رضاء الله وليحظى بمدح الناس لقدراته الفردية. ومن ثم رنا إلى تفجير طاقاته الإبداعية. بإضافة عدد وافر من الزخارف السريعة على اللحن المصاحب للترنيم فنال استحسان شعب الكنيسة. لكن فترة استمتاع المصلين بالمعزوفة وتغلغل الترنيم الروحى فى مشاعرهم لم تدم طويلا، إذ عكف عامل المنفاخ القابع فى مكانه خلف آلة الأرغن على نفخ الهواء بالدوس ١٦٥ مرة فقط على دواسات المنفاخ أثناء ترنيم المغنين بكلمات "دستور الإيمان". وما كاد ينتهى من دوسه المقنن حتى كف تيار الهواء عن التدفق إلى الصفارات، مما أفضى آنيا إلى "انقطاع النفس" عن الأرغن أثناء استمرار العازف فى الضرب على لوحة المفاتيح وبذلك انقطع انسياب الأنغام على الفور. وما لبث أن توقف الأداء الجماعى لترنيم دستور الإيمان قبل الانتهاء من الفقرة الثالثة.

اضطر الضارب على آلة الأرغن إلى التوقف عن العزف رغما عنه، وإذا به ينتفض من مقعده واقفا ليدور حول الأرغن، ثم أخذ يعنف عامل المنفاخ لتعمده الكف عن ضخ الهواء. وكان رد فعل عامل المنفاخ أن انفجر عاتبا غاضبا وقد

---

(١) هى لوحة مضيئة تظهر عليها تباعا أرقام الآيات والترانيم فتعطى إشارة البدء لترديدها أثناء الصلاة. وكانت تلك الأرقام تركب يدويا فيما مضى ثم أصبحت تظهر على اللوحة آليا، أسوة بتغيير أرقام واتجاه السير فى الحافلات– أنظر ملحق الشروح والصور.

(٢) صاغ المصلح الدينى "مارتن لوثر" نص الشهادة (الإيمان) فى المسيحية البروتستانتية فى كتابه "الإيمان الإنجيلى" (كاتيشزم) السابق الإشارة إليه فى مواقع عدة من هذا الكتاب. ورد نص الشهادة بالألمانية فى : الكاتيشيزموس الصغير، مصدر سابق صـــ١٥.

انتفختَ أوداجه من الغيظ وهو يصيح بصوت مسموع قائلا: إنى على دراية تامة بعملى وبعدد المرات المطلوبة لعزف اللحن المصاحب لترنيم دستور الإيمان. إنها تعنى الضغط ١٦٥ مرة بالقدم على دواسة المنفاخ بالتمام والكمال. وقد أضفت لها من عندى خمس دوسات لعبارة "آمين". وبذلك صار المجموع ١٧٠ مرة. لكن طريقتك فى العزف تحتم علىّ أن أدوس ٢٥٠ مرة على أقل تقدير. ولذلك أتوجه إليك راجيا العدول عن إسرافك فى استعمال مفاتيح ضبط الصوت (ريجستر). هكذا، وكأن ما أبذله من مجهود عضلى فى نفخ الهواء صار مثل سلعة حرة لا ثمن لها، وعناء لا يكلفنى أى مجهود إضافى.

وينبغى لك من هذا المنطلق الإقلاع عن زخرفة اللحن الرئيسى بألحان فرعية، لأنها فى واقع الأمر ليست سوى بدعة دنيوية دخيلة على الترانيم الروحية. وعندما تعدل عن أداء تلك الزخارف اللحنية فسوف يكفيك عدد المرات التى قمت بحسابها لنفخ كمية الهواء المناسبة. إننى لم أتوان أبدا على مدار سنوات طوال قضيتها فى خدمة الرب بكل الولاء والإخلاص. لكن ضخ كمية إضافية من الهواء حتى تتلاءم مع طريقتك فى عزف اللحن المصاحب لترنيم دستور الإيمان أصبح أمرا يفوق طاقتى. هذا إذا ما وضعت فى الاعتبار ضآلة الدخل الذى أتقاضاه نتيجة نفخى للهواء.

كنا نجلس فى الكنيسة وتطرقت إلى أسماعنا تفاصيل المعركة الكلامية التى دارت بينهما. وبعد أن انجابت موجة حنقهما دخلا فى أثرها فى عملية تفاوضية بهدف إيجاد حل يرضى الطرفين. استخدم الجالس أمام الأرغن كلمات ودودة تنازل بعدها لعامل المنفاخ عن دوسه ٥٠ مرة على دواسة المنفاخ. أما الواقف خلف الأرغن فقد استخدم عبارات تنم عن التحدى والعناد ثم قبل أخيرا أن يزيد ضخه للهواء ٣٠ مرة على المعدل المحسوب، بما فى ذلك عبارة آمين. وتوصلا فى نهاية المطاف إلى حل وسط مؤداه أن يلتزم عامل المنفاخ بضخ الهواء بالضغط على الدواسة ٢٠٠ مرة فى حالة الغناء الجماعى لترنيم دستور الإيمان. وبعد

اتفاقهما عاد كل منهما إلى مكانه لكى يعيد المنشدون ترنيم الفقرة الثالثة من دستور الإيمان مرة أخرى. أوصينا ضارب الأرغن بأنه يستطيع إضافة الزخارف السريعة الأداء كيفما شاء أثناء التمرين ولكن بشرط إقلاعه فى نفس الوقت عن التجويد أثناء العزف بالكنيسة. إذ تبين لنا أنه من الأفضل توجيه الشكر لله والابتهال إليه بترديد الترانيم والتسابيح بالطريقة التقليدية التى انتهجها الآباء. استجاب العازف على الأرغن لما أوصيناه به وطوع نفسه لتقاليدنا المتوارثة، ذلك لأنه كان رجلا عاقلا حصيفا. ومع هذا فقد كان لذلك العازف على آلة الأرغن عيبان إثنان. تركز العيب الأول فى إصراره على نطق كلمة "أرغن" بفتح الألف لا بضمها. أما عيبه الثانى فيتركز فى أنه كان يرفع خنصر يده اليمنى برقة ودلال أثناء إمساكه بالفنجان لاحتساء القهوة، وكأنه أراد بذلك أن يقول: انظروا إلى طلعتى البهية! إننى رجل دين من طائفة الإكليروس ولست نفرا من الدهماء! وعلى الرغم من ذلك لم يكن الضارب على الأرغن غطريسا أو متعجرفا.

أصبح العازف على الأرغن يتشبه إذن بالعامل على المنفاخ فى توهمه أنه من أئمة الدين. وظل الأخير بصفة خاصة سادرا فى اعتقاده بأنه من طائفة الإكليروس. وتمسك بذلك الاعتقاد حتى عندما كان يمارس هوايته كعازف لآلة الباص[1] ليسرى عن الراقصين بعزفه خارج الكنيسة، مع أنه لم يكن فى واقع الأمر عازفا ماهرا على كبرى الآلات الوترية تلك. لكن الراقصين الشبان لم يسلبوه متعة المسح بالقوس على أوتار آلة الباص ما دام عزفه لم يكلفهم شيئا ولما كان صاحبنا حريصا على إشباع هوايته رغم محدودية دخله، فقد قام بصنع آلة الباص بنفسه مستعينا فى ذلك بصندوق قديم كان يستخدم فى تعبئة السكر المستورد. وبعد أن أحدث به عدة ثقوب شد عليه أربعة أوتار سميكة القطر. وبذلك

(١) آلة الباص أو الكنترباص هى أكبر آلات العائلة الوترية ولذلك يظل العازف لكبر حجمها واقفا أثناء العزف. وتنفرد هذه الآلة بقدرة خاصة على أداء النغمات. باحتكاك الوتر بالقوس وبطريقة جذب الأوتار بالأصابع فتعطى صوتا مملوءا تستند إليه الكتلة الصوتية الناتجة عن مجموع آلات الفرقة الموسيقية.

أصبح جاهزا للوقوف فى ركن من الأركان ليعزف على آلته التى كان يصدر عنها صوت أجش أشبه "بوعوعة" كلب ينبح. وكان عزفه يحدث صوتا نشازاً لا ينسجم مع إيقاع باقى العازفين فى الجوقة، كما كان الصوت الغليظ المملوء المنبعث من آلته ينساب كالنعيق مختلفا ومتخلفا عن حركات أقدام الراقصين والراقصات ولا يتوافق معها. ولم يثنه عن الاستمرار فى عزفه، أن أداءه للنغمات كان يعرج من خلف خطوات الراقصين المتسارعة. ومن شدة انبهاره بآلة الباص سمعته يقول ذات مرة: إن الباص هى الآلة التى تليق بى. فنحن معشر رجال الدين نتميز بهدوء الطباع والتروى والرزانة. ولذلك لا تروقنا آلة الـ"فيدل"[1] لحدة صوتها وولولتها. أما آلة الباص فتعطى صوتا مملوءا ينساب فى تؤدة واحتشام. ولذا فأنا أعتبرها آلة مثالية للموسيقى الدينية عن جدارة. وكان صاحبنا يغنى أحيانا على أنغام آلته، فتراه يسبل جفنيه ثم يسرع فى شدو مقطوعة غنائية مطلعها "بالنبال والقوس"[2] كان يحفظ كلماتها، ويستعذب معانيها، ويطرب بالدندنة على أنغامها مرارا وتكرارا وفى كل مناسبة وعلى كل لحن يعزفه على آلته التى طنطنت بصوت أشبه بنباح الكلاب. ونظرا لأنه كان مغرما بسماع صوته لم يرغب أحد فى تعكير صفوه بالعتاب.

وبعد أن دار العمر دورته فها هو عامل المنفاخ نفسه يتذوق كأس المنون ويلفظ آخر أنفاسه. أما عن نفسى فلم يُكْشف عنى الحجاب ولم أوت من العلم ما يجعلنى أدرى على وجه اليقين إذا ما كانت روحه سوف تروم إلى مواصلة نفخه للهواء وهو يحلق فى عالم الأرواح بما يتناسب مع التراتيم، مثلما يفعل بعض أهل الأرض تقربا لله وللسمو بأرواحهم. هذا على افتراض أن فئة صغار الملائكة قد

---

(١) "فيدل" أو "فيدولا" باللاتينية هى الآلة الوترية ذات القوس فى العصر الوسيط، سميت "فيولا" بوجه عام وتعددت أنواعها بحسب درجات الصوت. وهى تكبر آلة الكمان قليلا. وهذه الآلة الوترية شرقية الأصل.

(٢) ورد المقطع الغنائى "بالنبال والقوس" فى أوبرا "القناص" (دير فراى شوتس) لمؤسس المدرسة الرومانسية الألمانية للأوبرا "كارل ماريا فون فيبر" المتوفى سنة ١٨٢٦.

تمرست بدورها على العزف قليلا على آلة الأرغن. وأنا من ناحيتي لا أضن عليه البتة أن يواصل الدوس على منفاخها كما اعتاد على ذلك فى حياته، لأن الرجل يعلم تماما كم هى عدد مرات الدوس على المنفاخ اللازمة لترنم المغنين بدستور الإيمان. ومن يدرى فربما اتضح له أن بعض الملائكة الصغار كانوا يميلون بعض الشئ إلى الشقاوة والمشاغبة بحرصهم على تجويد اللحن الرئيسى بزخارف سريعة الأداء. حينئذ لن يستطيع مجاراة عزفهم، لأنه اعتاد على ضخ الهواء بالطريقة القديمة البطيئة.

لم نغفل عن إسداء العون لزوجته بعد وفاته، فقد كانت من أعضاء شعب الكنيسة المخلصين، علاوة على أن الزوج كان يتبوأ مركزا كنسيا. لكن الشئ الذى كان ينقصها هو المال، فساءت بموته أحوالها وأحوال أولادهما لضيق ذات اليد. وكانت عندما يتصدق عليها أحدهم تتلهف بمد يدها لتتلقف ما تجود به نفسه. وإذا تبين لها أن الصدقة ضئيلة، لا تغنى ولا تسمن من جوع، فكانت تقول: جزاك الله خيرا، هذا إذا لم تذهب الريح بعطيتك! أما إذا كانت الصدقة سخية، فكانت تقول للمتصدق: أشكرك شكرا مسيحيا! ذلك لأنها كانت امرأة صالحة. ولما كان العيش على الصدقة والإحسان أمرا لا يكتب له الدوام، فلذا شيدنا لها ولأولادها بيتا وخصصنا بجواره قطعة أرض صالحة للزراعة لتستغلها حتى يكبروا وبذلك تحررت من شظف العيش ومن منغصات الحياة وعادت لتأخذ مكانها كالعادة فى أيام الأحد على المقعد المخصص لها بالكنيسة أسفل المنبر، حيث واظبت خلال حياة زوجها على النظر إليه بفخر واعتزاز أثناء عمله.

لكنها فقدت حاسة البصر، وأصبحت تعتمد على إحدى بناتها فى سحبها من يدها إلى الكنيسة. وبذلك تحولت إلى واحدة من آخر من يأتون إلى الكنيسة من المصلين. عاتبها القسيس ذات مرة على وصولها متأخرة. وما كان منها إلا أن أفحمته بقولها: يا أبونا. إنك حين تستيقظ من النوم لا يصعب عليك أن تتبين الاختلاف بين حلكة الليل ووضح النهار. أما أنا فلا أستطيع التمييز بينهما. وحينما

يأتي اليوم الذى يبصر فيه العميان، فكن على ثقة بأننى سوف أسارع فى الحضور، بدون تأخير، عملا بالحكمة القائلة: سيكون الآخرون هم الأولون. حينئذ لن يكون لك أن تتبرم لزوال أسباب الشكوى من تأخرى فى الحضور أثناء إلقاء الموعظة. تلعثم القسيس وفأفأ ولم ينبس بكلمة واحدة. وجدير بالذكر أننا بعد أن قمنا بتشييد بيت لها ولأولادها، اشتركنا معا فى التبرع لهم بشئ من المال. غير أن منطقتنا تشتمل أيضا على فئة من الميسورين الذين يتقلبون فى أعطاف العيش، ومع ذلك تفوح منهم رائحة البخل من قبل ومن دبر. وسوف أقص عليك قصة أحد هؤلاء البخلاء كز اليدين. لكن عليك أن تنتظر قليلا لأنى لن أتمكن من تحرير هذه الرسالة قبل مرور بضعة أسابيع.

حان الآن وقت الكتابة. إذن سوف أشعل الغليون، وما عليك إلا الإصغاء إلى ما سوف أسطره على الورق! هل تتذكر "هانز يانكه"؟ لا بد أنك لا تزال تعرفه. إنه من قرية "مينكن– دورف" وقد التحق بمدرسة المستخدمين فيما بعد. بدأ العمل فى صباه "كلافا" للأبقار "طرف" الفلاح "كارل بوزاكر". كما اتخذ لنفسه زوجة من قرية "تيفز فووس". ثم اصبح يعمل بالمهجر لقاء أجر أسبوعى، ويسكن مع أسرته المكونة من الزوجة وستة أطفال فى شقة بالطابق الخامس من عمارة سكنية فى "ميلوكى". لم يكن "هانز يانكه" يتقلب على رمضاء، بل كان مستورا ويعيش عيشة متواضعة متقشفة. أما عمه "يوخين بيننج– شميت" فكان ميسور الحال ويعيش فى بحبوحة. لم يرزقه الله البنين . كما كان يسكن هنا بمزرعته على بعد بضعة أميال منا جهة الجنوب. أخطره عمه برغبته فى زيارته خلال الخريف التالى ليحل ضيفا عليه لمدة ثمانية أيام على الرغم من رقة حاله. وعلى الجانب الآخر كان ذلك العم لا يكف عن التباهى أمام الآخرين، بأنه قام بتخرين حمولة١١٥ عربة من الحشائش الجافة (دريس) بالشونة علفا للأبقار. كما قال إن بإمكانه بيع حمولة العربة الواحدة فى مقابل ١٢ دولارا، لكنه يفضل الانتظار حتى يصل ثمن الحمولة إلى ١٣ دولارا. وأذاع خبر حصوله على حوالة بمبلغ ٩٠٠

دولار ثمنا لما قام بتوريده من الحليب. هذا بخلاف إيراداته العالية من بيع إنتاجه من الذرة، الشوفان، الشعير، البطاطس والخضراوات. أضف إلى ذلك ودائعه الضخمة بالبنوك. وكان العم ينثر تلك المعلومات لتلتقطها آذان السامعين، بينما كان يشبك أصابع يديه وقد التف ذراعاه حول كرشه وهو يتحدث بلسان الورع والصلاح عن الخير الوفير الذى خصه الله إياه. لقد كان ذلك العم على استعداد لارتداء ثوب الرياء على أنه مسوح الأتقياء، طالما لا تكلفه المباهاة شيئا، وطالما لا يدفع عن تلك المراءاة إلا مجرد "طق الحنك" بسخافات ترتدى ثوب الوقار.

تطرق الكلام إلى أسماع "هانز يانكه"، فتعجب، وطفق يقول لعمه عندما زاره فى الخريف: أما وقد أسبغ الله عليك من الرزق، فما هو المبلغ الذى تتبرع به للكنيسة سنويا؟ وجه إليه ذلك السؤال بحسن نية مطلقة لأنه كان رجلا تقيا قولا وعملا. تردد العم فى الإجابة قليلا فى مطلع الأمر، ثم قال له بعد لأى: لعلك لا تصدق بكم أتبرع، إننى أدفع ٨ دولارات!

– ماذا تقول؟ ثمانية دولارات فقط؟ وأنا رغم قلة ذات اليد أدفع ٣٠ دولارا نقدا وعدا! وازداد تعجبه من سلوك عمه" يوخين "ذلك، لأنه عندما تأهب بعد انتهاء الزيارة للرحيل، لم يكلف خاطره أن يمنح أطفاله الستة سنتا واحدا، رغم أنه عزم نفسه وزوجته للاستضافة عنده لمدة أسبوع. لكن زوجتى قالت للعم: لقد اشتقت لرؤية حقول الذرة، وكم تشتهى نفسى إلى تذوق طعم الزبد من جديد، غير أن المسافة بيننا وبين مزرعتكم تناهز ٢٥٠ ميلا. فإذا تكرمت علينا وساعدتنا فى تحمل تكاليف السفر فسوف نزوركم بكل سرور. وجاء رد العم مقتضبا وحاسماً فى نفس الوقت، إذ قال: سوف ننظر فى هذا الأمر لاحقا. وبحلول صيف العام التالى أرسلت له الزوجة خطابا تذكره فيه عما إذا كان قد توصل الى قرار بشأن زيارتهم لمزرعته. بيد أنه أثر عدم الإجابة على استفسارها.

وتشاء الظروف أن تسلم "هانز يانكه" دعوة من قريب آخر يسكن فى ذات المنطقة التى يعيش فيها عمه، دعاه فيها لزيارته، ولم يتوان فى تحويل تكاليف

السفر إليه على الفور. لبى "يانكه" وأسرته دعوة ذلك القريب. وهناك تجرع أطفاله الحليب بشراهة وكأنهم من صغار العجول وهى تشب لترضع من الضروع. وقاموا أيضا بزيارة قسيس المنطقة مراعاة للأصول. وكان ذلك القسيس أبا لسبعة أطفال. وهكذا هجع الثلاثة عشر طفلا ليقضوا ليلتهم فوق بالات من القش المرصوص. وقال القسيس مازحا: ولو قدر واختفى طفل بين بالات القش فسوف يظل المكان مشغولا بدستة الأطفال الباقية. نظر "يانكه" إلى ذلك العش المكون من بالات القش والعامر بالصغار ثم التفت إلى القسيس قائلا: لقد بارك الله فى بيتكم. إن أولادك هم أغصان الزيتون كما ورد بالكتاب المقدس. أجاب القسيس مبتسما: أجل، إنى لا أنكر وجود الأغصان، لكن الزيت فى الإبريق شحيح، والدقيق فى الصندوق قليل. وهكذا "فضفض" بنبرة اعترافية إذ لم يزد دخله الشهرى آنذاك على ٤٠ دولارا. قلت له، لكن فى ناحيتكم مزارعون ميسورون لا يعانون من شظف العيش، بل هم من القادرين على "سلق هبر اللحم فى المرق". هذا صحيح، لكن "هبر اللحم تسمط" فى مرقهم هم وليس فى مرقنا نحن. لقد تعرفت هنا على أحدهم ويدعى"بيننج شميت" استطاع تشوين ١١٥ عربة محملة بالقش الجاف لعلف الأبقار الحلوبة.

– أتعنى ذلك الذى تسلم صكا بمبلغ ٩٠٠ دولار من مصنع الألبان؟

– نعم، إنى أعرفه حق المعرفة فهو عمى.

– ذلك الذى لم يرزق بذرية.

– نعم هو بعينه. لماذا لا يدس ذلك المقتر يده فى جيبه لإخراج شئ يساعد به المحتاجين؟

ارتسمت ابتسامة على ثغر القسيس وهو يقول: قابلته قبل عيد الميلاد فى الطريق الزراعي، وكان ينقل إلى المدينة حمولة من الحطب بدا أنها من خشب التدفئة العالى الجودة لجفافه وصلادته، أما أنا فكنت فى طريقى لعيادة مريض.

أوقف العربة فى صمت، ثم قال إنه يريد أن يدخل السعادة إلى قلبى وقلب زوجتى بمناسبة اقتراب عيد الميلاد. كنت أعرفه منذ سنوات عدة، ولذلك قلت لنفسى: انتظر ولا تستبق الأحداث! عقدت الدهشة لسانى لأنه صدق وعده وحضر قبل حلول عيد الميلاد ببضعة أيام وبصحبته عربة محملة بالحطب. غير أنه تبين لى أن ذلك الحطب من النوع السريع الاحتراق الذى لا ينشر الدفء المأمول، لأنه كان عبارة عن قطع من الخشب الأخضر الحديث العهد بتقطيع أشجاره، علاوة على أنه خلطه بقطع من الخشب الهش المتهالك لطول مدة تكديسه فى العراء. قلت لنفسى هامسا: على العموم إن الحطب الردئ أحسن من عدمه.

هذا بالإضافة إلى إرساله لفافة كبيرة لزوجتى بدا أنها تحتوى على لحم بقرى طازج. واكتشفنا بمجرد فتح اللفافة أن ذلك المزارع الودود لابد وأنه أخطأ سهوا، نظرا لأن أغلب ما حوته اللفافة كان عظما وليس لحما. هذا مع أن أجسام أفراد أسرتنا هزيلة نحيلة يبرز من تحت جلدها الهيكل العظمى، ولذا فهى ليست بحاجة إلى عظم إضافي، وعلى أى حال فقد تمكنا بالكاد من إعداد وجبة واحدة منها لا أكثر.

هل تظن أيها الصديق العزيز أن القصة قد بلغت بذلك منتهاها؟ لو توهمت أن سلسلة الأحداث قد توقفت عند هذا الحد فلا ريب أن الظن قد خانك. إذن لا تتعجل الأمور لأن للقصة بقية. إذ حضر "بيننج شميت" إلى القسيس فى مطلع العام الجديد بعد انقضاء أيام معدودات على عيد الميلاد. دعاه القسيس للجلوس، لكنه اعتذر وقال إن فى نفسه شيئا يريد الإفصاح عنه، بينما أمسك غطاء رأسه بين يديه وراح يقلب القلنسوة ولا يخفى أن الإنسان لا يُقدم على عمل كهذا إلا إذا كان يُضمر شيئا فى قرارة نفسه. وأخيرا أفصح عما كان يعتمل فى صدره، إذ قال: أبونا القسيس، أريد أن أستفسر عما إذا كان الحطب قد وصلك بالفعل، ذلك لأننى لن أطالبك فى المقابل سوى بأربعة دولارات عن كامل الحمولة، وهو ثمن زهيد بدون شك. هذا بينما رفع عينيه من تحت رأسه المائل إلى الأرض وهو يخالس

بالنظر أحد أركان الغرفة. تهيأ لى فى هذه اللحظة أن يسوع كان يقف فى ذلك الركن ليبارك الناس ويشفيهم وبدا التعجب على محياه لما كان يجرى أمام عينيه. وأسفت أشد الأسف لغياب يسوع الآخر، أعنى يسوع الذى طهر الهيكل المخصص لعبادة الله ممن جعلوه مغارة لصوص. ذلك لأن يسوع مُطَهِر الهيكل لم يكن ليكتفى بالوقوف فى ذلك الركن مدهوشاً مبغوتا، بل كان سيطرد ذلك المزارع الجشع خارج الدار، تماما مثلما أخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون فى الهيكل، على نحو ما ورد فى إنجيل متى ٢١: ١٢.

عقدت الدهشة لسان القسيس حتى عجز عن النطق. وأخرج من جيبه فى الحال المبلغ المطلوب وأنقده المزارع. فلم يكن القسيس من ذلك الصنف من الرجال الذين يجدون الكلمات المناسبة فى موقف غريب كهذا. لكن لحسن الحظ دخلت زوجته فى هذه اللحظة. فقد تطرق إلى آذانها ذلك الحوار الذى دار خلف الباب، تقريباً مثلما كانت "سارة" سامعة فى باب الخيمة لبشرى ولادتها لابن– وهى العاقر المعمرة – من إبراهيم ابن التسع والتسعين سنة[1].

ولا شك أن تواجدها كان من حسن حظ القسيس، نظراً لأنها كانت سريعة البديهة ومفوهة، بحيث أوتيت القدرة على النطق بالكلمات التى عجز الزوج عن قولها. لكن ظهورها فى ذلك الموقف الحرج كان من سوء حظ "بيتنج– شميت"، الذى ود لو كان بمقدوره أن يلوذ بالفرار تجنبا لحدة لسان زوجة القسيس. فقد سدت بقامتها فتحة الباب مثل ملاك حارس[2] فلم يستطع الفكاك. ثم طفقت تقول له: ألن نحصل منك على إيصال يثبت حصولك على ثمن هدية عيد الميلاد نقدا.

– أجاب "بيتنج– شميت": ما هذا الذى تقولينه، إن المطالبة بتحرير إيصال فى المعاملات بين المسيحيين أمر لا ضرورة له بالمرة.

---

(١) راجع سفر التكوين ١٨: ١٠.

(٢) فى الأصل بالعبرية "شاروبيم". وهى تعنى بالعربية "ملائكة العرش"، كما تعنى عند اليهود والمسيحيين "أرواح سماوية فى مصاف الملائكة".

– حسناً، إذن أخبرنى بثمن عظم البقرة العجوز حتى نسدده لك؟

– أجاب العم مدعيا الاستنكار وهو يعاود المد بأصابع نظراته الزائغة إلى ذلك الركن الذى تزين للقسيس أنه رأى يسوعا واقفا فيه ليقول: حاشا لله أن أتقاضى ثمنا لقطعة اللحم المعتبرة التى أهديتكم إياها.

– وكان رد الزوجة: إن أريحيتك تسعدنى حقا. فعلى ما يبدو أن درس الخريف الماضى لم يذهب هباء، حين مُدَّت لك مائدة الغذاء عندنا ولم يكلفك ذلك شيئا. وأذكرك بالقصة الشيقة عن ذلك الجمل الأزلى الذى أصر بدون طائل على المرور من ثقب إبرة، ثم ذلك البخيل الذى تعسر عليه الدخول إلى ملكوت السماوات، وهى قصة بديعة يمكن لمن يريد الرجوع إليها[1]. صدق "بيننج– شميت" على قولها بصوت خفيض: سيدتى قرينة القسيس، إننى أؤيدك الرأى تماما، بينما أخرج من جيبه المبلغ الذى تقاضاه ثمناً للحطب ليعده من جديد وهو يواصل كلامه قائلا: إنى أؤيد وجهة نظرك بحذافيرها نظرا لأن "البخل"[2] هو أصل كل ابتداء. لاح الاستغراب على وجه الزوجة فقالت: إنك تقصد بالطبع أن البخل هو أصل المساوئ والشرور.

– أجل يا سيدتى عقيلة القسيس، ولتأذنى لى بإعادة ما قلته من قبل: إن "الروح"[3] هو أصل كل ابتداء. قالها وانصرف إلى حال سبيله وفى جعبته الدولارات الأربعة ثمن الحطب. فى مطلع الأمر أدى ذلك السلوك غير السوى إلى

---

(١) إنجيل متى ١٩: ٢٣– ٢٤. فقال يسوع لتلاميذه : "الحق أقول لكم، إنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات! وأقول لكم أيضاً: إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله!". ويقال إنه كان هناك باب ضيق عرف بثقب الإبرة.

(٢) "البخل" بالألمانية Geiz وينطق "جايتس". وقد راوغ المزارع فأسبغ على الكلمة معنى مخالفا لمعناها حين استبدل فى الحوار البخل بالروح (أنظر أدناه).

(٣) "الروح" بالألمانية Geist وينطق "جايست". وقد ورد بالمعاجم مرادفا للفكر والعقل.. الخ. ونظرا لقرب نطق جايتس (بخل) وجايست (روح)، فقد تعمد المغالطة حتى يلتبس المعنيان ويغطى على ما يبدو (ربما) زلة لسان.

إغضاب القسيس وزوجته، لأنهما كانا يعانيان من الحاجة وقلة ذات اليد. لكنه ما لبث أن "تلعلعت" ضحكاتهما وتماديا فى إطلاق زخاتها. والضحك شيء طيب فى حد ذاته، لأن القليل منه يصلح المهج ويشرح الصدور. وهو على أى حال خير من التجهم والكدر.

أعود مرة أخرى إلى التساؤل: هل تظن أن القصة قد انتهت عند هذا الحد؟ إذا حسبت يا صديقى العزيز أنها انتهت، فسوف يُخَيِّب تواتر الأحداث ظنك. ذلك لأن العبرة فى الخواتم، ولا تزال العاقبة الوخيمة فى الانتظار، تلك العاقبة التى صارت مضغة فى الأفواه، والتى جعل منها أهالى المنطقة مادة غزيرة للتندر والسخرية التى أخذت تنتشر فى دائرة أخذت فى الاتساع، مثل إلقاء حجر على صفحة ماء صافية. فقد شاع بين الناس أمر هدية عيد الميلاد المدفوعة الثمن من الحطب الأخضر والمعطوب. فلا عجب أن استبشع "يانكه" تصرفات عمه، وامتعض لذلك امتعاضاً شديداً، لأنها أصبحت عنده مسألة كرامة تطورت إلى عندٍ وتحدٍ. وشاركه أحد أبناء خؤولته نفس الإحساس بالمرارة، الأمر الذى أدى إلى التفاهم على وضع خطة محكمة لعقابه على تماديه فى إيذاء الناس، وحتى يتوب عن الجشع، وعن الإثراء على حساب الآخرين بالرشن والتطفل. فقد تبين لهما أن لا فائدة ترجى من وراء محاولة إقناعه بالتأدب بالخلق المسيحية حتى يقلع عن غيه ويصلح من سلوكه الأعوج. ومن ثم لم يبق أمامهما إلا اتباع الطريقة الأمريكية معه، حتى يرعوى ويعود إلى جادة الصواب. هب الاثنان لوضع الخطة، فبدءا على الفور فى مسح المنطقة بالتعسس فى أرجائها بالطول وبالعرض تمهيدا لحبك خيوط المؤامرة، واستعدادا لتجريد حملة تأديبية ضد ذلك البخيل الطفيلي. ولم يمض طويل وقت حتى كشفت استخباراتهما عن أن "بيننج- شميت" لم يوجه الدعوة لاستضافة عدد كبير من الأصدقاء والمعارف فى بيته منذ أمد طويل، تفاديا لكثرة الإنفاق وضغطا للمصاريف. ولذلك أسرف العم فى التقتير، واسترخص الجلوس وأسرته على موائد الآخرين، حرصا منه على أن لا يختل تل ماله، الذى

بالشح جمعه، وبالبخل حافظ عليه ولم يأخذ منه شيئا لاستضافة الغير. ومن هنا بدأ النشاط يدب فى غرفة العمليات، فأرسل "يانكه" ابن خاله كسفير فوق العادة يحمل رسالة شفهية تتضمن إنذارا مقتضبا فحواه: سوف تقوم مجموعة كبيرة من الأحباء بزيارتك بعد قداس الأحد المقبل. لقد تطلعنا منذ فترة طويلة لزيارتكم ولقضاء يوم ممتع فى رحابكم. برجاء عمل اللازم لأننا عازمون على تناول طعام الغذاء على مائدتكم!

وما إن قضيت الصلاة بالكنيسة فى يوم الأحد التالى حتى زلزل الأرض موكب الضيوف المتوجه إلى مزرعة "بيننج – شميث". واختلط بالموكب لفيف من الناس اشتمل على الأصدقاء والأقارب القادمين من كل حدب وصوب، كما لم يفت على المعارف الالتحاق به، لأن صاحبنا كان قد أكل وشرب على مائدة كل من استطاع زيارته بالناحية. وبلغ عدد هؤلاء "المعازيم" ٣٥ فرداً. وما إن اقترب موكب الضيوف حتى خرجت عليهم الزوجة المذهولة معترضة طريقهم وقد ارتسمت على قسماتها علامات الامتعاض، فطفقت تقول لهم: ماذا تريدون هنا؟ قال أحدهم وهو يقفز من "الكَارِتَّة": نريد أن نسعد بكم وتسعدوا بنا! وعلق الثانى وهو يقفز من على صهوة جواده: إننا لم نزركم منذ مدة طويلة! وبلور الثالث سبب الزيارة فى كلمتين اثنتين: جئنا لنأكل! وأعلن الرابع: نحن هنا لنستمتع بشهى طعامكم حتى الامتلاء! أما الخامس فقد استعجلها حتى تمد المائدة لأنهم يتضورون جوعاً! وما لبث أن دلف الضيوف إلى داخل البيت وترددت أصداء ضحكاتهم فى أرجاء المكان. بدا الارتباك يظهر على وجه ربة البيت وهرعت للبحث عن زوجها الذى وجدته مختبئا فى طرف قصى من الحديقة وهو "يقرش" متلذذا على ما فى قبضة يده من حبات عنب الثعلب [الذى تقطف حباته من شجيرة محفوفة بالأشواك]. وقع الرجل فى حيص بيص وأصبح فى حيرة من أمره.

وأخيرا حان موعد الغذاء، لكن مائدة الطعام لم تتسع إلا لنصف عدد الضيوف مما اضطر النصف الآخر للانتظار. ثم جاءت بطبق كبير فتركزت على الصحن العيون البارقة بحب الاستطلاع. هل تعرف ماذا كان فى طبق التوزيع؟

فرخة مسلوقة ولا شيء سواها. رفعت الدجاجة رجليها في الهواء وكأنها تقول من الخجل: معذرة فالذنب ليس ذنبي. قال أحدهم: ما هذه إلا واحدة من قطيع الدجاج الكبير. وقال آخر: يعز عليّ أن لا يلتهم الشبع جوعي! وقال ثالث: هل سنترك داركم ونحن لا نزال نتضور جياعا؟ وقال رابع: إلينا بأصابع السجق وبأفخاذ اللحم المدخنة قبل تعفنها بغرفة الكرار. ثم ردد الجميع في صوت واحد: يبدو أننا قد أثقلنا عليكم بهذه الوليمة، ولذلك فمن العدل والإنصاف أن نرفع الكلفة بيننا وأن نبادر بمساعدتكم جزاء لنا على ما سببناه لكم من الإزعاج.

ثم هجموا على غرفة الخزين وجاءوا بعدد من أفخاذ اللحم المدخنة وبكمية لا بأس بها من السجق. وذهب آخرون إلى حيث يَجُوس قطيع الدجاج بحوش المزرعة وأحضروا معهم عددا منها إلى المطبخ وبعد ذلك أكلوا حتى شبعوا واكتظوا من الطعام. علما بأن إعداد الطعام وتناوله استمر حتى المساء، إذ إنهم تناولوا الطعام على ثلاث مراحل متوالية، أولاً: لسد أفواههم الجائعة. وثانياً: للثأر منه على جشعه. وثالثاً: لازدرادهم الطعام مرة أخرى. أما "بيننج- شميت" وزوجته فقد جلسا في تبلد وبلا حراك واضعين أياديهما في حجريهما في قنوط وانكسار، عليهما الصمت فلم ينبسوا أو يحركوا ساكناً وذهب احمرار الوجه من وجهيهما دفعة واحدة فغض بريقهما ليتدفق فيهما إمتقاع اللون والاصفرار، وبعد أن تشفى الضيوف منه انصرفوا وألسنتهم تلهج بالشكر والثناء إذ قالوا أيها الصديق "بيننج شميث" إنك تسكن في ضيعة غاية في الجمال. لكنك على ما يبدو تميل إلى الوحدة أكثر من اللازم. لقد راقنا أن نحظى بصحبتك وأن نستمتع بضيافتك، فعقدنا العزم على الإكثار من زيارتك لما لمسناه فيك من جود وكرم بدون تحفظ.

أما صاحبنا فقد لاح في وجهه كسوف البال وارتسمت على شفتيه غموم الحسرة. إلا أنه لم يكتف بالتبرع للكنيسة في العام التالي بثمانية دولارات فقط، بل رفعها إلى ٥٠ دولارا بعد أن تنامى إلى علمه بطرق ملتوية السبب الحقيقي لتلك الوليمة العقابية المقرونة بالهجمة الشرسة. وعندما تكشف لنا شعوره بالخوف

والارتياع، قلنا له بكل الود والإخلاص المعهودين بين الأصدقاء "الخلوص"، بأننا سوف نكرر الزيارة فى العام المقبل ثانية لأننا استمتعنا بالفعل بقضاء وقت طيب عندك. مس كلامنا شغاف قلبه لدرجة أنه رفع تبرعه للكنيسة إلى مائة دولار بالتدريج. وكما ترى، لقد تمكنا من إصلاح حاله على الطريقة الأمريكية.

إن ما رويته لك هو قصة حقيقية، أما الذى قص عليك تفاصيلها فهو واحد من أولئك الذين شاركوا فى التهام الطعام. ويمكنك بدون تردد أن تقرأ هذه القصة على أهالى قريتك، فلعل أحدهم يتعلم شيئا منها أو يجد العظة بين سطورها. وعلى أى حال فقد أقلع "بيننج- شميت" فى سياقها عن سلوكه المشين. ولا ريب أن عندكم من يحتذون حذوه وإن كانوا يلقبون بأسماء أخرى. لم تحضر "ليزا" تلك الوليمة التى أبرأته من الرشن. إذ قالت إن الحياء منعها أن تكون طرفا فى ذلك الملعوب. ومع هذا فقد سألتنى عن أدق التفاصيل، ذلك لأن النساء ميالات لحب الاستطلاع.

لا فرق بين كنيستنا وكنيستكم من حيث اشتمالهما على أربعة حيطان. لكن جدران كنيستنا الأربعة تقترب من بعضها أكثر منها عندكم. ولذلك فهى تبدو لضيق أبعادها أكثر ازدحاماً بالمصلين فى أيام الأحد. إلا أن اهتمامنا بشئون الكنيسة هو أعلى شأوا أيضاً. إذ لا تقتصر إسهامات شعب الكنيسة على التبرع بالأموال فحسب، بل كان لنا فى إدارة شئون الكنيسة كلمة مسموعة ومشاركة فى صنع القرار واتخاذه. كذلك يبادر القسيس عندنا بزيارة الأعضاء فى دورهم ولا ينتظر حتى يجيئون إليه بأنفسهم. أجل، إن كل شىء يسير عندنا وفق نظام محكم. لكن الأمور لم تكن فى فترة البدايات على هذا النحو من إحكام التنظيم. علاوة على أن مزرعتى تقع وسط الغابات والأدغال. فعندما حان موعد عماد[١] ابنى البكر

---

(١) العماد يعنى التنصير. والمعمودية هى إشهار علنى بالإيمان واعتراف به. وكلمة "عمد" بالسريانية ترادف "بلل" بالعربية. ويقول "لويس معروف" صاحب معجم "المنجد" إن المعمودية هى أول أسرار الدين المسيحى وباب النصرانية. وهى غسل الصبى وغيره بالماء باسم الأب والابن والروح القدس. والكنائس الرئيسية التى تأخذ بالعماد هى أرثوذكسية، كاثوليكية وبروتستانتية.

المنوط به حفظ اسم العائلة من الضياع، اتضح لنا أن العماد وفقا للمذهب الإنجيلى اللوثرى ليس أمرا سهلاً أو متاحا فى محل إقامتنا. ذلك لأن العماد الصحيح لا يتوقف على وجود الصبى وحده، بل يحتاج بنفس القدر إلى وجود قسيس يتولى هذه المهمة. أما من ناحية الصبي، فقد كان كما ينبغى له أن يكون، سليما معافيً "وصاغ سليم"، زد على هذا أن وزنه كان يتجاوز ٩ أرطال قبل إرضاعه. لكن العثور على القسيس المناسب للقيام بطقوس العماد سبب لنا أزمة حقيقية لخلو ناحيتنا من القسس، اللهم إلا ذلك القسيس الأوحد من طائفة "نهضة القداسة" المعروفة بالميثودية أى طائفة الميثوديين(١). وكان القسيس سالف الذكر جوالًا رحالا لا يستقر طويلا فى مكان واحد، نظرا لحرصه على تغيير مقر خدمته من كنيسة إلى أخرى على التوالى مرة كل عامين. وقد اعتاد فى كل مرة على أن يقول: لقد أمرنى الرب بالرحيل! لكنه يلوح لى أنه كان يخطيء السمع فى كل مرة. أما زوجته فقد سئمت من حزم الأمتعة مرارا وتكرارا. غير أن قطيع الدجاج كان قد اعتاد على الارتحال، فكان عندما يحين موعد "العزال" ويذهب القسيس لإلقاء نظرة أخيرة على الحظيرة، تسارع الدجاجات بالاستلقاء على ظهرها رافعة أرجلها فى الهواء مُستَسلِمةً علامة على أنها على أهبة الاستعداد للرحيل. هكذا وكأنها تتحدث إلى نفسها قائلة: والآن يبدأ موعد العزال وشقائه من جديد. وها نحن قد أعددنا أنفسنا لذلك الإجراء التحفظى من أجل سلامتنا حتى يقيدوا أرجلنا على عجل لكى لا نتخلف عن الركب.

وأود أن أقول كلمتين عابرتين عن طائفة الميثوديين المنتشرة بمنطقتنا بأعداد كبيرة. لقد سبق لى حضور عدد من اجتماعاتهم للتعرف عليهم من باب العلم بالشيء. كان القسيس الميثودى يقف خطيبا فى حشد من الجماهير صائحا

---

(١) الميثودية هى حركة تعنى "نهضة القداسة". نشأت فى القرن الـ١٨ وأصبحت كنيسة فى عام ١٨٩١. وجدير بالذكر أن طائفة الميثوديين قد انبثقت عن "الأنجليكانية"، ديانة انجلترا الرسمية (التى أنشأها "هنرى الثامن" بانفصاله عن الكنيسة الكاثوليكية مؤسسياً).

فيهم ملحا عليهم أن يغيروا نفوسهم ويجددوها بالدخول فى طائفة نهضة القداسة. وراح يقص عليهم ما فى جعبته من قصص تبشيرية، فعرج فى وعظه على يوم القيامة متوعدا المارقين بنار جهنم التى أعدت لهم. فزعت بعض النسوة من هول ما سمعن وشرعن فى الصراخ أثناء الوعظ بصوتهن الملسوع. لكن الحضور أبوا التحول عن ملتهم. واصلت النسوة النحيب والعويل حتى تزاحمت الأصوات بصخب استحال معه فهم ما يقال، لأن الضجة التى أخذت تترى أصمت الآذان بطنين. ومع هذا لم يتقدم أحد من جموع الحاضرين لكى يعلن ارتداده عن دينه واعتناقه لمعتقدات الميثوديين. بدأ المستمعون يَتَفَصَّدُونَ عرقًا وهم يزفرون، لكن أكثر من بزغت نقاط العرق فوق جبينه كان القسيس نفسه. ولم يمنعه ذلك عن مواصلة سرده لحكايات شنيعة مفزعة عن أولئك الذين رفضوا الاستجابة لدعوته. فصور للحاضرين مجيء الشيطان إليهم وقد انبعثت منه رائحة كريهة فحصد أرواحهم الفحماء المثقلة بالخطايا وهلكوا بذلك من الحسرة على ما ضيعوه بعنادهم. وفى نهاية الاجتماع تقدمت الصفوف امرأتان أو ثلاث من المعمرات النائحات النادمات اللائى ذرفن الدمع مدرارا ثم جثون على ركبهن طلباً للتوبة والمغفرة. وعلى أى حال فقد كان ذلك الحصاد الأعجف- أفضل من لا شيء.

زارنى ذات يوم واحد من المشايعين لطائفة الميثوديين. أراد تبشيرى وانضمامى لطائفته، بينما قدمت "ليزا" له الطعام والشراب. راح يعظنى بحماس وإلحاح عاتبا علىّ راثيا لما آلت إليه روحى من التردي. وأثناء محاولته التغلغل بين طيات نفسى لأستجيب لدعوته، لمحته يجوس بعينيه يمنة ويسرة فى اتجاهين متضادين مثل بندول يتحرك حركته الاهتزازية بين ما على المائدة من فخذ اللحم المملح وأصابع السجق. وفجأة هجم علىّ هجمة كلامية رافعاً عقيرته بعبارات تبشيرية زاجرة استهدفت اقناعى قسرا باعتناق عقائد الميثوديين والارتداد عن دينى الذى تنشأت عليه. ولم يتورع فى خضم معركته الكلامية الزاعقة عن القيام بقطع بعض الشرائح السميكة من فخذ اللحم وجعل يزدردها ازدرادا كأنه يتضور من

الجوع. قلت له: إننى أراك شغوفاً شبقاً بأفخاذ اللحم المملحة. فإذا كنت مَعْنياً بأمور الدين فليكن جل اهتمامك السمو بالروح والدنو من الله. أما إذا انصب سَعْيُك على الأمور الدنيوية فلتنغمس فى الشأن المادى الدنيوى. أما عن نفسى فأنا لست ممن يخلطون بين الروحانيات والدنياويات ويصهرونهما فى بوتقة واحدة. ولما أدرك أن أمره قد انكشف، تراجع عن نزعته التبشيرية كما أقلع عن رثاء ما أعيشه من سلام روحى مع الله، واكتفى بتقديم النصح لى بعبارات تحض على البر والتقوي. وأخيرا عاد إلى رشده وراح يكيل المديح لأصابع السجق اللذيذة التى صنعتها "ليزا".

أَبَيْتُ أن يقوم قسيس منطقتنا الميثودى الرحالة بمهمة تعميد ابننا. فنحن مسيحيون إنجيليون لوثريون(١)، ولا نرضى لعماد الصبى بغير قسيس لوثرى بديلاً، ولذا عزمنا على شد الرحال إليه. وما إن انتهت "ليزا" من الاستعداد للسفر سيرا على الأقدام فى الطرق الوعرة حتى حملت الصبى على ذراعى وتقدمتها وهى من خلفى تتبع خطواتى بين قُرم الأشجار والجذوع. استغرق مشوارنا يومين حتى عثرنا عليه. قضينا ليلتنا عند مزارع نرويجي. لم تكن لنا به سابق معرفة، ولم نره بعد ذلك ثانية. استضافنا وأحسنت زوجته إلينا.

---

(١) اللوثرية نسبة إلى صحوة الراهب "مارتن لوثر" باعث الإصلاح الإنجيلى فى مطلع القرن الـ ١٦ فى ألمانيا. واللوثرية مذهب مسيحى يتمسك بتعاليم المصلح الدينى "لوثر" الذى ترجم الكتاب المقدس إلى الألمانية وجعله- فى مطلع الأمر- فى متناول بنى جلدته وبلغتهم دون حاجة إلى وسيط. والكنيسة الإنجيلية اللوثرية هى أساس الكنيسة البروتستانتية. وكلمة بروتستانتية تعنى الاحتجاج على كنيسة العصور الوسطى وقرارات البابا بصكوك الغفران تأسيساً على آية وجهها بولس إلى أهل رومية الذين عانوا الاضطهاد فى عهده، إذ تقول : "أما البار فبالإيمان يحيا" رو ١: ١٧. – أطلق "لوثر" حركة نهضوية من عقالها فى مجالات شتى تجاوزت الشأن الدينى فيما بعد. وساعد على نشر كتاباته اختراع الطباعة بالأحرف المنفصلة. ومن مؤلفات "لوثر" اللافتة ٣ عرائض إصلاحية، هى "إلى المسيحيين الأرستقراط بالأمة الألمانية: حول تحسين الوضع المسيحي" – "الكنيسة فى معتقل بابل" – "حرمة الإنسان المسيحي".

واصلنا رحلتنا فى اليوم التالي. سرنا على غير هدى فى طريق وعرة المسالك، وكنا مثل سار يقتفى أثر دودة مطر اعتسفت طريقا ضلت فى شعابه التيهاء. وما لبثنا أن عرجنا يمينا "فغطنا" فى مستنقع غمرته الأوحال. ثم ملنا يسارا فوجدنا أنفسنا وسط الأدغال. وكذلك اضطررنا للقفز فوق بقايا الأشجار الثابتة فى الأرض بعد قطعها. وكانت قُرْمة إحدى الأشجار المقطوعة من الضخامة بحيث داعبت "ليزا" مازحا لكى أخفف عنها مشقة الطريق فقلت لها. إذا وجدت عندك الرغبة، فدعينا نرقص فوقها رقصة اسكتلندية! لكنها اعتذرت. واصلنا المشى حتى مررنا بجهة تكاثرت فى دروبها آثار عجلات العربات الكارة الغائرة المتوازية، والتى يضاهى عمق أخاديدها بروز قضبان السكك الحديدية بمحطة "شيكاغو" العمومية أو تزيد عليها عددا، مع الفارق فى التناسق الذى شاب التواءاتها وتداخلها فى بعضها كيفما اتفق، لعدم التزام العربات الكارة فى سيرها بأى نظام مرورى أو قانون، ناهيك عن تناثر النقر والحفر فوق سطح الأرض المضرسة، الأمر الذى أعاق تقدمنا بالسرعة التى كنا نأملها. فعندما كنت أخرج قدمى اليسرى من حفرة تتعثر قدمِى اليمنى فى نقرة. كما كنت أضطر مرارا إلى مساعدة "ليزا" على شد قدمها من الشقوق، مع الحذر الواجب للحفاظ على توازني، حتى لا يسقط الصبى أو ينسلت من بين ذراعي. وهكذا مضينا فى طريقنا قدما إلى الأمام بشق الأنفس ولما آبت شمس اليوم الثانى للمغيب كنا قد وصلنا إلى مقر القسيس. وجدناه قد عاد للتو من رحلة على صهوة جواده قطع فيها مسافة ١٠ أميال شرقاً زار خلالها الأصحاء فضلا عن عيادته للمرضي.

كان الحظ حليفنا إذ دعانا للمبيت فى داره. لم تكتف زوجته بترديد عبارات الترحيب، بل زادت على ذلك بتقديم شيء يؤكل. وكنا فى اليوم التالى أسعد حظاً، إذ حضر القسيس بنفسه وتولى عماد الصبى فى احتفالية خيمت عليها المهابة والبهجة. وعلى الرغم من تنصير الصبى وإشهار إيمانه، فلم يكن نحيبه بعد العماد وهو فى طريق الإياب أفضل حالا من إذرافه الدمع وهو فى طريق الذهاب. فعلى

ما يبدو أن التجوال لم يجد فى نفس ابننا حسن القبول، إذ أجهش فى البكاء وصرخ صراخ الكافر بالنعمة. ولم ينته الأمر عند هذا الحد، لأن النهاية المأساوية كانت فى الانتظار.

عندما عدنا إلى الـــ "بلوك هت"، كوخنا من الكتل الخشبية، أُغمى على "ليزا" نتيجة الإرهاق الذى ناء به كاهلها فى الغدو والرواح. راحت فى إغفاءة تلاها نوم عميق استمر قرابة ٢٤ ساعة. قلت لنفسى إن النوم علامة صحية. لكن الطفل صرخ، والبقر نعر، والخنازير همهمت وزمجرت، لأن المزرعة لم تعد تعجبهم. إذ نطقت وجوه الدواب بقولها: كيف نزداد لحما وشحما إذا كنتم تعاملونا بهذه الطريقة، تهملون حلبنا وتقطعون عنا العلف! خرجت إلى حوش المزرعة وهرشت خلف أذني، تلك الحركة العفوية الدالة على الانهماك فى التفكير. ولما أقلعت عن الهرش، قلت لنفسى فى همس ملح: ما هذا الإهمال يا "يورن– ياكوب سفين". قم، إن الهرش لن يجديك نفعا، استجمع قواك، انهض بواجباتك، أعط كل ذى حق حقه من أهلك ومواشيك حتى يحصل كل منهم على نصيبه العادل بدون تطفيف. وما كدت أنتهى من حوارى مع نفسى حتى انصرفت إلى الأعمال التى كانت تنتظرني. حلبت الأبقار وعلفتها. قدمت الذرة والماء للخنازير حتى تكف عن تذمرها. أعددت للطفل زجاجة الرضاعة بحرفية أب لستة أطفال وليس لطفل واحد مثلي. أقول لك، لقد أبليت بلاء حسنا. أما "ليزا" فقد أعددت لها حساء شهياً وجلست إلى سريرها لإطعامها. ثم اكتشفت أننى عدت ثانية إلى ازدراد قطع الدهن بكفى وإبهامى. تماما مثلما كنت أفعل فى الأيام الخوالى عندما كنت أجيراً. فالنفس "الوحدانية" تتوق إلى أنيس يؤنس وحدتها، وقد عثرت على ضالتى المنشودة فى شرائح اللحم المقدد ومكعبات الدهن. أجل، لقد كانت مشكلة معضلة حقا أن يصر المرء على تعميد ابنه بالطريقة اللوثرية فى فترة البدايات بأمريكا الشمالية.

الصديق العزيز، أستطيع أن أقص عليك قصصا كثيرة لا تخلو من الطرافة حدثت فى أول عهدنا بالهجرة إلى العالم الجديد. كان القسيس يسكن فى ذلك الوقت بالقرب منا. وقد تصادف وصولى أحيانا إلى الكنيسة متأخرا لأجد نفسى على

عتباتها أمام القسيس وجها لوجه. لا تحسب أن القسيس كان قد خف لاستقبالى للترحيب بى بل كان لقاؤنا يتم بمحض الصدفة بعد نهاية القداس واستعداده لمغادرة الكنيسة. وكان تأخرى يرجع إلى حرصى الشديد على إنجاز الأعمال المزرعية الضرورية قبل توجهى للكنيسة. غير أننى لم أكن أمثل فى ذلك حالة شاذة أو فريدة بين المزارعين. فأحيانا كان القسيس ما يكاد يختتم موعظته حتى تتطرق إلى أسماعنا من بعيد جلبة صادرة عن ثورين يجران عربة تقترب منا الهوينا. كان القادم هو المزارع "هاينريش تيزل" الذى يقيم على بعد ١٢ ميلا جهة الشمال بعد مشواره الشاق فى مسالك وعرة تتلوى وسط الغابات والأدغال. ولا يخفى أن الاستعانة بالثيران لشد العربات فى طرق عشوائية وغير معبدة هى الوسيلة الأكثر أمانا لاجتياز الحفر والنقر دون تعرضها للانقلاب. لكن العيب الذى يعتور وسيلة السير الخالى من الحوادث تلك، يتبلور فى ضرورة مخاطبة الثورين بصوت عال حتى يفهما ما يقال. ولما كان صوت "تيزل" جهوريا زاعقا، فلذا كنا نسمع صياحه وهو يسلس قياد الثورين من بعيد. وعندما كان يهم بدخول الكنيسة كانت عبارة آمين تتردد فى أرجائها إيذانا بانتهاء القداس. بيد أن القسيس كان يحرص على ترضية خاطره بترنيمة ختامية، حتى لا يحرم المزارع تماما من حضور ولو نزر قليل من الطقوس. وبذلك لا يكون قد قطع الطريق الطويل عبثا فيعود خالى الوفاض.

عندما أعود بذاكرتى إلى أول عهدى بالهجرة، أتعجب لما تصادف حدوثه لى أحيانا داخل الكنيسة من مواقف غريبة ومحرجة. فقد لمحت على لوحة الأرقام الترنيم رقم ٤٠١. قلت لنفسى فرحا: إنك تحفظ ذلك الترنيم منذ كنت بالمدرسة، ولذا فلا داعى لفتح كتاب الترانيم المدرسى الذى بين يديك. وشرعت على الفور فى إنشاد الأغنية الكنسية التى جاء بمطلعها "ربنا هو حصننا المنيع". لكن الدهشة ارتسمت على وجوه المصلين بجوارى لغرابة النص الذى ترنمت به. وشعرت بلكزة من أحدهم لأنهم كانوا يغنون كلمات ترنيم آخر، مطلعه "حقا إنك لى، وستظل

لي- فمن ذا الذى يقول بغير ذلك؟". تصور لقد أعطوا ذلك الترنيم الرقم ٤٠١ هنا فى أمريكا! وفى يوم أحد آخر قرأت على لوحة الأرقام إشارة بدء الأداء الجماعى للترنيم رقم ٣٥٩. لم أكذب خبرا وشرعت بشكل تلقائى فى ترديد كلمات الترنيم القائل: "من يوكل أموره للرب الحبيب دون سواه (لا يُضام)" لكن "ليزا" لكزتنى بكوعها لتنبهنى إلى ترنم بقية المصلين بترنيم آخر مطلعه: "ما دام الله حيا، فلمَ لا تتورعى أيتها النفس؟". تكرر نفس الشيء مع الترنيم رقم ٨٩. كان ذلك فى أسابيع الآلام[1]. وتعجبت أنه ينبغى علينا فى تلك المناسبة الحزينة، إنشاد الترنيم الروحى المفعم بالبهجة، الذى صاغ كلماته مارتن لوثر بمناسبة عيد ميلاد المسيح، والذى جاء فى مطلعه: "يا كل المسيحيين احمدوا الرب" ولكننا فى أمريكا حيث ينشدون الترنيم رقم ٨٩ فى أسابيع الآلام وليس فى أعياد الميلاد، وهو الذى يبدأ على هذا النحو: "أيتها الدنيا، انظرى هكذا تتردى الحياة فيك". قلت لنفسي: يا له من ترنيم بديع يتلاءم مع أسابيع الآلام. لكن وا أسفاه، لأن أهل الأرض لا يجتمعون على كلمة سواء ليتكلموا بلسان واحد، وبلغة واحدة، وليترنموا بكتاب أناشيد واحد. أما

---

(١) فى ألمانيا يسمى الأسبوع السابق لعيد القيامة أسابيع الآلام. وعيد القيامة حسب المعتقد المسيحى هو اليوم الثالث بعد صلب المسيح فى يوم الجمعة العظيمة، والذى يعرف بأحد القيامة. ويعتقد أن المسيح عاش ٤٠ يوما على الأرض قبل الصعود. وبعد مرور ١٠ أيام على عيد الصعود يجرى الاحتفال بيوم الخمسين (بعد عيد القيامة بخمسين يوما) الذى يوافق عيد ميلاد بداية الكنيسة بحلول الروح القدس على التلاميذ (الحواريين). والشكر على هذه المعلومات موصول للدكتور القس (البروتستانتي) ثروت قادس. وكثيرا ما لا تفرق المعاجم اللغوية ووسائل الاتصال بين "عيد القيامة" المسيحى و"عيد الفصح" اليهودى. ذلك لأن عيد الفصح عند اليهود يوافق ذكرى خروج من عاش فى مصر الفرعونية من أتباع موسي، تأسيساً على أن كلمة "فسح" تعنى العبور والنجاة: عبورهم البحر الأحمر بمعجزة، ونجاتهم بذلك من بطش فرعون. وهناك آيات قرآنية تصور ذلك الخروج: "اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون" (سورة إبراهيم:٦)، انظر أيضاً سورة البقرة: ٥٠. وبينما يصدق القرآن على صعود المسيح إلى السماء مستخدما كلمة "الرفع" بدل "الصعود" ("بل رفعه الله إليه"، سورة النساء: ١٥٨)، لكن الآية السابقة تستخدم حرف العطف "بل" للاستدراك بعد النفى- استدراك يقر بالصعود أو الرفع بعد نفى الصلب. ونرى فى ذلك تباينا لمعنى وحدانية الله والتوحيد، الأمر الذى يحتاج إلى تفسير وإلى بيان القواسم المشتركة من منطلق أن الدين للديان ولو شاء الله لوحد الأديان.

عن نفسى فقد تعودت على الأرقام السابقة للترانيم منذ نعومة أظافرى، فَنُقِشَت فى ذاكرتى كالنقش الغائر على الحجر. لكنه يتحتم على المرء فى العالم الجديد أن يُعَوِد نفسه على مواكبة المتغيرات، وهو شيء يسرى على تبدل الأرقام بالمثل.

لا يتمتع قسيسونا بعيشة مريحة، ولذا تجد أجسام معظمهم نحيلة نحيفة. أما راعى كنيستنا فقد تولى مهامه فى أول الأمر كقسيس متنقل. وما أدراك ما هو القسيس المتنقل، إن ذلك يعنى أنه دائما على سفر لأن برنامج عمله يشتمل على ٤ مواعظ أسبوعياً، نصفها فى يوم الأحد والنصف الآخر وسط الأسبوع. وكان موعد زيارته لنا فى يوم الثلاثاء، اللهم إلا إذا تعذر عليه ذلك لزيادة ضغط الأعمال الملقاة على عاتقه فيؤجل الزيارة إلى يوم الأحد. وكان المشوار الواحد الذى يقطعه على صهوة جواده يصل إلى ٧ أميال أو يزيد. وكان ينكب على تصريف الشئون الكنسية حتى منتصف النهار، وفيما بعد يتولى تدريس تاريخ الكتاب المقدس لليافعين من الأطفال. وكذلك كنا نشاركهم الاستماع إلى هذه الدروس فى أغلب الأحيان.

ولما اقتنى القسيس "عربة كارتة" بعد فترة، تكررت زياراته لنا فى المساء حيث كان يعثر علينا فى بيوتنا. أما عندما استهل عمله بدائرتنا الكنسية فكان يركب حصانه طوال النهار أحيانا للمرور على المزارع الواحدة تلو الأخرى، لكنه لم يكن يلتقى فيها سوى بالأطفال لأن الكبار كانوا يعملون بالحقول بدون استثناء. أما فى الوقت الحالى فقد تحول إلى تدريس النشء وتثبيت العماد بمعدل ثلاثة أيام بمدرسة المدينة، وثلاث مرات بالريف لمدة نصف يوم فى كل مرة. ودرج فى دروسه على تلقين الأطفال تاريخ الكتاب المقدس، وتعاليم الدين المسيحى بالسؤال والجواب، وإنشاد الترانيم الدينية. إلا أن معظم الأطفال ظل غير ملم بالقراءة للقصور فى محو أميتهم. وفى حين أنهم اتقنوا عن بكرة أبيهم الحرث، الحصاد، ركوب الخيل، وقيادة العربات الكارة، فقد استغلق عليهم فك طلاسم الحروف الأبجدية، إذ ظلت بالنسبة لهم أصعب شأنا من احترافهم وإتقانهم الأعمال المزرعية. ولو كان نجاحهم

فى الإلمام بالقراءة يتوقف على لَمِّ الحروف الأبجدية بالجرافة اليدوية التى يحسنون استخدامها، لصار محو أميتهم أكثر يسراً وسهولة! كما لم يتوان القسيس فى تحفيظهم كلمات الترانيم بتعويدهم على ترديدها من بعده المرة تلو المرة حتى حفظوها. وبذلك تمكنوا خلال فصلين شتويين من حفظ وتجويد الترنم بما يزيد على عشرة ترانيم كنسية. كما دأب القسيس أيضاً على تعليمهم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب كلما وجد إلى ذلك سبيلاً.

لكن كثرة مشاغله حالت دون المثابرة على محوْ أميتهم. وعلى الرغم من جهوده المضنية التى بذلها فى تعليمهم "فك الخط"، إلا أنها كانت جهودا ضائعة لنقص فى الاستمرارية والتواصل بالضرورة. وهكذا شب الأطفال عن الطوق وغالبيتهم مثل أليف الدواب. فلم يؤت القسيس القدرة على النهوض بأكثر مما يطيق ويحتمل. زد على هذا تعرضه لحوادث سير متعددة. فقد ضل الطريق ذات مرة وسط الأدغال والغابات واضطر للمبيت فى العراء. لكنه يستحيل مقارنة البرد القارس الذى ساد فى تلك الليلة بذلك الجو الصحو الدافئ الذى سار فيه يعقوب[١] فى سالف العصر. فقد تسبب هطول الأمطار أثناء رقود القسيس فى الدغل متوسدا الأرض ملتحفا السماء، فى ابتلال ملابسه فنشعت الرطوبة متسربة إلى جلده، كما أضنَتْهُ قسوة البرودة التى "سَمَّعَتْ" حتى النخاع. ففى مثل ذلك الطقس القاسى ما كان يعقوب يستطيع أن يرى فى المنام سلما منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء[٢]. وفى أخرى حاول القسيس عبور النهر وهو راكب صهوة جواده البنى اللون. وأثناء عبوره المجرى المائي، فقد الراكب حصانه البنى أو ربما فقد ذلك البنى فارسه. وهكذا بلغ الفارس ضفة النهر ثانية بعد جهد جهيد. وكذلك فعل

---

(١) يعقوب هو ابن إسحاق وإسحاق أخو إسماعيل وهو بذلك حفيد إبراهيم أبى الأنبياء الملقب خليل الله – ورد بالعهد القديم: "فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران". وتقع حاران فى أرض ما بين النهرين المذكورة فى سفر التكوين باسم "فدان آرام". وقد ارتحل يعقوب إلى هناك ليتخذ زوجة من إحدى بنات خاله "لابان" هى راحيل أم يوسف – قارن سفر التكوين ٢٨: ١-١١.

(٢) المصدر السابق ٢٨ : ١١

الحصان. وسرعان ما تبين أن الفارس أصبح على ضفة والجواد على الضفة المقابلة. نظر كلاهما إلى الآخر وبينهما النهر الذى عامت فيه حقيبة القسيس باتجاه المحيط وفيها الروب [رداء راعى الكنيسة] وذات مرة ثالثة تسبب حظه العاثر فى انقلاب الكارتة نظرا لوعورة الطريق فآثر ترك العربة فى مكانها وعاد إلينا ممتطيا صهوة الحصان الذى كان يجرها. كما اضطر فى مرة أخرى إلى المبيت فى "عشة" مشيدة من جذوع الشجر آيلة للسقوط ولم يقطن فيها إنسان منذ زمن طويل. كان سطح العشة مُرَصَعاً بالثقوب والشقوق مما جعله يقضى ليلته تحت الشمسية المفتوحة إتقاء لهطول الأمطار. وغنى عن البيان أنه يصعب على الإنسان تحمل مثل هذه المعاناة والمشاق طويلاً حتى لو كان قسيساً أمريكياً. ولذلك فمن حق القسيسين علينا أن يلقوا منا كل شكر وتكريم.

لما تكاثرت أعداد المهاجرين بمنطقتنا قررنا إدخال تعديل على أسلوب عمل قسيسنا المتنقل الذى "لا يهمد" ولا يرتاح، ولا يشكو ولا يتذمر. فعندما أخطرنا بموعد قدومه إلينا فى يوم الأحد اغتنمنا الفرصة لدعوة الأهالى المقيمين داخل دائرة قطرها حوالى ١٠ أميال لحضور الصلاة. كنت قد قدمت من قبل بيتى القديم غير المأهول والمشيد من جذوع الشجر لاستخدامه ككنيسة لبضع مرات. وقمت لهذا الغرض خصيصا بطلاء عروق الخشب الداخلية بالجير. وهكذا تحولت القاعة بعد أن ضممت إليها الغرفة الأخرى إلى بيت للعبادة. ثم حملت إلى داخله أربعة جذوع متساوية الطول وسمرت من فوقها ألواحاً خشبية متساوية، وحصلت بذلك على منضدة غطتها "ليزا" بملاءة بيضاء. وهكذا انتهينا من إعداد الكنيسة لإقامة الصلوات.

فى اليوم التالى توافد شعب الكنيسة كله لحضور قداس الأحد. أتى البعض إليها مرتجلاً، واعتلى البعض الآخر ظهور الجياد بما فى ذلك النساء، لصعوبة سير العربات فى دروب عشوائية تم شقُّها بإعْمَال البَلَط فى اجتثاث الأشجار كيفما اتفق. ومما ضاعف على الناس مشقة الطريق برودة الشتاء القارس. لكننا استطعنا

كسر حدتها بإشعال الحطب فى المدفأة وبتقديم أقداح القهوة الساخنة للمصلين، وبذلك التهم انبعاث الحرارة إحساسنا بالبرودة، نظرا لانتشار دفء مَخْمَلِي شمل المكان وسرى في الأوصال والأبدان. وما لبثنا أن شرعنا فى غناء مقطع من الترنيم الذى مطلعه: "إليك أشدو بالقلب واللسان". صدحت الأصوات نشازا فى أرجاء المحل العبادي، لاختلاف إيقاع الجرس بين المرتلين، ولعدم التوافق فى أداء لحن تلك الأغنية الدينية، لأن كل شاد كان يختتم ذلك المقطع المنظوم حسب ما يتراءى له. إذ كان بعض المغنين من المتحمسين المبالغين فى إظهار عواطفهم، والبعض الآخر أصواتهم فاترة لانخفاضها وعمقها. ولما أشرف الفريقان على بلوغ نهاية المقطع المذكور، أمسك المتحمسون عن الترنيم بالغناء من تلقاء أنفسهم حتى تتوافق أصواتهم مع الأصوات ذات الفتور، نظرا لاختلاف طول الفترة الزمنية التى يحتاجها للإنشاد كل فريق. وكان أحد المترنمين دنمركيا من مدينة "تستفيد" الواقعة فى مكان ما خلف مدينة "روستوك" الألمانية. حشر ذلك الدنمركى نفسه بالجلوس فوق جذع شجرة فى الحيز الضيق من الركن الواقع خلف المدفأة حيث إنها أكثر الأمكنة دفئا. وما لبث أن تفصد عرقا على الطريقة الأمريكية، بينما شارك هو فى الغناء الجماعى على الطريقة الدنمركية مستعينا فى الغناء بمهارته الفردية ذات الصبغة الوطنية. الصديق العزيز، هل تعرف ماذا أظن؟ يساورنى الاعتقاد أن الرب تعجب فى ذلك اليوم مما أحدثه سكان الأدغال من الهرج والمرج فى الترنم على أنغام "إليك أشدو بالقلب واللسان".

جاء علىّ الدور فى ذلك اليوم للقيام بمهمة الشماس. وبذلك كان يتحتم علىّ، بصفتى خادما للكنيسة، المرور على المصلين قبيل ختام الصلاة وفى يدى "كيس الإحسان" لكى أجمع فيه ما تجود به أنفسهم من الصدقات لصالح الكنيسة وأعمال الخير مستعينا بذلك الكيس المعلق به جرس صغير لينبههم رنينه الخفيض: أن هيا إلى التبرع الطوعي. لكن ما العمل فى غياب كيس الإحسان؟ بعد أخذ ورد استقر الرأى على أن قبعتى السوداء هى البديل المناسب. ذلك لأن "ليزا" فاجأتنى بقولها:

إن استعانتك بـــ"البرنيطة القش" فى جمع العطايا ابتغاء مرضاة الله هو أمر معيب ولا يليق بتقديم فروض الاحترام الواجب لرب الكون. فقلت لها: لقد جانبك الصواب يا "ليزا" فيما ذهبت إليه من الشطط. أما عن نفسى فأنا لا أجد حرجا على الإطلاق فى تلقى الهبات فى البرنيطة القش لأن ذلك لا يبخس الله شيئا من الإجلال والتعظيم الواجبين، فالله لا ينظر إلى مثل هذه الشكليات، بل ينظر إلى ما فى القلوب. ناهيك عن أن الكتاب المقدس لم ينص على وجوب أن تكون القبعة سوداء أو بيضاء. ثم جاء ردها حاسما إذ قالت: لقد أكل الدهر وشرب على قبعتك من القش، ذلك لأنها لم تعد تمت إلى اللون الأبيض بأى صلة، بعد أن نصل لونها ولوحته الشمس ونفضت عنه بريقه كما انبعج شكلها بعد استدارة، ومزقت قالبها الشقوق بتنسل نسجها المضفور، بحيث إذا وضع المتصدقون قطع النقود المعدنية فيها فما تلبث أن تسقط من خلال تلك الثقوب ثم تتدحرج تحت أقدام المصلين مما سيضطرك إلى الزحف على أربع للبحث عنها، وهو شىء لا يتناسب مع الخشوع الواجب أثناء تأدية الصلاة. قلت لها: إذا كان الأمر كما أوضحتِ فلتكن القبعة السوداء هى خيارى، وهى أكثر وقارا على أى حال. حلت القبعة السوداء إذن محل كيس الإحسان الرنان. ولكن هيهات أن يكون للقبعة ذلك الجرس الصغير. وكم كانت تتوق نفسى إلى الاستمتاع بصليله ذى النغم الرقيق الواهن.

بدأت فى جمع تبرعات المصلين. لم يشحْ أحد بوجهه معرضا عن التصدق. ولم يتخلف أحد عن وضع ما تسمح به ظروفه من النقود فى القبعة. وبذلك سلمنا القسيس ١٥ دولارا، فانبسطت أساريره وانشرح صدره. أما "ليزا" فقد كانت فخورة بما أنجزت، وكذلك أنا، لأن ابن آدم تعجبه مثل هذه الأمور عندما تتقدم به السن. وقد عبر الدنمركى الجالس على جذع الشجرة خلف المدفأة عن ابتهاجه بتبرعه بدولار كامل غير منقوص، ثم قال: صحيح أنى لم أفهم شيئا مما قيل، لكن القداس كان احتفالية مهيبة وبناءة للغاية. وإذا لم يكن عند شعب كنيستكم ما يمنع، فسوف أسعد مستقبلاً بالمواظبة على الحضور.

ألقى القسيس موعظة عن آية من صنع يسوع، ألا وهى معجزة إطعام رجال عددهم نحو خمسة آلاف، أكلوا حتى شبعوا، وذلك بمباركة يسوع لخمسة أرغفة شعير وسمكتين[1]. وتطرق إلى أسماعنا أثناء الخطبة عواء الأبقار، ونعير الثيران، وصراخ الخنازير، وصياح الديكة، الشيء الذى شكل خلفية مناسبة تماما لإطعام الخمسة آلاف جائع. ذلك لأن الحيوانات على تعدد أنواعها تبتهل بالشكر لله بأصواتها المتباينة. وما كاد القسيس يقول آمين حتى هرعت إليه امرأة تريد تعميد ابنتها. هل تعرف يا صديقى العزيز من كانت هذه المرأة؟ إنها "دورا فونت" التى هاجرت من قريتنا إلى أمريكا ثم تزوجت بالمهجر الابن الثانى لصديقنا "فيلانت". فلا عجب أن صارت الطفلة ابنتى وابنة "ليزا" فى العماد[2].

وبعد الانتهاء من الطقوس الدينية أخلينا المحل العبادى مما فيه، ورصصنا المناضد بجوار بعضها لتتحول إلى مائدة ممتدة تناول عليها الطعام معظم المصلين. وأخطرك يا صديقى العزيز بأن الوليمة اشتملت على ألوان شتى من لذيذ الطعام اشتهاها كافة الحاضرين، المعدم منهم والميسور. ولك أن تصدقني، لقد شبع الجميع وعبروا عن رضائهم قائلين: شكرا لكم لقد أكلنا فوق طاقتنا! وهكذا تباهيت بـــ "ليزا" ثانية وأصبحت بها حفيا فخورا على ما أعدته من ألوان الطعام.

بقينا بعد أن أكلنا وشربنا فى أماكننا لنتبادل أطراف الحديث. فخضنا فى أمور الدين وعرجنا على أمور الدنيا ثم ما لبثنا أن عدنا إلى أمور الدين مرة أخرى. كانت قعدة حميمية شيقة امتدت إلى ساعات طوال. ذلك لأننا لم نجتمع فى جلسة أنس كهذه خلال الأعوام الماضية إلا لماما. فعندما كانت الظروف تسمح بالتلاقى كان من الصعب علينا مبارحة أماكننا بعد أن اجتمع الشمل كما تجمع عدسة لامة التشعع الشمسى فى بؤرة تركزت فيها حرارة الاشتياق. بدأنا بالحديث

---

(١) قارن إنجيل يوحنا ٦: ١– ١٤.

(٢) يعتبر الشاهد للعماد بمثابة "أب روحي" أو "أم روحية" للطفل، مما يعنى ضمنيا الإسهام فى تحمل مسئولية ما عن التربية الدينية له. ويعرف شاهد العماد بـــ "الشبين" والشاهدة بـــ "الشبينة".

عن موتانا الذين ووروا التراب فى ألمانيا. قال أحدهم إن جده مدفون بجبانة الكنيسة بقرية "بيشر"، وقال آخر إن قبر أبيه ببلدة "كونوف"، أما قبر أبى فهو ببلدة "إلدينا". وهكذا جمع المثوى الأخير بينهم وأصبحوا جيرانا بإقليم "ميكلينبورج" تماما مثلما قربت الحياة بين أبنائهم ليعيشوا غير متباعدين فى أمريكا. وكذلك ذكر أحدهم أن زوجته الأولى قد دفنت على مقربة من مدينة "هانوفر"، كما وارى آخر أكبر أولاده الثرى بمقاطعة "هولشتاين" الألمانية الشمالية. أما القسيس فقد نثر بين أيدينا لآلئ الكلمات عن الحياة وعن الموت ثم عن البعث بعد الممات.

ما لبثنا أن انتقلنا من سيرة الأموات إلى تناول الواقع الذى يعيشه الأحياء، حتى لا يطغى أحد الموضوعين على الآخر، أو أن نغمط حق هذا على حساب ذاك. قص علينا راعى كنيستنا المؤقتة قصصا شيقة من عيون التراث الألمانى تارة، ومن نفيس الكتب تارة أخرى، الأمر الذى فتح عيوننا وأثلج صدورنا وأدخل الابتهاج فى نفوسنا. وكان الحديث يدور فيما بيننا بلهجة أهل الشمال الألمانى حول تجاربنا وخبراتنا وحول ما نقوم به من أعمال يومية. أفاض أحدهم فى شرح سلسلة الأعمال المتعاقبة والمضنية لجمع الفاصوليا البيضاء فى إقليم "هولشتاين". وألقى ثان الضوء على القمح المثلث الحواف بمنطقة "هايدة" ذات التربة الرملية. وإذا بخيالنا يهيم على وجهه إلى مرحلة الطفولة، وهكذا نبش كل منا فى مخزون ذكرياته ليسرد شيئا عن مسقط رأسه وأحداثا شائقة عن أيام المدرسة. ثم تطرق الكلام إلى مزارعنا: عاد أحدهم إلى بيع ماشية العام الماضى من جديد، وشرع آخر فى دراس القمح من محصول العام القادم حتى قبل أن يبذر تقاويه. وتعرض ثالث إلى تقطيع الجذوع وفلقها إلى حطب. وتحدث رابع عن تفجير قرم الشجر بواسطة الديناميت. وما كنا نكاد ننتهى من الاستماع إلى المنثورات التى تناولت الشئون المزرعية، حتى كنا نتبعها فى لقاءات الأحد الحميمية بنزهة بين ذكريات الوطن، لنقتطف من رياضها طرائف وملحا تنبض بالدعابة، فتتطارح ألسنتنا النكات والأفاكيه.

طفق أحدهم فتحدث عن فترة خدمته بفرقة الخيالة بثكنة "لود فيجز لوست". وتعرض آخر للعهد الذى التحق فيه بقشلاق "روستوك" كعسكرى "بياده". وقام ثالث بفرد ركبته العوجاء وهو يؤدى خطوة استعراض ليؤكد على قوة بنيته أثناء التحاقه بفرقة المشاة فى "شفيرين". وما لبثت القاعة أن تحولت إلى ميدان للتمرين. وأقاموا فى المطبخ استعراضا عسكريا على شرف الدوق الأكبر بمناسبة عيد ميلاده، استعاضوا فيه عن البنادق بأيدى المقشات. وأنشد الذى خدم بفرقة الخيالة نشيدا جاء فى مطلعه: "الملك غليوم يا سعده يا هناه جالس على عرشه والفرحة مش سيعاه". إلا أن ذلك النفر الذى انضم لفرقة الخيالة لم يحفظ من كلمات النشيد إلا النزر القليل. ولكن لا بأس، فقد كنا قد انهمكنا فى خوض معارك "الحرب الكبري" [الحرب الألمانية– الفرنسية ١٨٧٠–١٨٧١] فى "سيدان"، "ستراسبورج"، "ميتس" و"أورليان"، والتى عدنا فى ذلك اليوم إلى غزوها شفهيا من جديد. وما إن بلغنا سيرة غزو جيش بروسيا للعاصمة الفرنسية "باريس"(١) حتى بادرنا بجمع أيدى المكانس وكومناها فى ركن، ذلك لأن "شولت" الطاعن فى السن تثاءب بضع مرات نتيجة لما أصابه من الإجهاد. شعرت النساء بدنو موعد الرحيل مع اقتراب أول الليل ثم هممن بالانصراف. وقامت "ليزا" قبل انفضاض السامر بإعداد القهوة. وما إن فرغوا من احتسائها حتى استقلوا عرباتهم وكارتاتهم وحشروا أنفسهم فيها حشرا وهم يرددون فى صوت واحد قائلين: لقد قضينا فى صحبتكم يوم أحد بديع كنا نتمنى قضاء يوم مثله منذ أمد طويل، ذلك لأن الإنسان لم يخلق فى هذه الدنيا من أجل العمل فحسب. إنطلقت العربات حاملة الضيوف ثم أوينا إلى فراشنا ورحنا فى نوم عميق. حقا لقد كان يوم أحد كما ينبغى له أن يكون.

---

(١) بعد مرور سبعة عقود على احتلال نابليون لعاصمة بروسيا برلين (١٨٠٦)، انتصر "غليوم" (فيلهلم) الأول ملك بروسيا على فرنسا، وأعلن من قصر فرساى فى باريس سنة ١٨٧١ تأسيس دولة الرايخ الألمانية. وتبدو تلك الحروب التى راح ضحيتها ملايين البشر، بعد توثيق عرى الصداقة الألمانية الفرنسية فى إطار الوحدة الأوروبية، دليلا على انفراد الشر بالحكم آنذاك فى أوروبا، وعجزا عن تأييد السلم وحقن الدماء وحماية مصالح الناس بالطرق السياسية.

صار قضاء يوم الأحد على ذلك المنوال عادة تداولناها بالتناوب فيما بيننا لفترة طويلة، مرة عند هذا وأخرى عند ذاك، إلى أن تبين لنا ذات يوم استحالة الاستمرار فى عقد لقاءات الأحد، نظرا لتزايد أعداد الوافدين إلى المنطقة، ولأن بيوتنا المشيدة من جذوع الشجر لم يعد فيها متسع مع تكاثر أعداد السكان بسبب الهجرة الوافدة. وإذا بسؤال يفرض نفسه: ما العمل؟ طرحنا المسألة على بساط البحث وناقشناها بالطول وبالعرض مرتين. وكان الجدل عقيما، لأنه لم يسفر عن مخرجات يعتد بها، أما مدخلات الحوار فكانت أقل شأنا. فإذا أغفل المرء الغرض المقصود من المباحثات وكذلك النتائج المرجوة من ورائها، فخير له أن ينظر إلى وجهه فى المرآة وهو يفتح فمه ويغلقه لمدة نصف ساعة. ولا شك أن هذه المناجاة الخرساء هى تمرين مفيد لعضلات الفك أيضًا. وعندما جاء الدور علينا مرة أخرى لفتح أبواب بيتنا للقداس فالوليمة ثم السامر، قلت لزوجتى: "ليزا" رجائى أن تعدى يوم الأحد المقبل وليمة تذخر بأطايب الأطعمة بقدر ما تستطيعين، وبكميات وافرة إسهاما منك فى تنفيذ الخطة التى وضعتها. ولذا فأنا أطمع فى مؤازرتك لى بجودة ما تطبخين. أرهفت "ليزا" السمع ثم قالت: عن أى خطة تتحدث ولماذا؟ وما هى العلاقة بين طبخى وخطتك؟ وما هو الهدف الكامن من ورائها؟ بالله عليك صارحنى ولا تخفِ عنى شيئا فقد أثار قولك فضولي. قلت لها، إن الزوجة الصالحة هى تاج يزين رأس زوجها، لكن الإلحاف فى السؤال يرهق البدن ويشغل البال. لا تتعجلى الأمر فسوف تعرفين كل شىء فى حينه بعدما يشبع الجميع.

تناولنا سويا بعد القداس طعام الغذاء، أكل الجميع بشهية لدرجة أنهم لم يتركوا مكانا لِنَفَسِهِمْ، لأن "ليزا" نفذت ما أوصيتها به حرفيا وبحذافيره. ولما رُفِعَتْ الصحاف والأوانى توجهت إلى الحضور بقولى: أصدقائي، جيراني، "بلدياتى"، لقد ضاقت بيوتنا بالمصلين ولم تعد قادرة على استيعاب عدد أكبر من الناس. فلم يعد خافيا على أحد أثر الهجرة الوافدة من ألمانيا إلى منطقتنا على نمو شعب الكنيسة. ولهذا أقول لكم دعونا نتعاون معا على بناء كنيسة.

استجاب على الفور عدد كبير من الحاضرين فتبنوا فكرة المشروع وأيدوها. وكان هؤلاء هم الذين فاتحتهم فى الأمر من قبل واستطعت اقناعهم بالتعاون على إقامة المقر الدائم للكنيسة. كما وافق على اقتراحى بالمثل أولئك الذين أقبلوا على الأكل اللذيذ حتى امتلأت بطونهم، لأن شبع الأنام يُذْكِى فى النفوس بوجه عام الوداعة والوئام. ولذلك يحسن مناقشة مثل هذه الأمور بعد تناول الطعام. لكن فريقا منهم عارض الفكرة لأن أموالهم كانت عزيزة عليهم. إلا أننا لم نغفل أمر هؤلاء أيضاً فقلنا لهم: سوف نقوم بالجانب الأكبر من أعمال التشييد بجهودنا الذاتية، ولن نحتاج فى سبيل ذلك إلا إلى سواعدنا وما لدينا من دلاء وأدوات، لأننا عقدنا العزم على البدء بتشييد كنيسة من جذوع الشجر ليس إلا، الأمر الذى لن يكلفنا شيئا. إذ بإمكاننا قطع الأشجار وإعدادها للبناء بأنفسنا ويلى ذلك تسميرها فى بعضها. ولدينا بطبيعة الحال من الأشجار ما يكفى وزيادة. وإذا بدأنا العمل على التو فسوف نُنْجِز البنيان بحلول فصل الربيع فى "عيد الصعود".

أما "ماير" التخين فقد ارتسم الاعتراض على وجهه. إنه لم يَنْبِسْ بكلمة، ولكنه دس يديه فى جيبى البنطلون، وهمهم بصوت غير مفهوم فى شبه غمغمة تنم عن الاستنكار، ربما لأننا تسببنا فى إزعاجه ساعة القيلولة. إذ يتعذر التعامل معه بدون إغفاءة الظهيرة. ولكنى كنت أعرف عاداته حق المعرفة كما لم يخف عَلَىَّ المدخل إلى استمالته لتأييد فكرة المشروع، فطفقت أقول له: اسمع يا "ماير"، إنى أريد أن أسر إليك بكلمتين. فأنا مُشْفِق عليك منذ فترة طويلة لتعذر جلوسك فى وضع طبيعى مريح على الدكة الخشبية الضيقة لدينا بالكنيسة، الأمر الذى يجعلك مضطرا إلى الجلوس مائلاً فى نصف استدارة متعبة. ولكننا نزمع فى الكنيسة الجديدة أن نجعل نجارة الدكك أكثر عرضا حتى نتيح لجميع المصلين الجلوس فى وضع مريح. كما سنوصى على تصنيع إحداها بحيث تتميز بعرضها الفسيح عن سائر الدكك الأخرى، وسوف تظل محجوزة باسمك بموجب وثيقة مكتوبة، حتى تقعد عليها معتدلا مستريحا أثناء استمتاعك بفترة الترانيم والتسابيح. وبعد حصولنا

على موافقتك على مشروع إنشاء الكنيسة الجديدة يمكنك أن تأخذ قسطا من الراحة بجلوسك خلف المدفأة حتى تتمتع بإغفاءة تعيد إليك حيويتك. ولم تتوان "ليزا" فى وضع الكرسى وراء المدفأة ليستريح عليه السيد "ماير".

ونظرا لأننى أعرف مدى عشقه للجلوس المريح، قلت لنفسي: لا شك أن ما أوعزت به إليه عن تخصيص دكة عريضة باسمه قد حاز على رضاه. وتمثل إعجابه في توقفه عن الهمهمة والغمغمة. لكن يديه ظلتا مدسوستين فى جيبى البنطلون، مما دل على بقية باقية من عدم الاقتناع. وبذلك نكون قد كسبنا الشوط الأول فقط فى مضمار المفاوضات. ولما كان ينبغى طرق الحديد وهو ساخن، فقد وجهت كلامى إلى زوجته بلهجة لا تخلو من الملق والمداهنة وأنا أتمتم: إن تشييد كنيسة سوف يغنينا عن الصلاة بالتناوب فى البيوت، مرة هنا ومرة هناك. فمن غير اللائق حقا، بل ومن المعيب، أنه عندما يأتى الدور عليكم للصلاة فى داركم، أن نطأ عتبته بأحذيتنا المحملة من الشارع بطبقة من الثلج والوحل، فنلطخ بها سجاجيدك الفاخرة، مخلفين على الباركى الذى تهتمين بنظافته وبتلميعه بالورنيش، آثار تلوثه بالطين اليابس. وجد كلامى عندها حسن القبول، وإذا بها تستجيب لمطلبى فى الحال وتزكى المشروع، لأن عقيلة السيد "ماير" "التخين" كانت من تلك الفئة من النساء المولعات بالنظافة ولعا عظيما. وبحصولنا على موافقتها كسبنا، وبصفة نهائية، الشوط الثانى والأخير لانضمام الزوج إلى صف المؤيدين. وحالما أومأ السيد "ماير" بالموافقة بدت عليه ربكة المبغوت لانعتاقه من قيد اتخاذ القرار، إذ تمثل رد فعله فى إخراج يديه أخيراً من جيبى البنطلون بسرعة من يتنفس الصعداء. وما لبث أن توارى خلف المدفأة هنيهة لينال قسطا من الراحة فى ساعة القيلولة. ذلك لأنه رجل حصيف لا تعوزه "المفهومية". أما الزوجة فكانت فى أمور شتى هى رجل البيت، لأن "القولة قولتها والشورة شورتها"، يعنى بيت السيد "ماير" فى ناحية، ونظام الكون فى الناحية الثانية.

إلا أن البعض ظل سادرا فى اعتراضه على فكرة إقامة كنيسة أخرى. وكان لابد من إيجاد مدخل آخر لإقناعهم، غير المدخل الذى أثمر مع زوجة السيد "ماير". ذلك لأن التعلل بنظافة السجاجيد وبلمعان الباركى، كانت شيئا غريبا على هؤلاء، كما لم يكن استخدام "الفرشة" لمسح أرضيات بيوتهم الخشبية أمرا مألوفا، لأنه سيان عندهم أن تتراكم على الباركى بوصة من القذارة أو بوصتان خلال عام أو عامين. ومع هذا فهم قلة من العمال المجتهدين، الموثوق فيهم والمنتمين لطائفتنا الكنسية الذين وفدوا إلينا من بولندا. وعلى أى حال فهم يعيشون بيننا ويحتاج كل طرف منا للآخر فضلا عن رغبتنا فى تحاشى ارتدادهم عن مذهبنا لينضموا إلى ملة أخرى.

توجهت إليهم بالسؤال: إنكم تحبون سماع أجراس الكنائس، أليس كذلك؟

– أجابوا فى صوت واحد: نعم، إننا نحب الإنصات لإيقاع رنينها وهى تتهجى حروف أنغامه.

– قلت لهم: إنى أعرف ذلك. فقد سبق أن التقينا منذ ثلاثة أسابيع بالمدينة وعبرتم خلال ذلك اللقاء عن ابتهاجكم بسماع دقات الأجراس.

– نعم، هذا صحيح، فدق الأجراس يشنف آذاننا.

– كما أنكم قد أشدتم بفكرة أن تكون بمنطقتنا بعض الأجراس.

– أجل وما زلنا نستحسن تلك الفكرة.

– إذا كان الأمر كذلك فأين نعلق هذه النواقيس؟ إننا نعتقد أنه من غير المناسب القيام بتعليقها فوق أسطح المنازل أو بين أغصان الأشجار، لأن الطيور سوف تعمل وبسرعة على تلطيخها بفضلاتها فتدنس قداستها المرتبطة بالإعلان عن توقيت الصلوات. هذا بخلاف أن منظر الأجراس المتسخة قلما يسر الناظرين. فإذا جاء أحدهم وكتب فى الجرائد عما أصابها من التدنيس فسوف نصبح مضغة فى الأفواه ومسخة بطول البلاد وعرضها.– ثم قالوا بعد لأى: إن تلطيخ الطيور

للأجراس هو أمر يهون، أما تلطيخ سمعتنا على صفحات الجرائد فهو مالا ينبغى حدوثه بأى حال من الأحوال. وأخيرا استطعنا اقناعهم خطوة بخطوة إلى أن قالوا: طالما كانت هناك ضرورة للأجراس فلابد من تشييد برج لتعليقها فيه، إذ لا معنى للأجراس بدون برج.

قلت لهم: حسنا فعلتم، ولكن أين نقيم البرج؟ فوق الجبل مثلا؟ ألا تخشون إذا ما قررتم ذلك أن يقف عابرو الطريق هنيهة لالتقاط أنفاسهم فينظرون من حولهم وقد عقدت الدهشة ألسنتهم ليقول أحدهم: ما أسخف هذه الجهة وما أغربها! لقد شيد أهلها برجا للأجراس فقط لا غير. وقد يقول الثاني: لعلهم من أقارب ذلك المزارع الذى أراد شراء غابة ولما وجدها باهظة الثمن اكتفى بشراء عود فاصوليا. وربما يقول ثالث: ومن يدرى فقد تكون لهم صلة قرابة بذلك الرجل الذى عزم على شراء مزرعة، لكنه تراجع عن هذه الصفقة نظرا لارتفاع ثمنها فقنع بشراء كرنبة. ولعل الرابع يقول: أغلب الظن أنهم من أقارب ذلك الرجل الذى كان لديه زر (زرار) فجلس فى قارعة الطريق ينادى على شخص يعطيه سترة "تليق" على الزر الذى معه. ثم يواصل العابرون السير وهم يتضاحكون ويتلامزون. وبعد أيام قليلة يقرأ الناس فى الجريدة عن هذه المفارقة الهازلة الساخرة. إذن فإذا خططنا لبناء برج فيتحتم علينا بالتالى تشييد كنيسة حتى لا نصبح أضحوكة على رؤوس الأشهاد. ذلك لأن البرج مكمل للكنيسة ولا مبرر لوجوده إلا بها. والآن أفصحوا عن رأيكم وأخبرونى عما قررتموه بشأن مشروع الكنيسة.

قالوا وهم يضحكون: تريد أن تسمع رأينا بعد أن أوقعتنا فى "الخية" وضحكت على ذقوننا بخداعك. لقد كان تشييد الكنيسة هو هدفك المبيت منذ البداية، وها أنت ذا تريد منا فى النهاية التصديق على تنفيذ ما فى ذهنك. كل هذا لمجرد أننا عبرنا عن استحساننا لدقات أجراس الكنائس. وأخيرا أصبح لزاما علينا أن نقوم ببناء كنيسة. وهكذا اتفقنا . وكانوا لنا خير عون فى إقامة ذلك المشروع الروحى العبادي. وشرعنا بعد أيام معدودات فى تنفيذه على قطعة أرض كان قد وقع عليها

اختيارنا من قبل. قطعنا الأشجار الصالحة لهذا الغرض بعد انتقائها سلفا، وما لبثنا أن أرسينا الدعامات، ونشرنا سيقان الأشجار، وأقمنا السقيفة ثم سمرنا الألواح الخشبية. وقد استخدمنا خشب الإسفندان (قيقب) الصلد فى فرش أرضية الباركى المعشق وفى كسوة السقف والجدران الداخلية بالألواح. وكان نشر خشب الإسفندان شاقا مرهقا بحق، لأن شق ذلك النوع من الخشب الصلد فى صعوبة شق الحديد. وكذلك اضطررنا لدحرجة الأحجار التى استخدمت فى دك الأساس إلى أعلى الهضبة. ومع هذا فقد تقدمنا بسرعة فى أعمال التشييد لإقبالنا على هذا العمل الطوعى بالفرحة والابتهاج وليس تحت شهقات القهر والهوان. وما كاد يهل "أحد السعف" حتى كان الهيكل الخارجى قد ارتفع، وبحلول "عيد الصعود" أصبح البناء "على العظم"، وببزوغ شمس "عيد العنصرة" كانت الأجراس تستهل أولى دقاتها، بينما اصطففنا فى صحن الكنيسة حاسرى الرأس وفى أيدينا قبعاتنا وقلنسواتنا احتراما لتدشين ذلك المكان للعبادة، ولهجت ألسنتنا بالابتهال وبالتسبيح، ورفعت الصلوات تحية لكنيستنا، ثمرة جهودنا الذاتية. عمت البهجة النفوس وكنا بما قدمت أيدينا فخورين. أما السيد "ماير" فكاد يطير على جناح الغبطة والسرور لحصوله على الدكة الفسيحة المريحة التى كنا قد وعدناه بها.

لكن فردا واحدا لم يكن راضيا عما أنجزناه. إنه "كروجر" صاحب حانة الشراب، الـ "سالون". كان قد عرض علينا ٢٠٠ دولار إسهاما منه فى أعمال التشييد شريطة إقامة الكنيسة على مقربة من حانة الشراب. كما تقدم إلينا بعرض لتمليك شعب الكنيسة هضبة بديعة على الطريق إلى هناك، علاوة على قطعة أرض لإقامة المقابر عليها. إلا أننا رفضنا ذلك العرض السخى لقناعتنا بأن المسيح وإبليس لا يتوافقان ولا يتجاوران مما استوجب إقصاء الكنيسة عن الحانة. تسبب قرارنا فى إغضاب صاحب السالون، لكن "زعله" لم يدم طويلا، نظرا لأنه لا يستطيع مقاطعتنا أو الاستغناء عنا.

تلك كانت قصة أول كنيسة شيدناها. إلا أن مساحتها ضاقت بمرور الوقت بحشود المصلين، ولذا قمنا فى المرة الثانية ببناء أخرى رشيقة شاهقة من الحجارة. أما تلك القديمة التى شيدناها من جذوع الشجر، فقد تحولت إلى مدرسة ظلت تقوم بوظيفتها لردح من الزمن. لكننا لم نكن بحاجة لهدم برج الأجراس بأنفسنا، إذ تولت عاصفة هوجاء هذه المهمة نيابة عنا. وعلى الرغم من التطور الذى طرأ على حياتنا فقد ظل الحنين إلى كنيستنا القديمة متأججا، لأنها كانت الأولى التى شيدناها بسواعدنا. فقد تعلقت أرواحنا بها لأننا أنصتنا فيها بخشوع إلى كلمة الرب وكنا نعود منها إلى مزارعنا حاملين إليها البركات بين جوانحنا.

الصديق الأعز، سبق أن كتبت لك منذ ٣ أشهر عن حفنة صغيرة من البولنديين الذين أقنعناهم بالموافقة على تشييد الكنيسة. وفيما يلى سوف أقص عليك قصة أحدهم. فقد ذكرتنى "ليزا" بهذا الموضوع بعد عودتها فى هذه الأيام إلى عادتها المألوفة فى العناية بتنفيض البيت وتنظيفه، الأمر الذى يعنى صعوبة التعامل معها. ولذلك حرصت أثناء مرورى السريع بجوارها وهى تمسح الأرضيات بماء غزير على عدم النطق إلا بكلمات معدودات عن طوفان نوح على سبيل المداعبة. وجاء ردها فوريا وحاسما إذ قالت لى بعصبية إن بإمكانى صنع فلك والإبحار به بعيدا عنها. أجل، فهذا هو طبع النساء. ولما انتشر أريج المياه فى جنبات البيت، ذكرتنى رائحة الهواء المشبع بالماء بحكاية رجل عرفته، اسمه "شرافينسكي" وكان عضوا بمجلس إدارة الكنيسة لمدة عام. إلا أننى لم أر فى أى دار زرتها من قبل مثل ذلك الكم من القذارة التى رأيتها فى بيته. بدت لى قاعة المعيشة مثل حظيرة خنازير بالفعل، كما التصقت الأطباق المستعملة بسطح منضدة المطبخ. ناهيك عن طوابير البق التى حاولت عبثا الزحف على الحيطان، لكنها كانت تتعثر فى طراطيش الأكل التى غطتها لزوجتها حتى كادت بطونها تغوص بين طياتها. ومن المعلوم أن أرض الله تسكنها أنواع شتى من الديدان، بعضها مغرم بثقب التفاح، والبعض الآخر ألف العيش فى الوسخ. فطباع الخلائق شديدة التباين، ولله فى خلقه شئون.

قام القسيس بزيارته فى بيته. لم يكن رب البيت حاضرا. لكن زوجته جاءت من الحظيرة على الفور حيث كانت تنزح الروث. وكان لكل من له عين وأنف أن يرى وأن يشم. لم تكلف الزوجة نفسها عناء غسل يديها من الدنس، بينما كانت تحمل فيهما خبزا وزبدا وجبنا. دعت القسيس ليأكل شيئا منها، وكان عليه أن ينصاع لدعوتها رغما عنه التزاما بقواعد اللياقة. شعر بغصة فى حلقه وبطعم قابض غريب فى فمه وهو يبلع بعناء شديد لقيمات مما قدمته له. وزيادة فى الحفاوة أهدته قطعة كبيرة من الجبن ليأخذها معه. شعر بالغبطة والانعتاق وهو يغادر المكان. ولما عاد إلى بيته وضع قطعة الجبن فى الغرفة، وحالما عاد إليها ثانية وجد معاونه، المرشح لأن يكون قسيسا، وقد وضع أمامه قطعة الجبن وكان منهمكا فى أكل ما يقطعه منها بالسكين. كان ذلك المرشح إنسانا يتسم بالرقة والوداعة كما كان ابنا لأحد أساتذة المعهد العالى. ولكنه سبق له أن زار دار "شرافينسكي"، وكان ذلك كافيا لأن يمتنع عن أكل ما يقيم أوده يوما كاملاً.

لاحظ القسيس إقبال معاونه على أكل الجبن بشراهة، ثم بدأ يحدث نفسه هامسا: إن معاونك يريد أن يكون قسيسا، وسوف يزور الناس على اختلاف فئاتهم ومشاربهم فى بيوتهم فى المستقبل، مما سيحتم عليه الجلوس إلى موائدهم أحيانا ومشاطرتهم خبزهم. هذا وإلا اعتبروا الامتناع عن تناول طعامهم إهانة لا تغتفر. لكن ذلك الشاب كان قد تنشأ منذ نعومة أظافره على التحفظ فى الأكل لدى الغير، وكان أحيانا يتقزز ويشمئز من الأكل خارج البيت. لكن ظروف مهنته أصبحت تفرض عليه أن لا يعاف تناول الأطعمة التى لم يَعْتَد على أكلها. وبدت للقسيس أن الفرصة مواتية تماما لكى يمد له يد العون حتى يغير السلوك الذى شب عليه.

قدح القسيس ذهنه بحثا عن وسيلة ناجعة تؤدى إلى إقلاع مساعده عن التقزز من أكل الغير. لكنه وجده لا يزال سادرا فى امتداحه طعم الجبن مشيدا برائحته التى لها شذا مميزعلى حد قوله. فطفق القسيس يقول له: طبعا لأن الجبن هدية من السيدة "شرافينسكي". وما كاد الشاب يسمع ما قاله القسيس حتى كف عن

الأكل فى الحال منحيا السكين جانبا وقد امتقع لون بشرته. ثم اندفع مسرعا إلى الخارج ليرمى بقطعة الجبن فى الهواء العليل ومن ورائها قالب الخبز. وبذلك أقلع القسيس نهائيا عن الإقدام ثانية على تغيير سلوك معاونه.

يتكرر عندنا حدوث حكايات من هذا القبيل بدون انقطاع. فقد تمكن فيما بعد ذلك المزارع الذى درج على إهمال نظافة بيته من بيع مزرعته لقاء ثمن مجز ثم ما لبث أن سافر عبر "ميسوري" ليستقر فى "نبراسكا". وتشاء الظروف أن يترك منطقتنا فى نفس الوقت مزارع آخر اعتادت زوجته على العناية بنظافة بيتها. وبنزوح الأسرتين بدأ الأهالى يتندرون ويتفكهون على الاثنين بقولهم: لقد سبحا معا على صفحة جدول الماء وهما فى طريقهما نحو المصب. فكانا مثل تفاحتين. الأولى "تفاحة حصان" (هكذا يسمى بالألمانية روث الجياد) وتبعتها "تفاحة أمريكاني" من أحسن صنف. وجدير بالذكر أن شارى المزرعة الأولى ظل وزوجته ينظفان الحظيرة لمدة ستة أشهر حتى تطهرت، كما اضطرت الزوجة إلى الاستعانة بالجاروف مدة يوم كامل حتى استطاعت التخلص من طبقات القذارة التى لطخت كل مكان بقاعة المعيشة.

حذرتنى "ليزا" بقولها: أرى أنه من الأفضل أن لا تتعرض فى رسائلك لذكر هذه الواقعة لأنها تعد بمثابة تشنيع وتشويه لسمعة الغير، وهو أمر يتعارض مع ثامن الوصايا العشر(١). قلت لها: لا يا "ليزا" إنى أختلف معك ولا أوافقك الرأي.

---

(١) يوصى العهد القديم بأن "لا تشهد على قريبك شهادة زور"- سفر الخروج ٢٠: ٦. كما يوصى العهد الجديد بأن "أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم.. لأنه إذا أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم..."- إنجيل متى ٥: ٤٣-٤٦. وقد أورد "مارتن لوثر" تفسيرا وافيا لآية العهد القديم المذكورة أعلاه والتى رتبها على أنها الوصية الثامنة ونقتطف منه فقرة قصيرة نقدمها للقارئ معربة حتى يتضح المعنى الذى يرمى إليه النص، إذ يقول: إن حب الحقيقة المطلقة هو مطلب إلهي، والله يحضنا بوجه خاص على التماس العذر للغير، وعلى ذكره بالخير، وعلى تحسين صورته بعد التحقق من بطلان ما يشاع عنه- قارن مارتن لوثر فى الكاتشزموس الصغير (الإيمان الإنجيلي)، مصدر سابق ص ٧٦ وما بعدها.

لقد كتبت عنها بالفعل حتى أحيط صديقى علما بالوضع الذى يمكن أن تؤول إليه أمريكا إذا ما آلت إلى أيد جائرة. وكان جوابها: هل كنت ستتناول موضوعا كهذا إذا كان فيه خدش لكرامتك الشخصية؟ فى هذه الحالة لا يجوز لك بالمثل أن تمس الآخرين بسوء.- ما هذا الذى تقولينه يا "ليزا"، إننى لم أفعل إلا ما يمليه علىّ ضميرى وفاء لما عاهدت عليه معلمى بأن ألقى الضوء على الحياة هنا كما أراها فى الواقع المعيش، ولذلك فأنا ملتزم بما قطعته على نفسى ولن أحيد عنه قيد أنملة، سواء نلت من وراء التزامى الأدبى مدحا أم قدحا، تكريما أم تقريعا.

- وقياسا على ذلك، ماذا تريد أن تكتب عن نفسك إذن؟

- سوف أكتب عن العقاب الأدبى غير المبرر الذى وجهه إلىّ القسيس ذات مرة فى موعظته التى ألقاها من فوق المنبر!

- "ياه إنت لسه فاكر الحكاية العبيطة اللى فات عليها عشر سنين!"

- دعينا نفرح يا "ليزا" لأن ما حدث آنذاك لم يحدث أثناء موعظة الأحد الماضي. هذا وإلا كنت سأغمس الريشة فى عصارة المرارة عوضا عن غمسها فى المداد من جراء ما أصابنى من الكرب ومن الغيظ المكظوم.

- لكن السخط ليس من الأخلاق المسيحية فى شيء كما لا تبشر بالخير عواقبه. وعلى ما يبدو أننى مهما فعلت حتى تلتمس العذر لمن أساء إليك بجهالة، فإنك لن تستجيب لنصحى حتى لو قدمت لك أكلتك المفضلة من المشمر والمحمر التى تشتهيها.

- أنت على حق يا "ليزا" لأنك تؤكدين بقولك على ما جاء بالآية ١٥: ١٧ من سفر الأمثال: "أكلة من البقول حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعه بغضة".

– هون عليك ولا تتمسح فى ذلك المثل من أمثال سليمان لأن البقول لم تكن أبدا الصنف الأثير لطعامك.

ما كادت "ليزا" تغادر الغرفة حتى بادرت بإيقاظ الريشة من رقدتها لأسجل لك تفاصيل ما حدث. فليس فى مضمونها ما يعيب، كما مضى على حدوثها عقد من الزمان. ومع هذا فأنا أفضل عدم إشاعتها بين أهل القرية.– بدأت القصة بحضورنا حفلة ضمت ثلة من الأصدقاء والمعارف. تمتعنا بقضاء وقت شيق سويا ولم يعكر صفوه إلا لج الصخب الذى تعالى قبيل انفضاض السامر. فقد دخل علينا شاب تعاطى الشراب حتى ثمل. وهو نفس الشاب العربيد الذى نهرته "ليزا" ذات يوم كيما يثوب إلى رشده ويلتزم بأصول اللياقة لتفوهه بعبارات جارحة بعد أن لعب الخمر برأسه. ما لبث ذلك السكير أن شرع فى الاحتكاك بـــ "ليزا" ومناوشتها بكلام فارغ على سبيل "جر الشكل". رمتنى "ليزا" بنظرة فيها حيرة ولأى. لمحتها بركن عينى أن اثبتى وتجلدى. استمر الرعديد فى النكش والوخز بألفاظ نابية. لم يكتف بوخزها بقصير الإبر، بل تمادى فى غيه واستعاض عن الإبر بالمسال فى التنغيز. قلت له وأنا أتميز غيظا وعيناى تشع شواظا: "أحسن لك تلم نفسك بقى وتبطل جعجعة وتقول كفاية كده اللهم أخزيك يا شطان، بدال ما أرفع إيدى عليك وأرقعك علقة سخنة توفرها على نفسك أحسن. وقد أعذر من أنذر".– ذهب تحذيرى أدراج الرياح دون أن يستحى أو يرعوى ذلك الشاب المشاغب، إذ واصل تبجحه المشين مما جعل "ليزا" تشعر بالإحراج والخجل بين الحاضرين. تمطيت بنيانى قائما، وتحركت نحوه بخطوات ثابتة، ثم سددت له ضربة قوية بقبضة يدي. أجل، لقد رفعت يدى عليه بعد أن استفزنى وأثار حفيظتي. قفزت "ليزا" بيننا لتخليصنا ولوأد العركة فى مهدها. تولى أحد الجيران طرد ذلك الشقى خارج الدار. ولم يمض وقت طويل حتى توارت هذه الواقعة برمتها فى غياهب النسيان لولا أن أباه شكانى عند القسيس. وبذلك أسدل الستار على الفصل الأول من الحكاية.

رفع الستار عن الفصل الثانى فى آخر يوم من السنة. أخذت مكانى بالكنيسة، وألقى القسيس موعظة تمس شغاف القلوب، موضوعها: "إن حياتى بين يديك". لكنه أعلن على الملأ فى نهاية موعظته، أن رجلا بيننا اعتدى بالضرب على أخ له من شبيبتنا، ولم يكلف خاطره حتى التو واللحظة أن يطلب منه العفو والسماح على فعلته النكراء، فلنصلِّ إذن من أجله حتى يتقبل الله الشفاعة له ونحن على أعتاب عام جديد.– ولعمرى! إن لك أن تتصور المدى الذى بلغه حنقى! لقد تضرعوا لله من أجلى بالفعل لكى يغفر لى ما ظنوه خطيتي، بينما حرمت أنا. بصفتى صاحب الشأن، من الدعاء لنفسى طلبا للمغفرة. ولما قُضِيَتْ الصلاة، عَنَّ لى للوهلة الأولى، من شدة الصدمة، أن آتى بفعل مخالف للخلق المسيحي، وهو أمر لا ينبغى حتى التفكير فيه تحت سقف الكنيسة. لكنى جثوت بعد هنيهة للصلاة فى خشوع وتضرعت بالدعاء لله مبتهلا إليه بقولي: "يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون"[1]. وبعد ذلك قابلت القسيس وأعدت عليه قراءة الآية التى رددتها فى صلاتي، ثم رويت له القصة بحذافيرها. فأنا شخص أعلن ما أُبْطِن ولا أخفيه، كما لا أجعل من قلبى جُحْراً للبغضاء وإيذاء الخلق. ونصحته بأن عليه فى المستقبل أن يتحرى عن حقيقة ما يسر به الوشاة إليه حتى يتضح له الأمر قبل أن يؤم شعب الكنيسة للصلاة تشفعا لمتهم برئ. وهكذا عادت المياه إلى مجاريها. غير أن مفاتحتى للقسيس بما كان يعتمل فى صدرى جعل الدماء تضطرم فى محياه من الخجل. وما لبثت أن عاتب القسيس الأب وابنه على كيدهما الذى تسبب فى إيلامي. ثم تقدم الشاب إلى "ليزا" بالاعتذار فقبلته. وصار منذ ذلك الحين فصاعدا أكثر تأدبًا.

إذن، لقد حصل فى سياق قصتنا ما حصل، ولا غرابة فى ذلك، لأن الزلل سمة من سمات البشر التى تنسحب بالمثل على من يعتلى المنبر. والإنسان يحتاج إلى الشفاعة دائما. فإذا أخطأته اليوم فلن تخطئه مرة أخرى. ويساورنى الاعتقاد

---

(١) إنجيل لوقا ٢٣: ٣٤.

بأن الرب قد أجل استجابته لدعواتى وتضرعى إلى فرصة تالية أكون فيها أكثر حاجة إليها. لكنه من الضرورى على أى حال العمل على إزالة أسباب الضغائن والمكائد حتى يسود بين الناس الوفاق وينمحى كل أثر باق من نفايات العداوة ومن فخوخها التى يستحيل معها إرساء قواعد علاقات وطيدة فى المستقبل، تماما مثلما أزيلت كافة الشوائب التى عكرت صفو الوفاق فى قصتنا سابقة الذكر.

أتعجب لما كان يحدث بكنائسنا فيما مضى من أمور تدعو للدهشة. كان ذلك فى أوائل عهدنا بالهجرة حينما كنا نقيم متباعدين عن بعضنا. آنذاك بدأت فصول قصة كنسية تتابعت أحداثها بين ظهرانى شعب كنيسة مجاورة كانت تبتعد عنا بنحو ٢٠ ميلا باتجاه الغرب. وكان راعى تلك الكنيسة قسيسا عرف بصلاحه ودماثته. ولكن لسوء حظه لم تهطل الأمطار فضعفت المحاصيل خلال ثلاث سنوات عجاف متوالية، عطش فيها الزرع وذبلت السنابل على عيدانها مما ترتب عليه أن وفرنا تكاليف النقل. وبذلك هزلت الأبقار وجفت ضروعها وصار شكلها أشبه بشكل الكلاب السلوقي. تحمل المزارعون بشق الأنفس تبعات العام الأول. ولما لم تفتح السماء مصاريع مائها فى العام التالى على التوالى. جلس المزارعون للتشاور فيما بينهم فى أمر محنتهم، وتمخض اجتماعهم عن قرار تقشفى يقضى بشطب راتب القسيس خلال تلك الأيام العصيبة. وهكذا ذهبوا إليه لإخطاره بالقرار. طفقوا فى أول الأمر يتحدثون عن الطقس وعن كل تلك الأمور التى يبدأ بها الإنسان كلامه عندما يلتقى بغيره من الناس. ولما فرغوا من تلك المقدمات شرعوا فى لكز بعضهم البعض "بكيعانهم" لكى يفاتح أحدهم القسيس بفحوى القرار. وأخيرا استقر الرأى على أن يتولى هذه المهمة أكبر أعضاء شعب الكنيسة سنا. وهو مهاجر من بلدة "بوكسهوده" الواقعة خلف مدينة هامبورج. وجدير بالذكر أن مسقط رأسه كان ذات يوم ساحة المنافسة لذلك السباق الشهير الذى جرى بين القنفذ والأرنب وانتهى بانتصار القنفذ.

تقدم المتحدث باسم شعب الكنيسة قائلا: صحيح أنك خدمت الله فينا فوعظتنا وتلوت علينا كلمة الرب لفترة امتدت إلى ثلاث سنوات كنا ندفع لك فيها "الماهية" عن طيب خاطر وبدون تجهم أو تذمر. أما وقد تدهورت أحوالنا المعيشية وقلبت المتغيرات لنا ظهر المجن، فقد أصبح لزاما علينا أن نتقشف عملا على ضغط النفقات، ومن ثم لم يعد شعب الكنيسة فى وضع يسمح له بدفع مخصصاتك. ولذلك قررنا القيام بمحاولة لتصريف شئون العبادة بدونكم.

ثم توقفت عن الكلام عند هذا الحد. لم يأخذ بيده فى إنجاز المهمة أحد. تفصد عرقاً. شعر بعسر المهمة الملقاة على عاتقه. وفى هذه الأثناء تحرك القسيس إلى النافذة ليطل منها إلى الخارج دون أن ينبس ببنت شفة. وتحتم على صاحبنا القادم من بلدة "بوكسهوده" أن يبدأ عرض القرار من جديد، فبادر القسيس بقوله: لقد فكرنا مليا فى معنى الآية التى سبق لك أن كررتها على مسامعنا والتى نصها: "تكفيك نعمتي، لأن قوتى فى الضعف تكمل"[(١)]. ومما لا شك فيه أن هذه الآية تسرى على السنوات المطيرة وغير المطيرة سواء بسواء، خاصة وأنها لا تقتصر على ضعيف "وحدانى" فحسب، بل أيضاً على جمهور غفير من الضعفاء. لقد صلينا صلاة الاستسقاء حتى تحل بركات الرب ويرسل السماء علينا مدرارا. والآن دعنى أخبرك بما استقر عليه رأى أعضاء مجلس إدارة الكنيسة الاثنى عشر: لقد قررنا بإجماع الآراء أن ننهض بأنفسنا خلال الشهور الثلاثة القادمة بمسئوليات الوعظ التى يتولاها راعى الكنيسة لقيادة الناس إلى الإيمان والفضيلة. وسوف يتم ذلك بالتناوب وبحسب الدور، بحيث يلقى كل منا موعظة الأحد على نحو مشابه لما تقوم به أنت، ولكن فى مدة أقصر وبحيوية أكثر. وهكذا يحصل كل منا على فرصته كاملة. وما لبث أن انقطع حبل الكلام ثانية، وشعر وكأنه مصاب بحمي، وأخذ يجفف حبات العرق التى نبتت على وجهه. هذا فى حين ظل القسيس واقفا فى مكانه يطل من النافذة ويجول ببصره فى الأفق فى تأمل طويل وسكون. ولم

---

(١) رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ١٢ : ٩.

يبق أمام المهاجر القادم من البلدة التى انتصر فيها القنفذ على الأرنب فى السباق إلا أن يواصل مهمته ببذل محاولة أخرى لتكرار عرض القرار فى صيغة مختلفة، إذ قال: إنك لم تأل جهدا فى وعظنا، وقمت بتفسير كلمة الرب لنا بدون كلل حتى تتغلغل فى قلوبنا. ولذا فنحن نتقدم لك بعظيم الشكر والعرفان، تقديرا لجهودك الروحية فى خدمة الناس. لكننا نمر فى الوقت الحالى بمحنة قاصمة. ولذلك فسوف نكون فى غاية الامتنان لو بحثت لنفسك عن وظيفة فى مكان آخر. ولا يساورنا أدنى شك فى أن الله سوف يعينك على قضاء حوائجك، كما سندعو لك بالتوفيق وبأن يشد الله من أزرك. وعندما يأذن الله بنزول الماء من السماء لتحيا الأرض بعد موات وتتفرج ضائقة السنوات العجاف، فسوف نكون فى غاية الغبطة والامتنان لو تكرمت ووافقت على العودة إلينا ثانية. وبعد إنجازه لما كلفناه به أدركته نوبة سعال ثم حك أرضية الغرفة بقدميه فى حركة تلقائية وأومأ الآخرون برءوسهم علامة على الاستحسان لأنه أدى مهمته على أكمل وجه.

وأخيراً أقلع القسيس عن النظر من الشباك، ثم استدار إلينا وعبر عن استجابته لمطلبنا، بينما راح يمسح بيده على فمه وذقنه عدة مرات. ثم أردف قائلاً: نعم ما دمتم ترون ضرورة لذلك، وأنكم فى وضع يؤهلكم لتولى شئونكم العبادية بدوني، فلا تحملوا إذن أى هم. اليوم هو يوم الاثنين، وسوف أترك موقعى فى يوم الخميس التالى، ثم يمكنكم البدء بإلقاء مواعظكم اعتبارا من يوم الأحد القادم. لكن ينبغى لكم أن تسمحوا لى بترك أشيائى عندكم بضعة أسابيع لأننى لا أعرف حتى هذه اللحظة إلى أين أنقلها.

رحبوا بمطلبه عن طيب خاطر ثم غادروا المكان. لكنه نادى من ورائهم ليقول لهم: إذن إلى أن يأمر الله بهطول الأمطار لإرواء الأرض ولإحياء الزرع والضرع! أجابوه بقولهم: وهو كذلك! ثم طفق أحدهم يحدث جاره وهما فى قارعة الطريق، بأن القسيس عاود ثانية المسح بيده على فمه عندما كان يتحدث حالا عن

سقوط المطر، غير أنه لاح لى أننى لمحت وميض الابتسام فى عينيه. هذا مع أن ظروف الاستغناء عن خدماته ليس فيها ما يبرر ضحكته.

- ولكن ما هى دواعى المسح بيده حول فمه؟

- لا تأخذ فى بالك ودعه يمسح فمه كما يحلو له! هكذا قال الآخرون. وما كاد "يهل" يوم الخميس حتى اعتزل عمله وترك موقعه.

آنذاك، لم يكن ليخطر على بال أحد من المزارعين حتى مجرد التفكير فى تركيب "عدة تليفون". ومع هذا شاعت القصة وتطيرت أخبارها خلال أيام بكافة أرجاء المنطقة. لكن مضمون ما تردد بين الناس تحور على الوجه الآتي: "قام شعب الكنيسة الفلانية بعزل راعى كنيسته. وعلى ما يبدو أن كلمة الرب قد رخصت فى عيونهم خلال أعوام الجفاف. وسوف يتبوأ مكان القسيس المعزول أكبر الأعضاء سنا ليلقى موعظته الروحية يوم الأحد القادم فى حشد من الجماهير. لكن من المتوقع أن تكون خطبته قصيرة وقوية وأن يتم تداول إلقائها مستقبلا فيما بينهم بالتناوب".

سرعان ما "هل" يوم الأحد المشهود. فى ذلك اليوم توافد على الكنيسة كل من يسير على قدمين، كما لم أتخلف بدورى عن الحضور. كنت قد تحاورت قبل ذلك مع "ليزا" فقلت لها: إنى أتحرق شوقا للاستماع إلى الخطبة. وكان ردها: أرى أن هؤلاء القوم قد تصرفوا مع القسيس بغباء. أما تجاسرهم على إلقاء مواعظ الأحد بالكنيسة فلن يكون أقل حمقاً. هل عزمت حقا على أن تبرى نَعلَ حذائك الشتوى بتوجهك إلى هناك؟ بيد أننى كنت أتلهف على الحضور فى موعد الصلاة، ولذا انتظرت حلول يوم السبت على أحر من الجمر لأقطع مسافة ٢٠ كيلو مترا سيرا على الأقدام إلى هناك لكن "فركة الكعب" هذه طال أمدها حتى المساء. وفى صباح اليوم التالى كانت الكنيسة قد امتلأت عن بكرة أبيها بحشود المصلين. وأحسب أنها قلما شاهدت جمهرة من هذا النوع فى عهد القسيس. تموقعت منصة

الوعظ أمام مذبح الكنيسة وجلس أمامها الرجل القادم من "بوكسهوده" وقد لبس أفخر الثياب بِتَقَمُشِهِ حلة يوم الأحد السوداء.. "بدلة الإيافة". لكن وجهه كان عبوسا ولا يمت بأى صلة إلى صباحة وصفاء الوجوه فى يوم الأحد. وبدا فى جلسته عصبيا غائصا فى مقعده يهتز كالبندول يمنة ويسرة. وقلت لنفسى مشفقا عليه: إنى لا أريد أن أكون اليوم فى مكانه. ثم قلت لنفسى هامسا وكأنى أحدثه: "بس إنت اللى جبته لنفسك!".

أمر القسيس البديل بأن يترنم المغنون بالترنيم رقم ٢٨٨ الذى مطلعه: "لماذا كل هذا الزهو والكبرياء أيها المسكين وأنت مخلوق من كُبة من طين؟" وهذه الأغنية الدينية مكونة من ١٣ بيتا منظوما. ولما فَرَغَ المترنمون من إنشادهم، لم يحرك صاحبنا ساكنا وآثر البقاء فى مكانه. ثم أعطى إشارة البدء لترنيم ثان. تعجب شعب الكنيسة لذلك التحول المفاجئ الذى طرأ عليه لما عُرف عنه من عزوف عن الموسيقى. وأخيرا بلغ غناء المترنمين نهايته. تكرر ظهور رقم ترنيم ثالث على لوحة الأرقام. ضجر الحضور محتجين على هذه الإطالة غير المقبولة والتى لا تجوز. اضطر للنهوض من مكانه وجرجر رجليه وهو يترنح حتى "صلب طوله" بذراعيه إلى المنصة. شخصت إليه عيون المصلين كافة، فكان بعضها يرمقه بفضول الممتحن، والبعض الآخر عمل حسابا لِحُرمة المكانة والمكان. بدأ يشعر بالوجل والارتياع فارتعدت فرائصه، ونضحت ثيابه بما تَفَصَّدَهُ من العرق فعكف على تجفيف نقاطه التى بزغت بغزارة فوق جبينه. بعد هنيهة أخذ الكتاب المقدس بين يديه وفتحه وبدأ يقرأ فى إنجيل متى نص الآية ٢٣: ٣٢ مخاطبا حشود المصلين بقوله: "أيها الحيات أولاد الأفاعى! كيف تهربون من دينونة جهنم؟". جلسنا بعد وقوف ثم "سلكنا" حلوقنا بالكحة والنحنحة حتى لا نُزْعِج بسعالنا فيما بعد أثناء إلقائه الخطبة. اعتدلنا فى جلستنا، أما أنا فقد بدأت أحدث نفسى عن أولى انطباعاتي: لا ريب أنه خطيب مفوه حقا، "عداه العيب"، فهوَ بصدد إلقاء موعظة مقتضبة ومركزة فيها تهديد وزجر ووعيد. لكنى راجعت نفسى وأنا أتساءل عن

ضرورة المبادأة بالنطح فى أولى شطحاته بتعديه على المزارعين مشبها إياهم بالحيات والأفاعى مع أنهم ليسوا كذلك. واصلت مناجاتى لنفسى هامسا: إن ذلك على أى حال شيء يعنيه هو، فلكل شيخ طريقة، وليس فى ذلك ما يضير مادام قد ورد ذكر الحيات والأفاعى فى مواقع عديدة من الكتاب المقدس.

وما إن كف المصلون عن سعالهم التحفظى حتى انتقلت العدوى إليه إذ ظل يَكُحُ مرات عدة. ثم ما لبث أن تحفز واستجمع قواه ليبدأ بالفعل. الصديق العزيز، إن ما حدث فى أعقاب ذلك هو شيء لم أسمع به طوال حياتى من قبل، شيء لا يمت إلى أمور الدين بأى صلة ولا علاقة له كذلك بالشئون الدنيوية. لقد كان تصرفه ينم عن رهبة وفزع مقرونتين بسخف وعبث، ذلك لأنه استهل خطابه على النحو التالى:

إخوتى وأحبائى فى الملة المسيحية! أو كما يقول الرسول، أيتها الحيات أولاد الأفاعى! وقوله، أيتها الأفاعي!– أيتها الحيات والأفاعي!– أيتها الأفاعى والحيات!– أيتها الأفاعي!– أيتها الحيات! هدر بهذه العبارات بأعلى صوته بينما راح يضرب بقبضة يده على المنصة. لكن تلك الخبطات لم تصدر عن قوة بل عن ارتعاد. أراد بها أن ينتزع بالشجاعة فلم يفلح فيما قصد، إذ خذله اصطناع الجرأة وتاه بين سطور النص. فأصيب بحيرة وارتباك وضرب لخماسا فى أسداس. أعاد الكرة من جديد لعله يوفق هذه المرة فقال: أيتها الحيات وأولاد الأفاعى!– يا أولاد الأفاعي!– تلعثم وانقطع خيط الكلام ثم ساد سكوت مطبق.– نظر إلى نفسه. جاس بعينيه خلال الموجودين. حملقنا فى وجهه. مكثنا فى أماكننا جالسين وكأن على رؤوسنا الطير لكنه "حاس ولاص وضرب لخمة" وانثالت التخاريف من فيه بلا حساب ليقول بصوت جهورى: أيها الحيات! يا أولاد الرفاعي! أيها الأحناش– يا أولاد الأفاعي![1] –كان ينطق هذه العبارات التى لا رابط بينها كما الطلقات. وبذلك وقع فى مأزق حرج. ولم يعد فى جعبته من الكلام أكثر مما قال. ونظر من حوله بعينين زائغتين مروعتين تائهتين وكأنه يستجدى مجيء منقذ ينتشله من براثن ورطته.

---

(١) فى الأصل عبارات لا معنى لها فيها سجع وتحريف فعربناها ببعض التصرف.

كان من بين جمهور المصلين الحافل أحد أكبر الأعضاء سنا. وهو الذى وقع عليه الاختيار لإلقاء موعظة الأحد المقبل. وقد لاحظ ذلك الرجل بحنكته ورطة زميله بعد أن اختلط الحابل بالنابل وفشل فشلا ذريعا فى النهوض بمهام القسيس البديل.– لذلك نال منه التأثر وأشفق عليه وخاطبه فى همس أن أقم الصلاة!– تطرق النداء الهامس إلى مسامعه لكنه لم يرفع عينيه عن صفحات الإصحاح ٢٣ من إنجيل متى لانشغاله فى البحث عن آية يكمل بها الصلاة. إلا أن من أشار عليه بالصلاة سرعان ما فَطِنَ إلى أنه مهما أسدى إليه من النصائح فلا فائدة تُرجى من وراء نصحه. فقد أطبق الارتباك والتشويش والحيرة على حواسه الظاهرة والباطنة فاستحال شخصا آخر "ملهوجا" فى وعظه وتتعثر الكلمات على شفتيه. وما فتئ أن شبك أصابع يديه فى بعضهما وقال: دعونا نصلي! ثم شرع فى قراءة الآية أو بعض الآية التى وقع اختياره عليها والتى نصها: "ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون"! آمين.– ثم جلس ولم يقم بعملٍ شىء آخر سوى تجفيف عرقه المتصبب. وبعد أن صدحت الأصوات بترنيم قصير تدافع المصلون ليغادروا الكنيسة. وفى واقع الأمر لقد كانت الصلاة قد انتهت بالفعل قبل ذلك بكثير. هل تعرف ماذا يشغل بالى فى هذا الصدد؟ أريد أن أعرف، ماذا سيقول الرب فى موعظة ذلك الرجل القادم من "بوكسهوده".

عقدت اللجنة المشكلة من أكبر الأعضاء سنا جلسة للتشاور فى الأمر، فقرروا جميعا العدول عن قرارهم السابق بالاستغناء المؤقت عن خدمات القسيس. كما تواعدوا على الذهاب إليه والتماس عودته إليهم ثانية. لكن شعورهم بالخجل عسر عليهم تنفيذ القرار. لم يكن العثور على عنوان القسيس صعب المنال. فقد اختار محل إقامته على مقربة منا لتوقعه حدوث ما حدث. وما إن هل يوم الأحد التالى حتى صعد القسيس إلى المنبر وسط ازدحام الكنيسة بالمصلين. وبعد عودة المياه إلى مجاريها، تقدم له الجميع بالشكر، راجين إياه أن لا يحمل فى نفسه أى

ضغينة ضدهم بسبب تلك الزلة الخرقاء، كما عبروا له عن أنهم أصبحوا يفضلون الاكتواء بنار عام أعجف يشح فيه المطر على الاضطرار لسماع وعظ مثل ذلك الذى سمعوه فى غيابه.

كان على الرجل القادم من "بوكسهوده" الاعتذار لشعب الكنيسة على ما بدر منه. وعبر بنبرة اعترافية عن أسفه لتخبطه نتيجة لما أصابه من اضطراب عند مواجهته لجمهور المصلين، كما أخبرهم بأنهم لو واجهوا نفس الموقف العصيب لما كان أداؤهم أفضل حالا. صدقوا على ما قاله لهم وتقبلوه برضاء تام. ومع ذلك أصروا على إقصائه من منصبه الأدبى بصفته أكبر الأعضاء سنا، نظرا لإراقته ماء وجهه أمام الله وأمام الناس. لكنهم أصبحوا يتحاشون سؤاله عن تجربته كقسيس بديل حتى لا تثور حفيظته فتجرفه بين طياتها موجة عاتية من الحنق والتشنج.- صار التعاون بين راعى الكنيسة وشعبها يتسم بروح الود والولاء، وأقلع أعضاء لجنة الكنيسة عن اللجوء للاستغناء عن خدماته الروحية فى الأعوام التى يحتبس فيها ماء السحاب.

قفلت عائدا إلى البيت، ونحيت عصاى جانبا، وإذا بى أقول لزوجتي: لقد كنت على حق فى هذه المرة أيضاً يا "ليزا". فخير للمرء أن يقنع بأكل نشارة الخشب فى الأزمنة القواحط التى يعز فيها سقوط المطر من فشله فى إلقاء موعظة بوقوفه أمام المذبح فى مواجهة جمهور المصلين. وعلقت "ليزا" على ذلك بقولها، إنها قد تنبأت بما حدث قبل وقوعه. غير أنها طلبت منى أن أقص عليها أدق تفاصيل القصة منذ بدايتها.

الفصل التاسع

فــــرط الــــذرة

كان محصول الذرة فى الأعوام الماضية وفيرا، ولم يتخلل تلك الفترة سوى صيف مطير واحد. فالذرة تعشق الاستمتاع بحمامات الشمس كلما وجدت إلى ذلك سبيلا. وعند كيل بذور الذرة بالمكيال الإنجليزى المسمى "بوشل" نجد أن وزن ما به من الذرة يساوى وزن ما يكال منه بالمكيال الألمانى الشرقى المعروف بـــ "شيفيل روستوك الصغير" وهو ٥٦ رطلا. ويناهز ثمن "بوشل" أو "شيفيل" الذرة ٧٥ سنتا فى الوقت الحالى، وهو سعر مجز. لكن ليست زنة كل ما يكال بالبوشل من المنتجات الزراعية متساويا. فوزن بوشل القمح أو البطاطس هو ٦٠ رطلا فى الحالتين. أما بوشل الذرة فيختلف وزنه تبعا لمستوى الخدمة التى تجرى عليه بعد الجمع. فإذا مرت كيزان الذرة بعمليات التقشير والفرك والفرط للحصول على بذور الذرة مثلما تباع وتشترى عندكم بالأسواق، فيكون وزن البوشل منه ٥٦ رطلا كما سبق التنويه. أما إذا بقيت كيزان الذرة على حالتها فى أغلفتها بعد الحصاد فيبلغ وزن البوشل منها ٧٠ رطلا. إلا أنه ينبغى مراعاة الفرق الطفيف بين رطل ورطل، ذلك لأن مائة رطل ألمانى تعادل ١٠٦ أرطال أمريكية.

اعتدنا على الانتفاع بجذور الذرة والقوالح الخالية من البذور لحاجتنا إليها فى التدفئة بوضع قطع الفحم الحجرى بينها لإضرام النار فيها. وتجدر الإشارة إلى أن كفاءة التدفئة بهذه الطريقة تزيد على الحرارة المنبعثة من الفحم الحجرى وحده، بل وتستمر لمدة أطول فى المدفأة. ولا يجوز ترك الجذور فى التربة لأنها ستتحجر فيها. وإذا ما أردنا انتظار تحللها فى باطن الأرض فعلينا أن نبلغ من الكبر عتيا حتى نصير فى عمر "متوشالح"[١] جد نوح. أما إذا أردنا تقطيع الجذور المتحجرة فلنستعن بالبلطة.

---

(١) ورد بالعهد القديم فى سفر التكوين ٥: ٢٧ "فكانت كل أيام متوشالح تسع مائة وتسعا وستين سنة، ومات".

يتطلب إعداد الذرة للاستهلاك قدرا كبيرا من العمل. وعلاوة على ذلك كنا نُصَعِبُ الأمر على أنفسنا فى أول عهدنا بالهجرة. إذ درجنا على نقل كيزان الذرة وتكويمها بالحقل استعدادا لتقشير أغلفتها ولفرك السنابل ونزع ما فيها من البذور المصطفة على القوالح لكى نحصل بذلك على الذرة "الفرط". كان يتحتم علينا آنذاك مبارحة الدار فى الرابعة فجرًا. وكانت "ليزا" تحرص على النهوض مبكرا حتى نتمكن من شرب القهوة سويا مع الاصطباحة. وبالطبع كان من حق الخيول علينا أن نعلفها قبل تحركنا إلى الحقل. ولذلك اعتاد عقلى الباطن على إيقاظى مبكرا منذ الصبا. وإذا ما عدت بذاكرتى إلى فترة الهجرة حين كنت أعمل أجيرا "طرف" الفلاح "هانيورن" لوجدت أنه كان يتحتم علينا القيام أولا بدراس عدد من أحزمة الغلة المكدسة قبل أن نتمكن من إعداد عصيدة الصباح.

نسجنا على هذا المنوال بضعة أعوام إلى أن أقلعنا عنه، وغيرنا بذلك أسلوب حياتنا ولم نعد نستيقظ مبكرا. أصبحنا ننقل كيزان الذرة إلى الدار لكى نقوم بنزع القشر الذى يغلفها. وكنا نقوم بفرط الذرة فى ساعات النهار أحياناً، وفيما عدا ذلك فى المساء. وكان عملنا يتم على الوجه التالى: يجلس أفراد الأسرة معا لاستِفْرَاك الحب من كيزان الذرة وذلك بحك كوزى ذرة ببعضهما حتى تنقلع البذور وتصبح فرطا. كانت هذه الطريقة تستغرق وقتا طويلا، ولهذا السبب لم يعد يؤخذ بها إلا فى صغار المزارع. أما فى المزارع الكبيرة فتقوم الآلات بهذه المهمة. وكذلك تتولى الآلات البخارية فى الغرب الأمريكى وفى كندا فرم عيدان وأوراق الذرة وتحويلها إلى ما يشبه التبن. لكننا نخصص أيضا كميات كبيرة من الذرة الخضراء علفا للماشية. إذ نقوم بنقل كيزان الذرة وتكويمها فى أكوام ضخمة بمكان لا يدخله الهواء لمقاومة التلف وبذلك يحتفظ العلف بنضارته وتشتهيه الحيوانات.

كنا نشغل أوقاتنا فى الأشتية التى لا زرع فيها ولا قلع بفرط بذور الذرة من الكيزان، وكنا نعتبرها مناسبة سعيدة نستمتع فيها بالإنصات إلى قارئ فى كتاب أو إلى رواية راو، أو نشنف آذاننا بما يتواتر من أخبار الوطن القديم ومن القيل والقال

في محيطنا القريب. وكنا نرهف السمع إلى ما يشاع عن منصفين وظالمين، وعن التكالب على الثراء بجمع الأموال، وعلى عثرات الافتقار بتدهور الأحوال. واسترعت أسماعنا روايات عددت أطياف الخير والشر فى خوانق السماء، لكنها كانت تهطل علينا فى معظمها من الشرق الأمريكي، ولا عجب لذلك لوجود طريق محورى عريض يربط الشرق الأمريكى بغربه على بعد أربعة أميال إلى الشمال من مزرعتي. كان يفد إلينا من حين لآخر عابر سبيل قادم من جهة الشرق، ربما لأنه آثر الراحة من عناء السفر سيرا على الأقدام حتى لا يبلى نعله. أو ربما كان حافيا ينتعل أديم الأرض وعرج علينا لِعِلَّةٍ فى نفسه. وكنا نرحب بمن نتوسم فيه دماثة الأخلاق ونستبقيه فتقدم له "ليزا" الطعام والشراب. وفى المساء كان هؤلاء يساعدوننا فى فرك كيزان الذرة وفرط بذورها، وكانوا يقبلون على ذلك برضى وطواعية. كما كانت تهفو نفوسهم إلى سرد سيرة حياتهم بشغف عظيم، إذ ترسبت فى ذاكرة معظمهم تجارب وخبرات خلال سنى عمرهم لدرجة أن البعض منهم أوتى ملكة الراوى الذى له القدرة على الحكى لمدة أسبوع كامل. أتيح لنا الاستمتاع بما قصوه علينا من حكايات متعددة، الأمر الذى وسع مداركنا ومثل إضافة قللت من جهلنا. وكانت النسوة اللواتى تقدمن فى السن هن الأكثر شغفاً بالحكي. فإذا اجتمع عدد منهن واستهلت إحداهن الكلام، فكنت ترى الأخرى تحرك شفتيها وتشحذ لسانها لعدم قدرتها على الانتظار حتى يأتى دورها.

استمعنا إلى حكايات شيقة متعددة الألوان، بعضها من روسيا، "جاليسيا"[1] و"بيسارابيا"[2]، والبعض الآخر من بلدان أجهل اسمها كما يصعب حتى على التلاميذ تحديد مواقعها على الخريطة بسهولة. إذ كانت مساحاتها من الصغر أحيانا

---

(١) كانت "جاليسيا" تعرف إبان الحكم العربى لإسبانيا بـــ "جليقيه"، وهى منطقة جبلية وعرة تقع شمال غرب شبه جزيرة إيبيريا.

(٢) كانت "بيسارابيا" الواقعة شمال غرب البحر الأسود منطقة حدودية بين رومانيا والاتحاد السوفيتى السابق. وتسمى الدولة الحالية الواقعة على نفس المساحة تقريبا: مولدافيا، مولدوفا أو مولداو حسبما تنطقها الشعوب.

بحيث استطعت تغطيتها تماما بإبهمي. وقد لا يفكر المرء على الإطلاق فى أن آدميين يعيشون على تلك البقع الصغيرة، وأن لهم سير وحكايات وموروثات شعبية تروى عنهم. وقد يتبادر إلى الأذهان أن الخرائط لم ترسم إلا لكى تدرس للتلاميذ، نظرا لتلوينها بألوان صفراء وزرقاء وبنية. لكن أحد أبناء السبيل، الذى ينتمى إلى بلد من بلاد خلق الله، ظهر فجأة فى عقر دارنا، وإذا بالحياة تدب فى تلك البقعة الصغيرة الصفراء أو البنية اللون التى يسميها وطنه. انظر، فهناك يعيش بشر مثلنا وإن اختلفت سحنهم ومشاربهم. وبعد مرور أعوام على ذلك سألت "ليزا" مستفسراً: ألم يكن ذلك الرجل هو الذى قص علينا قصة طريفة عن يهود بولنديين؟ فقالت: نعم إنى أتذكر، لقد حكى لنا عن معاناة أم لطفلين كانا يترنمان نهارا بأعذب الأغانى ثم يتبولان ليلا فى الفراش.

وهكذا كنا نقعد سويا حول كومة من كيزان الذرة جمعت بين رواة ومستمعين، بينما تدور علينا أقداح القهوة كما يتصاعد الدخان من الغلايين فيتحول جو الغرفة من اللالون إلى الزرقة. وفى غضون ذلك لم تكن الأيادى تكف عن فرط بذور الذرة. وكنا نظل على هذا الحال إلى التاسعة مساء، نؤدى بعدها الصلاة ثم نأوى إلى الفراش. وبعدما يتنفس صبح يوم قادم، كان البعض يتقدم إلينا بالشكر ليواصل رحلته مشيا على الأقدام، أما البعض الآخر فكان يفضل البقاء لمدة أطول. ويا ليتك كنت بيننا هذا الشتاء مستمعا ومدونا لتلك "الحكاوى" أولا بأول. فهى تشتمل أحيانا على حكايات جديرة بأن تكون بين دفتى كتاب حقيقي. إلا أن موسم فرط بذور الذرة قد شارف على الانتهاء. لكنك مازلت مدينا لنا بالزيارة، كيما تأخذ مكان الصدارة فى لمتنا، وتقوم فى كل مساء بتلاوة الصلوات والأدعية، وبإلقاء العظات الروحية، هذا إذا ما تعذر علينا الذهاب إلى الكنيسة فى يوم الأحد. لابد من أخذ هذه الزيارة بعين الاعتبار وبدون تردد لأن خير البر عاجله، حتى لا تتقاعس عن السفر لقد آن الأوان لحضورك ونحن على أحر من الجمر فى الانتظار. وعملا على تشويقك لزيارتنا، سأقص عليك طرفا مما رواه الرواة فى لمة "فرط"

الذرة. وقد كلفتنى "ليزا" بإخطارك بأنها سوف تبذل قصارى جهدها حتى تستمتع بإقامة طيبة عندنا. ولا يسعنى إلا التصديق على قولها، لأن ما تعد به "ليزا" يمكنك الوثوق به.

الحكاية رقم ١: "هلت علينا ساعة العصارى" من يوم أحد بديع. سمعتها وهى لا تزال على بعد مني. ظننت فى فروغ بال- وأكثر الظن ميون- أن القادم جمع من الناس، وهو شيء يمكن حدوثه فى موسم الذرة. لكنها جاءت بمفردها. كانت تخاطب نفسها بصوت لا يخطئه السمع وكأنها "تَفشُ غلّها" فى كائن لا وجود له. ولا غبار على ذلك، فالإنسان منا قد تنبثق الرغبة فى أعماقه الباطنة أحيانا إلى مناجاة النفس وإلى مشاورة الذات بأسلوب عقلاني. بدت فى مطلع الأمر مذعورة مثل دجاجة نافرة تنم نظراتها عن الارتياع كما لو كانت قد وقعت فى أيدى عصابة من قطاع الطرق والقتالين. ولما جلسنا إلى مائدة الطعام، انتبهت حواسى إلى عينيها تجوسان بحذر شديد بين الصحاف تارة، وتهومان فى سماء الحجرة أخرى لترتد خاسئة مذعورة إلى المائدة كالشهب المتبددة هباء منثورا. قلت لها: لم تعافين الطعام؟ إن طعامنا غير مسموم! كلى "مطرح ما يسرى يمري"، وكما ترين فإننا نأكل جميعا بالملاعق من إناء واحد. وما إن طيبت خاطرها حتى أقبلت على التهام الطعام بنهم، ثم طفقت تتحدث إلينا وكأن فى فمها ثلاثة ألسنة يتبارى كل منهم على أولوية النطق، وفى تزاحم لا يصدر إلا عن شخص مبلبل الخاطر، يخلط بين الأمور، حتى يتعذر على السامع استيعاب ما تريد الإفصاح عنه. كانت "تتلهوج" فى الكلام وكأن هناك من يعدو من ورائها "مطرقعا" بكرباج، أو قل كأنها تركض فى طريق طويلة وقد ارتعدت فرائصها وهى تلتقط الأنفاس من الترويع.

ولما أخذت مكانها ومن أمامها كومة من كيزان الذرة هدأ روعها. اغتنمت هذه الفرصة لأقول لها: إنك الآن بين قوم طيبين ولن يمسك وأنت بينهم بشر بسوء. وها أنت تجلسين خلف كومة الذرة فى مأمن وطمأنينة كما لو كنت ترقدين فى حجر خليل الله إبراهيم. والآن أجيبى على استفساراتى فى تسلسل وترتيب،

استفسار بعد الآخر. أخبريني ما هو اسمك، من أين جئت، كيف تمكنت من عبور الحدود مع أنك لست هنا بصحبة زوج؟!

قالت إن اسمها "إيتلكا برويار" وأنها قادمة من المجر [هنغاريا] ولكنها ابنة لوالدين ألمانيين[1]. وما كادت المرأة تنطق اسم المجر حتى سارع ولداى إلى خريطة أوروبا وتمكنا من تحديد موقعها على الفور. وبذلك تحققنا من صحة أقوالها. وما لبث، أن أطلقت للسانها العنان لتقول: إننى أشعر بسعادة غامرة لمجيئى إليكم وللمكوث بينكم، هذا وإلا كنت قد وقعت فى قبضة الشيطان والعياذ بالله، أرجو المعذرة لذكر اسمه اللعين. أما عن كيفية إنهاء الإجراءات بسلاسة ويسر عبر الحدود من المجر إلى أمريكا فهو ما سوف أحيطكم به علما. إننى لم أحتج للعبور إلا إلى قلب جسور، وتحرر من الوجل والكسوف، تاركة الباقى على الله الذى يوفق المخلصين من عباده إلى الخير ولا يخذلهم. لم أفعل أكثر من انتحالى اسما مستعارا وحفظى إياه[2]. بدأت رحلتى بالتوجه إلى مدينة "تيش". ولما وصلت إلى "تيش" سألوني: إلى أين؟ كانت إجابتي: إلى "أودر بورج"[3].

---

(١) كانت المجر فى القرن الـ١٩ جزءا من الإمبراطورية الثنائية النمسا المجر. وقد توج "فرانس يوسف" إمبراطور النمسا ذو الميول التقليدية ملكا على المجر (١٨٤٨-١٩١٦) إلى أن انهارت الدولة من الداخل وتحللت نهائيا مع الحرب العالمية الأولى. وتنتمى النمسا لغويا وحضاريا للثقافة الألمانية. وعندما توحدت الولايات الألمانية سنة ١٨٧١ لم تكن النمسا بينها. ويلاحظ أن مؤيدى "الحل الألمانى الصغير" (بدون النمسا) كانوا قد فازوا على مؤيدى "الحل الألمانى الكبير" (الذى يشمل النمسا) خلال انعقاد المجلس الوطنى الألمانى سنة ١٨٤٨ بكنيسة باول فى فرانكفورت/ماين والذى عرف بـ"برلمان البروفيسورات" من المثقفين الليبراليين. ومن الطريف أن موسيقى السلام الوطنى الألمانى الحالى من تلحين الموسيقار "هايدن" كانت لنشيد على شرف الإمبراطور "فرانس يوسف" ثم استبدل بكلمات من نظم الشاعر "فون فالرز ليبن" تقول: اتحاد عدل حرية لوطن الآباء ألمانيا.

(٢) يبدو أن "جواز السفر" كان فى القرن الـ١٩ خاليا من صورة حامله. وكان المسافر يحمل وثيقة عليها اسمه. وكان من المفروض مطابقته لهوية المسافر على وجه العموم.

(٣) أصبح الاسم باللغة المجرية "شوبرون" قرب التخوم النمساوية. وقد ذكر الاسم بالكتاب خطأ على أنه "أودر برج" وقد صحح اسم المدينة بمعرفة المترجم بعاليه.

وضع ابنى البكر أصبعه على الخريطة قائلا: انظر يا أبت ها هنا تقع "أودينبورج". هل ستواصلين السفر بعد بلوغها؟ لا! وهكذا واصلت السفر بتوفيق من الله إلى "أودينبورج". ولما وصلت إلى "أودينبورج" سألوني: إلى أين؟ قلت لهم: إلى "راتيبور".

وما برح ابنى أن أشار إلى موقعها على الخريطة قائلا: ها هى "راتيبور" يا أبت! ولما بلغت نقطة "راتيبور" الحدودية سألوني: إلى أين؟ قلت لهم إلى برلين. - هل ستواصلين السفر بعد بلوغها؟ لا! ثم رحلت إلى برلين. ولما وصلت إلى برلين لم يسألنى أحد عن أى شيء. ومن هناك توجهت إلى مرفأ بريمين حيث يممت وجهى شطر الغرب حتى وطئت قدماى بسلام .وبعون من الله بر العالم الجديد. علما بأننى لم أكن بحاجة لبلوغ مأربى إلا إلى قلب جسور، وتحرر من الوجل والكسوف، ثم إلقاء أحمالى على الله الذى يوفق المخلصين ولا يخذلهم أبدا. تعجبت من تصرفها وقلت لها معاتبا: يبدو لى أنك تسيرين على نهج فهم قاصر للمسيحية لا يليق لمسيحى حق أن يتبعه. لقد نجحت فى مسعاك بالتلفيق والتمويه، ثم ها أنت لا تخجلين من نفسك وتقحمين اسم الله بالباطل بقولك إنه قد مَنّ عليك وأعانك على ارتكاب فعلتك الآثمة. إن ما تسمينه جسارة قلب وجرأة ما هو فى واقع الأمر إلا من قبيل النصب والاحتيال. كما يلوح لى أنك لا تفقهين ولا تدركين فحوى الوصية الثانية[1] كما ينبغى فهمها فهما صحيحا.

قالت إن المسألة وما فيها ألخصها لك على النحو الآتي: إن الله لا يتخلى عن المخلصين من عباده ويوفقهم فى مساعيهم. وقد مَنّ الله علىّ وأعاننى على المرور بسلام عبر الحدود.

---

(١) الوصية الثانية بحسب ترتيب "مارتن لوثر" فى مؤلفه الـ"كاتيشزم" (الإيمان الإنجيلي). وهى تنهى عن جعل اسم الله مضغة فى الأفواه لأغراض نفعية، استنادا إلى الآية ٢٠: ٣ من سفر التكوين: "لا تنطق باسم الرب باطلا".

إذن أكملى كلامك، ولكن لا تقحمى اسم الرب فيما تقولينه بدون مبرر. ثم واصلت روايتها لقصتها:

ما كدت أصل إلى محطة القطار فى بريمن حتى لمحت رجلا واقفا. كان يرتدى مئزرة زرقاء اللون وعلى رأسه قلنسوة مثبتة عليها نحاسة تحمل رقما. وما إن رآنى حتى اقترب منى على عجل مهرولا يريد التحرش بي، إذ أشار إلى أمتعتى وحاول الإمساك بحقائبي. لكنى لم أمكنه من تحقيق مراده، وصحت فيه قائلة: ابتعد عنى أيها الشيطان! أعوذ بالله منك أيها الخناس! وليكن فى علمك أننى فى الطريق لزيارة فضيلة أبونا القسيس. فقد ولدت وترعرعت فى حجر العقيدة الإنجيلية (البروتستانتية)، وأنا حينما أومن بالعقيدة أظل على إيمانى لا أرتد عنه أبدا. وما لبث أن ارتد الرجل على عقبيه متراجعا عما نوى وتركنى حال سبيلي، لكنى لاحظت أنه استدار نحوى مرة واحدة ليلقى نظرة استعجاب باتجاهي. وهكذا نجوت بنفسى من الوقوع فريسة فى مخالب الشيطان، أرجو المعذرة لذكر اسمه اللعين.

ذهبت بعد ذلك إلى السيد القسيس ليتوسط لى فى الحصول على بدل فاقد لوثيقة إثبات الهوية، فصحبنى الرجل الطيب إلى السيد "ميسلر". وهناك انتحلت اسما مستعارا آخر ليسجله بوثيقة الهوية. فكل ما يحتاجه المرء لحل العقد "ولتشهيل" الأمور هو قلب جسور وتحرر من الوجل والكسوف. وحتى أتفادى الوقوع فى براثن الشيطان، ولكى أنأى بنفسى عن ألاعيبه السخيفة، أرجو المعذرة لذكر اسمه اللعين، دفست نقودى والوثيقة المستخرجة حديثا فى الجورب على سبيل "الاستحراص" خشية فقدانها. أرجو أن تقدروا ظروفي. فقد عشت حياة بائسة قاسية. كان زوجى شيطانا فى صورة إنسان! أما ابنى الأكبر فقد تسبب فى ضياع أموالي. صدقوني، إننى فى غاية السعادة أن وجدت الطريق إليكم لأكون بينكم. واسمحوا لى "بالبيات" فى مطبخكم لأننى أهاب النوم فى الفندق.

بادرتها بالقول: لقد أعجبتنى حقا حكاية التأمين على النقود فى الجورب. لكننى أفتقد الجرأة والقلب الجسور فى ملامح وجهك. أما مسألة التحرش الجنسى للإغواء بك فى محطة بريمن، فأخشى أن يكون قد التبس عليك الأمر، ذلك لأن الشيطان لا يرتدى عادة مئزرة زرقاء اللون كما لا يغطى رأسه بقلنسوة عليها نحاسة مرقمة. ثم توجهت بالسؤال إلى "ليزا": أين نستضيف هذه الإنسانة المسكينة؟

أَمّنَتْ لها "ليزا" المكان المناسب لتقضى فيه ليلتها. ولما أنجزنا عمل يومنا ذهبت الضيفة إلى فراشها. ولم تمض فترة طويلة حتى ترامت إلى أسماعنا جلبة قادمة من حجرتها مصحوبة بصراخ: الحقونى! هناك من يريد تسميمي، لقد وقعت فى قبضة الشيطان!

نهضت "ليزا" من الفراش وهرعت إليها. إلا أنها وجدت أن كل شيء على ما يرام. ومع هذا سمعتها تقولك إن هواء الغرفة مسموم، إن يد الشيطان تعبث به، إننى أشتم رائحة السم بأنفي. لقد وقعت فى وكر لصوص! قالت لها "ليزا": "بطلى كلام فارغ!" ثم طيبت خاطرها بأعذب الكلمات علها "تساهى" شعورها بالخوف ويسكن روعها، ولما عادت إليها السكينة بعد لأى، اختلست الخطى إلى سريرها. وبعد مدة لم تطل عادت إلى عويلها بدعوى انتشار السم فى هواء الغرفة. نهضت "ليزا" من الفراش مرة أخرى وظلت إلى جوارها حتى هدأت تماما.

وبرجوع "ليزا" إلى غرفة نومنا بادرتها بالقول: إذا استمرت الأمور على هذا الحال فأغلب الظن أننا سوف نقضى ليلة ممتعة أنّى لنا أن ننساها. لابد أن عقل هذه العجوز مشوش بعض الشيء، ذلك لأنه لا يخطر على بال إنسان سوى يتمتع بكامل قواه العقلية أن يتفوه بمثل ذلك العته وبالإصرار على أن هواء الغرفة مسموم. إن إشاعة هراء كهذا يسمم بدني، لأنه قمين بالإساءة إلى سمعة بيتنا، وجدير بتلويث شرفنا كمضيفين فضلا عن الحط من شأننا بين الناس.

حاولت "ليزا" امتصاص حنقى بقولها: هون عليك يا "يورن- ياكوب" ولا تنفعل. فهل تظن حقا أن هناك فرقة من الفضوليين تقف وراء الباب لتسترق السمع بغرض التجسس على ما يجرى داخل البيت؟ لابد أن هذه المرأة قد مرت بظروف عصيبة جعلتها تستسلم للخوف. والآن أدر ظهرك إلى الناحية الأخرى لتنام ملء جفنيك ولا تعبأ بهذا الخطل. ولكن كيف تغفل لى عين ومن فوقنا امرأة تصيح بلهجة ألمانية مجرية، ومن تحتنا رجل يضجر ويرطن بلهجة ألمانية أمريكية، وكل ذلك خلال ليلة واحدة وعلى نحو تخطى الحد المعقول.

وبمجرد سكوتها عن الكلام أصابتنى الدهشة. فعندما أدرت ظهرى لمواصلة النوم، استمر ذهنى مشغولا بما جرى وبدأت أخاطب نفسى هامسا: لقد كانت تلك العبارات التى جاءت على لسان "ليزا" هى أطول ما انثال من فيها خلال حياتها. لكنها لم تجد لسوء الحظ إلا منتصف الليل للتعبير عن تأثرها بالظروف القاسية التى مرت بها تلك المرأة العجوز وجعلتها تنوح وتزيط من فوقنا. لذلك فإننى أعجب أشد العجب من جنس النساء، كما يستعصى علىّ فهم دوافعهن فى حالة مثل تلك التى أشفقت فيها "ليزا" على مصاب امرأة مثلها على الرغم من أنها أقلقت منامنا فى عز الليل.

عادت إلى الزياط من جديد، وسمعنا صياحها مرتين. وقامت "ليزا" بالتالى من فراشها مرتين أخريين لتهدئتها. وبذلك لم يدركنا النعاس إلا بعد أن أغفت إغفاءة الهجيع الأخير من الليل. لكن إغفاءتنا نحن لم تدم طويلا، فحالما انبلج الفجر لتمد لنا الشمس أصابع تشععها من خلال النوافذ صحونا من غفلتنا وقد ارتسمت على وجهينا ملامح فيها جمود المستيقظ. ولما فرغنا جميعا من تناول طعام الإفطار ومن احتساء القهوة، وجدتنى مضطرا للصعود إلى غرفتها للنظر فى أمر الهواء المسموم الذى ملك عليها نفسها وروعها. شرعت فى تشمم الجدران واحدا بعد الآخر دون أن أعثر على أى أثر للسم. إلا أننى اكتشفت شيئا غير السم فى نهاية المطاف، وأخذت أشرح لها ما استطعت أن أميط عنه اللثام وأنا ألثغ مقلدا

لهجتها الألمانية المجرية، فلقت لها: "ده مش سم إنما ريحة الصابون الأمريكانى المعطر اللى باين عليكى إنك لسه ما تعرفيهوش. دى هى كل الحكاية وخلاص". ويتضح لى عندما أنظر إلى رقبتك وخلف أذنيك بأنك لم تستعملى الصابون منذ مدة طويلة. كما أنك لم تمشطى شعرك المتهدل بعناية. وهى أشياء من الضرورى التعود عليها فى أمريكا. وبعد أن وعدتنى بوضع تلك الأمور فى اعتبارها رحلت عنا وهى فى غاية الانبساط لأن ما اشتمت رائحته كان صابونا معطرا وليس سما كما لم يكن للشيطان والعياذ بالله أى يد فيه.

نعم، لقد روت لنا هذه المرأة ما فيه الكفاية، وعشنا ظروفها بقدر كاف أيضا. لكن فرطها لبذور الذرة كان متواضعا. فقد كانت مبلبلة الخاطر واضطربت بالتبعية حركة يديها. أيها الصديق، هل تعرف رأيى فى هذه المرأة؟ أحسب أنها سوف تقع يوما ما فى شر أعمالها. كما أعتقد أنها تغالط نفسها لتوهمها أن الرب يعينها رغم أكاذيبها لمجرد أنها تطق الحنك بعبارات ورعاء تتظاهر فيها بالتدين. كما لا يخالجنى أدنى شك فى أنه ليس كل من يعيشون بالمجر من المسيحيين الأتقياء. وبذلك انتهت الحكاية الأولى.

والآن سوف أسرد لك أحداث الحكاية رقم٢. تركته جالسا فى المقعد الوثير. فلم أكن أرغب فى الإثقال عليه بمشاركتنا فى فرط بذور الذرة احتراما لكبر سنه. لم تكن هذه الزيارة هى أول مرة يزورنا فيها، إذ سبق له التردد علينا مرتين قبل عامين، مرة فى رحلة الذهاب من أمريكا إلى ألمانيا، وأخرى فى رحلة الإياب من ألمانيا إلى أمريكا. كان عمره آنذاك ٧٨ عاما. لكن تقدمه فى السن لم يؤثر فى مرونة حركته أو نشاطه، إذ كان خفيف الحركة، فى خفة السنجاب الذى يضرب به المثل فى تسلق الأشجار فى لمح البصر. أراد السفر آنذاك من المهجر إلى المنطقة المعروفة بـ"الهانوفرية"(١) بشمال ألمانيا من أجل الكشف على عينيه. وهناك تقع مدينة اسمها "جوتينجن" يقيم فيها طبيب عيون اشتهر بالمهارة والألمعية فضلا عن

(١) الـ"هانوفرية" هى تعريب لـ"الهانوفريشة" بالألمانية أى المنطقة ذات السهول المنخفضة المحيطة بمدينة "هانوفر".

كونه صانع نظارات فى نفس الوقت. وبإلقاء نظرة على خريطة ألمانيا يتبين أن تلك المدينة لا تتعدى كونها نقطة صغيرة فحسب. كما تجدر الإشارة إلى أن ذلك الرجل المعمر كان لا يزال محتفظا بجميع أسنانه سليمة، علاوة على تمتعه بكفاءة عالية لحاسة السمع. وكنت تراه يضرب فى الأرض مرتجلا وهو يحمل الكتاب المقدس والجريدة والأجندة على جنبه ساندا إياها بذراعه، ذلك لأنه عقد العزم على بلوغ جوتينجن لعمل نظارة لتقوية القدرة على الإبصار حتى يستطيع قراءة آيات الكتاب المقدس وأخبار الصحف السيارة على نحو أفضل. هذا بالإضافة إلى أنه أراد اغتنام فرصة تواجده بمسقط رأسه لكى يقوم بزيارة أقاربه. وبذلك هل علينا فى رحلة عودته من ألمانيا وهو هاش باش وفى قدميه حذاء برقبة، بعد أن أمضى هناك ما يزيد على أسبوعين حصل خلالها على النظارة الملائمة. كان ذلك منذ عامين. وها هو يكرر الزيارة وقد شارف على الثمانين من عمره. جاء إلينا سيرا على الأقدام برجلين مفرودتين وبخطوات ثابتة لا تكاد تختلف عنها فى أول مرة. ألقيت عليه السلام ورحبت به لرؤيته فى المزرعة سليما معافى بعد زيارتيه السابقتين. رد التحية ثم قال: إننى فى طريقى إلى "جوتينجن" مرة أخرى لكى استبدل عدستى النظارة بأخريين، فعلى ما يبدو أن العدسات أصبحت تتقادم بسرعة كلما تقدمت بى السن، وصارت أشبه بأحذية الغلمان التى تتحل نعالها فى وقت قصير. فكلاهما يدركه العفاء سريعا، مع فارق جوهرى يتمثل فى عدم وضوح الرؤية بفقدان العدسات لصلاحيتها. ولذلك عزمت على السفر لأن العدسات الأمريكية عديمة الفائدة.

لم يكد يمر شهران على زيارته لنا فى رحلة الذهاب إلى ألمانيا حتى عرج علينا وهو منبسط الأسارير فى طريق العودة إلى أمريكا. سألته: هل أعجبك الحال فى الوطن القديم ألمانيا؟ فرد قائلا: إذا كنت تقصد طبيب العيون فى جوتينجن فأصدقك القول بأننى شعرت عنده بارتياح شديد. لقد اغتبط لرؤيتى وتذكرنى سريعا بمجرد أن عرفته بنفسى ثانية. إنه رجل ودود بالفعل. أما زوجته القصيرة

القامة فقد تفوقت عليه حفاوة وكرما، إذ بادرت بتقديم القهوة والفطائر حال علمها بقدومي من أمريكا. ولما أخبرتها بأننى فى الثمانين من عمرى سارعت بوضع نمرقة طرية من صغار الحشايا بين ظهرى وظهر المقعد حتى أستريح فى جلستي. حقا لقد أسرنى ذلك الطبيب وزوجته بظرفهما وبدماثة أخلاقهما.

وبسؤاله: وماذا تقول عن الأقارب فى مسقط رأسك؟ تنحنح قائلا: "يعني! نص نص!" إننى لا أنكر بوجه عام حرص بعض الناس على الوشائج العائلية وعلى صلات الرحم بشكل ينبغي وصفه بأنه فى غاية الظرف، لكن أقاربى ليسوا من هؤلاء. فعند زيارتى لهم كانوا يعاملوننى على أننى العم الأمريكى الزائر الذى طال انتظاره، وبذلك أصبحت محطا للأنظار. بادئ ذى بدء كانوا يأنسون لوجودي، ويتنافسون على صنع الفطائر لي. وهو ما كنت أشتهيه. كانوا يبالغون فى الحفاوة بي، ويلتفون من حولى مرددين عبارة "عمنا العزيز" من الأمام و"عمنا العزيز" من الخلف، الأمر الذى كان يشنف آذاني. لكنهم ما لبثوا أن غيروا لهجتهم، وبدءوا يتحدثون عن سنوات عمري، وانتحوا فى ذلك منحى مسيحيا محضا بتحدثهم عن الموت وعن تهيئة النفس لتوديع الحياة، ثم دلفوا أخيراً إلى موضوع الوصية والميراث، وأصبحوا يستهلون تباشير الصباح بالترنم بأناشيد جنائزية لم أكن أحب سماعها. وعندما لاحظوا عدم تجاوبى وامتعاضي، أقلعوا عن فتح هذه السيرة، وعن الترنم بألحان الشجن. وبعد ذلك دفعونى دفعا للمواظبة على مصاحبتهم إلى مدينة "هانوفر" لشراء فستان لهذه، وقبعة لتلك، كما اضطررت ذات مرة لشراء ساعة ذهبية لآخر. لقد كادوا يجردوننى من ملابسى، ولكنهم كانوا يغلفون رغباتهم التى ورطونى فى دفع ثمنها بعبارات تقطر ودا وورعا بحيث لم أستطع التملص منهم، فاستسلمت لقدرى صاغرا. وأخيرا نفدت النقود التى حملتها معي، فتبدلت ملامحهم إلى عبوس، ولم تعد بشوشة أو تنطق بالتودد مثلما كانت بالأمس وأول أمس.

قررت العودة من حيث أتيت. ورددوا وأنا ماضٍ في سبيلي آيات من الكتاب المقدس استحضرت المعاني الجميلة، وعبروا عن أملهم في تكرر اللقاء. لكنى تحسست جيوبى الخالية، وقلت لهم: وهذا ما أتمناه بدورى. لقد سعدت بوجودى بينكم وسوف تهفو نفسي إلى زيارتكم مرة أخرى. ولكن عليكم عند زيارتى القادمة أن تعاملونى وفقا لآية أخرى من الكتاب المقدس غير تلك التى عاملتمونى بها هذه المرة. قالوا: ماذا تقصد وأى آية تعني؟ قلت لهم: لقد عاملتمونى خلال زيارتى المنتهية حسب الآية القائلة: "الكلب الحى خير من الأسد الميت" (سفر الجامعة ٩: ٤).

وعندما أعاد إشعال غليونه قلت له: إذن فلتمكث فى أمريكا وكفاك سفرا إلى ألمانيا. لكنه قال: نعم، عندك حق، سوف أتحاشى عبور المحيط خلال الفترة الآتية، اللهم إلا إذا احتجت إلى عدسات جديدة لنظارتى لا تتوافر جودتها فى العدسات الأمريكية، لأنها "زى قلتها". وأخلصك القول بأننى شديد الولع بالسفريات التى استمتع بها كثيرا. إلا أنه لابد لى من أخذ قدر أكبر من النقود معى فى زيارتى المقبلة.

وما لبث أن ودعنا ليواصل رحلته. وبعد مرور عامين على ذلك ترصدت زيارته لنا لحلول موعد استبداله للعدسات. لكنه لم يعد إلينا مرة أخرى. ويخامرنى شعور بأن طبيب العيون وزوجته الطيبين فى جوتينجن لن يرياه ثانية. فأغلب الظن أنه قد رحل إلى العالم الآخر الذى لا يحتاج فيه ابن آدم إلى عدسات، سواء أكانت أمريكية أو من جوتينجن.

الحكاية رقم ٣و٤: وهى قصة فى غاية الغرابة لرجلين عرجا على مزرعتنا معا. الصديق العزيز، يتراءى لى أن لا مكان فى الكون ينبض بالحياة وبالتجاوزات مثل عالمنا هذا. فقد قرع الباب ذات يوم رجلان يترنحان من التعب. كانا من أبناء السبيل اللذين ضربا فى الأرض سيرا على الأقدام. ألقيت عليهما نظرة عابرة، فالإنسان حيث نقيم تتوق نفسه خاصة فى الشتاء فصل الثلوج والعزلة الموحشة إلى التطلع إلى وجه آدمى من حين لآخر. وأردت حسب انطباعى الأول نصحهما

بمواصلة السير، إذ لاح لى وهما فى ثيابهما الرثة أنهما صعلوكان، ناهيك بما تجلبه فئة من البشر كهذه إلى داخل البيت من الحشرات، حيث يفرخ القمل والبراغيث فى رتق الملابس ويتكاثر، حتى لو انخفضت برودة الجو إلى عشر درجات تحت الصفر. لكن لهجة كلامهما لم تكن غريبة عني. وعندما دققت النظر فى وجه أحدهما، وهو الأصغر سنا، دخل فى روعى أن ملامحه مألوفة وليست غريبة عني، ولكنه "تاه عنى" أين رأيته فى مطلع الأمر.

وهكذا آويتهما، وأكلا بنهم وكأنهما يفتكان الطعام "بالمقطوعية". وبعد الامتلاء انفرجت أساريرهما، ذلك لأنه شتان ما بين إنسان شبعان وإنسان آخر يتضور جوعا. وعندما جلس الاثنان بعد الغروب وأمامهما كومة من كيزان الذرة بادرتهما بالسؤال: من أين جئتما وإلى أين أنتما متوجهان؟ انفرد بالرد على استفسارى أكبرهما سنا مطلقا للسانه العنان وكأنه كان يتكلم أيضا حسب اتفاق بالقطعة. وكانت الكلمات تجرى على لسانه مثل الانحدار الفجائى لمسقط مائى أو فى سرعة تسلق السنجاب للشجر. قال: إننى من برلين. ولما ضربت المجاعة أطنابها على الناس وعم الكساد اضطررت للرحيل إلى بلدة "فيتنبرجه". لكن القوت كان شحيحا ونوعية الأطعمة لم أشتهها. ولما ضقت ذرعا بالغذاء تركتها إلى بلدة "جرابوف". وبمجرد تفوهه بعبارة "جرابوف" أرهفت السمع لوقوعها فى المحيط الذى يضم قريتي، ولأن كل ما عدا مسقط الرأس كنا نعتبره أجنبيا ومن هناك واصلت السير إلى المدينة الصغيرة "لود فيجزلوست" وبسماع اسمها "طرطقت" آذانى فى حين واصل رواية قصته:

وعندما غادرتها ماشيا فى طريقها الرئيسى المعروف بشارع هامبورج المؤدى إلى تلك المدينة ذات المرفأ الهام توقدت فى ذهنى فكرة جعلتنى أقول فى همس بينى وبين نفسي: إنك تعرف برلين حق المعرفة. لكنك لا تعرف تلك القرى والنجوع المتناثرة. لماذا لا تبحث عن عمل هنا؟ أليس ممكنا أن يحالفك الحظ فيها؟ وبعد "تحويدى" إلى جهة اليسار فإذا بى أسير فى طريق معبدة قادتنى إلى قرية

"هورن كاتن"، وهى عبارة عن قرية مستطيلة يعيش كل فرد فيها على أرض زراعية يمتلكها. لكن نباح الكلاب حثنا على مواصلة السير إلى القرية التى تليها. الصديق العزيز، تصور إن ذلك البرلينى المديد القامة قد مر على قريتنا وشاهدها بأم عينه جهارا نهارا! هل يمكنك أن تتخيل حدوث ذلك؟ إلا أن ما كدرنى حقا هو تجريد مسقط رأسنا من دفئه المكنون، حين تحدث عنها بدون مبالاة، وكأنه قد أوغل فى قرية أيا كانت، قرية تقع فى ريف آسيا مثلا.

وما كاد يقول إنه وصل إلى "هورن كاتن" ثم واصل السير إلى القرية التى تليها، حتى نهضت من مكانى فورا و توجهت إلى النافذة لأطل إلى الأفق البعيد متذكرا أيام الطفولة والصبا وقد انتابتنى حالة من النشوة المشدوهة. لكن الشمس كانت قد آبت إلى المغيب وأطبق الظلام، وفجأة انتبهت إلى أمر عظيم. قلت له: إنى أنصت إلى ما تقول ولا تفوتنى شاردة ولا واردة. كما لا يفوتنى أنك "برلينى مفتح" ومنفتح على العالم. إذن واصل حديثك فكلى آذان صاغية. شعر بالاعتزاز بنفسه لسماعه ما يحقق ذاته ثم طفق يقول: من المحقق أننى أدرى الناس بهذا العالم. أما من ناحية أننى شاب، ومن برلين، فلدى القدرة على أن أجرب حظي، وأن أثرى أينما كان، حتى لو اقتضى الأمر أن أقوم بالمحاولة فى هذه القرية. وهكذا تمكنت من العثور على وظيفة "طرف" عمدة القرية التى عرجت عليها فى الطريق. وهناك قمت بإشعال الحماس فى نفوس الشبان اليافعين. فكنت أجمعهم فى الطريق الرئيسية للقرية وأتولى تمرينهم على السير فى طابور عسكرى فاردين أرجلهم على وقع الخطوات.. واحد اثنين.. واحد اثنين. وبذلك رفعت روحهم المعنوية بالوثبة والفتوة. وبعد ذلك حرصت على تدريبهم بالحانة على شرب زجاجات البيرة على وقع الجرعات.. واحد اثنين.. واحد اثنين. كما راودنى طموح بأن أصبح عمدة تلك القرية لأتحكم فى الفلاحين، وحتى أنفذ برنامجا لتمرينهم على المشى فى استعراضات عسكرية!

واصلت النظر من النافذة وكان الظلام لا يزال دامسا. كنت أضحك فى قرارة نفسى لرطانة لهجته البرلينية. ولم يغرب عن بالى فى غضون ذلك أن هذا الإنسان لا يكف عن الكلام مثل حركة المرور المتواصلة بالطريق الزراعي. سألته مستفسرا: هل كان للعمدة ابنة لم ترتبط بالزواج بعد؟ لأنه لو كان الأمر كذلك لكان بإمكانك أن تصاهره وتصبح عمدة.

لا لم تكن له ابنة، كما أن منصب العمدة لا يناسبني، لأن ذلك معناه أن أظل مفلسا حتى حلول الخريف، موعد تسلم العمدة لراتبه السنوي. ولا تنس أننى برلينى "ألعب بالبيضة والحجر" "وأفهمها وهى طايرة". كما أنها قرية مفلسة ليس بها حتى فوانيس تنير عتمة الطرقات ليلا. فهل أقيم فى الريف لكى أتريف؟ لم يبق أمامى إذن إلا الرحيل فأدرت ظهرى للقرية بحثا عن الثراء المأمول فى مكان آخر. سألته: هل عدت أدراجك إلى مدينة "لود فيجزلوست"؟ لا بل اتجهت هذه المرة إلى مدينة "دوميتس" حتى ألقى نظرة على نهر "إلبه". ولكن لماذا وجهت إلى ذلك السؤال؟ كان يسألنى وفى عينيه نظرة تنم عن الوجل والحيرة.

أما نظرتى إليه فكانت نظرة الواثق المتيقن المطمئن. أحضرت كرسيا وجلست إلى جواره بالعرض. وكانت المدفأة فى الجهة المقابلة وكوم كيزان الذرة من أمامه. وبذلك حوصر من المدفأة ومن كومة الذرة ومنى بحيث لم يجد منفذا للفرار. سألته: أخبرني، أين الـ١٨٥ ماركا ثمن عجل العمدة الذى قمت ببيعه فى "دوميتس"؟ الصديق العزيز، أقول لك، مع أننى مغرم بتفحص قسمات الوجوه، الأمر الذى جعلنى أدقق النظر فى عدد كبير منها خلال حياتي، لكننى لا أستطيع أن أصف لك ذلك الوجه الذى انسحبت منه الدماء وغشاه شحوب من هول المفاجأة غير المتوقعة. وما لبث أن نهض فجأة من مكانه واقفا وقد عقد العزم على الفرار. غير أننى أمسكته من ياقة سترته وضغطت عليه برفق ولكن بدون تراخٍ، حتى يعاود الجلوس على كرسيه، بينما نهرته وأنا أردد آية من الكتاب المقدس تقول:

"الفلسطينيون عليك يا شمشمون"[1]، لأن المسألة كانت قد حسمت لغير صالحه. ثم أنذرته بقولي: أما إذا ساورتك نفسك بالتحرك من مكانك مرة أخرى، فسوف أضربك ضربا مبرحا، حتى تتلون بشرتك وجلدك بسائر ألوان الطيف أو يتبرقشان مثل خريطة ألمانيا بتضاريس أرضها ومختلف ظاهراتها السطحية.

ثم توجهت إلى زميله لأقول له: والآن لقد تعرفت عليك ولم تعد تائها عن بالي. إنك ابن "فيكبولد" العامل الأجير لدى فلاح بقريتنا. لقد نقلت عجلين إلى مدينة "دوميتس" وحصلت على ثمنهما البالغ ٣٥٠ ماركا. لكنك على ما يبدو ضللت طريق العودة إلى القرية ثانية! أقول لك، لقد جلس الاثنان لا يحركان ساكنا كأنهما من الجماد، أو كمثل زوجة لوط التى "صارت عمود ملح" عندما أهلك الله مدينتى سدوم وعمورة لمخالفتها شرط النجاة بعدم النظر إلى الوراء[2]. أجل لقد تسمر الاثنان فى مكانهما وكأن على رأسيهما الطير.

إلا أنهما ظلا يتناوبان فتح الفمين وغلقهما فى إيمائيات خرساء، تمثلت فى دوران مقلتى عينى الأصغر سنا فى محجريهما، بينما بدت عينا الأكبر سنا كأنهما تتحسسان أسطح الجدران قلت لهما منتهرا: حذار أن تحاولا الهرب وإلا "نفضت فروتكما". ثم "دخلت معهما فى سين وجيم" كما لو كانا على كرسى الاعتراف جالسين. بدأت حديثى مع البرليني، الأكبر سنا، إذ قلت له: لقد جئت إلى القرية وكنت جائعا ضائعا من أبناء السبيل المعدمين، فأطعمتك أم العمدة من بعد جوع، وكساك العمدة حتى لا يظن الفلاحون أنك "خيال المآتة" المنصوب فى حديقة الدار أو عفريت من الجن يسكن الدوار. لقد ادعيت فى إكبار عنترى ساذج بأنك فى قوة الفحل وتستطيع رفع "مثقلة القش"[3] من فوق عربة النقل بيد واحدة. لكنه كان "طق

---

(١) العهد القديم، سفر القضاة ١٦: ٩.

(٢) قارن العهد القديم، سفر التكوين ١٩: ١٦-٢٣.

(٣) جذع ضخم من شجرة التنوب (التنوبة) من فصيلة الصنوبريات. كان الفلاح الألمانى يضعه فيما مضى فوق حمولة القش الهش المنفوش للضغط عليه أثناء نقله بعربة كارة مسورة من كل جانب. ويساوى=

حنك" ليس إلا "وفشر" وجعجعة من جانبك. وتماديت فى التباهى بنفسك فى إفراط تجاوز الحد المعقول حين قلت: إنك كنت في برلين تعلق عددا من تقالات القش في سلسلة الساعة!" كنت تتسكع مساء فى شارع القرية وتشرب الخمر فى الحانة. لقد نسيت أن العمدة كان يفرق جمعكم وأنتم سكارى بالكرباج، وأنك كنت تتلقى النصيب الأكبر من الضرب بالسوط جزاء عربدتك لأن العمدة رجل عادل. أمسكت بخطابك الذى سبق أن أرسلته إلى حول هذا الموضوع فى يسارى، فى حين أطبقت بيمينى على ياقة سترته. وكنت أضغط على ذراعه ضغطا خفيفا متواصلا بلا تراخٍ كلما تفوه ببعض العبارات، فتدور بالتالى مقلتاه فى محجريهما. وهكذا تناوب الضغط على الذراع وتقليبه لمقلتى عينيه على التوالي.

قلت له: لقد حصلت على النقود بالتمام والكمال. ثم قمت بغواية الآخر ليصحبك إلى هامبورج فتبعك فى تراخ وإهمال. ولما واصلت الضغط على ذارعه، دارت مقلتاه فى محجريهما مرة أخرى، فقلت له: ومهما جاهدت نفسك فى تدوير الناظرين كالطحونة، فلن تحصل منى على سنت واحد نظير هذا الجهد.

ثم انتقلت بدورى إلى الآخر وقلت له منتهرا: والآن جاء دورك. لعلك لا تدرى كم أنت غبى وشرير فى آن. ولو بلغ طولك الأهيف مقدار ما أنت عليه من الغباء لكان بإمكانك تقبيل القمر! لقد كان "برونينج" الفلاح فى حاجة ماسة إلى الـــ٣٥٠ ماركا ثمن العجلين، الذى استوليت عليه بدون وجه حق، لكى يسدد إيجار الأرض. لقد تسببت فى إيذاء هذه الأسرة وأحزنتها، لأن المحصول كان ضعيفا وما فى الجيب كان شحيحا، فاضطر رب الأسرة إلى الالتجاء إلى المرابي. إذن أفصح وبدون تلكؤ: أين المبلغ الذى ائتمنوك عليه ولم ترده إليهم؟ وكنت أثناء تأنيبى له أضغط على ذارعه ضغطا خفيفا لا تراخى فيه فيتأوه من الألم قائلا: يا إلهى.. يا إلهي! قلت له: لا تلك اسم الله فى فيك فى مناسبة كهذه، لأن ذكر اسم الرب بدون

---

*طول "المثقلة" بضم الميم وفتح الثاء وتشديد منصوب للام أو "التقالة" مع طول الحربة الكارة تقريبا. راجع "لسان العرب" لابن منظور، الجزء الأول، باب: ثقل.

مبرر يتعارض مع الوصية الثانية. ثم لطمته على خديه يمنة ويسرة عدة مرات لأن التأديب لا يتعارض مع الوصايا العشر. ثم ناولت الأكبر بالتالى صفعتين لأن المساواة فى مثل هذه الأمور تعد عدلا.

وما إن انتهيت من التأديب بالتقريع والضرب حتى فكرت بصوت عال: ينبغى لى أن أعيدكما إلى بلدة "جرابوف" مقيدين فى الأغلال حتى تنالا هناك ما تستحقانه من عقاب عادل جزاء لما اقترفت أيديكما. لكنى راجعت نفسى لأن رفع الدعاوى واستصدار الأحكام أمر يحتاج إلى وقت وربما لا يعيد النقود المنهوبة إلى أصحابها. ولذلك عزمت على تسوية تلك المسألة بمعرفتي. فقلت لأكبر الاثنين سنا: عليك بالكتابة إلى العمدة لطلب العفو منه على الخطيئة التى ارتكبتها فى حقه. وللعلم لقد كتب لى معلم القرية خطابا أخبرنى فيه بكافة التفاصيل، وذكر لى فيه أن العمدة لم يتمكن من إعطائك الأجر نظير عملك عنده قبل هروبك. ومن ثم فإنى لا أعرف إذا ما كانت قيمة ذلك الأجر تعادل قيمة الدين من عدمه. ولهذا فسوف تعمل عندى كـ"يد مزرعة" إلى حين وصول الرد من ألمانيا. فإذا عفا عنك العمدة، فلا جناح عليك ويمكنك الذهاب حال سبيلك. أما إذا سولت لك نفسك الهروب خلال هذه الفترة فكن على ثقة بأن الشرطة سوف تطاردك فى كل مكان. هذا حتى تكون على بينة من الأمر.

ثم توجهت إلى الأصغر سنا وقلت له: أما أنت فسوف تعمل بالمزرعة إلى أن تتمكن من تسديد ثمن العجلين من الأجر الذى سوف تحصل عليه نظير عملك. وبمجرد تسوية الدين تصبح حرا طليقا. وسوف أقوم غدا بتحويل قيمة الدين مقدما إلى معلم القرية ليقوم بدوره بتسليمه إلى الفلاح الذى كنت تعمل لديه. وعليك أن تحرر له خطابا غدا لطلب العفو منه لعله يسامحك. واذكر فيه أن ما اقترفته من تدليس كان نوعا من الغباء، لأنك لن تتجنى بذلك على نفسك.

حدث ما كنت أتوقعه. فقد وصل من العمدة خطاب بعد مرور شهرين عفا فيه عن زلة الشاب البرليني. أما الآخر فقد تحتم عليه استمراره فى العمل لمدة

ثلاثة أرباع العام حتى تمكن من تقسيط الدين. وفي غضون الفترة التي قضاها بمزرعتي قرأت عليه خطابك الذي أخطرتني فيه بتسليم المبلغ إلى الفلاح "برونينج"، وأن زوجته قد اغرورقت عيناها بالدموع من الفرحة لاسترداد النقود التي ظنت أنها لن تعود أبدا. أما الغلام فقد ظهر في عينيه ندا بكاء بالفعل وراح يكفكف عبراته ندما على سوء فعلته. لم يكن ذلك الغلام شريرا ولكن الله جبله على الغباء وفطره على الحمق. عمل الاثنان خلال فترة وجودهما بالمزرعة بهمة ونشاط في فرط بذرة الذرة. لكن ما جعلهما يعضان بنان الندم ويفزعان فزعا "سمع" حتى النخاع هو أنهما ضربا في الأرض وعبرا المحيط من "دوميتس" الألمانية إلى أمريكا لكي يكفرا عن سوء فعلتهما. قلت للشاب الأكبر سنا عند رحيله: لم يكن ضروريا بالمرة أن تقطع كل هذه المسافة الطويلة بينما كانت الفرصة سانحة أمامك لتسوية المسألة بدون مشقة أو عناء. وعلى أي حال فإنهم لن يقيموا لك تمثالا في برلين ليكرموك على فعلتك. وأنا بدوري أحمد الله أن وفقني حتى أعيد الأمور إلى نصابها.

والآن أروي لك الحكاية رقم ٥: وهي لمهاجر ألماني من "ميكلينبورج". جلسنا نفرط حبوب الذرة، كما جلس القسيس على الأريكة وانهمك في شرب قدح من الــ"جروك"(١) فقد كان الطقس زمهريرا. وفجأة انفتح الباب ودلف إلى الحجرة إنسان مربع البنيان، غليظ الأطراف، ثقيل الحركة، لكنه كان حسن الهندام. وعندما صفق الباب خلفه دار حول نفسه ثانية ثم خلع القبعة واستهل كلامه في وقار مصطنع وارتباك متردد، وتأدب مبرمج:

استمحوني عذرا، اسمي "دروجمولر". هل تأذنون لي بالتحدث إليكم كلمات معدودات؟ اسمحوا لي بتعريفكم بنفسي. إنني متعهد شركة سنجر لماكينات الخياطة. وماكينات سنجر للخياطة هي ماركة عالمية. ولابد لوجود ماكينة سنجر

---

(١) الجروك هو مشروب، عبارة عن مزيج من الروم والسكر والماء المغلي، يشربه عادة سكان شمال ألمانيا في الشتاء طلبا للدفء.

للخياطة فى كل بيت. ائذنوا لى بالقول إنه يمكن الاستغناء عن قطع الأثاث مثل المتكأ والبيانو. لكن ماكينة سنجر لا غناء عنها بالمرة. فالمتكأ يخضع لتداول الموضة. والبيانو يحتاج إلى شد. أما ماكينة سنجر للخياطة فلا تخضع للموضة ولا تحتاج إلى شد. ولذلك أنصحكم بشراء ماكينة سنجر للخياطة! إنكم لن تأسفوا لشرائها أبدا لأنكم لن تجدوا وسيلة أفضل منها للحفاظ على صحة وعافية السيدة الفاضلة حرمكم المصون. هذا علاوة على أنكم تستطيعون باستخدامها فى الحياكة توفير التكاليف التى تنفقونها فى التصييف على شاطئ البحر. ولذلك: بادروا بشراء ماكينة سنجر للخياطة! إننا نقدم لكم أفضل شروط التعامل. وسوف نتشرف بوجه خاص لو حزنا على ثقتكم الغالية ودخلتم فى دائرة عملائنا الكرام. أصابتنا رتابة لهجته بالغثيان، فمالت رؤوسنا إلى حجورنا وتمددت أذرعتنا هامدة إلى جانبنا. وكذلك فعل القسيس. لكننى رحت أجمع نفسى وألتقط أنفاسى لأقول له: هل أنهيت كلامك يا "دروجمولر"؟ لقد ألقيت علينا خطبة منمقة العبارات حفظتها عن ظهر قلب. لكننا لسنا بحاجة لشراء ماكينة سنجر للخياطة لأننا نمتلك واحدة موضوعة بجوارك، لكنك لم تتمكن من رؤيتها لانشغالك بتسميع النص الإعلانى الذى تحفظه. ولكن بما أنك "ميكلينبورجي" الأصل، فلذلك أدعوك لاحتساء كوب من الـــ"جروك". "ليزا" يا سيدتى الفاضلة وحرمى المصون "أومى اعمليلو شوية جروك من فضلك!". وذهبت "ليزا" إلى المطبخ.

وجاء الدور على متعهد "مكن" الخياطة الذى أبدى تعجبه إذ قال: كيف عرفت أننى "ميكلينبورجي"؟ سوف أقول لك يا سيد "دروجمولر". إن لهجتك كشفت عن أصلك. فهنا يمر علينا قوم كثيرون يتكلمون بمختلف اللغات واللهجات. فأحيانا نستطيع فهم بعضهم بشق الأنفس والبعض الآخر يستغلق علينا فهمه. ويرجع السبب فى ذلك إلى برج بابل الذى بناه أبناء نوح ليعلوا به إلى عنان السماء، وكانت النتيجة أن تبلبلت ألسنتهم. أما أهل "ميكلينبورج" فنحن نعرفهم حق المعرفة لأننا منهم. واستمتع إذن بتذوق "الجروك" لأن يديك كما يلوح لى قد تجمدتا من

قرس البر. وبعدما يسرى الدم دافئا فى عروقك وإذا لم تجد فى نفسك الرغبة فى مواصلة السير فيمكنك قضاء الليلة عندنا فى مقابل مشاركتنا فى فرط البذور من كيزان الذرة. وبذلك توفر على نفسك فاتورة الفندق وتؤجل برى نعل حذائك.

وافق على ما عرضته عليه بارتياح كبير. وهكذا جلس هو والقسيس يرشفان الــ"جروك" وانشغلنا نحن فى تقشير كيزان الذرة. انهمر وابل من المطر، وغطى الرذاذ السطح الخارجى لزجاج النوافذ بقطرات بللورية دائبة الحركة، بينما كنا نستمتع فى لمتنا بالداخل بدفء مخملي. ثم تحول الحديث إلى موطننا القديم، لأنه عندما يجتمع نفر من أصول "ميكلينبورجية" فسرعان ما يتجاذبون أطراف الحديث عن مسقط رأسهم. وما لبث أن تطور مجرى الكلام من التمحور حول الوطن إلى الحديث عن القسيسين. استهل "دروجمولر" حديثه عن القسيس "برنتمان" وعن شعب الكنيسة المجاورة. بدأ بالمديح ثم قال: أجل لقد كان القسيس "برنتمان" رجلا لطيف المعشر، رقيق الحاشية وبالفقراء رحيما. لقد تعرف على حاجة الشعب وكابد معاناته. فإذا ذهبت إليه اليوم مثلا وشكوت له أنى أعانى من العوز وطلبت منه العون فسوف يسارع بمد يده فى جيبه ويقول لي: أخى الحبيب فى يسوع خذ هذا "التالر" لتفرج به عن نفسك. لكن هيهات للقسيس "برومر شتيت" أن يفعل نفس الشيء مع شعب كنيستنا. إنه رجل دين لا يشعر بآلام الشعب ولا يتعاطف مع حاجة الفقراء. فإذا ذهبت إليه طلبا للمساعدة فسوف تراه يدفس يديه فى جيبيه ليقول: اذهب يا "دروجمولر" وساعد نفسك بنفسك بالعمل، حتى لو تطلب الأمر قيامك بقطع الأحجار، وبذلك تستطيع الحصول على الخبز الذى يسد رمقك ويقوم بأودك دون الحاجة لسؤال الناس!

كان تعليقى أن نصيحة "برومر شتيت" الرامية إلى الاعتماد على الذات قد حازت على إعجابى بشكل يفوق على تصدق "برونتمان" عليك بــ"تالر".

قال متعهد "مكن" الخياطة: هل يعجبك ذلك البخيل كز اليدين؟ إننى أتعجب ولا أعرف ماذا تعنى بما قلت؟ ينبغى أن توضح لى هذه المسألة.

سوف أبين لك ذلك يا "دروجمولر". إنك عندما تتكسب العيش بتقطيع الأحجار فى الجبل فإنك تقوم بعمل شريف تقتات منه ببذل الجهد فيشتد ساعدك وتقوى إرادتك.

نظر المتعهد إلى يديه الناعمتين وصرح بأنه يخشى من ظهور البثور وانتشار "البقابيق" على الكفين! لا ضير من وراء ذلك لأن آثار العمل على اليدين مدعاة للفخار. فالقشف والبثور خير على أى حال من مجرد حمل شهادة الهوية التى كانت ضرورية آنذاك لإثبات مزاولة الشخص لعمل. إن من يتمتع بقوة البدن ومتانة العظام ويعيش عالة على الآخرين تطفلا فمصيره الانحطاط والفسوق.

هز القسيس الجالس على المتكأ رأسه بالموافقة على رأيى ومؤيدا له. أما "دروجمولر" فطفق يقول: إن ما قمت بطرحه لمثير للاهتمام حقا. هل تعتقد بالفعل أن المرء بتقطيعه للأحجار يزداد عزما وتصميما؟ نعم هذا هو ما أعنيه بالضبط، ذلك لأن العمل لا يقتصر على تقطيع الأحجار فحسب، فكل عمل شريف يقوم به الإنسان ويتصف بالاستمرارية يمنحه قوة الإرادة.

استغرق متعهد ماكينات الخياطة فترة طويلة فى التفكير فيما قيل، تجرع خلالها بين الفينة والفينة رشفات صغيرة من "الجروك". وألقت "ليزا" بعض قوالب الفحم فى المدفأة وخيم على القاعة دفء لطيف مريح.

ولما بلغ تفكيره أقصى مداه، قال: لا يزال يساورنى شعور كما ساورنى من قبل بأننى خلقت لأتبوأ رتبة عالية. التحقت أولا بمعهد "لوبتين" لرغبتى فى انتهاج الخط المهنى للمعلمين. لكن هذه الدراسة لم تعجبني. ثم تطلعت إلى تبوء مركز راعٍ لكنيسة أمريكية. ولذلك بعثت بخطاب إلى القسيس "برومر شتيت" عددت له فيه مواهبى الفذة كما أفصحت له عن استعداداتى التى تؤهلنى لتقلد منصب محترم. وماذا تظن يا أبونا القسيس كيف كان رده على خطابى الذى علقت عليه كل آمالي؟ لقد اشتمل على الآتي:

عزيزى "دروجمولر" إنه لشيء مفرح حقا اكتشافك لما تتمتع به من مواهب عظيمة. ولكن ألا تشاطرنى الرأى فى أنه من الأفضل أن يلاحظ الآخرون نجابتك وأن يتولوا هم الإعلان عنها من جانبهم حتى لا يكون ما تصف به نفسك موضعا للريبة والشكوك. وإنى أعرف رجلا اسمه "إرميا" اصطفاه الرب ودعاه لهداية الناس. إلا أن "إرميا" شعر بأن صغر سنه قد يشكل عقبة فى طريق نهوضه بما كلفه به الرب. فكان رده على دعوة الرب: "آه، أيها السيد الرب! أنا لا أعرف أن أتكلم لأنى صغير". فقال له الرب: "لا تقل: إنى صغير. أينما أرسلك تذهب، وكل ما آمرك به تقوله، لا تخف من مواجهة أحد".(١) ويمكنك الاطلاع على القصة كاملة بالرجوع إلى الكتاب المقدس، سفر إرميا، الإصحاح الأول. هل قرأتها؟ نعم لقد اطلعت على النص ولكنى لم أصل إلا إلى الآية القائلة: "أرى وعاء يغلى على موقد يتجه إلى الشمال" فقال: "من الشمال يهب الشر على جميع سكان هذه الأرض".(٢) ولهذا تشاءمت وأدرت ظهرى للمعهد الدينى مثلما أدرته لمعهد المعلمين من قبل. غير أنه لم يكن ليخطر على بالى قط، أن ينتهى بى الأمر لأعمل لدى فلاح، فأقضى عمرى فى حلب الأبقار وفى تنظيف الحظيرة من الروث. لذلك سعيت من أجل البحث عن عمل آخر.

وهكذا كتبت إلى صديقى وصاحب الفضل عليّ، مبشر المهاجرين بمرفأ "بريمن"، لكى يساعدنى فى البحث عن وظيفة مناسبة، فلم يتوان من ناحيته وكتب إلى مدير بنك بمدينة "شفيرين" الذى أرسل لى إشعارا بالحضور لتقديم نفسي.

وماذا قال لك مدير البنك؟ لقد كان ذلك السيد خفيف الظل، "ابن نكتة"، قصير القامة، ممتلئ الجسم بدينا. تكلم فى البداية باقتضاب هادف ليسألني: هل أحضرت معك أوراق طلب الوظيفة؟ أعطيته ملفا كاملا، لأننى كنت أطالب بشهادة نهاية الخدمة من كل مكان عملت فيه. وكنت أحيانا أدخل السرور على نفسى

---

(١) العهد القديم، سفر إرميا ١: ٦-٧ (عن الترجمة العربية المشتركة).

(٢) المصدر السابق ١: ١٣-١٤.

بقراءتها فى أيام الأحد بعد الظهر، لأن الذين حرروا الشهادات كانوا ينظرون إلى بعين الاعتبار والتقدير. وزن مدير البنك ثقل الملف الضخم بيد، ولاح لى أنه استقل وزنه، ثم حدجنى بنظرة حادة وقال لي: هل أنت مغرم بالمشي؟ لا يا سيدى المدير لست مغرما جدا بالمشى لأن قدمى مفلطحتان. انفجر فى الضحك على غير توقع. أطلق ضحكات رنانة متقطعة ارتج لها المكان. قهقه وهأهأ بشكل غير معهود. هل تعرف يا سيدنا القسيس سببا لكل هذا الضحك لتدلنى عليه؟

أعتقد أنه قصد بحديثه عن حبك للمشى أنك قد تقلبت على الوظائف بكثرة نوعا ما. نعم هذا هو ما دار بخلدى لاحقا بالفعل. لكنه لاطفنى بعد أن انجابت موجة ضحكه وتحدث معى برقة إلى أن قال لى فى نهاية الحوار: إن معلوماتك فى مستوى من أتم الدراسة الابتدائية بكفاءة. وسوف نحاول العثور على وظيفة مناسبة لك. ولكن كيف استطاع تقييم مستواى التعليمي؟ إنه لم يطلع على شهادات الخبرة بعناية. من المؤكد أنه توصل إلى هذه النتيجة من خلال تحاوره معك. نعم، هذا هو ما فكرت فيه بالفعل.

عاد إلى التحدث مع القسيس من جديد فقال له: إننى أثق فيك يا أبانا وأحترمك، لكننى لا أستطيع احترام رئيسى فى العمل. انظر لقد كتب لى هذا الخطاب يلومنى فيه على قلة مبيعاتى من ماكينات الخياطة. إلا أن خطابه يحتوى على أخطاء من الناحيتين النحوية والهجائية. هل أستطيع احترام رئيس كهذا؟ أرجوك لا تضن على برأيك، فأنا تواق لمعرفة ما سوف تقوله فى هذه المسألة. بكل سرور يا سيد "دروجمولر"، لكن ذلك يتوقف على ما تريد أن تتعلمه على يد رئيسك. هل تريد أن تتعلم منه قواعد النحو؟ لا بالطبع. هل تريد أن تتعلم منه ضبط الكتابة؟ كلا بالطبع. هل تريد أن تتعلم منه أساليب الترويج لماكينات الخياطة؟ نعم هذا هو ما أريد. أنت محق فيما قلت لأن الرجل خبير فى تجارة ماكينات الخياطة. وكذلك شطارته فى عقد الصفقات. إذن فمن واجبك أن تؤدى له فروض الاحترام. ولكنه غير متمكن من أصول النحو والتهجى يا أبانا القسيس.

أخبرنى يا سيد "دروجمولر" هل تعرف "شارلمان" ملك الفرنجة؟[1]

أجل خير معرفة! لقد امتدت فترة حكمه من ٧٦٤-٨١٤م!

هل تحترم شارلمان؟

غاية الاحترام!

هذا مع صعوبة فكه للخط، لقد كانت أخطاؤه الكتابية تزيد على ما يقع فيه تلاميذ مدارس اليوم. لكنه يظل رغم هفواته فى فك الخط شارلمان.

أبانا القسيس لقد ضربت مثلا رائعا، كما قدمت نموذجا ساطعا بدأ "يشعشع" فى رأسي، وسوف يحفزنى من الآن فصاعدا على تذكر شارلمان كلما لفتت نظرى أخطاء ذلك العم موزع ماكينات الخياطة، الأمر الذى سوف يحثنى على تقديم فروض الاحترام له بالمثل.

قلت له ناصحا: "طب خليك فاكر المثل ده يا دروجمولر". ثم انصرف القسيس بينما ساعدنا "دروجمولر" فى فرط حبوب الذرة. وقد تيسر لى فى هذه الأثناء التعرف عليه بشكل أفضل. وأكثر ما أعجبنى فيه أن ما فى قلبه كان يجرى على لسانه، كما كان يقول رأى الناس فيه فى عفوية وصراحة وبدون مواربة حتى لو مسه ذلك شخصيا. فهو القائل: درج القسيس "برومر شميت" على تشبيهى بسيدنا يوسف، فكان يقول لي: "كل لما بابصلك يا دروجمولر بتفكرنى بسيدنا يوسف على طول وبعدين بقولك فى عقل بالي: اللى بيحلم أهو جاى!". عاب "دروجمولر" ما يشوب ذلك القول من عدم اللياقة. لكنى بادرته بالقول: هدئ من روعك لأن يوسف كان قديسا ورد ذكره فى الكتاب المقدس.

لكنه مهما كان الأمر فإنه أسلوب يعوزه الأدب.

---

(١) تحالف شارلمان مع هارون الرشيد أعظم خلفاء العباسيين المتوفى سنة ٨٠٩م. وكذلك يعرف شارلمان بكارل الأكبر أو كارلمان.

إذن قل لى بصراحة، أليس من الجائز أنك كنت فى ذلك الوقت حالما بعض الشيء؟

إنى لا أريد الإنكار. فليس من المستبعد أن يكون قولك صحيحا. وهو على أى حال ليس خطأ كله. سافر القسيس "برومر شتيت" ذات مرة إلى هامبورج لقضاء بعض حوائجه وتحتم على مرافقته فى سفره. وهناك أخذنى معه إلى حديقة الحيوانات حيث وقفنا طويلا أمام قفص الأسود. وما لبث أن خصنى القسيس بإلقاء محاضرة عن ملك الغابة بينما لم أركز فيما قال وسرحت بفكرى عساى أتذكر ما سبق لى أن سمعته من قصص الليوث. وبمجرد ختامه للمحاضرة كنت قد انتهيت من تأملاتى فى نفس الوقت. فسألته وكنت لا أزال شارد الفكر: أبونا القسيس هل كانت الأسود التى تفضلت بذكرها سباعا حقيقية أم أسودا حية؟ وما كان منه إلا أن أنبنى على عدم الانتباه لشرحه منتهرا إياى بالألمانية الفصحى على غير عادته. وفى مناسبة أخرى وقفت خلف الشونة لأنظر إلى السحب بعين فاحصة، فى حين كنت مستغرقا فى التفكير فى ظروفى الحالية والمستقبلية، ذلك لأن الطبيعة الخلابة تستهوينى بسحرها. وعلى حين غفلة دلفت زوجة القسيس وقطعت علىّ حبل التفكير بقولها: "دروجمولر" إنى أسمع عواء الأبقار، لابد أنها عطشى لأنك لم تقدم لها الماء لتشرب. "قوللى إيه اللى جرالك يا دروجمولر أنا مش عارفه إنت سرحان فى إيه كده على طول!". ارتد بصرى عن تأمل السحب وعدت من شطحات الفكر إلى مهاوى الأمور الدنيوية فأجبتها قائلا: يا سيدتى عقيلة أبينا القسيس إننى مشغول دائما بقدح الذهن والتعلم!.

كان "دروجمولر" شديد التقشف قليل الإنفاق، وهذا ما أعجبنى فيه. لكنه كان مقترا بخيلا، وأنا أمقت البخل والتقتير. ومع أنه جاوز منتصف الثلاثينيات من عمره إلا أنه لم يتخط دائرة محدودى الدخل. وعلى الرغم من ضآلة دخله فقد استطاع توفير ٣٠٠٠ مارك، أودعها بنك الادخار المحلي. روى لى ذلك بنفسه وأعتقد أنه أسر إلى بالحقيقة وبدون مبالغة. فقد اقتطع من قوته وعرض نفسه

للجوع والحرمان من أجل الادخار على مدار السنوات التى قضاها فى العمل على مقربة من مدينة "لوبيك" التى يربطها "نهر ترافه" ببحر البلطيق. بيد أنه كان يضرب بما فطر عليه من بخل وتقتير عرض الحائط فى ليلة رأس السنة، فينقلب زهده فى الاستهلاك طوال العام إلى ما يعتقد أنه إسراف وفشخرة فلا يضن على نفسه بما تهفو إليه. وهو القائل:

أجل، لقد نعمت نفسي ورفهتها وأقمت لنفسي وليمة[1]، فاشتريت ثعبان ماء مدخن دفعت نصف "تالر" ثمنا له علاوة على فطيرة بالزبد محشوة بالزبيب الأصفر والأحمر، ولم أقتر على نفسي بقطعة زبد إضافية، فضلا عن زجاجة من نبيذ الموانئ المعتق وارد البرتغال. قمت برصها أمامي على المنضدة ثم جلست من خلفها في وضع المتحفز. وأخذت "أنقنق فيها" حتى أتيت على آخرها فى تلك الليلة الميمونة الموعودة. وبعد أن فتكت بها اشتهيت أكل قطعة من جلد الثعبان المتبقى لدسامتها. غير أننى أصبت بمغص حاد ألم بى خلال الليل مما أقلق مضجعي. هل تعرف سببا لإصابتى بوجع البطن

"إزاى متعرفشى السبب يا دروجمولر بعد ما عبيت بطنك بتعبان بالزبيب.. إشى فاتح.. وإشى غامق. وبعد كده قمت معومه فى النبيت والزبدة .. ومن ورا دا كله حته من جلد التعبان الملزأ .. دى حاجة ما تستحملهاش ولا حتى الجموسة الطوافة فى المراعي".

"أنا عقلى قلى كده برضه .. علشان معدتى كانت زى البمب أيام ما كانت عايشه على الجوع .. لدرجة إنى كنت باحلم فى مارتين[2] بليلة راس السنة". فقد كنت فى عيد راس السنة أتنعم مترفها مثل موسى فى مصر خلال السنوات الثلاث

(١) قارن إنجيل لوقا ١٦: ١٩، وجاء فى هذه الآية: "كان إنسان غنى ... يتنعم كل يوم مترفها". وفى الترجمة العربية المشتركة: "... ويقيم الولائم كل يوم".

(٢) عيد مارتين ينسب إلى القديس مرتينوس الذى كان فى القرن الرابع الميلادى أسقفا لــ"تور" الفرنسية. ويحتفل فيه سنويا فى نوفمبر بأكل الأوز— أغلب الظن لندرة الأعلاف فى شتاء القرون الماضية بدون الصوامع.

السمان. "لأ بقى يا دروجمولر مترعلشى منى لو قلتلك إنك بتخرف حبتين. أولا دول ماكنوش تلات سنين سمان إنما سبعة. ثانيا موسى مالوش دعوة بالسنين السمان لأنه ما كانش لسه جه. ثالثا عبارة "يتنعم مترفها" مش بتاعة موسى إنما بتاعة الراجل الغنى اللى اتكلم عنه الإنجيل، وبكده تبقى بتلخبط فى ترتيب آيات الكتاب المقدس. علشان كده خلينا نقرا حكاية الراجل الغنى مع بعض وبعدين نروح ننام".

وبعد الصلاة كان شيء لا يزال يعتمل فى صدره أفصح عنه أخيرا بأن وجه إلى "ليزا" سؤالا يقول: كيف تأذنى لى بلبس القميص فى المطبخ؟ ذلك لأن المطبخ دافئ وغدا هو يوم الأحد. استغربت "ليزا" مما طلب، لأنه لم يسبق من قبل أن تقدم إليها أحد سواه برجاء مماثل، لكنها أعطته مع ذلك الضوء الأخضر. وإذا به يسر إليها بالآتي: لقد كانت مؤجرة غرفتى فى "لوبيك"، السيدة "بوتا فور"، تسمح لى أيضا بأرتداء القميص فى المطبخ، الأمر الذى وفر على مشقة إشعال المدفأة، فكنت أتأبط قميصى فى أيام السبت وأدلف به إلى المطبخ. وكانت مؤجرة الغرفة تتفهم رغبتى وتتسلل خارجة لأكون بمفردى فى المطبخ إلى أن أغادره. كنت خلال هذه الفترة أخلع قميصى المستعمل وأجلس هنيهة فوق سطح الموقد، حيث الدفء المنعش والمكان الملائم لتأملاتى إلى أن تجرى الدماء دافئة فى عروقى من جديد إيذانا بأن ارتدى القميص النظيف. لقد كانت سويعة كنت أشعر خلالها بمتعة حقيقية هكذا سرد تفاصيل تلك السويعة التى استمتع بها واستعذبها، بينما اتسعت عينا "ليزا" من الاندهاش.

بقى عندنا يوم الأحد وأخذ يتحدث عن أمه باستفاضة وإتراع. وعلى الرغم من مضى أعوام طوال على تخطيه سن الصبا، فقد ظل فى تعلقه بأمه صبيا، أما هى فكانت تبادل وحيدها حبا بحب. ذات يوم أصيبت الأم بمرض خطير، كما كانت تعانى من الحاجة. ومع أن نقوده كانت عزيزة عليه، فلم يتوان لحظة وسحب ٣٠٠ مارك من حسابه على الفور، وسافر إليها واعتنى بها حتى شفيت تماما من مرضها. وهذا شيء كان يعجبنى فيه، لأن المرء الذى يحسن إلى أمه ويكرمها لابد

أن يكون إنسانا طيب القلب فضلا عن اهتدائه بهدى الوصية الرابعة[١]. وفى اليوم التالى شد الرحال ليواصل الترويج لماكينات الخياطة فى أنحاء أمريكا. لكنى أعتقد أنه لن يوفق فى بيع أعداد كبيرة منها، مهما أجهد نفسه فى "تسميع" الرسالة الإعلانية التى يحفظها عن ظهر قلب. كما أعتقد بأنه إلى جانب عيشه وحيدا على قدر من ضعف الإدراك والغفلة بحيث تعوزه القدرة على كسب معاشه بنفسه فى هذه البلاد. فهو مثل الطفل يحتاج إلى من يحنو عليه ويربت على كتفه برفق واحتراس. ولهذا السبب نصحته "ليزا" بالعودة إلى مسقط رأسه فى "ميكلينبورج" ثانية لكى يتزوج من فتاة تمتلك قطعة أرض وبقرتين، لأن ذلك هو الحل الأمثل له ولأمه. لكنه رفض نصحها بإباء وشمم لاعتقاده أن النقود ملقاة فى شوارع أمريكا، وما على المرء إلا أن يحنى ظهره قليلا ليجرف منها. وأغلب الظن أنه بات على الفتاة المالكة لقطعة أرض وبقرتين أن تفقد الأمل فى عودته عما قريب، لأنه عندما ينحنى لالتقاط الذهب الملقى على الأرض فسرعان ما يشرد ذهنه طويلا فى التأمل والتفكير، فيأتى شخص آخر ليجمع المال أثناء شروده ثم ينطلق بما جمع إلى حال سبيله. إنى آسف لأحواله. وعندما رحل عنا كانت أفكارنا تصطحبه وما تلبث أن تعود بدونه. ومازلنا نتشمم أخباره أحيانا بحثا عنه، ولكن هيهات لنا أن نعثر عليه. ومن يدرى فلعله اتبع نصيحة "ليزا" وعاد من المهجر إلى مسقط رأسه.

والآن أقص عليك الحكاية رقم ٦: لقد كتبت لك عنه قبل سبعة أشتية مضت. تعرفت عليه فى الحال حينما جاء إلينا منهكا من المشي. حدجته بعينى وقلت لنفسى ما أصغر هذه الدنيا. صحيح "مصير الحى يتلاقى. وأقطع دراعى لو ما كانش الراجل اللى أنا شايفه بعنيه دول هو الدكتور الفرنساوى". نعم، لقد كان هو بالفعل. وسوف أصف لك هيأته حين "هل علينا". حجم الرأس لم يتغير تقريبا عنه أثناء رحلة عبورنا المحيط. لكن وجهه ضمر وتجعد، فغارت وجنتاه، وتدلدلت تقاطعيه

(١) الوصية الرابعة حسب ترتيب لوثر: "أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك"ـــ العهد القديم، سفر الخروج ٢٠: ١٢.

و"تكرمشت ملامحه". واعتمر قبعة كالحة، ربما تحرج من لبسها "كريشان" الخباز، مع أن "كريشان" هذا اعتاد على تغيير غطاء رأسه تباعا بتلك القبعات المتهالكة التى سبق للفلاحين تتويج رؤوس خيال المآتة بها. كان لا يزال يرتدى معطفه البنى الذى نصل لونه وحال ذيله إلى الاخضرار. ناهيك عن ترقيعه بقبائل شتى حيكت منذ أمد بعيد من الأمام ومن الخلف بخرق مختلفة ألوانها، فتدلت أطرافها البالية بعد تهتك غرزها وصارت مثل أعلام منكسة متهدلة. وكان يرتدى سترة تحت المعطف، انبعج كسمها وتغصن نسيجها، ولم تعد توحى بسابق "قيافتها" إلا علامات الرثق. وأعتقد أننى لم ألمح ارتداءه لقميص تحت جاكتته التى تنضح بآثار عرق جف. وللتأكد من ذلك سألت "ليزا" فقالت إنها لا تظن أنها رأت قميصا بالمثل. كان الشتاء شديد البرد، فبدا شائخا كمسخة لكائن حى تحول إلى هيكل هش مرتجف ضامرة سمّانتا ساقيه. أما البنطلون فقد تهلهل وإن ظل متماسكا يشد بعضه بعضا بالكاد. استعاض عن الحمالة بحبل. ولف فردتى الحذاء بدوبارة حول القدمين، لكن الجزء الأمامى (البوز) شغرا فاههما كأنهما يتثاءبان. كما بدا صدره أجوف نحيفا مثل صدر دجاجة حقيقية معلق على عظم المنكبين. وخلاصة القول، لقد كان مظهر الرجل أشبه بواحدة من السبع بقرات العجاف التى رآها فرعون فى المنام[١]. [هل تتذكر أنك عاقبتنى ذات مرة بالمكوث بالمدرسة بعد انتهاء الحصص، لما اختلط على الأمر وقلت إن عدد البقرات العجاف كان خمسة، وأن السبع بقرات حسنة المنظر ومكتنزة اللحم هى التى أكلت مثيلتها قبيحة المنظر ورقيقة اللحم]. وكانت تزحف على ياقة سترته حشرات أعاف ذكر اسمها. ولكنه ورد ذكرها بين الضربات التى حلت بفرعون[٢]. وطبيعى أن تأنف ربات البيوت أن يجلب أحدهم الحشرات من أى نوع إلى داخل البيت. وهى عادة عند النساء بما فى ذلك "ليزا".

---

(١) راجع سفر التكوين ٤١ : ١-٤٠.

(٢) راجع سفر الخروج الإصحاح ٧-١١.

لم يقل فى البداية شيئا كثيرا، اللهم إلا تلك العبارات التقليدية والمعادة عن الطقس وعن الجوع. قلت لنفسي: حتى لو وضعنا ذلك الرجل الذى يشبه خيال المآتة فى غيط القمح، فسوف تفزع من شكله العصافير وتكف بذلك عن التقاط الحب من السنابل. لكن استخدامه كخيال مآتة أمر غير مناسب ولا يليق. أولا: لأننا فى نهاية شهر يناير الذى لا ينمو فيه زرع لبرودة الطقس. ثانيا: لأن الله خلق الإنسان فى أحسن تقويم، وإن أثرت عوادى الزمن فى شكل الرجل ليبدو مختلفا بعض الشيء عن الأصل الذى خلق عليه. لقد تدهورت أحواله وأصبح يعانى من الحاجة وقلة ذات اليد، فإذا رفضت استضافته فسوف يرقد خارج سور المزرعة فى البرد القارس وهو متعب، ومن ثم سوف يعلق ذنبه فى رقبتك إذا ما أصابه مكروه، كما سيظل ضميرك معذبا ما حييت. إنك تعرفه منذ زمن طويل، ومهما يكن الأمر فهو ألمانى أولا وأخيرا، وإن كان من صنف ردئ. وأنا على ثقة أن ربة البيت سوف تقدم له الطعام كما سيقضى ليلته فوق كومة القش الدافئ حتى يستشعر طعم السعادة هذه المرة، ولكن على شرط تخلصه أولا من قمل الشتاء وإلا امتنعنا عن استضافته.

اصطحبته إلى "ليزا" على عجل لكى تعاينه بنفسها. أمعنت "ليزا" النظر فى وجهه لينتقل بصرها إلى وجهى ثم حدجته بعينيها ثانية فثقل قلبى من القنوط. ولما أومأت إلى ببصرها شعرت بالارتياح ولكنها لم تقل شيئا. ولذا أخذت زمام المبادرة ووجهت كلامى له: يبدو أنك كنت متعجلا هذا الصباح فلم تتمكن من الاستحمام. كما لابد أن بطنك خاوية كخواء مخزن القش من الأعشاب المجففة فى عيد العنصرة الذى يسبق موسم الحصاد لهذا حان الوقت لتناول الطعام والشراب، ولكن ينبغى لنا أن نتعامل أولا مع الماء والصابون.

غمزت بطرفة عين لحث "ليزا" على تسخين الماء، ثم صببت دلوين من الماء الساخن فى البرميل النصفى الواسع (البِتِّية) حتى يغتسل. وأحضرت "ليزا" ملابس مستعملة، لم تكن بالضرورة على مقاسه بالضبط، إلا أنها اشتملت على

قميص. وقمت بالتخلص من الأطمار والهلاهيل التى خلعها، بحملها على طرف مذراة ثم دفنتها فى الأرض خلف الحظيرة. تغير مظهره الخارجى بعد الاستحمام بشكل ملحوظ. هذا بغض النظر عن تهدل السترة اللبيس التى بدت واسعة فضفاضة غير محبوكة على الجسد. قدمت له "ليزا" قطعة كبيرة من الدهن، وبعض الشرائح التى شقتها سميكة من قالب الخبز، علاوة على أقداح القهوة. لكن "ليزا" ظلت تتحاشى الاقتراب منه، بالتفافها من حوله فى دوائر واسعة على بعد مناسب منه. بطبيعة الحال لم يكن من الصعب فهم سبب حذرها، لأنها ما فتئت تفكر فى القمل. أما عن نفسى فكنت من هذه الناحية مطمئنا بعد استحمامه. إلا أنه جعل "يهرش" من حين لآخر فى المواضع التى يحك فيها المرء عادة "أكلان" جلده بحركات عفوية فى الظروف المماثلة.

التهم ما قدمناه له من الأكل. الصديق العزيز، أقول لك، لقد ازدرد الطعام ازدرادا! وكنت أشعر دائما بأننى سعيد الحظ أن استطعت إشباع كل من عرجوا على المزرعة وساعدونا فى "فرط" الذرة. ولا غرابة أن كان هؤلاء يقبلون على الفتك بالطعام بشراهة. فقد كانوا يقضون فترات طويلة يتضورون جياعا ولا يمر خلالها غير ألسنتهم بين الأسنان. وبعد أن التهم الطعام لهيب جوعه وشبع، استرد عافيته قليلا، وبدأت الصحوة تظهر لامعة فى عينيه. هل تعرف ماذا أظن؟ أعتقد أن إنتاج كميات وفيرة من الدهن والخبز سوف يعملان على مكافحة الجوع والشقاء بين بنى البشر. راح فى غفوة قصيرة، ولما أفاق من الوسن ناولته غليونا محشوا بالتبغ حتى يدخن قليلا. وما لبث أن صلحت مهجته، وجذلت نفسه، وتصاعد الدخان كثيفا من الغليون، الأمر الذى ذكرنى بفرن العم "كون" حينماكان يضطر للتدفئة بقطع من الخشب الأخضر بعد نفاد مخزون الحطب الجاف بحلول عيد العنصرة فى بواكير الصيف. وما كاد يدب النشاط فى بدنه، حتى انفتحت شهيته للكلام وبدأ يتحدث على سجيته التى كان قد افتقدها أثناء معاناته من الجوع والإعياء.

وبعد أن استعاد نشاطه، دفعت إليه بمقعد خلف كومة من كيزان الذرة وأنا أقول له: والآن وبعد أن شبعت يمكنك المبيت عندنا ومساعدتنا فى فرط الذرة، كما تستطيع فى لمتنا الاستمتاع بما يرويه الضيوف من حكايات شيقة، وأن تنعم بدفء ينتشر فى أرجاء المكان من لفحات اللهيب المضطرم من المدفأة. إذن أخبرنا: من أين أنت قادم وإلى أين أنت ذاهب؟

لما شرع فى "فرط" الذرة، تبين أن مهارته متواضعة. ولما شرع فى السرد، اتضح أن قدراته أحسن. كان يتحدث الألمانية بطلاقة لا توحى بتأثير الغربة على تعثر لسانه. وحال انهماكه فى الكلام سرعان ما كان يتحول إلى ذلك الدكتور الفرنساوى الذى سبق أن تعرفنا عليه فى رحلة الإبحار إلى أمريكا. اعتاد على التلويح بيديه فى الهواء فى معاركه الكلامية، وكان يمسك بكوزى ذرة فى يمينه، وبالغليون فى يساره، بينما تتدافع فى رأسه مشاريع لا حصر لها. لاحظت الأطفال يتلاكزون "بالكيعان" استعدادا للسخرية من حركات يديه البهلوانية على وقع كلماته. وحسما لما قد يطرأ على الموقف من تطورات غير مستحبة أرسلت الأطفال إلى الفراش رغم أننى كنت أتعجب من حركاته بالمثل. أخبرنا عن عصاميته التى صنع بها حياته. فذكر أنه جاب ولايات أمريكا شمالا وجنوبا، وجال فى ربوع البلاد شرقا وغربا. وعبر عن رغبته الأكيدة فى العودة إلى الإقامة فى إحدى كبريات المدن. تصور أن ذلك العجوز المتصابى عقد العزم على تجربة حظه فى نيوريورك. هذا مع أن أطماره البالية التى عشش فيها القمل لا تزال مدفونة خارج الدار، شاهدا على سوء طالعه وعلى بطلان تطلعاته. نعم، لقد أراد البحث عن حظه المأمول فى نيويورك، رغم أنه لا يمتلك إلا أسماله البالية التى يزحف فيها القمل. ماذا كان سيقول الناس عنه لو كان قد "هل" عليهم فى هذه الطلعة البهية.

قلت له: "عملت طيب إنك حودت علينا الأول لأنهم ما كانوش حيدخلوك نيويورك وانت بالشكل ده". ولكن أخبرنى من تسبب فى تدهور أحوالك بهذا الشكل؟ إن لدى شعورا دفينا بأنك لا تحب العمل نظرا لكثرة تقلبك على الوظائف.

وهنا قاطعنى "بقنزعة فارغة" وبنفخة كاذبة متعجرفة بقوله: هل تتحدث عن العمل؟ لا خلاف على ضرورة انخراط كل إنسان فى عمل معين. ولكن هناك فرق بين عمل وعمل. فالبعض يشتغلون مثل الثيران فى الحقول ويكدحون كدح البلهاء. أما البعض الآخر فعقولهم مشحونة بالخطط وبالمشاريع التى ينفذها غيرهم. لقد سارت الأمور على هذا النهج منذ بدء الخليقة، وأغلب الظن أنها سوف تواصل سيرها على هذا النهج إلى أبد الآبدين. إن ذهنى الذى لا تخمد جذوته مشحون بالخطط وبالمشاريع، ولك أن تتأكد من ذلك بنفسك بمجرد النظر إلى رأسى هذا! وكان أثناء كلامه ينقر بكوز الذرة على جبهته. صحيح أن أحوالى متدهورة فى الوقت الحالي، لكن أهالى الولايات الغربية أغبياء متخلفون لأنهم لم ينضجوا بعد حتى يتقبلوا الأفكار الجديدة. بيد أنها مسألة وقت لأنهم يمرون بمرحلة انتقالية. اسأل عنى بعد عام من الآن فى نيويورك، وسوف تجد أن كل طفل تقابله على قارعة الطريق يعرف عنوانى ويتحدث عن إنجازاتي.

انثال الهذى من فيه بلا حساب، وكأن لسانه ساقية تدير طاحونة لا تطحن، فهالنى ما كرره على أسماعي. قلت لنفسي: لعل الرجل قد تجمد مخه من طول ما عاناه من قرس البرد والحرمان فى أسفاره مشيا على الأقدام، ولما تمشى الدفء فى أوصاله فجأة، فك مخه المتجمد، فطاش صوابه وطار فؤاده شعاعا. هل تتذكر يا صديقى أنك علمتنا بالمدرسة أن على المرء الذى تجمدت أصابعه وأذناه من قسوة البرد والزمهرير أن يتأنى فى دخوله إلى الأماكن الدافئة؟ لذلك لاح لى أن إقدامه الفجائى على الدخول عندنا من الزمهرير إلى الدفء مباشرة قد أثر فى قدرته على الفهم. نعم، لأنه جازف بتعريض نفسه رأسا للحرارة المنبعثة من المدفأة، مما أدى إلى "سيحان مخه"، وأودى بقواه العقلية.

وبعد أن أمعنت النظر ثانية فى الدعوى التى طرحتها بعاليه، تبين لى سخف حجتى وبطلان برهاني. فلم يكن كل ما تفوه به هزيا أو هراء. فإذا ما شبهت كلامه بالنسيج، فقد تخللت بين سداة ذلك النسيج ولحمته خيوط من "الهجص" والتخريف أيضا.

ومهما يكن من أمر فقد كان العبث والخطل سمتين طاغيتين على ما يقرره من الدعاوى والأحكام بوجه عام. هذا وإلا تعذر العثور على تفسير منطقى يقبله العقل لاستهجانه الدعوى ونقيضها فى آن واحد، ذلك لتحامله على الأغنياء والفقراء، وصبه جام غضبه على المقدس والسلطة، وتنكره للريف والحضر، ورفضه للعمل والبطالة. وكان أثناء عرضه لوجهات نظره يلوح بعنف فى الهواء وفى يده كوز من الذرة. ثرثر بكلمات رنانة محاولا إقناعى بخزعبلاته، بينما أسماله البالية التى سرح فيها القمل مدفونة خلف الحظيرة. وعلى ما يبدو أن بنات أفكاره كانت تفقس تباعا من بيضها بفعل الحرارة المنبعثة من المدفأة. تمادى فى غيه وغلوائه بأن قام فى نهاية المطاف بشن هجوم على الرب وعلى المقدسات لتطال البعث والحياة الأبدية بعد الممات. كما عبر بشكل لارجعة فيه عن اعتقاده منذ أمد بعيد بأن لا أهمية للكتاب المقدس. وكان يقول فى صلف: اغرب عن وجهى بهذه الأشياء، فأنا رجل فطين حاد الذكاء، جبت الأقطار وأكثرت من الأسفار، مما أكسبنى بعد نظر وقدرة على سبر الأغوار. إننى رجل رشيد لا أومن إلا بما أستطيع فهمه وإدراكه.

قلت لنفسى هامسا: "إنت لازم تغسله مخه علشان يبطل وش". وحتى يرعوى، عليك بمواجهته بمثل يعيده إلى صوابه. قلت له: عندما أنظر إليك يا عزيزى أجدنى "غصبا عنى" مدفوعا للتفكير فى ثيرانى. فهى لا تؤمن مثلك إلا بما تستطيع فهمه. ومن المعلوم أن قدرتها على الإدراك محدودة. ومع هذا فلن تختلف نهايتك كثيرا عن نهايتها. لكن ثيرانى تعطينا على الأقل قطعا معتبرة من اللحم يستلذ بأكلها الآكلون. أما إذا لم تغير ما بنفسك، وبقيت متمسكا بما تعتقد بصحته، فسوف يحين أجلك يوما ما وتفارق الحياة ثم تقبر ويهال عليك التراب حيث ينهش الدود جثمانك. حينئذ هيهات لك أن تنتظر من الناس أن يذكروا محاسنك بالثناء والتقدير.

أجابنى وهو يلوح بكوز ذرة أمام وجهى يمنة ويسرة بقوله: ربما كان الأجدر بك أن تكون قسيسا. ومع هذا فمهما حاولت إثنائى عن معتقداتى فسوف تبوء كل محاولاتك بفشل ذريع نظرا لما أتمتع به من الفطنة والذكاء.

من قال إننى أسعى إلى تغييرك لمعتقداتك؟ إن كل ما أطلبه منك هو الإصغاء إلى المثل الذى سوف أضربه لك. إذا قلت لك إن أبقارى خرجت لترعى الحشائش فى الصيف. هل تؤمن بذلك؟

بالطبع، لماذا أتنكر لما قلت؟ حسنا، وإذا انضمت الخراف إلى الأبقار لكى تشاركها فى أكل الحشائش. هل تؤمن بذلك؟

لم لا. ولكن ماذا تعنى بسؤالك؟

لا تتعجل الأمور فهذا ما سوف أخبرك به لاحقا. وإذا لحقت خنازيرى بالخراف لترعى الحشائش أيضا. هل تؤمن بذلك أيضا؟

قل لى بالله عليك ماذا تقصد بضرب ذلك المثل؟

لطفا، أجب على أسئلتى بلا أو نعم فحسب! هل تعتقد أن الخنازير تقبل على أكل الحشائش بالمثل؟ وإذا انضم قطيع من الأوز ليأكل الحشائش بجوار الخنازير. هل تؤمن بذلك؟

نعم إننى أصدق على ما تقول

ولكننى لا أخفى عليك حيرتى وأتساءل كيف يتسنى للحيوانات أن ترعى نفس الحشائش بينما ينمو شعر خشن للخنازير، وصوف للخراف، وشعر ناعم للأبقار وريش للأوز. هل تستطيع تفسير ذلك التباين تفسيرا مقنعا؟ أرجو أن تسعفنى برد يشفى غليلي.

ساد الصمت بيننا وكأن على رؤوسنا الطير ثم قال: لا، إننى لا أستطيع فهم سبب ذلك الاختلاف. لقد ضربت مثلا سخيفا يتعذر علىَّ استيعابه. أما الأمثلة

الأخرى المتعلقة بالعقيدة القويمة فهى مسألة تدخل فى اختصاص رجال الدين. فلذا دعنى ولا تثقل على بذلك أو تفاتحنى فيه. وما لبث أن عاد إلى الثرثرة والجعجعة بوعود خلابة.

قلت لنفسى هامسا: "إنت لازم تغسله مخه من تانى علشان يبطل رغى لأنه باين عليه من صنف البنى آدميين اللى ماتنفعش معاهم الأمثلة". ثم وجهت إليه كلامى قائلا: "كفاية يا أخى بقى دوشتنى من كتر الرغي.. دى طاحونة الدش بتاعتك قربت تشيط من كتر الدوران". إذن سوف أواصل حديثى معك بدون الاستعانة بالأمثلة. إنى أعرفك. فأنت الشهير بالدكتور الفرنساوى الذى أبحر معنا فى عام ١٨٦٨ إلى أمريكا. كانت العيون ترمقك آنذاك على ظهر السفينة فى صحبة دائمة للفتاة القادمة من "شيلزيا". وكنت تتهامس مع تلك الفتاة التى قالت عن نفسها إنها متعلمة جدا، بينما كان القمل يزحف على ملابسها. وعندما رست السفينة أخذ البحارة يبحثون عنك فى كل مكان على سطحها، وكان الحديث يحوم أيضا حول سرقات صغيرة ووقائع غير نزيهة. لكنه قد مضى على ذلك زمن طويل وأصبح جزءا من ماضيك. ولهذا دعنا نتحدث عن الحاضر.

ما إن ذكرته بسابق معرفتنا حتى أفزعه النبأ. ومن هول المباغتة انسحب الدم من وجهه فى دفقة هرعت إلى قدميه. ارتبك فى مطلع الأمر، وتبلبلت افكاره وانعقد لسانه. لكنه ظل ساندا الغليون بيده ومبسمها بين شفتيه. وبعد هنيهة انفتحت شهيته ثانية لشبق الجعجعة، فمط رقبته فوق منكبيه استعدادا للكلام. غير أننى وأدت محاولته فى مهدها متصديا له بقولي: هون عليك "يا دكتور يا فرنساوى" وأرح لسانك قليلا ولا تطلق له العنان، فقد آن الأوان حتى تنصت إلى تعليقى على دعاواك. إنك تقول: "إننى أمر بمرحلة انتقالية، وإنها مسألة وقت حتى يحالفنى الحظ فى نيويورك". وبذلك فإنك تنسج على منوال الثعلب وهو فى الرمق الأخير بعدما أصابه الصياد وشرع فى سلخ فروة جلده، إذ قال: إنها مسألة وقت، وها أنا ذا بين بين أعبر من عالم الفناء إلى عالم البقاء. كما أنك تقول: إن رأسى لكبير

وعقلى بالتالى مستتير. أما من ناحية كبر الدماغ فلا شك أنك تقول الحقيقة. فرأسك كبير حقا ويبلغ حجم القرعة العسلي. لكن القرع على كبره لا يستغل عظم حجمه فى التفكير، لانتفاء حاجته إلى قدح زناد فكره. ثم ألست أنت القائل: إننى لا أومن إلا بما أستطيع فهمه؟ نعم لقد ورد ذلك على لسانك حرفيا. وهو نفس ما قالته دودة الأرض عندما نقرها الديك بمنقاره ليفتك بها وهى تقول: إنى لا أومن إلا بما أدرك، ولكنها آمنت مضطرة صاغرة وهى على قاب قوسين من الموت. وفى نهاية المطاف، ألست أنت القائل باستهانة: إننى لا أهتم بالكتاب المقدس، ولا بكلمة الرب، لأن المرء ليس بحاجة لهما لكى يشق طريقه فى عالمنا المعاصر؟ هل لا تزال تعتقد حقا أنك قادر على شق طريقك فى نيويورك، مع أنك لا تملك إلا تلك الأطمار التى عشش فيها القمل؟

"يا أخى إنت عمال تشوح بالبيبه فى الهوا رايح جاى لحد ما زغللت عنيا". نعم لقد ثرثرت وصدعت دماغى بما فيه الكفاية. أما عن نفسى فسوف أختصر الطريق ولن أطيل عليك. والآن دعنى "أطقسك" وأنت جالس أمامى هكذا حتى تعرف من تثمينى لك قدر نفسك. "إنت ولا حاجة" لأنك لا تمثل شيئا، ولا تملك شيئا، ولا تفقه شيئا، ولا تقدر على عمل أى شىء، كما أنك ملحد لا تؤمن بشيء. ولذلك دارت عليك الدوائر ودهستك عجلات القدر. أما من يسعى إلى التقدم ويطلب العلا بحق، فعليه بالعمل الشاق وببذل الجهود التى لا تعرف القعود فى سبيل الارتقاء. وإنه لشيء طيب فى كل الأحوال أن يتخذ الإنسان من الإيمان سندا له، يشد من أزره فى حياته وينجيه عند الممات. سندا إيمانيا قوامه الثقة التى تمنح الإنسان الأمن، وتدفع عنه الخوف. وأتمنى لك من كل قلبى أن يتسرب إلى إدراكك نصحى قبل فوات الأوان. والآن لقد أزف وقت النوم. خذ هاتين البطانيتين من الصوف لتستعين بهما على النوم ملء جفنيك فى كومة القش. ولكن حذار أن تأخذ الغليون معك حتى لا يحدث مالا تحمد عقباه إذا ما اضطرمت النار فى الهشيم.

وعندما ذهبنا إلى الفراش عاتبتنى "ليزا" قائلة: "يورن ياكوب" أراك قد عاملت الرجل بحدة رغم أنه مريض. قلت لها: لقد عرفت إنسانا يا "ليزا" أعطاه "الدكتور شتاينفات"، الطبيب بمدينة "لود فيجز لوست"، بطريق الخطأ زجاجة كبيرة مكرشة مملوءة إلى نصفها بزيت الخروع على أنه العلاج الناجع لحالته. تعاطى المريض زيت الخروع بحسن نية مطلقة على مدار أسبوعين عانى خلالهما الأمرين من الإسهال. ثم توجه إلى الطبيب وهدده برفع دعوى قضائية ضده. لكن الطبيب قال له بهدوء: لا ريب إنك محظوظ. عد إلى دارك، وارض بقسمتك، ولا يفوتك توجيه الحمد والشكر لله أن تبقى منك ما فيه الكفاية. رجع الرجل من حيث أتى مجبور الخاطر بعد أن "تواسى" بكلمات الطبيب ووجد فيها خير عزاء.

سعل كثيرا خلال الليل. ولما شقشق النهار كانت الثلوج تكسو الأرض حتى يكاد الرجل الطويل القامة أن يغوص فيها إلى ركبتيه. أحسست نحوه بالرثاء والشفقة فسألته: هل لا تزال مصرا على السفر إلى نيويورك اليوم؟ نظر إلى نظرة تائهة، ثم تحجرت لسوء الطقس فى عينيه نظرة لا معنى لها وإن اعترتها الحيرة. وما لبث أن أردف يقول: لابد أننى قد توعكت بنوبة برد وزكام مما يقعدنى عن مواصلة الرحيل سيرا على الأقدام، علاوة على نفاد ما كان معى من النقود لتغطية نفقات السفر. فهل لى أن استسمحكم بالبقاء هنا إلى حين يتحسن الطقس؟ هذا إذا لم يكن لديكم ما يمنع بطبيعة الحال. وفى المقابل سوف أشارككم مساء اليوم فى تقشير كيزان الذرة، شريطة عدولك عن تكرار ما قلته مساء البارحة من عبارات التوبيخ القاسية التى ضيقت صدرى وأشجنت قلبي، ذلك لأنه رب قول أشد من صول. طفقت أقول له: حاش لله أن أكون قد تعمدت الإساءة إليك أو إلحاق أى أذى بك. إننى لم أشجب إلا هنات آدمك القديم(١) الذى لم تتنصل منه مثل تخلصك من

(١) ربما كان "آدم القديم" المشار إليه بماليه هو "آدم الأول" المذكور فى الإنجيل. أما نقيضه "آدم الأخير" أو "آدم الثاني" فهو ليس إنسيا بل يصير ربانيا. وعندما يحل المسيح المخلص والفادى فى المؤمنين به يتحقق لهم الخلاص من براثن الدنيوية والخطيئة. وجاء فى رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس بهذا المعنى ما يأتي: "سار آدم، الإنسان الأول، نفسا حية، وآدم الأخير روحا محييا. لكن

أسمالك البالية التى قمت بخلعها. لكنه أفحمنى بقوله: إنك أيضا لا تزال تتقمص آدمك القديم غافلا عن حقيقة وضعك دون أن تدرى.

نعم، هكذا عرانى أمام نفسى فأصابنى الارتباك. تمتمت قائلا بنبرة اعترافية: صحيح إنه إنسان بائس، لكنه كشف سترك، واستبطن مكنون صدرك. لعمري، إنك لا تزال تضم آدمك القديم بين جوانحك. وصار آدمك الدنيوى الهوى يتربع فى سويداء قلبك رافعا هامته مختالا فخورا، "مدلدلا رجليه" يهزهما بالزهو والاستكبار. وعلى الرغم من أننا أهل الأرض جميعا عصاة وخطاءون، إلا أن الله قد أنعم عليك وحباك من لدنه بنفحة من عطفه ومودته بإرساله ذلك الإنسان حتى عتبات بيتك لكى ينبهك إلى أن آدمك القديم لا يزال يملك عليك نفسك. أدركت عيوبى ولم أعد أنظر إليه بعين التعالى والاحتقار. قلت له متعاطفا معه: أتظن أننا سوف ندعك ترحل فى هذا الزمهرير؟ وهل فاتك أننا "بلديات" وأبناء إقليم ألمانى واحد؟ ينبغى أولا وقبل أى شيء آخر أن تستعيد عافيتك تماما. وها هى "ليزا" تعد لك مشروبا ساخنا حتى يسرى الدفء فى أوصالك.

إلا أنه بقى عندنا بعد تماثله للشفاء ولم يفارقنا. الصديق العزيز، أحيطك علما بأنه لم يذهب إلى نيويورك ثانية. لقد استقر به المقام عندنا وساعدنا بالعمل فى المزرعة لقاء أجر نقدي. ومكث عندنا على هذا الحال لفترة امتدت إلى عامين. وكان "آدمه القديم" فى مطلع الأمر ما يلبث أن يناطحنا بقرونه فى بعض الأحيان.

ليس الروحانى أولا بل الحيواني، وبعد ذلك الروحاني... وكما لبسنا صورة الترابي، سنلبس صورة السماوى (١٥: ٤٥-٤٩).— ويرمز مصطلح "آدم القديم" إلى الخطيئة الأصلية، خطيئة آدم وزوجه التى هبطا بسببها من الجنة مطرودين ليشقيا فى الأرض ويعيشا عند البدء على الكفاف. ذلك لأن آدم عصى ربه وغوى وطعم من الشجرة (شجرة الحياة) التى نهاه أن يقربها وزوجه. وهناك من يقول بأن خطية آدم وزوجه قد أورثاها نسلهما وراثة معنوية. وهناك من ليس على هذا الرأي. والقرآن لا يقر مقولة الخطيئة الأصلية: "ولا تزر وازرة وزر أخرى" (فاطر: ١٨) "وتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه" (البقرة: ٣٧)— وليس الإنسان فى حياته معصوما من الخطأ لأنه يخطئ ويصيب. والخلاص عند المسيحيين هو أن يصبح مسيحيا كالمسيح وعند المسلمين موقوف على الإيمان بالله وعمل الصالحات وعلى رحمة الله.

وعندما كان يتمادى فى غيه كنت أحذره بقولي: إذا لم تكف عن الهجن والاستهجان فسوف أبحث فى جدول مواعيد السفر عن موعد إقلاع أقرب قطار. وكان ذلك التحذير يكفى لكى تتحسن أحواله. وفيما عدا تلك المشاكل البسيطة، فقد كنت أشفق عليه وأحسن معاملته، ذلك لأننى بدورى لم أهمل التفكير فى "آدمى القديم" الذى نبهنى إليه.

كانت إسهاماته فى العمل دون المستوى المطلوب، لكنه كان يبذل قصارى جهده. وكنت أحرص من حين لآخر على مدح اجتهاده، لأن الإنسان يحب أن يمتدحه الآخرون. وتعود بمرور الوقت على الذهاب إلى الكنيسة من جديد، كما أقلع عن سابق استخفافه بالكتاب المقدس. ومع هذا لم يحفظ منه إلا بعض النصوص المحدودة، ولم يحاول تنشيط ذاكرته بسد الفجوات المعرفية. لكنه عاد على أى حال إلى حفظ آيات الصلاة الربانية: "أبانا الذى فى السموات..." (١) مرة أخرى، وإن درج فى البداية على عدم الالتزام بتسلسل طلباتها (صلواتها) السبع وعلى الخلط بينها. لكنه اكتسب القدرة على التمييز بينها فيما بعد. وكذلك حفظ العديد من الأبيات المنظومة الواردة بكتاب الترانيم. لم يكن ما حفظه عبئا ثقيلا ينوء به كاهله، إلا أنه على ما أظن استوعب ما فيه الكفاية.

أصيب بدرن رئوى وباءت كل محاولات العلاج بالفشل. ولا عجب لتدرن رئتيه بعدما تأثر جهازه التنفسى بالعديد من نزلات البرد فضلا عن سوء التغذية وهو يضرب فى الأرض مشيا على الأقدام. وساءت حالته بعد العامين اللذين قضاهما عندنا لعجز رئتيه عن أداء وظائفهما. لم يدم مرضه طويلا. واعتنت به "ليزا" وهو طريح الفراش. ثم فقد النطق وهو فى حضرة الموت. قرأت عليه آيات "أبانا الذى فى السموات..." ودعوت له وباركته، بينما أحنى برأسه لنا وضغط بيديه المرتجفتين على أيدينا. وبعد هنيهة فتح عينيه عن آخرهما مرة أخرى ثم

---

(١) الصلاة الربانية لها نفس المكانة التى للفاتحة عند المسلمين. راجع هامش الصفحة الأولى من باب "الإبحار إلى أمريكا".

نادى بصوت واهن مرهق: أمي، أمي! اندهشنا لذلك لأنه لم ينبس باسم أبيه وأمه فى غضون العامين الماضيين. وما لبث أن فاضت روحه وصعدت إلى بارئها فى طريقها المرسوم دون عروجها على نيويورك: أمل حياته، بل اختارت طريقا أكثر أمنا. وكان الرجل محقا فيما قاله ذات يوم: وما الأجل إلا مسألة وقت، وما الموت إلا مرحلة انتقال من عالم الفناء إلى عالم البقاء.

تحول فى هدوء خلال إقامته عندنا إلى شخص آخر. فقد خلد للراحة خلال العامين اللذين أقام فيهما عندنا بعد ما كابده خلال سنى عمره من العناء، الأمر الذى ظهر بوضوح على ملامحه الخارجية أولا ثم بدأ يتسرب إلى نفسه وروحه كأنه نور مشع أضاء جوانبه ووجدانه بالتدريج. وتبين لى أثناء حواراتنا المسائية وفى أيام الأحد أنه لم يكن يهذى. سألنى ذات مرة: كيف بلغت تلك القدر من سعة الاطلاع حتى صرت ضليعا فى شئون الكتاب المقدس وكتاب التراتيل علاوة على أصول الدين؟ كان جوابى إنه يرجع الفضل فى ذلك إلى معلمى بمدرسة قريتنا. لا ريب أنه كان معلما قديرا. قلت له: إنك لا تزال ذلك التربوى الأريب المثابر على أداء رسالته التثقيفية. ثم حدثته عن أياديك البيضاء على تربية النشء وتعليمهم. كما ذكرت له أننى من إقليم "ميكلينبورج" بيد أنه بدا متحفظا فى الخوض فى شئون ذلك الإقليم. ولم يقل عنه إلا أنه إقليم صغير. ودلل على قلة أهميته بأن ليس له دستور يقرر ما للأفراد من حريات عامة وحقوق قبل الدولة فى مقابل واجباتهم كمواطنين، ثم خلص إلى أنه إقليم عاطل من الحرية.

قلت له: أوافقك الرأى! ولكن على الرغم من أنه إقليم بلا دستور، إلا أنه منتج للغذاء ويتمتع بالاستقرار. كما يتولى شئون الحكم فيه أمير يعرف بالدوق الأكبر، هيهات أن تجد فى أمريكا مثيلا له. ولا يجوز لك مطلقا وصف "ميكلينبورج" بالإقليم الصغير. فهو ليس فى غاية الصغر. إنما هو على أى حال أكبر من أن يوصف بالصغير! وأغلب الظن أنك شاهدت خريطته فى أطلس صغير

الحجم. ويكفى إلقاء نظرة على بحيراته المتعددة! هذا فى حين أن أمريكا ليس بها إلا بحيرة مالحة فقط هى "جريت سولت ليك" حيث تقيم طائفة الـ"مورمون" على ضفافها. أما "ميكلينبورج" فمسطحاتها المائية غزيرة. ولنبدأ ببحيرة "زولت" القريبة من بلدة "كونوف". ثم كل البحيرات الأخرى التى تشتمل على عبارة "زولت" أو "زولتس" أو "زولتين" أو "زولستورف" فى مقدمة الاسم أو فى مؤخرته كأداة تصدير أو أداة "كسع". وهى تدل دائما على ملوحة المياه لاشتقاقها من كلمة "زالتس" أى ملح. فهل هناك وجه للمقارنة بين هذه البحيرات والجريت سولت ليك فى أمريكا "اللى عامله زى نقرة الميه المالحة"؟ وكم عندنا من البحيرات الأخرى هنا فى أمريكا؟ إذا قمت بحصر عدد البحيرات الأمريكية على أصابع يمناك، بدءا ببحيرة "أونتاريو" قرب الحدود الكندية، فلن تحتاج لعدها إلى البدء بإبهام يسراك. لكن إقليم "ميكلينبورج" تتخلله بحيرات [بحيرة= زيه] يصعب إحصاء عددها. أذكر منها على سبيل المثال: "قوكر زيه"، "شفرينار زيه"، "شالزيه"، "جولد برجر زيه"، "كراكاوار زيه"، "بلاوار زيه"، فالخينار زيه"، "كومروفر زيه" الـ"موريتس"... وهلم جرا. ناهيك عن وفرة البرك التى يصل عددها إلى الآلاف! أما إذا نحينا المسطحات المائية جانبا وألقينا نظرة على اليابسة فسوف نجدها شاسعة المساحة لامتدادها من المدن والبلدات "بويتسين بورج" و"دوميتس" جنوبا حتى ما وراء "روستوك" وصولا إلى "ريبنيتس" شمالا. إذن فلنقلب صفحة هذا الموضوع. ذلك لأن إقليم "ميكلينبورج" مملكة كبيرة!

الفصل العاشر

الامتحان- مدرسة شابة- ذكريات قديمة

عادت الريشة لعادتها القديمة "لتخربش" على الورق من جديد. وحقيقة الأمر أننى بدأت فى الأسبوع الماضى كتابة هذه الرسالة. لكننى كنت مضطرا لإعادة التنقيل على الحروف غير الواضحة ست مرات متتالية، حتى يحسن قراءتها، غير أن محاولاتى باءت بفشل ذريع. فقد ظننت فى مطلع الأمر أن الريشة هى سبب "الخربشة" وطمس الحروف على الورق، لكنه تبين لى براءة الريشة هذه المرة لأنه سها علىّ نفاد المداد من المحبرة. ولما كان فاقد الشيء لا يعطيه، فقد حال جفاف الحبر فى "الدواية" بينى وبين مواصلة الكتابة. وإذا ما نحينا مسألة نفاد المداد التى لم تكن فى الحسبان جانبا، فإننى فى العادة بالريشة على الورق سريع الكتابة. لكن قارئ الرسالة يكتشف المشكلة لاحقا، عندما يتعذر عليه فك طلاسم خطى الركيك العاجز. ولا يختلف اثنان على أن العم سام بأبنائه رحيم على الدوام. فساعى البريد يحمل الرسائل إلينا مرة فى كل يوم. وفى المقابل لا تكف الضرائب عن الارتفاع عاما فى إثر عام! وها هى "الدواية" قد امتلأت بالحبر من جديد، ولم يعد أمام كتابة الرسائل عائق يحول دون التواصل.

دعنى أقص عليك بعض ما غرب عن بالك وطمسته السنون. ذات مرة كان موضوع حصة الدين هو إحدى الضربات(١) على أيام أحد الفراعين عقابا له على منعه خروج بنى إسرائيل من مصر. سأل المدرس "زاوربير"(٢) تلميذه "يوخين

---

(١) فى أحد هوامش فصل "الإبحار إلى أمريكا" عددنا ضربات البلاء العشر فى التوراة، وليس من بينها القمل. لكنه ورد فى "قصص الأنبياء والمرسلين" للشيخ محمد متولى الشعراوى أن ضربة القمل المذكورة فى القرآن بمعنى القراض الذى يصيب النباتات، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٣٨٣.

(٢) اختار المؤلف لقبا غير مألوف للمدرس وترجمته "جعة حامضة"!

مولر" عن كمية القمل التى حلت بالبلاد .. جاء رد التلميذ مقتضبا إذ قال: "القمل ده كان يا دوبك يملا قد زكيبة بطاطس كده!". قال ذلك بوجه عبوس صارم اكتسى كعادته بملامح لا يفارقها الجد حتى أثناء تناوله الطعام، وكأن محياه مغطى بقناع لا روح فيه. فكرت فى إجابته دهشا آنذاك، وقلت لنفسي: من أين له بهذه المعلومة وقد خلت التوراة من أى إشارة توحى بأن موسى كان يكيل ذلك الجراد بالصاع أو بـــ"الشيفل"؟ حدث ذلك الموقف قبل الحريق المروع الذى أتى على نصف القرية. وكانت أعمارنا تتراوح فى ذلك الوقت بين العاشرة والاثنى عشر عاما، أى أننا كنا قد بلغنا سنا تنمو فيه ملكة التفكير، ولم نكن قد تخطينا عتبة الفهم والوعى بعد.

"كارل جاوركه" تلميذ مقترن فى ذاكرتى "بالتهريج" والتحدى دون توخيه للعواقب. أراد ذات مرة أن يجرب كم تبلغ درجة الحرارة فى جهنم. كنا نحرس الأبقار صيفا، قبل حلول الخريف فى أرجاء المراعى المترامية الأطراف. وكانت المراعى مقسمة إلى مواقع معروفة بالاسم تسهيلا لاستغلال حشائشها، ولذلك درجنا على الانتقال مع المواشى من موقع إلى آخر. فكنا تارة ندع الأبقار ترعى الحشائش فى الموقع المسمى "بلاست" وأخرى فى "شتور" وثالثة فى "شتريشل". تحلقنا صاحبنا ورحنا نستحثه ونستفزه بقولنا: متى ستبدأ التجربة؟ أجاب قائلا: سوف ترون ولا تتعجلوا الأمور. وما لبث أن رنا إلى الأحراج ليجمع من الأرض المعشوشبة سقط المتاع من أغصان شجر التنوب، وما جف فى الصيف من الحطب وغير ذلك من هشيم ونبات يصلح للاشتعال. قام بتكويم ما جمعه منها ثم أضرم فيها نارا هائلة على حافة المصرف الذى يجرى بين موقعى "بلاست" و "شتور" سابقى الذكر. وبعد أن خبت ألسنة اللهب وحمى الحطب، قام بخلع ملابسه وصار عاريا كما ولدته أمه، ثم هالنا أن جلس بالفعل فوق الجمر ونحن ملتفون من حوله وقد عقدت ألسنتنا الدهشة لذلك المشهد المأساوى والمفجع. لكنه لم يتحمل طويلا سخونة اصطلائه بالحمم. فإذا بصوته قد علا بالصراخ والعويل ثم لاذ فى لمح البصر بالفرار فى اتجاه المصرف المسمى "كرول" ليلقى بنفسه فيما تبقى من

مائه ليبرد الحروق التى غطت عجزه. اضطر بعد ذلك إلى التزام الفراش لفترة امتدت إلى أسابيع عدة طلبا لعلاج المقعدة والظهر مما أصابهما من حروق شديدة "وبقابيق" وتقيحات. وهكذا حرم أثناء اعتكافه وهو طريح الفراش من الاستمتاع بالهرج والمرج بالسير مع أترابه فى الموكب الاحتفالى احتفاءا بانتهاء موسم جمع الكتان، ناهيك عن ضياع الفرصة عليه فى التلذذ بأكل الكعك الذى يخبز خصيصا بهذه المناسبة. وبمرور الوقت التأمت الحروق واندملت وشفى تماما. لكن أباه "قلبها غما" بضربه ضربا أليما، نظرا لما عرف عن أبيه من عدم التسامح فى المسائل التى تتعلق بأمور الدين، ولرفضه أن قام ابنه بالتهريج وبالاستخفاف برمز دينى هو جهنم. ومنذ توقيع العقاب البدنى عليه أصبح محظورا على الجميع أن يسألوه عن درجة الحرارة فى جهنم. هذا وإلا احتقن وجهه غضبا وقدحت عيناه شررا. ويحدونى الرجاء يا صديقى أن تسأله عندما تقابله بقريتنا: هل لا يزال يتذكر تلك الواقعة؟ "والا بقولك .. بلاش تسأله أحسن!!".

حدثت الحكاية الآتية فى نفس العام، ولكن خلال فصل الصيف. كنا ثلة من ستة غلمان نقوم بمهمة حراسة الأبقار فى تلك الرقعة من المراعى المسماة "جولز". آثرنا الجلوس فوق جدار نتسلى بأكل التوت. وبذلك تحتم على الأبقار بعد الحشة الأولى لكلأ المرعى[١]، أن تتولى حراسة نفسها بنفسها، وهو ما فعلته بالضبط. دار حديثنا حول الصيد بالسنارة، وإذا به يتطرق إلى ديدان الأرض[٢] وإلى الصينيين. فقد قرأنا فى كتاب المطالعة فى صباح ذلك اليوم بالمدرسة أن الصينيين مغرمون بالتهام ديدان الأرض. وتحول سير الحديث تلقائيا إلى ديدان الأرض الألمانية، وهل يمكن أكلها؟ ذلك لأن عادة التهام ديدان الأرض لم تكن شائعة بين أهالى إقليم "ميكلينبورج"، كما لم ترق بينهم إلى مستوى الموضة. تركز حديثنا فى سؤال

---

(١) يتم فى ألمانيا حش الحشائش مرتين سنويا، الأولى فى مايو/يونيه، والثانية فى شهر أغسطس.

(٢) تعرف ديدان الأرض أيضا باسم "العلق" أو "ديدان الشص" و"ديدان السنارة". وهى تعمل على تهوية الأرض وزيادة خصوبتها ولذا فهى صديقة الفلاح.

تمحور، مثلا، حول إمكانية اشتهاء أكل ديدان الأرض فى سندوتش، بوضعها بين شاطر ومشطور مدهونين بالزبد. تباهى "كريشان كولمورجين" الذى تعرفه قطعا لأنه تزوج لاحقا من "دورتين" ابنة "يورن يوخين" الخياط الذى انتقل فيما بعد إلى بلدة "فيلانك" إذ صاح قائلا: هل هناك ما يمنع، أن يأكل المرء سندوتشا محشوا بديدان الأرض؟ إن ما يقدر عليه هؤلاء الصينيون ببلاهتهم، لا يستعصى أبدا على غلام "ميكلينبورجي"، "ابن بلد"، أن يأتى بمثله يوميا. ولكن على المرء أن يأخذ حذره حتى لا تزحف دودة منها "متسحبة" خارج السندوتش. وما يحتويه من الدهن ثعبان البحر المدخن، الذى نشتريه "بشيء وقدره" فى سوق "القديس مارتين" بقرية "إلدينا"، موجود بنفس القدر فى دودة الأرض. وما كاد ينتهى من سرد حججه ومن تشجيعه لنفسه حتى هتف فى تحد وعنترية: إذن فسوف أخوض التجربة. ولكن عليكم أن تقدموا لى شيئا فى المقابل، لأنى لن أغامر بالمجان، فلكل شيء ثمن.

بعد أن تفاهمنا على ما يريد الحصول عليه لقاء ركوبه الشطط، وعدناه بالاستجابة لما طلب. وبذلك هرعنا لإخراج "المطاوى" من الجيوب لكى ننبش بها فى التربة بحثا عن ديدان الأرض لنجذبها من جحورها ثم لنلقى بها إليه الواحدة بعد الأخرى وهو لا يزال قابعا فوق حافة الجدار لم يتزحزح من مكانه. وإذا به يمسح على دودة الأرض، وينفخ ما علق بها من حبيبات التربة، ثم يحشرها فى فيه فرادى ملتهما إياها فى ثبات واستهانة. كان ذلك فى مطلع الأمر. وظل يلتهم دودة أرض مع كل قضمة قضمها من الخبز المدهون بالزبد على التتابع. وكنا نثيبه بحسب الرهان بقياطين[1] مفتولة ومعقود بكل قطان منها عدد من العقد. وكان يحصل على قيطانين لقاء التهام دودة أرض صغيرة هزيلة، وعلى ثلاثة فى مقابل دودة متوسطة الحجم، وعلى أربعة عن الدودة الكبيرة السمينة. وبذلك يكون قد وفر على نفسه قضاء الصيف فى برم تلك القياطين من ألياف القنب كما جرت عليه

(١) تربط القياطين بطرف الكرباج لإحداث صوت عالٍ فى الهواء (طرقعة) لتوجيه المواشى من مكان إلى آخر بالمراعي.

العادة فى كل عام. ومع أنه لم يكن ذواقة، لإقباله على أكل كل شيء، دون أن يعاف الفتك بأى شيء، إلا أنه كان يزدرد ريقه بصعوبة بالغة لإحساسه بغصة فى حلقه جعلته يبتلع وجبته غير الشهية بعناء ظاهر. وترتب على هذا أن امتنع بتاتا عن الدخول فى أى رهان آخر.

اجتاز التجربة على أكمل وجه. لكنه بينما كنا نلهو مشغولين بمسألة الرهان، اختلست أبقارنا الخطى متسللة إلى حقل العمدة المزروع بالشوفان. وعلى حين غفله منا أطبق العمدة علينا وهو يقرقع بالسوط فى الهواء، فإذا بنا نفرنقع متفرقين فى كل اتجاه. وسألنا فى اليوم التالى صاحبنا "كريشان" عن أثر وجبة ديدان الأرض على صحته العامة. وكان رد فعله على استفسارنا أنه اقشعر بدنه واحتقن وجهه وزاغ بصره من القرف. ثم طفق يحدثنا بلهجة المزاح والتهريج: "إبليس وسوس وقال: ذوق ده عن ده يفترق والناس مقامات، وفى الضلمة زغط إبليس ضفدعة افتكرها كمتراية". ثم رجانا "كريشان" بعدم تسريب الخبر إلى جدته بأنه تراهن على التهام ديدان الأرض.

سوف أتناول فى رسالة هذا الشتاء عرض ملاحظاتى عن الأوضاع الراهنة للمدارس فى منطقتنا مقارنة بأوضاعها عندما وطئت أقدامى فى عام ١٨٦٨ أرض العالم الجديد. وأستطيع القول إن حالة المدارس أصبحت على ما يرام الآن. غير أن ظروف التعليم لم تكن فى فترة البدايات على ذلك النحو الجيد، بل كانت مزيجا ضم الهزلى والردئ فى آن. عانى الأطفال آنذاك من التشرد، ونشأوا بلا حسيب أو رقيب مثل الحيوانات الهائمة فى الغابات والأدغال. كنت آنذاك عاملا أجيرا، فى وقت شحت فيه النقود فى يد أصحاب المزارع المتناثرة من حولنا. ولم يستطيعوا لقلة ذات اليد تشييد مدرسة ولا حتى تحمل راتب ناظرها عن طريق التمويل والعون الذاتيين. رق قلب القسيس الذى أقام فى مكان قصى من منطقتنا لحاجتنا لتعليم الأطفال، كما أثار عجزنا المالى الشفقة فى نفسه، فاعتلى صهوة جواده وقطع المسافة بين داره ومزارعنا فى رحلة شاقة استغرقت يوما أو بعض يوم. وقمنا

بدورنا بإحضار الأطفال من محال إقامتهم فى محيط يتروواح قطره بين ٦ و٨أميال. ولما اقتطع القسيس بضعة أيام من وقته ليقضيها فى جهتنا لتعليم الأطفال، بات علينا أن نوفر له ولبعض الأطفال ظروف الإعاشة الملائمة خلال فترة تواجده بيننا، لصعوبة المواصلات، ولقصر ساعات النهار شتاء. وبعد وصوله ألقى موعظة فى حشدنا، ثم خص الأطفال الذين شبوا عن الطوق بالدروس من أجل إعدادهم لتثبيت التعميد. هذا بينما جلس الأطفال الأصغر سنا لسماع ما يلقنه لليافعين. فلا عجب أن أدرك الصغار الملل والنعاس. لكن الأطفال الصغار لم يحرموا تماما من نصيبهم فى تعلم الأبجدية والحساب، هذا إذا ما وجد القسيس فسحة إضافية من وقته ليتولى تلك المهمة. وما كاد يقضى أيامه المعدودة عندنا بين تدريس وعمل روحى عبادى حتى امتطى حامل كلمة الرب حصانه البنى اللون لكى يزور مزرعة أخرى وليعكف بالمثل على تعليم الأطفال. حدث هذا فى فترة البدايات فقط.

وعندما توليت إدارة شئون مرزعتى الأولى، كانت منطقتنا تغص بالوافدين من إقليم "ميكلينبورج"، الأمر الذى جعلنا نفكر جديا فى تعيين مدرس لرعاية الأطفال. أعلنا عن هذه الرغبة بإعداد ملصق ثبتناه على لوحة الإعلانات عند البقال فضلا عن الإعلان بجريدتين لهذا الغرض. ومع ذلك لم يتقدم أحد لشغل وظيفة مدرس. قمنا فى إثر ذلك بتكثيف حملتنا الإعلانية، فاستجاب شخص واحد هذه المرة. طلبنا منه الحضور للتعارف، لكنه اشترط علينا إرسال بدل السفر مقدما، وهو ما لم نقبل به. لم نفقد الأمل وزدنا من نشاطنا الإعلانى مرة أخرى، ولم يتقدم هذه المرة إلا فرد واحد أيضا. دعوناه لمقابلتنا، فحضر. كانت سترته من الأمام ومن الخلف لا هى بالسليمة أو بالممزقة. وتتدلى من الوراء القميص خارج البنطلون. ولاح لنا أن بينه وبين الإسكافى مقاطعة منذ أمد بعيد. قلنا لأنفسنا، لأننا لا نحكم على الإنسان من مظهره، إنها أمور يمكن تداركها وعلاجها على أى حال.

لكن رائحة البراندى كانت تفوح منه من قبل ومن دبر. وأغلب الظن أن الخمر المقطر كان قد تأسن فى بطنه أيضا. ومن ثم سألناه عن موطنه ومن أين جاء.

قال: جئت من سفينة ضخمة لنقل المهاجرين من هامبورج. ماذا كنت تعمل على ظهر السفينة؟ كنت متعهد توريد الوجبات. لماذا لم تستمر فى عملك؟ لأننى لم أكن على وفاق مع القبطان الذى استثقل ظلي. لماذا استثقل ظلك؟ لأنه لم يبطل عادته السيئة فى تشمم أوانى الطعام، وأنا أمقت الفضوليين مختلسى النظر إلى ما فى "الحلل". كما واظب على التدخل فى شئون الطهو، الأمر الذى عكر مزاجى وآثار حنقي، وما كان منى إلا أن قذفته بفنجان القهوة، وتسبب ذلك فى تبرمه وامتعاضه مني. ثم تطورت الأمور إلى العراك وإلى التشابك بالأيدى داخل المطبخ، لكنه تلقى النصيب الأوفر من اللكمات. وهذا هو سبب تركى للعمل. قلت له حتى لا يصاب بالإحباط: إذا كان ما قلته هو كل شيء، فلا شك أنك سوف تنتزع احترام كل من بالمدرسة انتزاعا. أما مسألة قذف القبطان بالفنجان، خاصة إذا كان مملوءا بالقهوة، فهو ما لا نحتاج إليه بالمدرسة. إلا أنه تمتم معترفا بزلته قائلا" إنى أوافقكم الرأى ولن أكرر مثل ذلك الانفلات مرة أخرى.

وحتى نعيد الهدوء إلى نفس الضيف ونسكن من روعه قدمنا له غليونا لكى يدخن. وبعد أن أشعل التبغ، قلت له: والآن نريد أن نعقد لك امتحانا شفهيا لضرورة اختبار معلوماتك العامة. وقد كلفنى الزملاء بالتحدث إليك بعد أن نصبونى رئيسا للجنة الامتحانات. إذ قال أحدهم: إنى أجد عناء فى فك الخط لوقوف حروف الهجاء حجر عثرة فى سبيل يدى!. وقال آخر: إننى فى الحساب لم أعد أعرف "تلت التلاتة كام!". وقال ثالث: إننى فى القراءة مثل نهر تتدفق فيه المياه لكن الجنادل تعترض طريقه! وبذلك جلس الممتحنون الآخرون إما إلى المنصة بجواري، وإما خلف المدفأة وهم يدخنون الغلايين ويسمعون ما يقال بانتباه. كان ذلك فى عصر يوم أحد.

نظرت إليه قائلا: إذن لنبدأ الامتحان. وإذا به يقول: أنا مستعد. ثم بصق. فعل ذلك بحرفنة يحسد عليها. قلت له: لنبدأ بالكتاب المقدس. رد قائلا: هذا أمر تكتنفه الصعوبة، لأن القبطان احتفظ بنسختي لنفسه. ما عليك. هل تحفظ شيئا مما ورد بالكتاب المقدس؟ طبعا أعرف الشيء الكثير مما جاء به. فهو يشتمل على قصص عديدة سمتها الورع والصلاح بتناولها سيرة إبراهيم، داود، الرعاة الذين باتوا في البرية[١]، لوثر، فرعون وشارلمان. أرى من الأفضل غربلة هذه الأسماء وحذف بعضها. ولكن احكِ لنا بعض ما تعرفه عن فرعون. إنه كان رجلا في غاية النبل حقا. هل تستطيع التدليل على ذلك بالاستناد إلى الكتاب المقدس؟. قال معترضا: ما هذا الذي أسمعه، ثم واصل كلامه بعد أن بصق: إذا لم تكن صفته كما أوضحت، فلماذا نقرأ عنه في الكتاب المقدس إذن؟. نقبل إجابتك على علتها. ولكن هل مازلت تعرف شيئا عن قصة ميلاد يسوع؟. بالطبع أعرف. إنها قصة تتعلق بالرعاة ورعيتهم الذين قصدوا المراعي لكي ترعى الخراف الحشائش. تصور يا صديقي لقد عجز عن النبس بكلمة واحدة لجهله بقصة ميلاد المسيح. هل تجد لذلك تفسيرا؟ ثم وجهت حديثي إلى طالب الوظيفة قائلا: إذن احكِ لنا قصة العاصفة الشديدة التي هبت في البحر[٢]، ماذا تعرف عنها؟ وأعتقد أنها لا تخفى عليك لعبورك المحيط مرات عديدة. قال: تمهل، وهل في القصة ما يستحق الرواية. لقد كانت عاصفة مثل سائر العواصف. ولكنني عندما أبحرت بالقرب من "كاب هورن"[٣]... أجب "على قد السؤال"، لأن رأس هورن لم يرد ذكرها بالكتاب المقدس. ولكن دعنا نر كم أنت ضليع فيما ورد بالعهد القديم. هل تعرف عدد أبناء يعقوب؟ لكنه لاح لي أن أقارب يعقوب كانوا غرباء عنه بالمثل. إذن أخبرني بمضمون حلم فرعون[٤]. وكيف قص فرعون ما رآه في المنام؟ تعجبت من

---

(١) راجع إنجيل لوقا ٢: ٨.

(٢) راجع إنجيل متى ٨: ٢٤.

(٣) يطل "كاب هورن" على مضيق مجلان بأقصى الجنوب الشرقي لقارة أمريكا اللاتينية، وهو جزء من اليابس بنتوء المحيط الأطلسي.

(٤) راجع العهد القديم، سفر التكوين ١: ١-٣٦.

إجابته، إذ قال: إنى لا أومن بأضغاث الأحلام لعدم أهميتها. نعم، هكذا تهرب من الإجابة ثم راح يمسح نقاط العرق التى بزغت على جبينه وعاد إلى البصق من جديد.

دعنا ننتقل إلى كتاب الترانيم. جميل، فقد كنت دائما الأول فى الإنشاد. لا تتعجل، فسوف تتاح لك الفرصة للغناء فيما بعد. ولكن عليك الانتباه أولا إلى ما أقول. هل تعرف الترنيم الذى مطلعه: من السماوات العلى إنى آت؟ لا ريب فى ذلك! وما هو الذى يخفى عنى من كلماته! إذن عليك "تسميع" كلمات الترنيم. هل تقول تسميع؟ إننى لا أحفظ إلا الفقرة التى سبق أن قلتها بنفسك. وجهت له أسئلة عديدة بعد ذلك، لكنه واصل تدخينه الغليون ولم يفتح الله عليه بشىء آخر.

لنواصل الامتحان. وها نحن قد بلغنا بند الغناء الديني. ماذا تحفظ من الأغانى الدينية؟ يا إلهي، إننى أحفظ الكثير منها. شيء طيب، إذ ينبغى لأطفالنا أن ينشدوا بصوت جهورى جميل. إذن شنف آذاننا بالترنم بترنيم يتغلغل فى القلب بصوت رخيم يقطر عذوبة. بعد أن أخرج الغليون من بين شفتيه بصق، ثم أنشد أغنية مطلعها: آدم كان عنده سبعة أنجال. ولكنك تنشد أغنية ليس لها من السمو الروحى أى نصيب! لكن آدم له قدسيته! ليس لى أى اعتراض على هذا، ولكن الإجابة خطأ.

إذن أنشد نشيدا دنيويا مثل الذى يترنم بكلماته الأطفال فى ألمانيا. هل تحفظ واحدا من هذه الأناشيد. نعم، فقد كنت دائما الأول فى الغناء. لكن على أن أتذكر أولا، لأنه قد مضى على مرحلة الصدح بالغناء ردح طويل من الزمن. ثم انشغل فى نفض بقايا رماد التبغ من الغليون لحشوه بتبغ طازج ثم أشعله وشد نفسا طويلا زاد من تلبد جو حجرة الامتحان بعبق الدخان، وبعدها تنحنح وبصق ثم وضع البايب على المنضدة وطفق يقول: والآن هدانى التفكير إلى نشيد، وما لبث أن صدع بكلماته المنظومة التى جاء بمطلعها: "طير يا بوبى فى البكور، وإنت عامل زى الطيور. وزقزق وهلل للشفق، وانت فى غاية السرور". ــ ولكن، ألا تعرف

أن البولدوج وغيره من أنواع الكلاب تنبح وتعوى ولا تزقزق، كما أنها لا تستطيع الطيران بغير جناح! أجاب قائلا: إن انتقادك للنص لا يعنيني في شيء. فقد أهداني أحدهم كتابا بمناسبة أعياد الميلاد يتضمن ذلك النص ونصوصا مشابهة. وبـ"الأمارة" اسم المؤلف "هاى فيش" (أى سمك القرش). الصديق العزيز، تجدر الملاحظة بأن ما غناه كان عبثا وسخفا ويدل معناه على "الهجص" والخطل. وتبادلنا نظرات الاستغراب نحن أعضاء لجنة الامتحان. ثم أطل برأسه "هاينريش فولجمان" من خلف المدفأة وقال: كانت جدتي تعرف رجلا مثل صاحبنا اعتاد على الشرب حتى الثمالة ثم كان يتدحرج تحت المنضدة وهو فاقد الوعى هاتفا "دى حاجة عادية!" عاودنا النظر إلى بعضنا البعض ثانية، غير أننا عجزنا عن إبداء رأينا بشأن ذلك الكتاب الذى لم نكن قد اطلعنا إليه. وبذلك وقعنا فى ورطة لأن ذلك أدى إلى مواصلة الامتحان بالضرورة. جاء الدور على كتاب "مارتن لوثر" المعنون "كاتيشزم" (الإيمان الإنجيلي) السابقة الإشارة إليه. قلت له: هل ما تزال تتذكر شيئا من ذلك الكتاب؟ طبعا، لكن القبطان احتفظ بنسختي لنفسه. كم عدد الفصول الرئيسية لهذا الكتاب؟ إلا أنه لم يحر جوابا. هل لك أن تعيد على أسماعنا مضمون الوصية الرابعة؟ لكنه شرع فى النقر على غليونه بنرفزة ظاهرة ثم قال: "البيبه باين عليها انسدت". إذن دعنا ننتقل إلى موضوع آخر: هل تعرف مضمون عقيدتك المسيحية؟ لكنه أخذ ينكش فى التبغ المشتعل بالغليون ثم شد نفسا طويلا وهمس قائلا: أستسمحك أن تسمعنى البداية حتى أستطيع أن أكمل النص. لكننى عزمت على تلاوة فحوى العقيدة المسيحية كما صاغها لوثر فقرة فقرة ليعيد ترديدها من بعدي. وهكذا بدأت بتلاوة الفقرة الأولى التى موضوعها "الخليقة": "أومن أن الإله الأب هو الرب القدير خالق السماوات والأرض"(١). لكنه التزم الصمت. ساعدناه حتى يردد ما قلته من بعدي. لكنه استعاض عن ذلك بالتدخين. وبعد هنيهة تلعثم وفأفأ ثم عاد إلى السكوت ثانية. حفزناه على الكلام بدون جدوى،

---

(١) تعريب المترجم عن الـ"كاتيشزم" الذى صاغه لوثر بالألمانية، مصدر سابق، ص ٨٧.

ولذا قررنا التوقف قبل وصولنا إلى منتصف الفقرة الثانية التى موضوعها "الخلاص". ولم نكن قد نطقنا بعد اسم الحاكم الرومانى "بنطيوس بيلاطس".

انتهينا بذلك من امتحانه فى الدين. قلت له: يبدو أنك ضعيف بوجه عام فى كل ما له علاقة بالمقدسات. ولكنك كنت ملما على أى حال ببعض الموضوعات. والآن بات علينا أن نمتحنك فى القراءة والكتابة والحساب. أخذت كتاب المطالعة وفتحت باب التاريخ، ثم وضعت الكتاب أمامه حيث كان يجلس "قبالي"، ونقرت أثناء ذلك بمبسم الغليون على عنوان النص وقلت له: اقرأ هذا! نظر إلى الكتاب، ركز عينيه علينا، نظر إلى الكتاب من جديد ثم أمعن النظر فى وجوهنا مرة أخرى. ثارت ثورته وسلك سلوكا عدائيا إذ قال: كيف أقرأ هذا. يبدو أننى بين قوم مجانين، فلم تكن القراءة بالمقلوب أمرا معتادا أيام ذهابى إلى المدرسة. إذا أردتم تعليم أطفالكم الكتابة "شقلباظ"، فعليكم أن تقوموا بالبحث عن ناظر غيرى. حدجناه ببصرنا مبغوتين ثم تبادلنا النظرات فيما بيننا دهشين. وما لبث أن تبدد ذلك التوتر حالما أطل "هاينريش فولجمان" برأسه من خلف المدفأة ليقول: كانت جدتى تعرف رجلا تصادف وقوع قالب "طوب" فوق دماغه عندما كان طفلا صغيرا، الأمر الذى تسبب فى ولعه بالطبيعة. فلا عجب أنه القائل: إن "أبو جلمبو" هو المخلوق الوحيد الذى يتصرف تصرفا عاقلا. ولن تتحسن أحوال عالمنا هذا الذى يمشى بالمقلوب إلا إذا اقتدينا فى حياتنا بـــ"الكابوريا".

كم كنت أود أن ألقى بمتعهد توريد الأكلات هذا إلى الخارج، لولا حاجتنا الماسة إلى شخص يقى الأطفال من خطر التشرد الماثل. ولذلك عقدنا العزم على امتحانه تحريريا. قدمت له نصف ورقة بيضاء وقلت له: اكتب اسمك لنختبر قدرتك على الكتابة. كان اسمه "برنارد شتوفه زاند". وما إن وصل إلى كتابة المقطع الأول من اسم العائلة "شتوفه" حتى كان خطه يشرب من البحر خارج هامش الصفحة.

وأخيرا بلغنا الشوط الأخير من الامتحان. قلت له وأنا أختبره فى الحساب: ما هو نصف ٢٣؟ قدح ذهنه طويلا، ثم استهلك عددا كبيرا من أعواد الكبريت استعان بها فى حل المسألة. وبعد مدة هتف قائلا: "المسألة فيها إن". المسألة غلط، لأن ٢٣ غير قابلة للقسمة على اثنين نظرا لأن ١١ أقل مما ينبغي، و١٢ أكبر مما ينبغي. ولهذا طلبت منه أن يقوم بحل مسألة أخرى، هذا نصها: جلس عربيان فى واحة يستظلان بظل نخلة. قال أحدهما للآخر: أين ابنتك "وردة شيراز"؟ فأجابه الآخر: ابنتى وخادمتك تسوق قطيعا من الأوز إلى سوق الخميس فى مراكش. وزة تتقدم وزتين. ووزة خلف وزتين. ووزة بين وزتين. والمطلوب منك حساب عدد وز القطيع. كنت قد قرأت هذه الفزورة فى العام الماضى على ورقة نتيجة الحائط. كما أنك طلبت منا فى سابق العهد والأوان بالمدرسة القيام بحل مسألة مماثلة، ولكنها كانت بدون "وردة شيراز".

تناول صاحبنا ورقة بيضاء مساحتها ١٥×٢٠ بوصة ثم انهمك فى حل المسألة. امتلأت صفحتا الورقة من الناحيتين بأعداد ورموز مصفوفة، ووصل فى كل مرة إلى نفس النتيجة، ألا وهى تسع أوزات.

طلبنا منه مغادرة الحجرة للتشاور. وما كاد يخرج حتى أطل "هاينريش فولجمان" برأسه من وراء المدفأة وقال: كانت جدتى تعرف رجلا... لكنى بادرت بمقاطعته وأنا أقول له: يا سيد "هاينريش"، لا خلاف على أن جدتك امرأة صالحة، لكنه يتعذر عليها أن تخلصنا من ورطتنا التى نبحث فيها عن شخص ينتشل أطفالنا من خطر التشرد المحدق بهم. لم تستغرق مداولتنا مدة طويلة ثم استدعيناه للدخول. فقلت له باسم لجنة الامتحان: "برنارد شتوفه زاند" مبروك لقد نجحت فى الامتحان. اشترطنا عليه أن يكف عن السكر لأننا لا نعتبر أنفسنا مسئولين عن تسديد فاتورة تعاطيه للكحوليات. قدمنا له بعد الاتفاق شيئا من الطعام ليقيم به أوده. وبعد أن شبع انصرف وأخذ غليونى معه.

لم تدم الفرحة طويلا بالعثور على مدرس، إذ بدأت "ليزا" تتكلم عن جدوى التعليم بالمدرسة، ولم يكن قد مضى على تعيينه أكثر من أسبوعين. ومن المعروف عن "ليزا" أنها شحيحة الكلام. فقد ارتأت أن استئثار فرد من الأسرة بالكلام يكفى وزيادة. وكانت تعنينى بهذا القول. فلم يكن لسانها مغرما بالاستلال والغمد مثل سيف يعقوب[١]. وهى عندما تبدى رأيها فى أمر، يكون لقولها معنى ومذاق خاص. وبذلك فهى تجمل رأيها فى تعليم البنات على النحو الآتي: إن اكتسابهن المهارة فى رفو الجوارب أفضل من التحاقهن بالمدرسة. كما ترى فى تعليم الصبية: أنه أجدر بهم أن يتدربوا على كيفية حرق بقايا الأشجار المجتثة علاوة على كيفية جمع الجذور لاستخدامها حطبا. وما كاد يمر أسبوع على قول "ليزا" حتى امتنع كل من "كارل دين" و"ڤيلهلم يانكه" عن إرسال أبنائهم وبناتهم إلى المدرسة. أما "هاينريش فولجمان" فقد بعث إلىَّ برسالة شفهية تحدث فيها عن جدته وعن أنها كانت تعرف رجلا... الخ.

وعلى الرغم من استيلائه على غليوني، ظللت حتى ذلك الحين أغضى البصر عن تدخينه بالمدرسة. لكنه استمرأ تعاطى الكحوليات بالمدرسة أيضا. وكنت تراه يترنح ويتعثر وهو فى سكر بين وتفوح من ثيابه ومسامه رائحة البراندى النفاذة. ولما تآكلت هيبته بلغت استهانة الصبية به أن استغفلوه وسلبوا قنينة الشراب من جيبه وملأوها بالنفط. لم نترك سوء فعلتهم هذه تمر بدون عقاب وتقريع. كما كنت عاقدا العزم على انتهاره وزجره بشدة بصفتى رئيس لجنة الامتحان التى أجازت تعيينه بالمدرسة. لكن تطور الأحداث كان أكثر سرعة، إذ أدار ظهره للمدرسة وذهب ولم يعد. لم تقع عيناى عليه بعد ذلك أبدا، ومن ثم فهيهات أن أرى غليونى مرة أخرى.

شغل المكان الشاغر مدرس بدين بطين. وكان من تلك الفئة من الرجال التى تزن ٢٥٠ رطلا. وبذلك جر أمامه كرشا عظيما لا يكف عن الارتجاج أثناء سيره

(١) راجع العهد القديم، سفر التكوين ٣٥: ٢٥-٢٧.

بخطوات وئيدة. قلنا لأنفسنا: لابد أن بطن ذلك الرجل قد كلفه الشيء الكثير! فلم يكن من المتصور تكور هذا الكرش وانبعاجه على هذا النحو بدون مقابل. لكن الواقع خيب ظننا، فقد اعتاد الرجل على تحين الفرص للتطفل على المزارع حتى تكرم وفادته، فيطعموه بالمجان رشنا حتى الامتلاء. والغريب في الأمر أنه لم يكن يكتفي فقط بملء جوفه بالطعام، بل كان ببلوغه حد الشبع، يطلق للسانه العنان، وتتفتح شهيته للكلام، مدخلا في روع السامع أنه يدرك كل شيء، ويعي كل شيء، وعارف بكل شيء، ولا تفوته شاردة ولا واردة إلا وأحاط بها، سواء أكانت أشجار الأرز في لبنان أو حشيشة الزرفاء (هيسوب) الطبية التي تنمو على الجدران. وكان يبدو في أشد حالات الثقة في النفس حينما يفتي فيما لا يفقه. خدعنا جميعا وموه علينا ذاك "المكذبان"، لنقله الكذب، ولتحريفه الكلام عن موضعه. صدقناه جميعا في أول الأمر، لأنه درج على تغليف كذبه بتمكن و"حرفنة" في غلالة خدعت الأبصار وجعلتنا لا نرى الحقيقة كما هي، لأنه غافلنا فلم يتسرب إلى الإدراك أنه يكذب. وفي النهاية "فاض بنا" وفقدنا القدرة على تحمل ثرثرته. كنا ذات مرة في اجتماع كنسي عام وإذا به يعود من خلال مداخلة له إلى التمادي في غيه بالخوض في المراءاة والتمويه. امتعض "شرودر" مما سمعه، وعزم على تلقينه درسا لا ينساه أبدا. وإذا به يعود إلى رواية "حلم صندوق الطباشير" موجها كلامه على الملأ إلى ذلك البدين البطين قائلا:

فرصة سعيدة حقا أن تكون اليوم بيننا في هذا الجمع الحاشد، لأني رأيتك الليلة البارحة في المنام. أجاب: إن هذا لمن حسن طالعي. طفق "شرودر" يقول له: لا تتعجل الأمور! فحلمي ليس في بهاء حلم يوسف في سجن عزيز مصر. لقد رأيت في المنام أنك مت، وصعدت روحك إلى السماء. وإذا بك تقف وجها لوجه أمام "بطرس حارس السماء"[1]. لكنه منعك من الدخول وقال لك: بناء على اللوائح

(١) لا ينبغي الخلط بين "بطرس" في المعتقد الشعبي الجرماني و"بطرس الرسول" تلميذ المسيح. ذلك لأن بطرس عند القبائل الوثنية الجرمانية [مثل: الـ"فرانكه"، أنجل" و"ساكسون"]، التي نزحت في القرن

المعمول بها هنا، عليك أولا وقبل كل شيء القيام برسم علامات على سبورة الحائط تحصى بها عدد المرات التى كذبت فيها خلال سنوات عمرك. رأيتك فى عجلة من أمرك وقد بادرت على الفور بالذهاب لإحضار الطباشير، ثم شرعت فى الحال فى رسم صلبان بعدد مرات كذبك. بعد مرور عام على موتك قضى نحبى بالمثل، وصعدت روحي، وأخبرنى حارس السماء بما أخبرك به. قلت لنفسى طالما أن ذلك شيء لابد منه، فعلى أن أسارع بدورى بحثا عن أصبع طباشير. قابلتك فى الطريق، ورأيتك تحمل صندوقا كبيرا فوق ظهرك. سألتك: من أين أنت قادم وإلى أين أنت ذاهب؟ قلت لى وأنت تئن وتنهج من تحت الصندوق: إنه صندوق الطباشير الثامن الذى استوردته من شيكاغو. عند هذا الحد استيقظت من النوم، وبزوال الغفلة أسدل الستار على الرؤية.

شعر صاحبنا بحرج شديد على رؤوس الأشهاد، فلم يقو على الاستمرار فى مهمته، وإذا به يجمع أشياءه ويضرب بالمدرسة عرض الحائط. وبذلك لم نعد بحاجة إلى إقالته. كنا متضامنين فى دفع رواتب المدرسين من حر مالنا، فى فترة عانينا فيها من نقص فى الريع، فغلت أيدينا عن توفير الرواتب المناسبة لهم. ومن ثم تقلب على مدرستنا عدد كبير من المعلمين تباعا، كان من بينهم الرفيع والتخين، المنصف والجائر. لكن واحدا منهم لا تزال سيرته العطرة تجرى على ألسنتنا كجدول يتدفق فيه ماء رقراق. لم يكن الرجل عريض المنكبين، بل كان نحيفا صلب العود، مفتول العضلات. وعلى الرغم من قصر قامته، فقد كان مقامه رفيعا فى عيوننا وفى قلوبنا. رجل استغنى عن العصا فى تأديب العاصي، وعن رفع العقيرة لإخافة الشقي. تحكم وسيطر على كل شيء بنظرة من عينيه. فقد أعطى الله لخلقه القوة درجات. فوهب هذا قوته فى شدة الذراع. ومنح ذاك قوته فى فصاحة

الخامس الميلادى إلى انجلترا، هو صانع الطقس وحارس السماء. وقد تنصرت القبائل الجرمانية على يد القديس "بونيفاتيوس" (٦٧٣-٧٥٤). وكلمة "بطرس" فى اللغتين اليونانية والأرامية مرادفة لكلمة= ="صخر"، ووردت بهذا المعنى فى إنجيل متى ١٦: ١٨-١٩. أما تعبير "بطرس صانع الطقس وحارس السماء" المتوارث عن الجرمان فيستخدم اليوم على سبيل الدعابة، وكذلك فى النص بعاليه.

اللسان. لكنه جعل قوة ذلك المعلم فى الحدقتين، نظرا لأن عينيه كشفتا عما يبطنه الآخرون. كما أن نظرة منهما كانت كفيلة بالنفاذ إلى دخائل التلاميذ وإلى سبر أغوارهم، تماما مثلما ننفذ نحن بأبصارنا من خلال زجاج شفاف. كانت نظرته تسرى فى نفوس أكثر التلاميذ شراسة وشقاوة، فلا تسمع لهم بعدها خلجة انفعال أو نبضة إزعاج. وعندما تسلم عمله بالمدرسة كان كل شيء صاخبا مائجا، إذ اعتاد الأطفال على الشقاوة والعفرتة فوق القمطرات وفى الممرات من بينها، وكأنهم كانوا عن الجلوس على مقاعدهم مضربين. وكان لا يكاد يمرق بعينيه التلاميذ حتى ينتشر الهدوء فى الفصل فورا، فلا تسمع لهم صوتا أو نبسا. أعاد حدق النظر فيهم فى اليوم التالي، وإذا به قد حقق نصرا مؤزرا فى اليوم الثالث. نعم، لقد انتصر بناظريه. ذلك لأنه كان يضبط سير وسلوك التلاميذ بالعينين، مثلما كان "فريدريك الأكبر" ملك بروسيا[1] يؤدب جنوده بالعصا. ومما ساعد أيضا على إعجاب تلاميذه به وانجذابهم إليه، قدرته الفائقة على الحكى والرواية. ولم يسبق فى أى فترة سابقة أن قلت نسبة غياب التلاميذ مثلما تقلصت فى عهده. هذا علاوة على مواظبتهم على حضور الحصص حتى فى أسوأ حالات الطقس. وعندما كان يزور مزرعتنا، كنا نعتبر زيارته تشريفا لنا. أما الآن فقد وقع عليه الاختيار ليكون مفتشا عاما على المنطقة التعليمية فى شرقى أمريكا.

شغر بانتقاله المكان، فلم يتردد القسيس فى سد الفراغ وفى النهوض بمهمة التعليم لمدة طويلة. أما فى الوقت الحاضر فتقوم بهذه المهمة مدرسات شابات لم تتمرس بعضهن عليها لنقص فى الخبرة، الأمر الذى تسبب فى إضاعة وقت المدرسة. لكن البعض الآخر اكتسبن فى هذه الأثناء خبرة تربوية عالية أهلتهن إلى الارتقاء بالمدرسة.

---

(١) تولى الملك المثقف "فريدريش الأكبر" السلطة العليا من ١٧١٢-١٧٨٦ فى بروسيا. وهو حاكم مستنير من أتباع الحكم المطلق الذى تميز بسلطة استبدادية.

شيدنا بجهودنا الذاتية مبنى تعليميا فخما. وسوف تجد طى الرسالة القادمة صورة لتلك المدرسة الجديدة. وأثثناها بقمطرات لجلوس التلاميذ، يشتمل كل قمطر منها على مقعدين قلابين. وكان الوقت قد حان بالفعل لتشييد مدرسة جديدة، نظرا لأن المدرسة القديمة كانت آيلة للانهيار، علما بأنها هى نفس مبنى الكنيسة القديمة التى تشيدت من جذوع الشجر. كنا قد قمنا بنقل آلة الأرغن التى كانت مثبتة فى أعلى الجدار، ثم أعدنا تركيبها فى مكان منخفض على نفس الجدار، وإذا بذلك الحائط يعلن عن رغبته فى السقوط، إذ شاور عقله قائلا: لقد وقفت بما فيه الكفاية حتى أنهكنى التعب وآن الأوان لكى أرقد وأرتاح. وفكرت الجدران الأخرى على نحو مماثل. وبدأت أرضية المبنى من الخشب المعشق تتزعزع وتتخلع. ولم يفت على الصبية اكتشافهم لأكثر ألواح الباركى تقلقلا وصريرا ليتأرجحوا عليها ويقفزوا من فوقها، بدلا من تفادى اللعب عندها والاقتراب منها، لكنها هذه هى عادة الغلمان فى كل مكان. وهكذا نزعوا بعض ألواح الأرضية مما أدى إلى نشوء فتحات وثغرات فيها، انغرزت فيها أحيانا أرجل التلاميذ، وبذلك تحتم على المدرس تخليص أرجلهم من بين الألواح الخشبية المعطوبة مستعينا فى ذلك بالسكين وبالبلطة فى بعض الأحيان. وغنى عن البيان أن فتحات الأرضية لم تضق بمرور الوقت بل صارت أكثر اتساعا.

ولم يمض طويل وقت على ذلك حتى انتقلت العدوى إلى موقد التدفئة الذى بدأ بدوره يجأر بالشكوى ليقول فى همس ملح: لقد صار الحر لا يطاق. أريد خلع سترتي، ثم شرع فى فك الأزرار. بمعنى أن تشققت كسوته الداخلية من الصلصال المقاوم للحرارة. ومن خلال تلك الشقوق النافذة امتدت ألسنة اللهب وكأنها عيون الفضول تتحرق شوقا لمعرفة ما يفعله الأطفال. وكذلك أفصح الدخان عن محنته ومعاناته زاعقا: أف، لقد ضاق بى المكان وكأنى سجين فى زنزان، أريد فرد قامتى لأتمطى طولى على حريتى ولكى أجد متنفسا لزفيرى. وما لبث أن استهل نفثه للدخان، فانتشر رويدا رويدا فى أرجاء القاعة واستحال جوها إلى زرقة دكناء.

لم يكن للمعلم ذنب فى ذلك، فقد كان الحطب أخضر ومشبعا بالماء لحداثة عهده بالتقطيع، فلا عجب أن ارتفعت أعمدة الدخان سميكة مطقطقة تتناثر منها الشواظ والشرر وهى تهمس فى عصبية لتقول: كيف اشتعل بمزاج محرور مع انتشار جزئيات الماء فى أحشائى وغشائي؟ فقد كانت حجرة الفصل عرضة لتلبد جوها منذ الفجر بدخان خانق، حجب الرؤية، وصعب على المرء التنفس، نظرا لاعتياد المعلم على تدفئة قاعة التدريس فى الخامسة صباحا، استعدادا لاستقبال التلاميذ الذين كانوا يصلون إلى المدرسة منهكين. فقد كان عدد كبير من هؤلاء الأطفال يقيمون على بعد خمسة أو ستة أميال من المدرسة، مما اضطرهم إلى قطع تلك المسافة سيرا على الأقدام نظرا لوعورة الطريق. وكانت حالة تلك الطريق غير المعبدة بالمهجر، أكثر سوءا من حالة نظيرتها بمسقط رأسنا التى درج "شرودر" على قطعها لبلوغ بلدة "بوتبرج". وكان معظم الأطفال يلبسون أحذية عالية مصنوعة من المطاط. لكن أرجلهم كانت تنغرس فى الأوحال غالبا. وكنا نتولى توصيلهم بأنفسنا أحيانا. وقد اضطررنا فى الشتاء القاسى الذى مر عليه ستة أعوام إلى نقل الأطفال بالزلاقات، وقمنا بجرها فوق الجليد الأملس خلال فترة امتدت إلى عدة أسابيع. وعندما كنت فى سنى الصبا، لم يكن ليخطر على بالى ولا حتى فى الأحلام، أنه عندما تتقدم بى السنون سوف ألعب دور الحصان فى أمريكا. غير أن الأطفال استمتعوا بركوب الزلاقات وكانوا يشدنا لها فرحين. وكانت "ليزا" فى حالة انخراطى فى أعمال أخرى، تقوم بجر الزلاقة بدلا مني. أما إذا حالت وعورة الطريق شتاء دون تمكننا من اختراقها، فكنا نستبقيهم فى البيت، الأمر الذى كان مدعاة لسعادتهم وبهجتهم. وبمرور الوقت تغيرت الظروف إلى الأحسن شيئا فشيئا. وأصبحت لدينا الآن طرق معبدة.

أود أن أخبرك الآن بنبأ مفرح شيق لم أسعد بمثله منذ أمد طويل. هل تعرف من "هل" علينا بطلعته البهية واستضفناه على مائدتنا؟ لقد زارتنا حفيدتك "ماجدالينا". لا ريب أننى قد فاجأتك بهذا النبأ السار. إذن أشعل الغليون، واجلس

جلسة مريحة فى المقعد الوثير. حسنا، والآن واصل القراءة واستمتع بما سوف أسرده عليك!

انتقل قسيسنا للعمل فى موقع آخر، وخلفه فى تلاوة كلمة الرب رجل دين آخر من بيت "زيران" الذى نشأ فيه قسيسون عديدون. وقد صاهر ابنك الأكبر ذلك البيت العريق بأن اتخذ لنفسه زوجة منه. وكما جرت عليه عادة المخلوقات، فإن صغارنا وفلذات أكبادنا يتصرفون مثل صغار الطيور، التى عندما تؤتى القدرة على ترك العش، فحالما تطير فى البكور من الوكور. وعلى هذا النحو رحلت حفيدتك من "بريمن" إلى أمريكا. وتولى خالها الذى يعيش هنا أمر تعيينها معلمة بالمدرسة، وهو ما أثلج صدري. لكن ملامح حفيدتك تختلف عن ملامحك. وهى تقول إنها لا تشبه إلا صورتها الفوتوغرافية وقسمات وجه جدها "زيران". ومع هذا فلم يقلل قولها هذا من قيمتها فى نظرى. لقد زارتنا مرات عدة وتحدثنا سويا عن الوطن القديم وعنك.

إنها فتاة رشيقة، مديدة القامة، ناضرة الوجه، تفيض صحة وحيوية. وهو ما استطعت قراءته فى بريق عينيها. وقد استطاعت سريعا أن تكتسب احترام الآخرين لها بالمدرسة، كما ساعدتها فى ذلك بدون دراية منها، إذ كنت أقول للأولاد الذين قابلتهم فى محيط خمسة أميال منا: إياكم أن لا تعاملوها بأدب ولطف وإلا "فعليكم العوض!" لكنها قامت بالدور الأكبر فى كسب مودة الآخرين. وكنت فخورا بها بحق فى ليلة عيد الميلاد. أما قبل ذلك فكنت أكتفى بالنظر إليها بعين الرضى، وأسعد بوجودها فحسب.

سوف أحكى لك عن احتفالية عيد الميلاد التى نظمتها حفيدتك لسببين، بصفتك جدها الذى يهمك أمرها، ثم لأن لدى فسحة من الوقت يضطرنى لها تراكم الثلوج بكثرة خارج المنزل. ذهب حشدنا إلى الكنيسة. ونحن فى الطريق إليها، لم يفارقنى التفكير فى احتفالات عيد الميلاد، التى توليت تنظيمها بنفسك على مدار أعوام طوال لإسعاد أطفال قريتنا. فى ذلك العهد اعتاد الكبار على مشاركة الصغار

فرحتهم، فضاقت بهم قاعة الفصل على سعتها، وكان عدد كبير منهم يضطر للوقوف بالحديقة المحيطة بالمدرسة. أما داخلها فكانت تضيئه الشموع المثبتة على أغصان شجرة عيد الميلاد الإبرية المخروطية الشكل.

وبينما كان ذهني مشغولا بما فات ومضى، لم يغفل فكرى عن الاحتفال الذى سوف أرى. فقلت لنفسي: انظر: هناك خلف هذا الدغل تنظم حفيدتك احتفالية عيد الميلاد، لتدخل البهجة فى نفوس أبناء المزارعين. يا له من عالم عجيب حقا، ذلك الذى تقتفى فيه الحفيدة آثار جدها. إلا أنها تتحسس خطواتها فى بلد غريب. كما أن الفتيات فى مثل سنها تتوجسن خيفة ووجلا فى بعض الأحيان. ينبغى لك أن تشد من أزرها حتى لا يرتجف قلبها فتضل الطريق.

وبمجرد أن هدانى تفكيرى إلى وجوب تشجيعها، أرخيت اللجام لتركض الجياد بسرعة حتى أصل قبل الآخرين. وجدت فى عينيها مسحة من الارتياع الحقيقي، فقلت لها: هونى عليك.. هدئى من روعك يا آنسة "ماجدالينا". إنك هنا وسط أهلك. فنحن جميعا من "ميكلينبورج" أو نكاد. لا تخشِى شيئا، فيمكنك الاعتماد علينا والثقة فينا. وعندما أقف أمامك هنا، فقولى لنفسك إن جدك هو الذى يقف أمامك، وينظر إليك بعين الود. لقد فاضت يد جدك علينا بالإحسان، وها نحن نرد جمائله بالإحسان كذلك. والآن دعى اللمعة تعود إلى عينيك ثانية. ولا تحملى هم الاحتفال لأنه سيكون باهرا مثل احتفالات عيد الميلاد فى ألمانيا.

مدت يدها إلى لكى تحيينى قائلة: إن كلماتك الطيبة قد أعادت السكينة إلى نفسي، وأزالت الرهبة من قلبى إلى غير رجعة. ومددت يدى إليها لكى أسلم عليها بدورى قائلا: هكذا أحب أن أراك يا بنيتى الصغيرة. والآن انظرى من حولك. إن كل هؤلاء المحيطين بك هم من "ميكلينبورج"، جاءوا ليحتفلوا بك وليشجعوك بصفتك واحدة منهم. إننى قد تعمدت فى كنيسة "إلدينا"، أما أنت فكان تعميدك فى كنيسة "زيرانا"، فهل كنت تحلمين بأننا سوف نلتقى سويا هنا فى ليلة عيد الميلاد؟ نظرت إلى نظرة جادة ثم ضحكت هاتفة: لا، إننى لم أحلم بهذا اللقاء يوم العماد.

ولكنى آسفة الآن بالفعل لأننى لم أفكر فى هذا الأمر وقتذاك لصغر سني. ضحكت بدورى وساد بيننا جو حميمى ودود.

كانت الكنيسة مكتظة بجمهور حافل من المزارعين، وكذلك انضمت إليهم فئة من أهل الحضر، جاءت من المدينة خصيصا لكى تستمتع فى احتفالية عيد الميلاد هذه بسلام القلب وهدوء النفس وراحة الوجدان. ذلك لأنه فى الاحتفال بعيد الميلاد بمدرسة المدينة يفقد المرء الشعور بتلك الخفقات الخاشعة بميلاد المسيح. فهناك تقوم "المشخصاتية" بتمثيل أدوار الملائكة والقديسين مصحوبة بإشعال "السواريخ" وما إلى ذلك من إسفاف وشعوذة، وهى أشياء لا تليق إلا بصخب الأسواق وصراخ الأراجوزات. ولهذا السبب يفضل أهل المدينة المجيء للاحتفال معنا فى مدرستنا، لأن احتفالنا بعيد الميلاد يتم على أصوله وكما ينبغى له أن يكون. ففيه يترنم الأطفال بالبشر والابتهاج. بأغانى عيد الميلاد التقليدية التى يرد فى مطالعها على سبيل المثال: المجد لله خرجت من أكمامها الورود أيها المبتهج من السماوات العلى. هذا إلى جانب ما تعلمناه على يديك من الأناشيد منذ نعومة أظفارنا بمدرسة قريتنا. وكنا نقرأ بين الأغانى الدينية فقرات من النبوءات الواردة بالكتاب المقدس علاوة على قصة عيد الميلاد. كما كنا نطرح على الأطفال أسئلة، سواء ما ورد منها بالكتاب المقدس، أو أخرى من بنات أفكارنا. وفى الختام كنا نترنم بالترانيم وكان يتبعها موعظة قصيرة يلقيها القسيس. أما حفل الأطفال الذى أجابوا فيه على الأسئلة المطروحة بصوت واضح مدو فكان يمثل ذروة الاحتفالية.

الصديق العزيز، أحيطك علما بأنه قد تسنى لحفيدتك حصد الشكر والثناء من الآباء والأمهات كافة. وهذا شيء طيب ويبشر بالخير، لأن الاحتفال بعيد الميلاد هو امتحان يضع قدرات المعلمة فى المحك. وكما جرى عليه العرف فى هذه البلاد، فإن الفشل فى تنظيم ذلك الاحتفال يعنى فشل المعلمة المشرفة عليه. إلا أننى لم أسمع من الناس إلا المديح والشكر لها على حسن التنظيم. وبمجرد عودتها، قام القسيس بفتح الباب لها وهو يحني هامته فرحا وكأنه يستقبل ابنته، ثم أردف يقول

لنا: إننى لم أكن أظن أنها قد بلغت ذلك المستوى الرفيع! ثم عدنا أدراجنا إلى البيت وكنا فخورين مبتهجين. وكم يحب الإنسان أن يكون سعيد الفؤاد خاصة فى ليلة عيد الميلاد.

وأعود الآن إلى مواصلة الكتابة عنها. لقد بارحتنا لتزور خالا آخر. إنه قسيس "ويسكونسين". وهى تريد البقاء هناك حتى حلول عيد القيامة. وقد أسفت لرحيلها عنا. ذلك لأن هناك فرقا بين أن تتحدث إلى فتاة جميلة أو أن تتحاور مع الجياد والأبقار. فليس هذا نظيرا لذاك، بل يفصل بينهما بون شاسع. لكنها ترددت علينا كثيرا فى الفترة بين رأس السنة وعيد القيامة. وكنت أقوم بتوصيلها فى المساء. ولحسن الحظ لم تنقلب الزلاقة إلا مرة واحدة لوعورة الطريق التى كستها الثلوج. إلا أنها استطاعت بما تطارحه لسانها من الضحكات والأفاكيه أن تتغلب على الموقف وأن تعيد التوازن إلى نفسها، وإذا بها تملأ يديها بحفنة من الثلج الهش وتكورها ثم ترمينى بكرياتها تباعا على سبيل المزاح. ودعابة كهذه تعجب رجلا عجوزا مثلي.

وكثيرا ما كنا نجلس سويا لنتسامر ساعة الغروب، فنتحدث عما جرى بالأمس وفيما يجرى اليوم. وكنت أفضل الحديث عن ذكريات الماضي. أما هى فكانت شغوفة بالأحداث الجارية. كنت مغرما بأخبار قريتنا حيث قضيت فيها مع الأتراب أيام الصبا، أما هى فكانت تميل إلى تناول مجريات الأمور ها هنا فى العالم الجديد. وبذلك تجاوبنا مع بعضنا، ثم أقلعنا عن التخاطب بـــ"أنتم"، واستبدلناها بـــ"أنت"، على وتيرة تطور العلاقات بين الناس. ولكنها ظلت تسمينى عمها. وإذا بها تضحك وتقول: والآن صار عندى نصف دستة. كانت تقول ذلك كما لو كانت تتحدث عن وديعة لها بالمصرف قدرها ألف دولار. استفسرتها عما تعنيه بنصف دستة. أجابت: نصف دستة من الأعمام والأخوال فى أمريكا! ضحك كلانا. حقا إنها فتاة عاقلة وتختلف عن فتيات كثيرات هنا. وبعد أن قرأت على "ليزا" تلك الفقرة من الرسالة، أبدت اعتراضها وتمتمت: ولكن باستثناء ابنتنا

"بيرتي". قلت لها: عندك حق يا "ليزا" وسوف أضيف ملاحظتك بكل سرور إلى الرسالة. ولا شك فى وجود فتيات أخريات تتمتعن بالعقل وحسن الإدراك، لكن معظمهن واهمات وتنتظرن أن يعترض طريقهن فارس الأحلام. ويرجع ذلك إلى ما يسمونه الحب، الذى يعجز الإنسان عن فعل أى شيء حياله عندما تصيبه سهامه. ومن يدري، فربما كان من عطف الرب على هذه الفئة من البشر، أن جعلها تحيا فى عالم مليء بالوهج متعدد الألوان.

تكرر حديثنا عن هذه البلاد، فطفقت أكيل النقد على الأوضاع معلنا عن سخطى على هذا، وتأنيبى لذاك، ولومى لتلك، وإذا بعينيها تلمعان بالتحدى ثم أردفت تعبر عن رأيها قائلة: إذا كنت تنتقد أمريكا بهذه المرارة، فلماذا هاجرت إليها؟ إنى لا أجد سببا يدعو لهذا الهجوم بعد أن صارت لك مزرعة وأصبحت من الميسورين. صارحتنى بذلك وهى ترمقنى ضاحكة. أجبتها بقولي: أريد أن أبين لك شيئا يا "ماجدالينا". يبدو لى أنه لابد للألمانى من العتاب والتوبيخ، هذا وإلا ما شعر داخل جلده بسلام القلب والارتياح. فهو على التقريع جُبِلَ وعلى النقد فُطِرَ. أما لماذا هاجرت، فهذا ما سوف أفاتحك فيه: أردت أن أكون حرا، وأن تكون لى أرض أطأها بقدمي، ولى مجرد مساحة صغيرة من الأرض أستأجرها لكى أفلحها. لقد أردت امتلاك أرض فسيحة أورثها لأولادى من بعدى. فالإنسان قد فطر على تملك بيت أو حيازة مسكن، ولا ريب أن ما فطر عليه الإنسان شيء طيب.

كفت عن الضحك وتمتمت: عمى إن ما تقوله عن التحرر من القيود لهى فكرة باهرة تحظى بإعجابي. أجبتها قائلا: إنى لا أدرى إذا كان ما أعنيه هو مجرد فكرة. ذلك لأنى لا أستسيغ على أى حال استعمال مفردات أجنبية تشل تفكيرى ويستغلق معناها على فهمي. فبما تسمينه فكرة[1] ما كان بمستطاعى أن أتملك

---

(١) الفكرة هى Idee بالألمانية، لكن أصلها يوناني، لاتينى وفرنسي. والفكرة عند "أفلاطون" (٤٣٠-٣٤٧ ق.م) هى المثال الذى يحتاج فهمه إلى ترويض النفس وتهذيب العقل. ومن المثل: الجمال، الكمال=

مزرعة. فأن يصير المرء مزارعا أمر يحتاج إلى جهود ذهنية وعضلية مضنية. وإليك مثل عامل اليومية، ذلك "الأرزقى" رفيق الحال الذى يكد ويعرق من أجل قوت يومه. إنه يجد هنا الفرصة متاحة أمامه لكى يسير على نهج المشروع الخاص بحيث يعمل لحسابه دون الخضوع لرب عمل. وقبل هجرتى لم يكن العمل المستقل متاحا بنفس القدر فى ألمانيا. ويعمل الألمان هنا بكل همة ونشاط من أجل تنمية البلاد، لذلك ينظر إليهم بعين التقدير على صعيد الولايات الأمريكية. وكان بإمكاننا الارتقاء بسمعتنا إلى آفاق أرحب، لولا إقدام الكثيرين بعد عبورهم المحيط على التحقير من شأن الوطن القديم بتجاهله والإعراض عنه. وحتى يغير ألمانيو أمريكا ما بأنفسهم ويضموا صفوفهم، فلابد على ما يبدو أن يتمرغوا بعض الوقت فى جحيم الحاجة أو أن يحول عليهم من الأرزاء والأكدار والمحن. حينذاك سوف يرتقون بسمعتهم كثيرا بسائر الولايات وبالبيت الأبيض أيضا.

هناك فئة من الناس تختار أكثر الطرق سهولة فى الحياة، فتتخلص من ذكرياتها وتعلق سترتها الألمانية على المشجب. أما عن نفسى فأنا لا أتخلى لا عن ذكرياتى ولا عن هويتي. وأنا لا أقف فى هذا المضمار وحدى، بل يسير على هذا النهج كثيرون. لماذا؟ لأن نعالنا غرست فى تربة قريتنا، ولا تزال محملة بشيء من طينها اليابس، أو قل بنفحة من ذكريات الوطن. وسوف يبقى تراب الوطن عالقا بنعالنا إلى حين يحل أجل خلعها برحيلنا إلى العالم الأبدى الذى لا تكون لنا حاجة فيه إلى الذكريات. ونعال البعض منا تظل مرصعة بالوحل، ونعال البعض الآخر بذرات الرمل التى يسهل نفضها. وبذلك تتعثر فى المهجر مشيتنا ولا تتيسر. ومع هذا فحبيب إلى فؤادى أن يظل تراب الوطن عالقا بحذائى.

كان هذا على وجه التقريب فحوى حديثى إليها، الذى أصغت إليه باهتمام بالغ وهى تهز رأسها علامة على الموافقة. وكان تعقيبها: أحسنت يا عمى، فقد

= والفضيلة التى لا يدركها فى خير أشكالها إلا من كان فيلسوفا. ولذا يتجاوز عالم المثل عالم المحسوسات والتصورات الذهنية. لكن الفكرة موضوع الحوار تعنى معناها الشائع لا الفلسفي.

تقدمت على الرغم من ذلك فى هذا البلد الجديد. علقت على ما لاح لى فى قولها من إجحاف يجافى الواقع، إذ أردفت مصححا: ماذا تقولين.. على الرغم من ذلك؟ لا يا بنيتى لقد حققت نجاحا لأننى لم أتنكر لأصلى ولم أتحلل من جذوري. انظرى، إننى أمشى حاليا على أرض زراعية شاسعة أمتلكها، بينما لم يتعد ما كنت أفلحه فى فترة البدايات إلا مساحة قزمية من الأرض. إننى لم أتوسل طول حياتى إلا العمل النشيط الهادف، كما كنت لا أبالى، سواء قمت باستصلاح كثبان رملية "غويطة" أو باستزراع تربة سوداء خصيبة، غير أنه مع تقدم السنون أصبحت حركتى ثقيلة وسرعة بديهتى بطيئة. فالمرء طوال سنوات عمره يكد ويكدح، وزناد فكره يقدح، ولكن شتان بينه وبين امرئ يعتسف الطريق بلا هدف أو بلا قدرة على المثابرة. إنهم فى هذه البلاد إلى الحبوب ينظرون على أنها مجرد سلعة تجارية تباع وتشترى. لكننى تعرفت فى مطلع حياتى على أن رغيف الخبز الذى نأكله يأتى فى نهاية سلسلة من العمليات التى يبذل فيها جهد جهيد ويسيل خلالها عرق غزير بين حرث وبذار، حصاد ودراس، طحن وعجن وخبازه. وإلى وطنى يعود الفضل أن تسربت تلك المعرفة إلى إدراكي، وأن ترسبت تلك الخبرة فى ذاتي.

إن وطنى القديم هو أسمى عنصر مكون لحياتي. صحيح أننى عانيت فيه الأمرين بين شظف عيش وجفاف حياة وضنى، إلا أن مجرد التفكير فى الوطن يستحضر فى ذاتى إحساسا رقيقا براحة النفس وانشراح الصدر. إحساسا يضاهى شعور الأجير العارق بالانطلاق بعد يوم عمل شاق. فمن المحال أن أجد خلال ساعات النهار فسحة للتأمل والسكون مثلما أجدها بعد جفاف العرق عند الغروب. فعندما يرخى الغسق غلائل السمرة الناعسة، يؤتى المرء الاستطاعة على الغوص فى جوانيته، على النفاذ إلى جوهر الأشياء، على نحو قلما يأتى بمثله فى وضح النهار. وبذلك أكون قد انتهيت من سرد ما قلته لها خلال الأسابيع التى قضتها عندنا على وجه التقريب.

كان تعقيبها على قولي أن أردفت قائلة: يلوح لي، بعد أن تقدمت بك السنون، أنك سوف تكر عائدا إلى قريتك للتقاعد وللخلود إلى الراحلة فهل أنا محقة فيما ذهبت إليه؟

كلا إنني لن أعود للعيش بمسقط رأسي، فلا القرية أو أهلها بقيا على الحال الذي كانا عليه من قبل، بعد كل ما طرأ عليهما من المتغيرات، لأن بقاء الحال من المحال. لذلك أحبذ الاحتفاظ بصورتيهما العالقتين بذهني ليدفأ بهما قلبي. كما أنني أرفض رفضا باتا الانتقال للعيش بالمدينة بعدما ينهض ابني بشئون المزرعة. وهيهات أن يخطر ببالي انتقالي للحياة في شيكاغو، فالناس في شوارعها يتدافعون مثل المجانين، كما يأبى حذائي المحمل بالطين تطويع نفسه على العيش بالمدينة. ناهيك عن اعتياد سكان المدينة على تغيير محال إقامتهم بالانتقال إلى شارع آخر كل بضعة أشهر أو أعوام. وبذلك تتبدل البيوت والوجوه ويتبدل الجيران وأصحاب الحرف الخدمية مثلما يغير الإنسان قميصه، الأمر الذي يسلب الأطفال القدرة على توثيق عرى الصلات بالأقارب والأتراب.

وهناك سبب آخر يربطني بقريتي. فاليوم حيث "يحش" الصبي "دين" الحشائش بمرعى "جولز"، كان جده يستخدم المحشة في نفس المرعى من قبل. وحيث يلعب الآن أطفال الابن الأصغر لعائلة "زاس"، كان جده الأكبر يرقد في مهده في نفس الكوخ من القش وهو في سن الرضاعة. ولا يزال أولاد "فريل" يقطفون ثمار التفاح بهز أغصان الشجرة التي أنبتها جده. وعما قريب تعود اللقالق إلى عشها بقمة دار "برونينج" لتلقلق من جديد، ولعلها من نفس السلالة التي أسعدت قلب العم "أدبار" عندما كان طفلا يحبو في عام ١٨٠٠. وللعلم فقد أتيحت لي فرصة التعرف عليه. أما أنت فمازلت تدرسين لأطفال نفس القرية التي سبق لأبيك ولجدك تعليم أطفالها. كما أن الإشراف على الإدارة التعليمية لم يخرج من يد أسرتك على مدار مائة عام.

يتعذر على أن أصف لك المشاعر التى تجيش بصدرى، إلا أنك سوف تدرك مقصدى حتّى بدون إسهاب فى الشرح. فما نفتقده فى العالم الجديد، هو أن الزمان ينطوى فيها سريعا، فنتوهمه ماضيا بعيدا. فما يمضى على وجوده فى هذه البلاد عشر سنوات، يبدو كأنه قد مر عليه حقب وآماد. فهنا لا يقص للغابرين أثر. وهنا لا تصلح تربة حاضر لا ماضى له لنمو الذكريات والقصص، لأن صلتها بآبائنا مبتورة، وجذورها فى الأرض من تحت أقدامنا غير ممدودة. وإذا عبر ذلك عن ضآلة شأن ما يفرزه الوجدان الجمعى فى المزارع، فما بالك بتدهور حال الأدب الشعبى بمدننا الأمريكية. وما يدريك فلعله لا خير فى تراكم مخزون الذكريات، إذا ما ناءت بها الكواهل. وهو أمر يسرى بالمثل على شعب بأكمله. ذلك لأنه لمن يطلب التقدم عيون على السبق صاحية، لا تحيد عن الهدف، ولا تتلفت إلى الخلف بعد أن انقشع عن عيونها غبار السلف. وهو أمر يسرى بالمثل على شعب بأكمله. ومن ترنو نفسه إلى التقدم وإحراز النصر، فينبغى أن يكون شابا واثقا بنفسه معتدا بذاته. أما من تقدمت به السنون وصار فى عداد المسنين، فلا يكون بحاجة إلى إحراز نصر جديد. ذلك لأنه جدير به أن يخلد إلى الراحة ليستعيد شريط ذكرياته. أما عن نفسى فإن ذكرياتى ترقى عندى إلى مستوى الجمال والقدسية.

عادة ما تتقاطر فى ذهنى مثل هذه الأفكار والخواطر وتترابط ساعة الغروب مع آخر لهثات الشمس عندما أتطلع إلى أركان الغرفة وزواياها لكى أستدعيها من مخزون الذاكرة. وهى أفكار إن جاز رهنها لا تساوى شروى نقير. ولا يتفوه المرء بأفكار من هذا القبيل إلا نادرا. وإذا أراد قولها يتبلبل لسانه ويتلعثم فلا يحسن السامع فهمها، وإذا عزم على كتابتها بالريشة على الورق، لما سطرها بخط واضح يسهل على القارئ فك طلاسمه. وبذلك أكون قد ألقيت الضوء على طبع أهل "ميكلينبورج" الخُلَّص. فهم قوم يتكتمون على خبر ما عندهم، وإذا ما قرروا الإفصاح عما يبطنون يقولونه فى الوقت غير المناسب. أسررت فى أذن

أمى بأفكار كهذه فى أيام ترديها فى حضرة الموت، فإذا بها تغمغم وهى تحدق النظر فى وجهى بعينين اتسعت حدقاتهما بالدهشة. وعندما أفكر اليوم فى تلك النظرة الغريبة من جديد، أقول لنفسي: لقد قرأت فى عينيها نظرة فيها تعطش لسماع المزيد. آنذاك شعرت بأحاسيس جارفة وإذا بدموعى تنحدر من مآقيها، ولم أعد أقوى إلا على الربت برفق وحنان على خديها ويدها. تملكنى إحساس وأنا أجوب تائها فى وجهها الشاحب، اقرأ فيه كلماتها الخرساء ولا أسمعها، بأنها قد فهمتنى بدون نبس. ولم لا؟ فقد كان بين الأم وابنها بالتخاطر "عمار". وعلى أى حال فيمكن توصيف سلوك الألمانى الشمالى بوجه عام على النحو الآتي: أنه كتوم وغالبا ما يحتفظ لنفسه بما يكنه فى صدره.

تحتم على هذه المرة الالتجاء إلى التصريح لا الاكتفاء بمجرد التلميح. ويرجع الفضل فى إحياء كل هذه الموضوعات إلى حفيدتك التى أنا عمها، كما تسميني، ولأن الصقيع كان قد تسرب إلى الأرض خلال انهماكى فى عرض تلك الأشياء التى نادرا ما أبوح بها مجازفا بإخراجها من "صوانة" أسرارى بهذه السهولة فى ظل ظروف أخرى. وفيما يلى أخصك بجانب مما أحتفظ به فى الدرج الأخير من تلك "الصوانة". وهى عبارة عن باقة من أناشيد الورع القديمة التى سبق أن تعلمناها على يديك بالمدرسة. لقد كانت كراسة الأناشيد فى جعبتنا أثناء عبورنا المحيط، وحملناها معنا على عربات جرتها الثيران فى الدروب الوعرة بالأدغال ثم سكنت معنا فى بيتنا الذى شيدناه من جذوع الشجر. هجعت كراسة الأناشيد حينا تحت غطاء من العرق والعمل، لكنها استفاقت من ثباتها أخيرا من جديد. انتقلت معنا إلى دارنا الجديدة، وصار أولادنا يجيدون عزف موسيقاها الدينية على آلة الأرغن، وأصبحنا نترنم بكلماتها فى صلوات المساء. هل لا تزال تتذكر الأناشيد والتسابيح التى مطلعها: أيها الرب إلينا بملاك حبيب من لدنك! ربى إنك الراعى وينبوع كل المسرات اكتب اسمى مع الأبرار، دعنى أحس بك فى هذه الليلة، إذا كانت هذه آخر ليلة. وأسوق ذلك على سبيل المثال لا الحصر. ولا يزال أطفالنا

يترنمون بالأبيات القديمة فى صلواتهم مثلما كنا نترنم بها فى صلواتنا بالمدرسة فى طفولتنا.

الصديق العزيز، أخبرك بأننا عندما نقوم بترتيل ألحان الفرح وبإقامة الصلوات ابتهالا إلى الله ينتابنا فى بعض الأحيان شعور غاية فى الغرابة. حينئذ أغمض عينى وإذا بى أتخيل أننى لم أعد ذلك المزارع الهرم الذى يشكو فى أمريكا من آلام المفاصل، بل ارتد فى لمح البصر طفلا: تلميذ صغير يجلس فى المدرسة مع أترابه على دكك طويلة وقد تحلقناك وأنت فى وسطنا أثناء ترنمنا بالأغانى الدينية قبل انتهاء اليوم المدرسى فى الشتاء(1) فى حوالى الرابعة بعد الظهر. وما زلت أتذكر حجرة الفصل وكأنى أراها رأى العين فى "ساعة العصارى"، حين يدغش وضح النهار الشتوى مبكرا لقصره، فيكتسى زجاج النوافذ من الداخل "بشبورة" من بخار الزفير، وتتكثف قطرات ماء تتحدر كممحاة تمسح الغشاوة التى على الزجاج فى أشرطة رفيعة تشف عما خلفها إلى حين. وكذلك تبتل الجدران "فتنز" على سطحها قطرات الماء وكأنها تتفصد عرقا. كما أرى فى الركن الأيسر من الفصل مدفأة حجرية مرصعة ببلاط بنى اللون. وألمحك فى مكانك خلف المنصة واقفا أمام السبورة السوداء تنظر إلينا وننظر إليك. وأشاهد صورا وأكاليل وأوراق زينة لا تزال معلقة على الجدران، وهى من مخلفات الاحتفال بأعياد الميلاد الأخيرة. أرى كل هذه الأشياء بدقة متناهية فى مخيلتى وكأنى أراها فى الواقع المعيش حتى أكاد أمسكها بيدي. وترتد هذه الصورة لتنبض بالحياة من جديد بمجرد الترنم بالأناشيد الدينية القديمة، وذلك بعد أن مضت عليها أعوام طويلة، بل أعوام طويلة جدا. أليس ذلك أمرا غريبا؟

ولا يختلف قول "ليزا" عما سبق لى قوله، إذ تنبثق بمخيلتها نفس الصور والخواطر. فقد كانت تخدم قبل الهجرة فى بيتكم. وكنتم تواظبون على الترنم

---

(1) أما اليوم المدرسى فكان قصيرا فى الصيف حتى يتمكن أبناء الفلاحين من مساعدة الآباء فى الزراعة فى ذلك الوقت من القرن الـــ19.

بكلمات تلك الأغانى الدينية فى صلوات المساء. وهى عندما تترنم بها الآن هنا أثناء أداء صلواتنا، فترى "ليزا" بدروها قاعة المعيشة فى بيتكم وكأنها منقوشة فى رأسها. فهى تلمح كتاب الصلوات موضوعا فوق خزانة الكتب على جانبها الأيسر الذى كانت تشب لإحضاره. وترى بجانب الأريكة ساعة الحائط الكبيرة وعلى ميناء أرقامها زخارف من الورود. وفى يسار القاعة صوان له درف من الزجاج المغطى من الداخل بساتر من القماش الأخضر اللون. أما مكتبك فموضوع قرب النافذة. وهكذا تستوحى "ليزا" أثناء شدوها كلمات الترانيم تنسيق الأثاث بغرفة المعيشة وأنتما تجلسان فيها مع أولادكما. وربما لا يجد شباب هذه الأيام فى تلك الترانيم شيئا جديرا بالاهتمام. لكننا لن ننساها ما حيينا. كما أننا نحرص بالمثل على أن لا ينساها أولادنا، ونوجههم إلى الاهتمام بها كشيء عزيز غال. ــ "ياه. كفاية بقه لحد كده. دانا كشفت عن حاجات كتيرة من المستور فى خازنة أسراري. علشان كده حاقفل عليها بالضبة والمفتاح زى ما كنت وأحط مفتاحها فى جيبى زى ما كان!".

الفصل الحادى عشر

مقتطفات من كل لون

نمر الآن بشتاء طويل، يعم فيه برد وزمهرير، ويصبح فيه النشاط المزرعى قليلا. وها أنا ذا أنتهز وقت الفراغ المتاح لأعود لكتابة خطابى الشتوى إليك فى براح، فالصيف عندنا لم يخلق للكتابة، لأن الأعمال فيه تترى بلا نهاية. فلا عجب أن كانت كل رسائلى إليك خطابات شتوية.

الصديق العزيز، كنا على أيام التحصيل بالمدرسة لا نكف عن التفكير والقول: ألا ليت مرحلة التلمذة تنتهي. والآن يكرر أطفالنا نفس النغمة، ويحتذون بذلك حذو آبائهم. وهم يتحدثون الإنجليزية معظم الوقت فيما بينهم. ولذلك حرصنا أيضا على توفير وسيلة لتعليمهم الألمانية. وقد كان التوفيق حليفنا فى هذا المضمار. كما اكتشفنا أن الاستعانة بالأناشيد الألمانية، حفظا وأداء، عامل مساعد فى تعليم اللغة. ولما انتهينا من عملنا اليومى فى وقت الغروب، جلست بجانب المدفأة، بينما استراحت "ليزا" على المقعد الهزاز. ولا يخفى أن الجلوس خلف المدفأة هو مكان بديع فى الشتاء. ثم يبدأ صوت الأطفال يصدح بالغناء فى قاعة المعيشة أو بخارجها فيترنمون بنفس الأناشيد التى علمتنا إياها بالمدرسة. وأذكرك بمطلع بعضها: "كان عندى رفيق" "لا أعرف لذلك معنى" "عادت كل الطيور" "أهو مايو هل علينا". ولك أن تصدقنى أن تلك الأناشيد تصدح فى مزرعتنا بنفس جودة الأداء وبنفس الجرس الألمانى الذى كانت عليه فى وطننا القديم. نعم يمكنك الوثوق بالفعل فيما أقول.

تلك الأناشيد يتعلمها الأطفال بالمدرسة الألمانية. علما بأن لدينا نوعين من المدارس. النوع الأول كنسي، والثانى حكومي. ومن ثم فعندما أتحدث فى رسائلى عن المدرسة الحكومية، فأنا أعنى على الدوام المدرسة التى يجرى فيها التعليم

باللغة الإنجليزية. أما إذا ورد ذكر المدرسة الكنسية، فأنا أريد بذلك التنويه إلى المدرسة التى يتم فيها التعليم باللغة الألمانية. بقى أن تعرف أننا أى شعب الكنيسة قمنا بأنفسنا بتأسيس المدرسة الكنسية حتى يحظى أطفالنا بتعلم اللغة الألمانية فضلا عن تأدبهم بسلوك مسيحى طيب.

اعتدت فى أمسيات هذا الشتاء على القراءة فى كتب المطالعة المدرسية الخاصة بالأطفال. فهم لا يحفلون بها كثيرا عندما يشبون عن الطوق ثم ينحونها جانبا. والمفارقة هنا أنه عندما تتقدم بنا السنون نعود إلى كتاب المطالعة من جديد. ولكن لا ينبغى لك أن تظن أنه ليس لدينا شيء آخر نقرؤه، بل على العكس، نظرا لما نقتنيه من مطبوعات متعددة، إلا أنه يتعذر على القارئ تصديق كل ما يطبع بالأحبار على الورق. وإليك على سبيل المثال جريدة "جرمانيا"، تلك الجريدة الواسعة الانتشار السميكة بعدد صفحاتها. وكذلك تلك الجريدة المحلية الصغيرة التى تكتب عن كل ما يحدث فى محيط مدينة "سبرينج فيلد". وقد لا تصدق إذا ما قدمت لك عينة تمثل المجموع لما تتناوله تلك الصحف من مواد إخبارية. وهناك على أى حال بون شاسع بين موضوعاتها وبين ما تتناوله صحفكم الألمانية من الموضوعات.

وسوف أقتبس لك عينة من الأخبار الواردة بصحفنا الصغيرة، ومنها على سبيل المثال: "اشترى فريد ميلر ساعة ذهبية لابنه شارلى بمحل مستر ويلسون بمبلغ ٧٠ دولارا". وأغلب الظن أن اسم الابن كان سيتحول فى قريتنا إلى "كارل مولر". وخبر ثان: "جرح هنرى شميت يده فى مسمار، لكن الجرح آخذ فى الالتئام بشكل يدعو للرضا عند مراعاة ظروف الحادث". وثالث: "استقبل مستر أكرمان منذ أول أمس صديقه بصحبة ابنته القادمين من فرجينيا لزيارته. وجدير بالذكر أن هذا اللقاء هو الأول بين الطرفين منذ عشر سنوات. وأقام مستر أ. حفلا بهذه المناسبة السارة سال فيه النبيذ أنهارا". ما رأيك فى هذا؟ لا تتعجب، فهذه هى نوعية ما نقرؤه فى جريدتنا. ويتحتم على موزع الصحف توصيل أعداد الجريدة

إلى المنازل، لأن "فريد ميلر" والآخرين مشتركون فى تلك الجريدة ويحبون قراءة ما يكتب عنهم. ولعلك تدرك ما أقصده من وراء سرد تلك الأخبار على نحو أفضل، لو تصورت، قياسا على ذلك، إقدام جريدة "لود فيجزلوست" المحلية التى تصدر عندكم بنشر الخبر التالي: "شب حريق بحظيرة تقع جنوبى بلدة جرابوف". ولدينا بالمثل اشتراك بمجلة "مدرسة المساء". وهى مجلة مصورة من القطع الكبير، عديدة الملازم، تشتمل على قصص شيقة، ووصف مسهب لمواقع جغرافية أمريكية وألمانية. وهى بالمناسبة دورية وتصدر كل أسبوعين.

إن شغفى بكتب المطالعة يدفعنى إلى القراءة فيها باستمرار، فمنها يفوح شذا الوطن، وفيها أعيد اكتشاف ما كنت أعرفه من قصص قديمة دارت فصولها فى أرض الآباء. لكن هناك شيء ينوء به كاهلي، سؤال يحيرنى وأطمع فى العثور عندك على جواب يشفى غليلي. فعندما يقبع المرء فى البيت ولا يبارحه طوال فصل الشتاء، فتجده مهموما مشغول البال بما يقرأ، وهو أمر لا يعيره المرء أى اهتمام يذكر عندما يكون فى ريعان شبابه. أما الآن فيستوقف نظرى بعض ما أطلع عليه من الكتابات، فأبدأ فى التفكير، ويهتز رأسى دهشا مما أقرأ، ثم أطرق برهة لأقول: ما أسخف ذلك الخطل المطبوع على الورق. ولذلك أتوقع منك أن تدلى بدلوك فى هذه المسألة. أما "ليزا" فقد علقت على ذلك قائلة: لا تكثر من التفكير يا "يورن ـ ياكوب"، لأن التفكير مضر بالصحة. إنى أرى أن الشتاء قد طال أمده وآن الأوان لعودة الدفء من جديد حتى تودع اعتكافك وتستهل نشاطك فى الحقول. ثم أجملت كلامها فى توصية مفادها: "وكفاية كده لازم تبطل قراية بقى لحسن عتة الورق حتنخر دماغك". أجل يا صديقى هذه هى طريقتها فى الكلام!

وتحتوى كتب المطالعة على قصص مترعة بالملح والأفاكيه، سبق لى التعرف عليها فى عهد الصبا عندما كنت تلميذا بالمدرسة، ومنها: "الدكتور العلامة والبحر الفهامة""موسيقيو مدينة بريمين" "الثعلب والسبع عنزات" "ذات القبعة الحمراء" "السيدة هولا" "هانز سعيد الحظ" "شمعة من تضيء مدة أطول؟". أضف

إلى ذلك تلك القصة اللطيفة عن "أقزام مدينة كولونيا". كما أننى من القراء المشغوفين بـــ"الحكايات الخرافية"(١) التى أعاد ترجمة بعضها عن اليونانية "مارتن لوثر"(٢)، والتى لا أسأم قراءتها كلما وجدت إلى ذلك سبيلا، نظرا لما تتضمنه من مغزى ومعنى يمس شغاف القلوب ويحث إلى يومنا هذا على التفكر والتأمل. وهى نصوص تصلح لمناقشتها مع الأطفال بحيث تساير التطورات عندنا فى العالم الجديد.

وكذلك لا تخلو كتب المطالعة من قصائد للشعر الألمانى الجميل:

وهى تتضمن، على الجانب الآخر، أشياء بديهية واضحة بذاتها، وتفهم من تلقاء نفسها. خذ مثلا موضوع القطة. قرأ ابنى فى كتاب المطالعة الآتي: للقطة رأس مستدير وذيل طويل وأربعة أرجل. وقرأ عن الأرض: ليست الأرض منبسطة فى كل الأنحاء لاشتمالها على العديد من الجبال المرتفعة. فطفقت أقول له:

---

(١) "الحكاية الخرافية" هى حكاية ذات مغزى تهدف إلى تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق، وتدور أحداثها فى الغالب بين حيوانات تتحدث مثل البشر، لكنها تحتفظ بسمات الحيوان الأعجم. وفى الشرق نموذج فذ للحكايات الخرافية يتمثل فى مجموعة حكايات "كليلة ودمنة" الذى نقله عن الفهلوية الهندية إلى العربية عبد الله بن المقفع المتوفى سنة ٧٦٠م.

(٢) راجع، مارتن لوثر: كتابات مختارة (باللغة الألمانية)، الجزء الخامس، الطبعة الثانية، فرانكفورت/ماين ١٩٨٢ (الناشر: إنزيل فرلاج)، ص ١٦٢-١٧٥. كانت الحكايات الخرافية أحد روافد السلوك العملى القويم للحياة فى العصر الوسيط، لاشتمالها على إمكانيات نقدية ساخرة، تطورت فى ألمانيا لاحقا لتستخدم فى العملية التعليمية ذات النزعة الإنسانية الإصلاحية على يد "ميلا نشتون" أهم مساعدى لوثر. وكان لوثر، الذى ملك ناصية اللغات القديمة، معجبا بالحكايات الخرافية الإغريقية المدونة بكتاب الحكمة القديم الذى ينسب لصاحب الأمثال والحكم "إيزوب" أو "إيسوب" (القرن ٧-٦ ق.م). وقام "هاينريش شتاينهوفل" بترجمة ١٦٤ حكاية ناطقة بلسان الحيوانات من اليونانية إلى الألمانية، صدرت فى "أوجسبورج" ١٤٧٧/١٤٧٨. لكن لوثر خطط لإعداد ترجمة حكايات "إيزوب" الخرافية لتلقى الضوء على ما تتضمنه من قيم إنسانية ومثل أخلاقية لتحل محل مجموعة "شتاينهوفل" المتداولة. إلا أنه لم يتمكن سنة ١٥٣٤، أثناء إقامته بقلعة "كوبورج"، سوى إنجاز ١٣ منها وكتب تقديما لها، كما استخلص من كل حكاية على حدة العبر والدروس المستفادة. وصدرت مجموعة لوثر للحكايات الخرافية سنة ١٥٣٦.

يا بني لا تدس بأنفك فى الكتاب للحصول على هذه المعلومة، إذ من الأفضل أن تطل من الشباك لتتعرف بنفسك على الجبال برؤيتها رأى العين. ودعنى أدلك على أن الأرض لم تكن بمسقط رأسى منبسطة بالمثل، فهناك جبال تسمى "يوخين برج" [جبل يوخين]، "شنيلين برج"، "بوتبرج" وغيرها. إلا أننا لم ننتظر حتى نعرف بوجود الجبال من الكتب. ثم قرأ: يتجمد الماء فى الشتاء. علقت بقولي: شيء مفيد أن يربط الكتاب بين الشتاء (الشمالي) وتجمد الماء. هذا وإلا أغفلنا ظاهرة التجمد عندما تهبط درجة الحرارة إلى ناقص ١٥ مئوية. واصل ابنى القراءة وقال: للروث أهمية كبرى عند الفلاح. وكان تعقيبي: إنه لشيء يبعث على الطمأنينة حقا أن نعرف بوجود الروث فى كتاب المطالعة أيضا. وما لبث أن قرأ: إن الشاة أصغر من الثور. قلت له: دلنى على رقم الصفحة التى وردت فيها تلك المقارنة؟ أجابني: فى صفحة ١٨٤ من كتاب المطالعة يا أبت. نصحته مازحا: إذن لا تنس رقم هذه الصفحة. وعندما تذهب إلى الحظيرة، فما عليك إلا أن تفتح كتاب المطالعة، وبذلك يسهل عليك التفريق بين الشاة والثور فى الحال.

واصل الغلام التقليب فى كتاب المطالعة وإذا بمقطوعة عن الأسود تستهويه فشرع فى القراءة: عندما يجوع الأسد، تنتفش لبدته وينتفض شعرها عاليا، وإذا به يخطر بذيله رافعا إياه مرة بعد أخرى ليضرب به ظهره كأنه يجلد نفسه. حينئذ يطيح بكل شيء يعترض طريقه ويقلبه رأسا على عقب. أما إذا كان شبعان، فهو لا يستأسد، ويتصرف بهدوء فلا يخطر بذنبه ليضرب به على ظهره، ومن ثم فلا ينبغي للمرء أن يخشى عند مواجهته أن يناله أى أذى. طلبت منه أن يعيد مطالعة تلك الفقرة لكى أستوعبها، ففعل. أطرقت هنيهة ثم أردفت أقول: هذا يعنى أنك إذا أبصرت أسدا فى المروج، فيتحتم عليك مراجعة كتاب المطالعة فورا ليدلك على ضرورة مراقبة حركة الذيل، فإذا ألمظ الأسد بذنبه وأدخله بين رجليه، مثلما تفعل الأبقار، فيمكنك مهاجمته وترويعه. أما إذا رفع الأسد ذيله وبدأ يحركه ويضرب به ظهره، مثلما تنفشج أبقارنا وتفرج بين الرجلين لتبول، فلا يكون أمامك من خيار

آخر إلا أن تلوذ بالفرار! هذا وإلا فتك بك، وأطاح بكل ما يعترض سبيله، فيقلب أسطال الفلاحة وأقساطها المملوءة بالحليب ويسكبها على الأرض. وإذا بابنى قد طفق ليقول: هل لى أن أقترح حلا بديلا أفضل من الفرار؟ "أطخه عيار بالبندقية يجيب أجله".

عثر ابنى بكتاب المطالعة على خطاب بين صديقين موضوعه سمك الرنجة، وقرأ الفقرة الأخيرة منه كما يلي: "وعندما أشتهى أكل سمك الرنجة فلا يغرب عن بالى أبدا كل ما شرحه لنا المعلم حول صيد ذلك النوع العالى القيمة من حيوانات الماء. أما إذا اعتزمت تناول سمكة رنجة فى أقرب فرصة قادمة، فبادر بالاطلاع على خطابى هذا، واستحضر فى ذهنك سيرة حياة ذلك السمك اللذيذ الممتاز من سكان البحر المتجمد الشمالي. ولا يفوتك أن تبادل صديقك المحب ودا بود المخلص باول". كان تعليقى على "خطاب الرنجة" هذا، أنه عرض لذلك الموضوع بإسهاب متكلف وتعقيد لا مبرر له. وعندما تعتزم يا بنى أكل سمكة رنجة، فأوصيك بأخذ حذرك حتى لا تنحشر شوكة فى حلقك، فذلك أجدى نفعا من التفكير فى سيرة حياة ذلك السمك الشهى الممتاز الذى يعيش فى البحر المتجمد الشمالي. لكن ابنى تمتم قائلا: هذا عين الصواب يا أبت، ولكن لماذا ورد بكتاب المطالعة نص كهذا؟

الصديق العزيز، لماذا تشتمل كتب المطالعة على موضوعات لا طائل من ورائها؟ موضوعات تفهم من تلقاء نفسها وتحتاج إلى الفراسة أكثر من حاجتها إلى توضيح. فإذا ما واجه نشؤنا بيئتهم المحيطة بهم هنا بعيون فاحصة لا غافلة، لفطنوا من تلقاء أنفسهم إلى أن الماء يتجمد فى المناطق الباردة شتاء، ولعرفوا بالبديهة أن الشاة أصغر من الثور. وليست الناشئة فى واقع الأمر فى حاجة إلى استقاء تلك المعلومات العامة من كتاب للمطالعة، لأنهم يعرفونها عن طريق الملاحظة، حتى قبل أن يتعلموا فك الخط. أما من لا يعرفها فلابد أنه لاه، غافل أو نؤوم الضحى. ومع هذا فلن يؤتى الغافل القدرة على فهم ما بالكتاب من المعارف

بحيث يمكنه الاستفادة منها فى الحياة. ومن ثم فإن تقييمى لجهود مؤلف المطالعات يتأرجح بين التوقير والاستجهان لتذبذبه عندى بين القبول والرفض على الوجه التالي: أقدر جهده لا أقدره أقدر جهده لا أقدره. وخير من يعبر عن ترددى فى موقف كهذا هو الأديب الشعبى الألمانى "فريتس رويتر"[1] إذ يقول: "أهو مرة أوزوزهنا ومرة أوزوز هناك". ولهذا فأنا فى انتظار تقييمك لكتاب المطالعة وتعليقك على ما كتبته إليك.

والآن أعود مرة أخرى إلى موضوعات شبيهة بسابقتها. وسوف أحكى لك فيما يلى قصة غلامين اسمهما "ياكوب" و"فريتس". وأحيانا يختلف الاسمان فى القصص، لكن صفات الغلامين لا تختلفان. وهما لا يعيشان بين الأمريكان كمواطنين، إنما يعيشان كل يوم أحد على صفحات مجلة الأطفال، وأحيانا بين دفتى كتاب المطالعة. ويلعب هذان الغلامان دور الأشرار الأشقياء باستمرار فهما لا يذهبان إلى المدرسة وعازفان عن التعلم، بل واعتادا فى أيام الأحد على سرقة أجمل ثمار التفاح من شجرة الجيران. لكنهما عندما استهلا أكلها وجداها قد عطبتها الديدان. وإذا بشيخ وقور طويل اللحية يمر عليهما فى هذه اللحظة بالذات وكأنه معهما على موعد. راح يعظهما ثم ارتجل أبياتا عديدة من الشعر الركيك، جاء فى مطلعها:

بذرة الشر فى الحال اقتلعها

وإلا هى فى النهاية دمرتك

فإن أنت اليوم فى طور النشوء تركتها

قويت غدا وتضخمت أمام ناظريك

---

(١) "فريتس رويتر" (١٨١٠-١٨٧٤) هو كاتب الأدب الشعبى الساخر ابن إقليم "ميكلينبورج" الذى كتب باللغة الألمانية الدارجة لأهل الشمال، وعنى بصفة خاصة بظروف الفلاحين وبـ"المسألة الاجتماعية" إبان عصر التصنيع.

استطاع الشيخ هدايتهما وأسلس قيادهما إلى طريق الصواب، ولكن فى هذه القصة فقط. ذلك لأنهما غافلا أميهما في يوم آخر وفتكا بما طاب لهما من عسل النحل والمربى والحلوى. إلا أنه التبس عليهما الأمر وازدردا بطريق الخطأ قليلا من سم الفئران أثناء السرقة، مما اضطرهما لالتزام الفراش لمدة طويلة. كما أراد الصبيان فى إحدى المرات الاستيلاء على بعض أصابع السجق من كرار الجيران، إلا أنه تصادف فى هذه الأثناء أن سمعا وقع أقدام. فقفزا من النافذة حتى لا ينكشف أمرهما، فأصيبا برضوض وكسور. ومر عليهما فى هذه اللحظة ذلك الشيخ الوقور طويل اللحية صاحب أبيات الشعر الركيك، وما هى إلا لحظات حتى تابا عن سوء فعلتهما. وذات يوم آخر قاما بتعذيب كلب ضخم مربوط بسلسلة، لكن الكلب استطاع كسر القيد وعضهما فى رجليهما. وفى قصة أخرى ركبا قاربا ذات يوم أحد ليصطادا السمك(١). وفجأة برقت السماء ورعدت ثم ضرب البرق فى الماء على مقربة من القارب. وهنا ظهر الشيخ الوقور مرة أخرى وأنقذهما من الغرق وارتجل أبياتا من الشعر الطويل الركيك التى فى جعبته منها الكثير، وسرعان ما تمكن من هدايتهما إلى الطريق القويم، ثم ساعدهما على تجفيف جسديهما من البلل.

وهكذا تطلع علينا مجلة الأحد من أسبوع إلى أسبوع بمسلسل لا ينقطع من "المطبات" التى يقع فيها الغلامان. وقد شاهدت بنفسى هفوات وأحداثا مثل سرقة التفاح، وركوب الأحداث القوارب وتعذيب الكلاب المقيدة. لكن نهاياتها فى الحياة تبدو شديدة الاختلاف عنها فى تلك القصص. فالتفاحات المسروقة رأيتها غير معطوبة، والكلب المربوط بسلسلة لم يتسن له كسرها ليعض المهاجم، والسارق لم يأكل سم الفئران ونهب ما نهب. إن ما شاهدته بنفسى هو أن من ناله الضرب والتقريع كان شخصا لا تثريب عليه، لكن حظه العثر جعله لا يترك مكان الحادث لعدم إحساسه بذنب أو تأنيب ضمير. أما المذنبون الحقيقيون فكانوا أول من لاذوا

---

(١) يوم الأحد هو يوم مقدس من المفروض أن لا عمل فيه، كما لا ينبغى الصيد إلا فى المواسم والأماكن المسموح فيها بالصيد حفاظا على الثروة المائية.

بالفرار. وقد رأيت بنفسى بيتا أضرم فيه النار. وكذلك شاهدت بأم عينى طفلا مسكينا احتقره رجل من ذوى اليسار. لكنى لم أشاهد ذلك الشيخ الوقور ذا اللحية الطويلة ومرتجل أبيات الشعر الركيكة، ربما كان عدم ظهوره مجرد صدفة محضة. وأنا لا أعترض على احتواء الصحف والكتب على مثل هذه القصص، فما يدريك فلعل نفرا من الأشقياء يرتد عن طريقها عن سوء الفعال. لكن الحياة التى نحياها غالبا ما تسير على نهج مخالف للنهج الذى تسير عليه القصص. فمعظم القصص مبتكرات من بنات أفكار مؤلفها. وهنا يعن لى سؤال: هل الحياة المعيشة كما ألفناها لا تتسق مع القصص أم أن القصص هى التى لا تتواءم مع الحياة؟ ومن ثم يحدونى الرجاء يا صديقى أن تفسر لى هذه المشكلة المعضلة حتى تتضح لى الأمور.

والقصص الهادفة إلى إصلاح السلوك المعوج للكبار لا تختلف أحيانا عن نظيرتها الرامية إلى إثناء الصغار عن الشقاوة. وإليك الدليل: كان هناك رجل رقيق الحال يدعى "ميلينجر" كسب قوت يومه من صنع المكانس. وذات يوم ربح ٥٠٠ جولدن فى لعب اليانصيب. وتقع هذه القصة فى ثلاث صفحات. وجاء فى خاتمتها أن صانع المقشات العجوز استجدى من المارة ثمن ورقة اليانصيب، ثم أنفق ما ربحه من النقود على تعاطى الخمور. وتتبلور العبرة فى نهايتها غير السعيدة، إذ قضى نحبه فى ملجأ لمن لا مأوى لهم من المتشردين. وكما ترى، لم يذكر النص من أين جاء هذا الرجل. غير أنه من الواضح عدم تمشى القصة مع القواعد المعمول بها هنا، حيث إن ألعاب اليانصيب ممنوعة فى أمريكا أو هى نادرة الحدوث. لكن الرهان والقمار مباحان. وقد ربحت "ليزا" بضعة دولارات من المقامرة يوما ما، غير أنه مضى على ذلك وقت طويل أقلعت بعدها عن القمار نهائيا. وهى تعبر عن خبرتها فى هذا المجال بقولها: صحيح أن المقامرة شيء مثير، لكنه كثير ما يهرب منظموها بالحصيلة النقدية، وبذلك تذهب أدراج الرياح الآمال الوردية للمغشوشين.

يلوح لى أن تملك المال خير من الافتقار إليه. وعلى افتراض أننى أجلس، كما جرت عليه العادة، فى مزرعتى ومر بى أحدهم ليقول لي: ما رأيك لو أعطيتك مالا وفيرا، على أن تتنازل لى فى المقابل عن مزرعتك، وترتد معدما كما كنت فى بداية عهدك بالهجرة بدون ملكية أو حيازة. وسوف تكون إجابتى هى الرفض القاطع وأنا أقول لنفسي، ولا حتى لقاء مال قارون. وهذه هى قناعتى التى لا أحيد عنها، ذلك لأننى تقدمت فى حياتى وأثريت معتمدا على عمل يدى وليس على ألعاب اليانصيب أو القمار، ذلك لأنها مخاطرات غير مضمونة العواقب.

ومع هذا فإننى لا أعتبر هذا الضرب من الغرر عملا غير مشروع أو "خطية"، حتى لو ربح صانع المكانس العجوز ٥٠٠ جولدن وأنفقها على السكر عشر مرات. وبذلك يصبح من الصعب على كاتب قصص يوم الأحد أن يرضى أذواق كل الناس. وينطبق هذا القول بصفة خاصة على رجل من بين هؤلاء الناس تيبست مفاصله من جراء الجلوس طول فصل الشتاء، وثخن مخه من كثرة القراءة، ونخرت عثة الورق دماغه، على حد قول "ليزا".

سبق أن كتبت لك عن الحكايات الخرافية التى تدعو إلى التأمل والتفكير. الصديق العزيز، إن الاشتغال بالحكايات الخرافية فى أمريكا ليس بالأمر السهل، لأن الأطفال يسألون أحيانا عن أشياء تستعصى على الإجابة. ولا تشذ "ليزا" فى ذلك عنهم فى بعض الأحيان. فتحت الكتاب وبدأت أقرأ حكاية على مسامع "ليزا" والأولاد: يحكى أن كلبا سبح فى مجرى مائى وفى فمه قطعة من اللحم. فإذا بها تعقب بقولها: كان يتحتم على ربة البيت أن تصفق الباب خلفها منعا لدخول الكلب فى المطبخ. واصلت القراءة ولكن باللسان فقط، بينما خفق قلبى هامسا: صحيح إن الحكايات الخرافية تخاطب العقل بمغزاها، لكن ما قالته امرأتى حالا شيء معقول بالمثل. عدت إلى القراءة من جديد: نبش ديك فى كومة من الروث فعثر على لؤلؤة

ثمينة. فقالت "ليزا": يبدو أنه من الضرورى إدخال تعديلات على ذلك البيت لأنه يحتاج إلى ضبط وربط، فالكلب يحمل اللحم إلى خارج المطبخ، ويلقون بلؤلؤة ثمينة فى الروث. إنى أفضل على ربة هذا البيت امرأة أخرى مذكورة بالإنجيل(١)، لأنها ظلت تبحث عن قطعة النقود الضائعة حتى عثرت عليها، لأنها كانت امرأة مدبرة.

لكن استخفافها بالحكاية الخرافية أثار استيائى وحز فى قلبي، ولذلك عاجلتها بقولي: لا يا "ليزا" إن هذه المرأة لا تستوجب احترامى بصفتها آية أو قدوة تحتذى، لأنها عندما وجدت الدرهم الضائع، وأصبحت مالكة لعشرة دراهم كما كانت من قبل، بادرت بدعوة صديقاتها وجاراتها، وقالت افرحن معى لأنى وجدت الدرهم الذى أضعته. هكذا هتفت كما لو كانت قد عثرت على كنز. ولا ريب أنها قامت باستضافتهن، وقدمت لهن القهوة والفطائر والحلوى، فأنفقت الدرهم، علاوة على التسعة دراهم الأخرى، وربما أكثر. وما كدت أختتم كلامى الذى لم أحسن صياغته كما ينبغي، حتى شعرت بأنه لم تعد هناك فرصة لإعادة العرض أو للتراجع، إذ انقضوا على من كل جانب وقالوا: إن ما قلته يا أبتاه لا يتفق والسلوك المسيحى القويم. فقد ورد ذكر هذه المرأة بالإنجيل على أنها مثل ضرب للناس(٢). تلعثم لساني، ولم أحر جوابا، لأننى لم أجد ما أقوله.

وفى اليوم التالى قرأت على مسامع أسرتى الحكاية الخرافية عن "الضفدع والفأر": أراد فأر عبور عائق مائي، لكنه عجز عن عبوره لأنه لا يعوم. فطلب من

(١) قارن إنجيل لوقا ١٥: ٨-١٠. وجاء فى هاتين الآيتين: "..... أية امرأة ... إن أضاعت درهما واحدا .. تفتش باجتهاد حتى تجده...".

(٢) يعتقد المعرب أن العبرة فى "مثل الدرهم المفقود" لا تكمن فى القيمة المادية، بل فى القيمة المعنوية وهى الفرحة بعودة ما ضاع التى تماثل فرحة الملائكة "بخاطئ واحد يتوب" المصدر السابق.

ضفدع المشورة والعون فى تحقيق مأربه. [ولما كان النص يفترض معرفة القارئ للحكاية، فلذا أعد المعرب لمن لا يعرفها وتسهيلا عليه لفهم المعنى المقصود، ترجمة للنص الذى أعده "مارتن لوثر" عن الحكيم اليونانى "إيزوب" وقام بنقله إلى الألمانية عن الأصل اليونانى مصدر سابق].

حكاية الفأر والضفدع وموضوعها الخيانة(١)

أراد فأر عبور مسطح مائى فلم يستطع، فطلب من ضفدع المشورة والعون. كان الضفدع خبيثا فقال للفأر، اربط رجلك برجلى وسوف أعوم بك وأسحبك إلى الضفة الأخرى. وما كادا يبلغان صفحة الماء حتى غاص الضفدع متعمدا أن يغرق الفأر. ولما قاوم الفأر وجاهد طلبا للنجاة، طارت حدأة وانقضت على الفأر ساحبة الضفدع المربوط به إلى خارج الماء وفتكت بهما.

الدرس المستفاد: كن على حذر مع من تتعامل معه. فالعالم سمته الغدر والنفاق وحافل بالخيانة وعدم الوفاء. فإذا تمكن الخبيث من صاحبه أودعه جيبه وسيطر عليه. إلا أن الخيانة كانت توقع الخائن فى الفخ على مر العصور كما حدث للضفدع هنا.

ترجمها إلى الألمانية وذيلها بالدرس المستفاد

مارتن لوثر

---

(١) لوثر، مارتن: كتابات مختارة، مصدر سابق، ص ١٦٨.

قال أطفالي: بابا، لماذا لم يبق الفأر على البر؟ بابا، هل كان لدى الفأر خيط أم أن الضفدع سحبه من ذيله؟ بابا، إذا كانت العقدة محبوكة بعناية، فهل كان الضفدع يستطيع العوم؟ فسرت لهم مغزى تلك الحكاية الخرافية التى خلاصتها: أن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها. ولكنهم لم يرضوا عن شرحي، وقالوا: لم يكن الفأر مذنبا. ومع ذلك فقد التهمته الحدأة. أين هى العدالة يا بابا؟ لكن أسئلتهم أرهقتنى فتمتمت قائلا: مجنون من يتعدى تساؤله قدرة "الحكماء السبعة"[1] على الإجابة. وبذلك سارعت بمبارحة المكان. ووجدتنى بالخارج أقول لنفسي: حقا، إذا كنت أبا لأطفال فى أمريكا فلابد من حين لآخر أن يتصبب جبينك عرقا عندما تقرأ عليهم ترجمات "لوثر" للحكايات الخرافية.

ولذلك أقلعت لمدة طال أمدها عن ترديد الحكايات الخرافية على مسامع أفراد أسرتي. ولنفس السبب اتجهت بتؤدة إلى التحاور معهم حول الأمثال العامية الألمانية. وتشتهر بيئة الأمثال العامية بخفة الروح ولطف الحس بما تشتمل عليه من مفارقات طريفة، كما أنها تستوعب حكمة الشعب وثقافته[2]، ولها علاقة تمتد إلى أمثال سليمان الحكيم[3]. وعلى ما يبدو أن أطفالى نقلوا إلى عدوى التساؤل. إذ إنهم تطلعوا بعيون مغايرة لعيونى إلى شخوص الحكايات، سواء أكانت الضفدع، الفأر، الكلب أو الديك. ولكنى عندما أمعنت النظر فى الأمثال العامية بعيونى أنا، وجدت فيها مغزى أخلاقيا مثلما وجدته فى الحكايات الخرافية من قبل. غير أننى عندما عدت لفحصها بعيون أطفالي، لاح لى أن كلماتها سخيفة وعبثية بحيث يعجز المرء عن السير على نهجها فى الحياة، ولا حتى لمدة ٢٤ ساعة.

---

(١) "الحكماء السبعة" كناية عن أساطين الحكمة عند الإغريق، وهناك اختلاف على تحديد أسمائهم، وقيل أن منهم سقراط، أفلاطون، طاليس، فيثاغورس.... الخ.

(٢) فى النص الألمانى "حكمة الأزقة والحواري".

(٣) راجع العهد القديم، سفر الأمثال، ٣١ فصلا.

وأضرب مثلا على ذلك. سبق أن قلت للأطفال: مجنون من يتعدى بسؤاله قدرة الحكماء السبعة على الإجابة. ولكن أين هو ذلك المجنون الذى أوتى القدرة على احتمال أن يلتف من حوله سبعة حكماء ليشبعوه تفلسفا وهو صاغر، لأنه من المعروف عن حكماء الكتب كافة أنهم رجال مفوهون.

وفيما يلى بعض الأمثال الشعبية الألمانية وتعليقى عليها. "اللى ياكل عيش وملح تحمر خدوده"(١). وتعليقى هو أن أكل الخبز مع القديد أجدى نفعا. "ما تشتريش قطة وهى جوا الزكيبة". وأنا أقول: أمر طبيعي. فهذا شيء لا يفعله أحد، لأن المرء يحصل على القطط الحديثة الولادة كهدية فى الغالب. "الحصان الهدية ما تسننوش". وتعليقى هو أن المرء لن يفتح فم الجواد لأن أحدا لن يهديه حصانا. ولكن الأمر يختلف بالنسبة للقطط بداهة. ومع هذا يصر المثل الشعبى على أن القطة تباع وتشترى، فى حين جعل الحصان هدية تهدى. "اللى يكدب مرة محدش حايصدقه تاني". وتعليقى هو أن هناك الكثير من الناس الذين يعيشون طوال حياتهم على الكذب والغش والاحتيال ومع هذا فتجارتهم رائجة وأعمالهم رابحة. "الخرفان(٢) اللى بتستحمل بيملوا بيها الزريبة". وهنا أقول: وهل تجد الخراف الحليمة الصبر والسلوى على مرارة البلوى التى تعانى منها؟ لكن الخراف والكباش النافذة الصبر والملهوفة، التى اعتادت على النطح والركل، تجد الخدمة الرفيعة المستوى فى المتجر والقطار والفندق وكأنها الرئيس ذاته.

"الشاطر يصطاد الناموسة بالصبر والتفافة (البصاق)"(٣). ولا ريب أن ذلك الكلم المأثور يسرى فقط على العاطل عن العمل. وهو شيء لا نعرفه بالمزرعة. فالبعوض يتكاثر فى الصيف الذى لا أملك فيه فسحة من الوقت لكى أتخلص منه.

---

(١) وأسوق للمقارنة مثلا عاميا مصريا: "اللى ياكل فول ويمشى عرض وطول".

(٢) ويفهم من السياق إمكان وضع الحيوان الناطق محل الحيوان الأعجم.

(٣) وربما رجح المثل كفة الإسفاف على كفة الذوق لأن السجع جمع بين كلمتين هما "شبوكه" (بصاق/لعاب) و"موكه" (باعوضة) على حساب المعنى (الصيد).

أما فى الشتاء فيكون لدى وقت كاف، لكن البعوض يختفى فيه عن الأبصار. ومن ثم فإذا جاءنى أحد الحكماء ونصحنى أن أتبع ذلك المثل السائر، فهل ألتزم القعود وأتحلى بالصبر فأرطب يدى باللعاب من حين لآخر ليسهل كمشى للبعوض؟ ولك أن تتصور كيف سيكون تصرف "ليزا" والجيران إذا ما شاهدونى على هذه الحالة، فأغلب الظن أنهم سوف يرأفون بحالى ويحملونى إلى الفراش، على الرغم من تمتعى بكامل صحتى وعافيتي، لإسعافى بوضع كمادات باردة على جبيني. وعلى افتراض أننى كنت عند حسن ظن ذلك الحكيم بي، وأثبت فى ذلك اليوم جدارتى بتصفيتى الجسدية لـــ"قول كده قد عشر ناموسات"، فدلنى بالله عليك، ماذا أفعل بها؟

أجل، هكذا تكون الأمثال العامية عندما يراها المرء بالعين الأخرى. حينئذ يتكشف عدم تجذرها فى تربة الحكمة العملية، لما يعتريها من سذاجة وانزلاق إلى السفه، الأمر الذى يجعل المرء عاجزا عن الاستعانة بها فى تدبير شئون حياته. ولكن هل تعرف ماذا كان تعليق "ليزا" على ذلك؟ لقد قالت: كم أنت سعيد الحظ يا "يورن ـــ ياكوب" لاعتزامك حرث الأرض بعد غد. سألتها: لماذا تصفى استئنافى العمل بالحقل سعادة حظ؟ أجابت بقولها: لأنك سوف تقلع من جديد عن رؤية الأشياء بالعين الأخرى. فالكتابة بالقلم دون مبارحة الغرفة المغلقة أكثر إضرارا بالصحة من تخديد الأرض بالمحراث فى الهواء الطلق. وبذلك يمكنك الاستعانة بذلك الحكيم الوقور الملتحى فى توزيع الروث بالحقل. فهذا أجدى وأنفع من إلقائه المواعظ متنقلا من مكان لآخر، حيث اعتاد على قول الأمثال العامية تارة، وأبيات طويلة من الشعر الركيك أخرى.

تعجبت فى قرارة نفسى من قول "ليزا". فقلت فى همس لا يخلو من زهو وإكبار: إن ما قالته امرأتى حالا يكشف عن مغزى يجدر أن يتضمنه كتاب عن حكمة الشعب وثقافته. فهى تنظر إلى ما يجرى بعيون أخرى. وترى الأمثال العامية والحكايات الخرافية من واقع تجاربها وخبراتها فى البيت وفى المزرعة.

وكذلك تحكم على الأشياء وعلى الناس جميعا. ولهذا كانت رؤاها يقينية صائبة. وهو يقين جوانى لا براني، يقين ينم عن سلامة البصيرة، لا عن الانصياع لمؤثرات خارجية. وجدتنى أسأل نفسى بصراحة: لقد صاحبت "ليزا" كل هذه السنين دون دراية منك بقدرتها الكامنة على وزن الأمور. ولذا وجب عليك إشعارها بإعجابك واحترامك تقديرا لها. فهى تستمد يقينها من ذاتها ولا تحيد عنه يمينا أو شمالا.

الفصل الثانى عشر

إنه الحنين إلى الوطن أيها المهاجر

الصديق العزيز، كانت كل خطاباتى إليك فيما مضى عبارة عن خطابات شتوية. وها أنا ذا أتبعها الآن بخطاب صيفى نحيل وليس مثل سابقيه سميكًا. وقد تتساءل دهشا عندما تتسلمه: ماذا دهى تلميذى القديم؟ هل اعتلت صحته؟ إن حجم رسالته صار أعجف، وهو ما لا يتلاءم مع طبعه وعادته. لكن تمهل يا صديقي، إن ما أصابنى ليس مرضا يحتاج إلى استدعاء طبيب، بل هو إحساس دفين يفيض بالشجو والأشجان والقلق ولا يبشر ببرء أو شفاء. ولذلك سأكتب لك عنه.

جلست و"ليزا" عصر الأحد الماضى إلى المائدة وتحدثنا سويا فى هذا الموضوع وفى ذاك، كما جرت عليه العادة بيننا. ولم يمض طويل وقت حتى تغير مسار حديثنا فجأة ليعرج على قريتنا القديمة ومسقط رأسينا، كما جرت عليه العادة. لمع بذهنى خاطر كالبرق فقلت لها: ما هذا الذى يحدث يا "ليزا"؟ كيف يتأتى أننا ما نلبث أن نستهل حديثنا حتى يتحول رغما عنا إلى قريتنا القديمة؟ توقفت عن رفو الجوارب قليلا ثم نظرت إلى فى وداعة دون أن تنبس لتقول: إنه الحنين إلى الوطن يا "يورن ـــ ياكوب"! ماذا تعنى بذلك؟ قالت وهى تعاود النظر إلى فى صمت، أجل إنه الحنين إلى الوطن ولوعة الاشتياق إلى مسقط رأسينا حيث تمتد جذورنا فى تربته. أهذا هو الحنين الذى يتحدثون عنه؟ إننا لم نشعر به من قبل على الإطلاق. فمن أين هب علينا ليداهمنا دفعة واحدة وقد تقدمت بنا السنون فى هذه البلاد؟ وهل يكون حنينا إلى الوطن لمجرد الخوض فى سيرة قريتنا القديمة من حين لآخر؟ حدجتنى مرة أخرى بنظرة دون أن تنبس ثم تمتمت: لقد كان كلانا يعانى منه على مدار السنوات الماضية. قالتها بعفوية وخلو بال وكأن أحدهم يقول عند الغروب: لقد شارفت الشمس على المغيب.

تلعثمت وأصابنى الهلع مما سمعت حتى عجزت عن النطق. ثم التقطت غطاء رأسي "وعصا يومك سعيد" المصنوعة من خشب البلوط التى ورثتها عن أبى لكى أتوكأ عليها أثناء تجوالى لبضع ساعات بين الحقول. وهناك قلت لنفسي: "يورن ــ ياكوب" هل أنت تعانى حقا مما يسمونه الحنين إلى الوطن؟ إنه لا يصيب إلا أولئك المهاجرين الذين يصلون إلى المهجر وهم فى سن متقدمة ثم يفشلون فى تطويع أنفسهم على العيش فى العالم الجديد. أما أنت فتعيش فى هذه البلاد منذ ٤٨ عاما. فكيف يداهم الحنين إلى الوطن رجلا معمرا مثلك قضى تلك المدة الطويلة هنا؟ اضطررت للتوقف عن المشى لالتقاط الأنفاس ثم واصلت السير وتذكرت ملاحظة "ليزا" حين قالت: لقد كان كلانا يعانى منه على مدار السنوات الماضية. وهنا اضطررت للاستراحة ثانية وسألت نفسي: كيف تصاب بالحنين إلى الوطن وشريكة حياتك بجانبك تشد من أزرك كما أن أولادك ولدوا وشبوا وترعرعوا هنا؟ لقد شيدت لأسرتك هنا بيتا خاصا، وزرعت وحصدت فى أرض تملكها. ثم شخصت ببصرى إلى السماء وواصلت السير وأنا أهمس: كيف تصاب بالحنين إلى الوطن رغم كل ما لديك؟ لقد حققت ذاتك وأحرزت النجاح هنا فى أمريكا وليس فى ألمانيا، وهنا يسكن من حولك بنو جلدتك وبلدياتك، كما أن شمس الله تسطع هنا مثلما تسطع هناك فى وطنك القديم. إلام تحن إذن؟ هل يضنيك ألم البعاد عن الكوخ القديم المتداعى الذى كان مأواك؟ وهل تتحسر على الفقر الذى أناخ عليك بكلكله وأشقاك؟ وهل تتوق إلى التواصل مع وجوه شابة لا تعرفها لعدم الاحتكاك؟

واصلت تساؤلى ولاحظت من كثرة ما تساءلت أن لابد أن يكون فيما قالته "ليزا" عن حنيننا إلى الوطن شيء من الصحة. شيء لا علاقة له البتة بما حققته من النجاح فى المهجر، ولا بالفاقة فى الكوخ الآيل للسقوط بمسقط رأسنا. لقد حاولت جاهدا مقاومة لوعة الاشتياق إلى قريتنا العتيقة، لكن الحنين إلى الوطن كان أقوى منى وغلبنى. ذلك لأن مسقط الرأس والحنين إليه شأن معنوى كامن فى قرارة النفس وليس شأنا ماديا يعد بالدولارات.

استرحت من المشى مرة أخرى ووقفت ساكنا لأقول لنفسي: لكن روحك لا تزال تحوم حول كوخ العامل الأجير. ثم لا يزال هناك أهالى القرية الطاعنون فى السن. لقد كانوا أترابك الذين لعبت معهم فى أيام الصبا فى مراعى الكلأ المسماة "برينك" و"دريفت" أو "بلاست" و"دانين ــ كامب". ولما شببتم عن الطوق قمتم بحراسة الأبقار فى مراعٍ أبعد مثل "جولز" و"شتريشل". وربما يجلسون الآن خلف المدفأة أو أمام باب الدار يدخنون غلايينهم. أما إذا تمكنوا من رؤيتك الآن وأنت تجوب مهرولا فى حقولك هنا فى أمريكا فقد يقولون: "هو ماله واخد فى وشه كده وهو ماشى فى الغيط. عامل زى وابور الزلط نازل دهس وهرس فى البرسيم. بالذمه مش أحسنله برضه يرجع لبلده بقى علشان يآنسنا ونتونس بيه وناخد وندى فى الكلام معاه عن زمان وعن سيرة أيام زمان". وهؤلاء الجيران والمعارف يقطنون فى أكواخ الفلاحين بأسقفها الجمالونية المغطاة بالقش والبوص المقصوص. وهذه الأكواخ تقف فى أماكنها، فتبدو من الخارج عريضة بدينة، ومن الداخل دافئة مريحة، وقلما تشعر بمثل ذلك الجو المريح فى بيت بالولايات! ناهيك عن كم القصص الشيقة التى يستطيع الفلاحون روايتها! ولكنى أتساءل، هل أولئك الصبية الذين يولدون بتلك الأكواخ ثم يغادرونها يقتدون بهؤلاء المعمرين، وفى مقدمتهم بالطبع معلمك السابق؟

لقد شاخ الناس وهرمت الأكواخ ولاحت لوائح الشيب فى كل مفرق، لكنك مازلت لا تستطيع نسيان القرية التى اكتحلت برؤيتها عيناك فى طفولتك وصباك. وها هى صورتها التى تعيش فيك يتنامى نفخ الحياة فيها عاما بعد عام فتنطبع فى مخيلتك أكثر كبرا وإشراقا. وتنعم بالارتياح والانشراح حال التفكير فى الوطن الذى ألفت التوسد على وثارة ذكراه. ويعود إليك الشباب أحيانا فى هذا السن المتقدم وفى ساعات معاناتك. حقا إنها لخواطر وأفكار أنى لك أن تلمسها باليد، ولكنها مع هذا حاضرة فى الذهن. وأمريكا لها حسنات ومزايا لا ينكرها إلا جاحد، ولكنها

تفتقد إلى مثل هذه الخواطر والأفكار المتوقدة فى الأذهان. فليس لدى أمريكا وقت للتبصر وإمعان النظر. ولذلك ظلت عليك غريبة حتى تندمج فيها اندماجا حيا عميقا.

وقفت مرة أخرى بلا حراك طلبا للراحة وقلت لنفسي: إذا كانت تلك الخواطر تشكل توصيفا لألم البعاد، فإن الحنين إلى الوطن ليس مرضا. ولوعة الاشتياق إلى الوطن هى خير ما يصحبه الإنسان معه من مسقط رأسه. وبذلك يظل الوطن هو أفضل ما يبقى للإنسان على ظهر البسيطة. وسواء استعان المرء بأجنحة إلهة الشفق[1] أو عبر نصف الكرة الأرضية من أجل العمل كمزارع فى "أيوا" لقرابة ٥٠ عاما، فإن جذوة تعلقه بوطنه لا تخبو أبدا، لأن ارتباطه بالوطن أشبه بشجرة وارفة، جذورها ممتدة فى أرض ميلاده، وفروعها متسلقة فى سماء مهجره وموطن معاشه. ولا توجد قوة على وجه الأرض أقوى من ارتباط المرء بوطنه ومسقط رأسه.

عدت أدراجي. وعندما أبصرت المزرعة من أمامى تدافعت الأسئلة فى رأسى من جديد، بينما عجلت لهثات الشمس الأخيرة بالظلام، وكان قد أدركنى التعب والإجهاد. لمحت "ليزا" تنتظرنى عند سور المزرعة، ونادتنى قائلة: حمدا لله على عودتك سالما، فقد تسربل الجو بالقتامة، ودنا الليل، وحانت ساعة عودة المرء إلى داره. أخذت يدها برفق وقلت لها: الحق معك، فعندما يأتِى المساء يحين وقت الرجوع إلى البيت. ولكن أين هو بيتنا؟ كنت أظن أنه هنا بالمزرعة حيث تعيشين معي. لكننى أصبحت فى حيرة من أمرى وضللت سواء السبيل. قال: إن ابننا "هانز" سوف يقوم خلال هذه الأيام بتشوين الحشائش الجافة الموجودة بمرعى "دريفت هيل" جهة الجنوب، وهى لا تزيد على حمولة بضع عربات. أما أنت فستبقى فى البيت لتكتب رسالة إلى معلمنا الجليل فى غضون الأيام القادمة. إن كثرة التأمل وانشغال البال لن تجديك نفعا. نعم، هذا هو ما سوف أفعله، إنها لفكرة صائبة حقا. ولكنى سوف أراجع الكتاب المقدس قبل ذلك بحثا عن فقرة تشير إلى

---

(١) إلاهة الشفق هى "أورورا" عند الرومان و"إيوس" عند الإغريق.

الحنين إلى الوطن من عدمه. الصديق العزيز إننى لم أوفق فى العثور على ضالتى المنشودة فيه. ولذلك ينبغى أن تكون معلمنا هذه المرة أيضا، وأن نعود نحن لكى نصبح تلامذتك القدامى كما كنا فى سالف العهد. ومن ثم يحدونا الرجاء أن تفسر لنا معنى الحنين إلى الوطن، حتى تنير لنا الطريق برأيك السديد.

إن الحياة تسير فى نهاية الأمر وفق نظام محكم، إذ يشعر الإنسان بلكزة من داخله عندما يطعن فى السن. حينئذ يكون من حين لآخر مضطرا للجلوس أثناء المشى لالتقاط الأنفاس، كما يكون لديه متسع من الوقت للتأمل والتفكير فى جوهر الأمور وفى الكيف والقيمة. وكنا "ليزا" وأنا، نحرص خلال الأعوام الماضية على إمعان الفكر واستبطان الأمور، ولكننا كنا ما نكاد نغوص فى أعماقها أحيانا حتى نروح فى إغفاءة ونستسلم للنعاس. أما هذه المرة فنحن فى أزمة نفسية حقيقية لا قبل لنا بها، بعد أن ضعف بصرنا وأصبحنا نتخبط فى ظلام دامس. وبذلك لم يعد أمامنا إلا أن نسألك الاستجابة لمطلبنا بأن تدلنا على مخرج من التيه الذى نحن فيه.

الفصل الثالث عشر

خطاب المعلم طى الموعظة على الجبل!

الصديق الأعز. وصفت "ليزا" خطابك الأخير بأنه خطاب بديع. ثم دفعتني دفعا إلى التعجيل في كتابة الرد بقولها" "بس متعوقشي في الكتابة واشكره على سرعة الاستجابة". وهذا هو بالضبط ما أفعله الآن وأنا في غاية البهجة والامتنان. فخطابك يشتمل على عبارة عظيمة الدلالة تقول: "طوبى(*) للآنعين بالشوق إلى الوطن لأنهم إليه يعودون". وهي كلمات تكاد تضاهي في بلاغتها ما نادى به النبي القديم ذات مساء وهو يعظ شعبه أثناء سيره على الجبل. هرعت لمراجعة الكتاب المقدس لعلى أجد لكلمات المعلم في "الموعظة على الجبل"(١) نظيرا. لكنني لم أعثر لها على أثر بين الآيات التي تعدد المطوبين والمباركين(٢). بادرتني "ليزا" بقولها: "يورن ــ ياكوب" إني أستشف من كلمات المعلم أنها تعني الأوبة إلى وطن لا يمت للوطن الأرضي بصلة.. وطن معناه العودة إلى مآب سماوي يومض من بين السحاب كأنه "الكوكب النير"(**) الذي يسطع لياحا في سماء ليل أرخى سدوله.

(*) ورد في معجم "لسان العرب" أن "طوبى" فعلى من الطيب وتعني "حسنى لهم" و"خير لهم". كما أنها مذكورة في القرآن: "الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب" سورة الرعد ٢٩. وتذكر ترجمات حديثة للإنجيل أن طوبى كلمة سريانية أو عبرية معناها الهناء والسعادة، وأنها مرادفة لـــ"هنيئا".

(١) راجع إنجيل متى ٥: ٣-١١، وهناك إشارة إلى المساكين، المحزونين، الودعاء، الجياع، المضطهدين...الخ، الذين أجرهم في السموات عظيم ــ المصدر السابق ٥: ١٢.

(٢) راجع المصدر السابق وإنجيل لوقا ٦: ٢٠-٢٣.

(**) الكوكب النير هو "كوكب الزهرة" عند العرب (من "الزاهر" أي "الأبيض النير") و"فينوس" عند الإغريق. وهو يعد أسطع جرم سماوي في سماء الليل بعد القمر مباشرة. ويعرف بأنه توأم الأرض لأن حجميهما متساويان تقريبا، كما أنه الأقرب للشمس. وهو أحد الكواكب الملاحية الخمسة (زحل، الزهرة، عطارد، المريخ، المشتري) لاستخدامها في توقيع مكان السفن أثناء إبحارها في أعالي البحار، والتي يمكن رؤيتها بالعين البصرية المجردة.

فكرت مليا فيما طرحته زوجتي، بعد أن لمع خاطرها بذهنى كالبرق، إذ وجدت فيه رأيا يسترعى الانتباه، فقلت لها: أصبت يا "ليزا" فى هذه المرة أيضا. فالمرء يمكنه قراءة كلمات المعلم على أى وجه يريد، وإذا به يخلص دائما إلى أنها كلمات تطيب الخاطر، وتجود عليه بالعزاء والمواساة، فضلا عن ذلك الشيء الذى ينبعث منها ويستعصي وصفه، ورغم هذا تجد فيه النفس طمأنينة وسكينة وأنسا. ويلوح لى أن مثال كوكب الزهرة الذى ضربته "ليزا" يتوافق تماما مع ظروف اثنين طاعنين فى السن مثلينا، استغلق عليهما الاهتداء إلى أين المستقر. فبعد أن اهتدينا إلى ما وراء ذلك الكوكب السيار الزاهر أصبحنا لا نتخبط خبط عشواء فى ظلام بهيم، ذلك لأننا اتخذنا من كلماتك نبراسا يهدينا سواء السبيل. لقد أصبحت الطريق واضحة أمامنا لا لبس فيها أو إبهام، وهيهات للقلب أن يجفل بعد ذلك أو أن يوجس خيفة. فكلماتك تمس شغاف قلب الإنسان لأنها كلمات قيمة طيبة وليست بالسوقية الهابطة. صحيح أنها مقتضبة، إلا أنك أجزلت لنا بها العطاء. فتقبل من صميم قلوبنا جزيل الشكر وعظيم الثناء.

لذلك نعتقد أن الأمور الأخرى سوف تسير على خير ما يرام أيضا.

- ألم تكتب لنا: إنكما سوف تتشاوران فى أموركما، وسوف تتوصلان سويا إلى الحل الملائم متى يحين الوقت. إنك محق فيما كتبت بدون شك.

- الم تكتب لنا: إننى معكما بكل حسى ووجدانى فى كل ما تخططان له وفى كل ما تقرران. لقد أسعدتنا بما قلت.

- ألم تكتب لنا: إذا نصحتكما بالعودة، فماذا سيكون وقع ذلك على أولادكما؟ الصديق الأعز، أحيطك علما بأن ابنى الأصغر أصبح أفضل منى فى إدارة شئون المزرعة، التى سوف تكون من نصيبه. كما قرر ابنى الأكبر مواصلة عنايته بمرضاه. أما ابنتى "بيرتي" فسوف تكون بصحبتنا. هذا إذا لم ترشح لنا الشخص المناسب للزواج منها.

- وأخيرا، ألم تكتب لنا: أنصحكما بالتفكير فيما سوف يقوله رئيس بلادكم؟ ألن يقول: كيف يسمح لنفسه ذلك المعلم العجوز أن يحرض واحدا من أفضل المزارعين فى ولاية "أيوا" على مغادرة أمريكا؟ الصديق الأعز، أصدقك القول بأننى لا أعبأ على الإطلاق برأى الرئيس فى هذه المسألة التى تخصنى وحدى، لأنه إذا كان قد قال ذلك بالفعل، فأنا أعتبره تدخلا فى شأن لا يعنيه. لقد أرهقنى التعب بعد عمر أفنيته فى العمل الشاق، وصرت أجِدُّ فى البحث عن راحة البال. وربما فضلت أن أجدها عندكم فى القرية القديمة منها هنا فى العالم الجديد.

إنك تكتب عن رغبتك فى اللقاء، وعن تطلعك إلى رؤيتنا بالابتهاج. وكذلك عن الرجوع بذاكرتك إلى محطات عمرك المديد. هذا بخلاف حديثك عن أجيال من تلامذتك القدامى الذين مازلت تتواصل معهم فى السراء والضراء، فى الوقت الحاضر وإلى الأبد. لقد أدخلت بما قلت السعادة فى قلوبنا.

- إلا أنك كتبت أيضا عن تنحيتك لعصا التجوال جانبا، كما تحدثت عن الأجل المحتوم، فأحزنت بذلك قلوبنا.

- صرت ألح على "ليزا" بقولي: دعينا نكر عائدين إلى مسقط رأسنا. لكننا مازلنا لا نستطيع التنبؤ بالموعد الذى تتحقق فيه عودتنا المأمولة. غير أننا أصبحنا نعرف الآن أين تقع تلك الدار. لقد دلنا معلمنا مرة أخرى إلى الطريق إليها. ومعلمنا هو واحد من أولئك الناس اللائعين بالشوق إلى المئاب، غير الهيابين من دار القرار التى تومض مثل الكوكب النير من بين السحاب. أما تلك العبارة العظيمة التى تضمنها خطاب معلمنا، فيلوح لى أنه قد كتبها بدم القلب. وإذا قدر لنا رؤية محياه ولو مرة واحدة، لكان ذلك منة من الله يسبغها علينا ونتلقفها حامدين شاكرين.

- والآن أوفيك التبجيل يا معلمى وأضع خطابك طى الموعظة على الجبل فى بشارة متى حتى يكون فى متناول أيدينا على الدوام.

تحياتنا إليك مقرونة بخفقة من أرواحنا

ملحق الشروح والصور لتوضيح المضمون

إعداد المترجم

القرية التى نشأ فيها بطل القصة

وهى قرية "فندية" على هيئة حدوة حصان فتحتها جهة الغرب

[الرسم التوضيحى، انظر قائمة مصادر الصور، المصدر رقم ٧]

كانت أسرة بطل القصة تسكن فى القرن الـ١٩ فى بيت كهذا فى إمارة "ميكلينبورج" الألمانية وهو عبارة عن مجمع سكنى مقسم إلى وحدات لإيواء عدد من الأسر الفقيرة. وجدران البيت أو الكوخ مسيجة بقواطع خشبية، وكانت فراغات الهيكل بين القواطع تملأ بالقش وبالطين المؤلف بينه تبن ثم تسوى من الجانبين بالمسطرين وتطلى بعد ذلك بالجير. أما السقف فمن القش والبوص المقصوص على هيأة سنم يكاد يلامس الأرض.

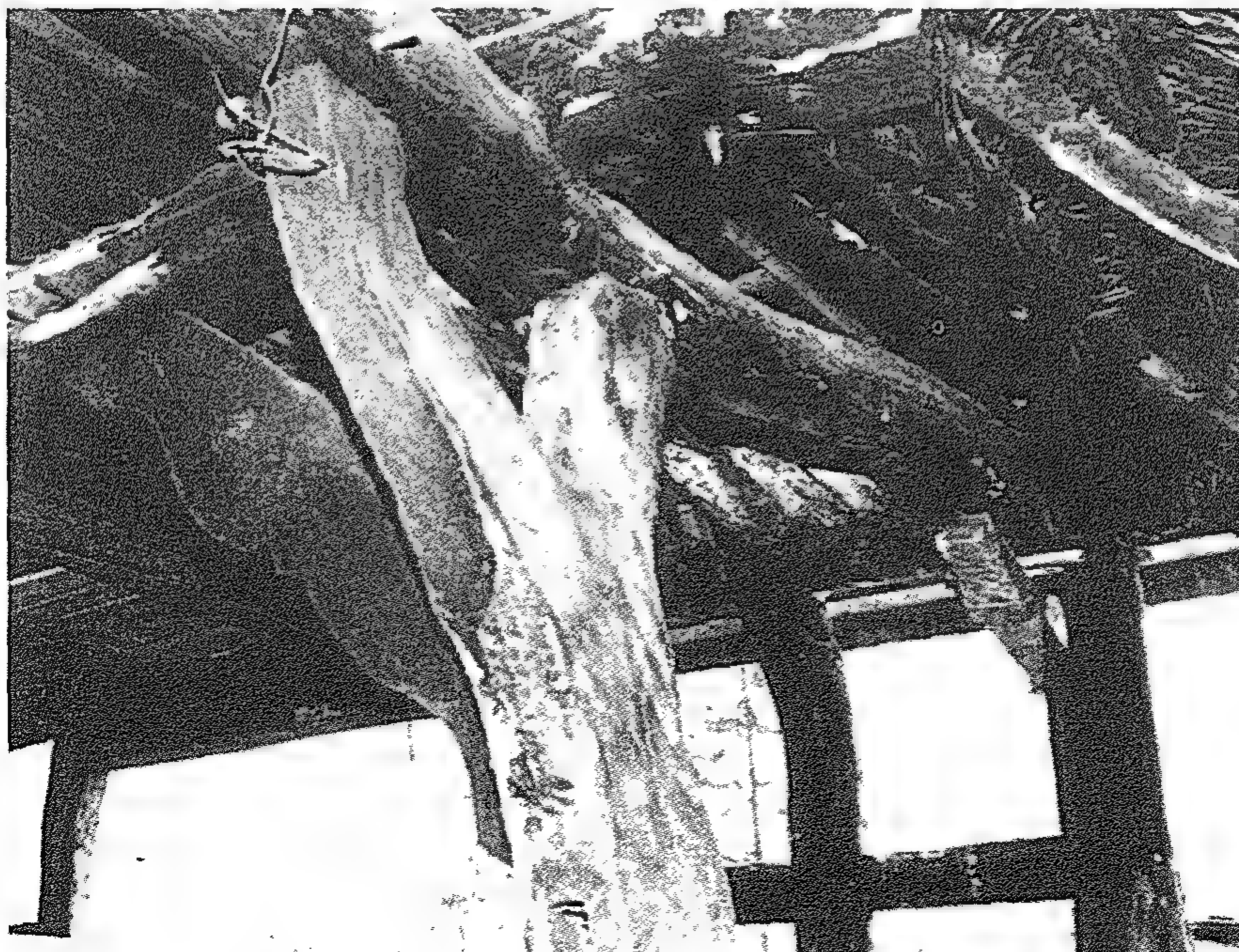


دريئة لتجفيف الحطـــب الأخضـــر
الضروري للتدفئة بتهويته بعد تقطيع
الشجر ولحمايته من العوامل الجوية



[انظر المصدر رقم ٦]

بيت ميكلينبورجى قروى مسيجة جدرانه بعروق الخشب



تم دعم تعريشة السقف الخشبى بقوائم حاملة تسمى "الرجل القوى"

[أيام زمان: صورة من داخل بيت قروى عتيق]

تملأ فراغات الجدار المسيج بقواطع خشبية بلفافات من القش

ثم تسوى بالطين المملوط بالتبن ويطلى بالجير الأبيض



[انظر المصدر رقم ٦]



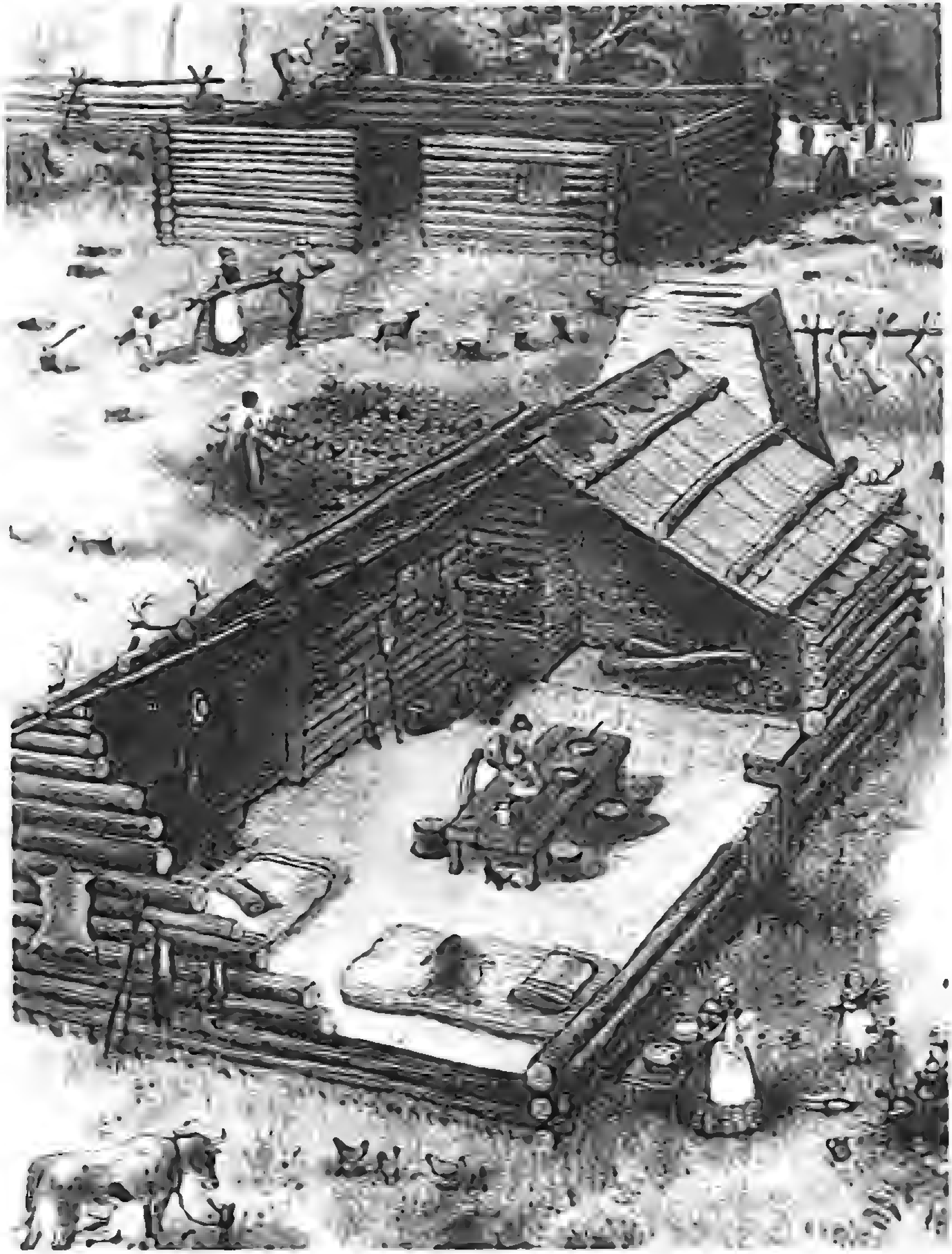
"بروباجنده" ضد الهجرة إلى أمريكا:

أتريد ترك السكن بمنزل فى ألمانيا العالم القديم، لتسكن فى كوخ من جذوع الشجر بالعالم الجديد ؟



(صدرت فى "كالندر فوس أون هاس" سنة ١٨٧٥)

[انظر المصدر رقم ٨، صفحة ٢٥]



رسم توضيحى لبيت أمريكى لسكنى المستوطنين المهاجرين

فى القرن الــ١٩ يسمى "بلوك هاوس" وهو مشيد من جذوع الشجر

[انظر المصدر رقم ٥، صفحة ٢٢ و ٢٣]



جيلهوف الأب

معلم القرية بمدرسة جلايسين

الذى راسله تلاميذه القدامى من أمريكا

وخامة القصة عبارة عن رسائل بطلها



جيلهوف الأم

كتب جيلهوف الابن فصل

"الأم على فراش الموت"

عن موتها هى وكأنه

يصف موت أم بطل القصة

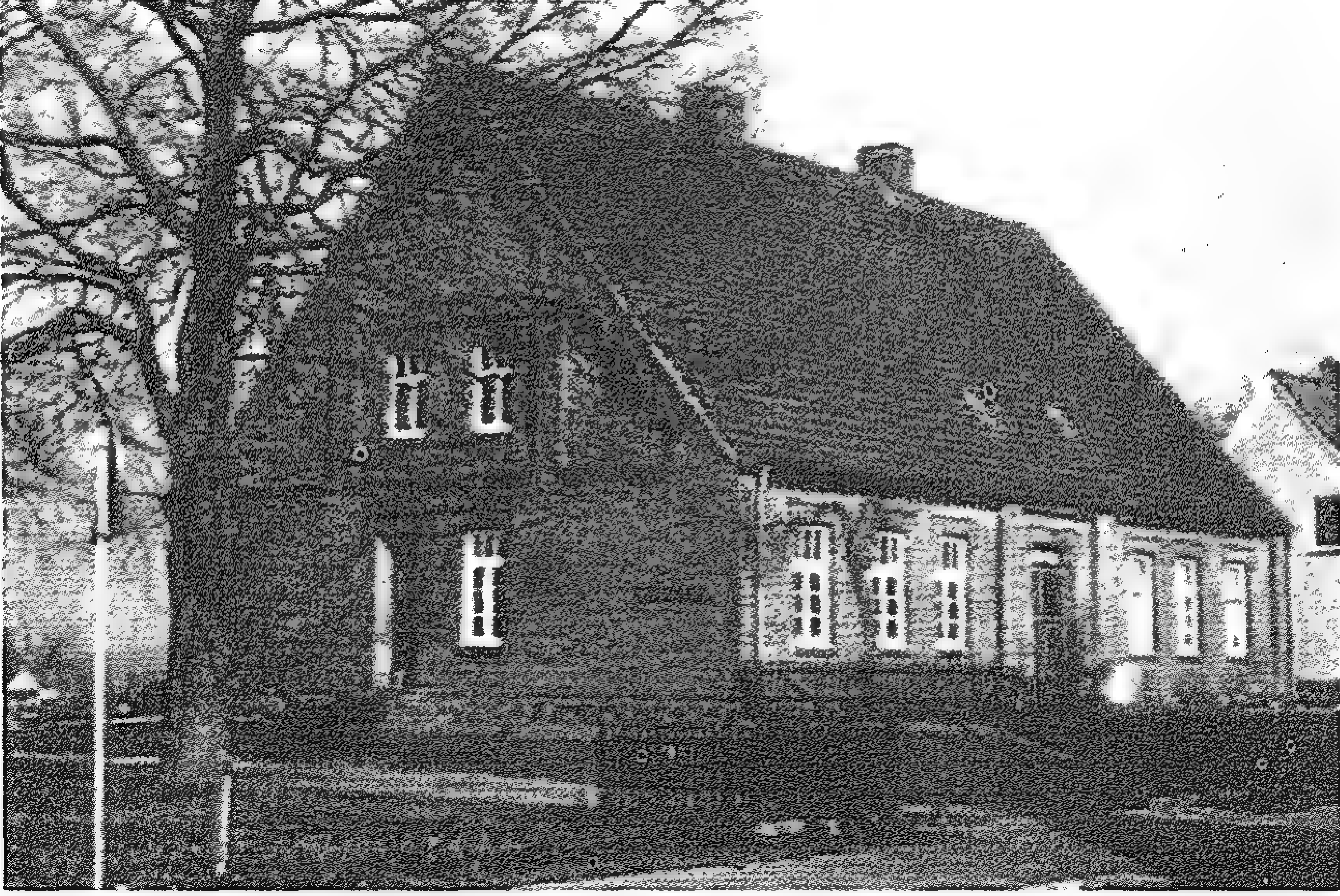


جيلهوف الابن

"يوهانيس جيلهوف" مؤلف القصة:

الكاتب الفنان والتربوى الضليع فى

الدراسات الشعبية ذات التوجه اللغوى



مبنى المدرسة بقرية جلايسين

كان يشتمل على مسكن أسرة جيلهوف، ناظر المدرسة أما اليوم
فقد تحول إلى متحف لتخليد ذكرى الابن يوهانيس جيلهوف مؤلف القصة

[انظر المصدر رقم ٧، صفحة ١٦]



أسرة "يورن– ياكوب سفين".

الصف الأول من اليمين: الأم "ليزا"، الابنة "بيرتى" والأب "يورن– ياكوب سفين". الصف الثانى فى الوسط: الابن الأصغر الذى تولى شئون المزرعة، والأكبرالذى أصبح طبيبا. ولم تذكر القصة الابنتين فى طرفى الصورة.



البيت الذى شيده بطل القصة فى المهجر
بعد تركه للكوخ المشيد من جذوع الشجر.

[الصور من متحف جيلهوف فى جلايسين]

آلة الأرغن:

آلة الأرغن هى أكبر وأقدم الآلات الموسيقية المحكمة التصميم والبناء. لذلك اشتهرت بأنها "سلطان المعازف". وغالبا ما تشتمل الكنائس الغربية، دور الأوبرا وقاعات الموسيقى على إحداها لعذوبة ألحانها الرصينة الخاشعة فضلا عن مصاحبتها للكورال فى الترانيم.

عرفت هذه الآلة بمصر منذ القرن الثالث قبل الميلاد كآلة أرغن مائى (هيدراليكى). وقد دلل على تعدد وجودها فى مصر كسبق تقنى Ktesibios "كتسبيوس السكندرى". كما عثر المترجم على آلة من هذا النوع بعد تطويرها على مر القرون والسنين فى "فيلا دى إستى Villa d'Este" التى تشتمل على حدائق غناء يتخللها العديد من الشلالات والمجارى المائية الاصطناعية وذلك بالعاصمة الإيطالية روما [ويجد القارئ صورة خاصة بملحق الصور].

ويرجع الفضل إلى آلة الأرغن أن وجدت الموسيقى طريقها إلى الكنائس فى الغرب. وقد ثبت وجودها فى أوربا، بما لا يدع مجالا للشك، منذ منتصف القرن الـ١٥. ومن ثم فهى تعتبر أقدم آلة موسيقية ما تزال فى الخدمة إلى يومنا هذا. وحتى لو غضضنا البصر عن آلة الأرغن المائى التى اخترعت بمصر قبل ظهور المسيحية بثلاثة قرون، فإن سائر آلات الموسيقى التى تعمل بتدفق تيار الهوائى الاهتزازى فى إنتاج النغم هى آلات "إيروفونية". وآلة الأرغن والأكورديون مثالان للآلات الإيروفونية، إذ تعتمدان على تدفق الهواء ميكانيكيا. وقد مرت خلال الألفى عام الأخيرة أهم مراحل تطور آلة الأرغن لتصل إلى شكلها الحالى. ومن أهم ما أدخل عليها خلال تلك الحقبة من التجديدات ثلاثة: (١) اللوح المثبتة عليه المفاتيح التى تشبه أصابع البيانو، (٢) مفاتيح ضبط الهواء (ريجستر) و(٣) تطوير تقنية الآلة ذاتها. ويقال أن أول وصف لآلة الأرغن الإيروفونية التى اعتمدت على المنافخ فى تدفق تيار الهواء المستمر، عوضا عن الالتزام بمبدأ إزاحة الهواء بقوة دفع الماء، ترجع إلى القديس "هيرونيموس" الذى اخترعها سنة ٤٠٠ بعد الميلاد

فى أورشليم (القدس)، وقد استخدم فى بناء آلته: ١٢ صفارة من البرونز، صفارتين من العاج، علاوة على جلدى فيل و١٥ منفاخاً، مثل منافخ الحدادين. وكان صوتها يسمع على بعد ميل.

ويرجع تاريخ الشروع فى بناء آلة أرغن الصفارات إلى القرن ١٥. وهو لم يختلف اختلافا كبيرا عن مثيله اليوم. لكن اللوح المثبتة عليه المفاتيح (الشبيهة بأصابع العزف فى البيانو)، كانت فيه الأصابع، قبل اتخاذها الشكل الحالى، أعرض بمقدار عدة سنتميترات، ولذا استحال العزف عليها بأصابع اليدين، بل كان ضارب الأرغن مضطرا لاستخدام قبضة اليد أو الكوع. وبعد التوحيد الدولى لطول وعرض المفاتيح (أصابع العزف) فى القرن ١٩، لم يتغير شكل ما يعرف اليوم بالـ "كلافياتور". وقد عمل تحديد المواصفات المعيارية لمقاييس الأصابع على اللوح المثبتة عليه المفاتيح، علاوة على إدخال تحسينات أخرى، على سهولة وتعدد إستعمالات آلة الأرغن.

واللوح المثبتة عليه المفاتيح متصل بصندوق الهواء الذى يتدفق من تيار الهواء المستمر إلى مجاميع الصفارات المتنوعة، بحيث إذا ما عزف ضارب الأرغن على لوح المفاتيح البيضاء والسوداء اللون تصدر النغمات المطلوبة وفقا للمعزوفة. أى أن النغم يستلزم تدفق تيار الهواء باستمرار طالما استمر ضارب الأرغن فى العزف.

وفى آلات الأرغن الحديثة يتم ضخ الهواء بالاستعانة بقربة المنفاخ آليا بالكهرباء. أما آلات الأرغن العتيقة التى عفى عليها الزمن، فكانت تحتاج إلى عامل المنفاخ، لكى يضخ الهواء بتحريك بدال معين خارج الآلة بالدوس عليه بالقدم (وأحيانا باليد)، الأمر الذى كان يحتاج إلى مجهود عضلى وإلى تقنين عدد مرات الدوس. ويعنى هذا أنه إذا ما توقف عامل المنفاخ عن الدوس على البدال لأى سبب كان، يتوقف على الفور سماع النغم حتى لو واصل العازف تحريكه للأصابع على لوح المفاتيح، تماما مثلما لا تعمل الأجهزة الكهربائية بانقطاع التيار عنها. أسهبنا

فى شرح هذه النقطة لأنه فى فصل "كنيسة وقسيسون" فى القصة بين أيدينا يدور عراك طريف بين عازف الأرغن وعامل المنفاخ حول من يكون منهما الأهم عند عزف الألحان الدينية فى القداس.

وتبعا لحجم آلة الأرغن يكون عدد الصفارات المقسمة إلى مجاميع متنوعة ومتماثلة الصنع. وربما يشتمل أكبرها حجما على آلاف مؤلفة من الصفارات [وتعتبر آلة الأرغن بكاتيدرائية "باساو" بجنوب ألمانيا أكبر آلات الأرغن فى العالم]. أما أصغرها فربما تشتمل على ٦٠٠ صفارة أو أقل.

كما تشتمل آلة الأرغن على مفاتيح ضبط الهواء المتدفق (ريجستر) وغيرها من الضواغط لمضاعفة الصوت أو إضعافه أثناء انسياب النغم، حتى يتوافق اللحن مع الترانيم أثناء أداء الصلاة فى قداس أيام الأحد وفى الأعياد.

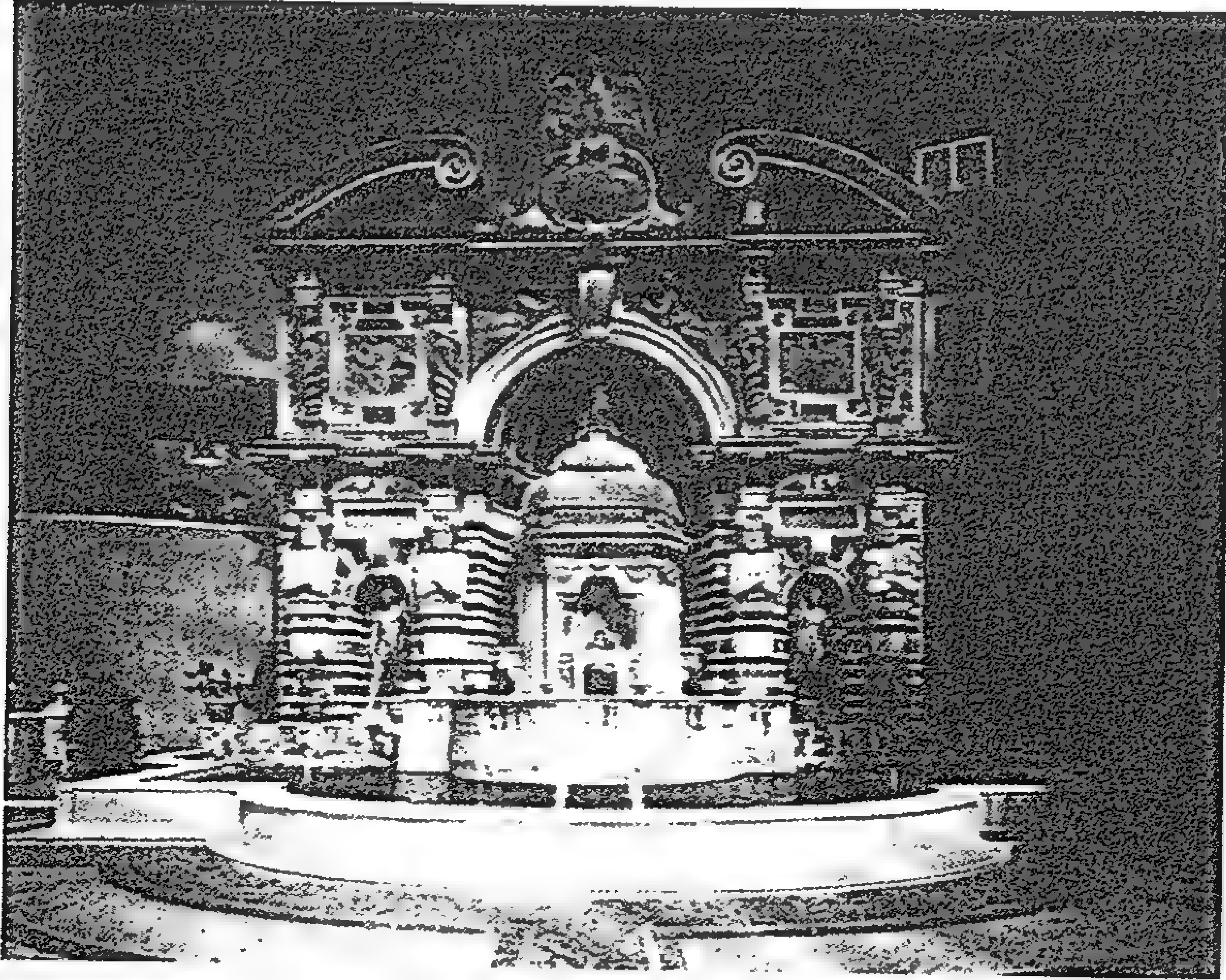
وقد اشتهرت ألمانيا بخبراء عظام فى بناء آلات الأرغن. ويوما ما فيما مضى بلغ عددهم فى ولاية "سكسونيا" وحدها أكثر من مائتى خبير. ونذكر منهم على سبيل المثال "جوتفريد زلبرمان" الذى بنى آلة الأرغن التى عزف عليها الموسيقار الأشهر "يوهان سباستيان باخ" (١٦٨٥– ١٧٥٠).

وتجدر الإشارة إلى انتقال آلة الأرغن فى القرن الثامن الميلادى من بيزنطة إلى أراضى الفرنجة، حيث بدأت رحلة تطويرها وتحديث بنائها وانتشارها. وكلمة أرغن مشتقة من مصطلح "أورجانون" باليونانية، وتعنى "عِدَّة". وبعد حرب الثلاثين عاما فى أوربا (حتى ١٦٤٨) اتجهت الكنيسة البروتستانتية الألمانية، بصفة خاصة، إلى إنعاش الموسيقى الدينية بالكنائس، الأمر الذى أدى إلى ازدهار آلة الأرغن وسيادتها خلال القرن ١٧. لو علمت أن المصلح الدينى "مارتن لوثر" هو الذى استحدث الغناء الجماعى (الكورال) كجزء هام من الصلوات فى القرن الـــ١٦ والذى تقدم كثيرا على يد الموسيقار باخ الأب.

المترجــم

الأرغن المائى اختراع سكندرى الأصل

تطور فى أوروبا (إيطاليا)



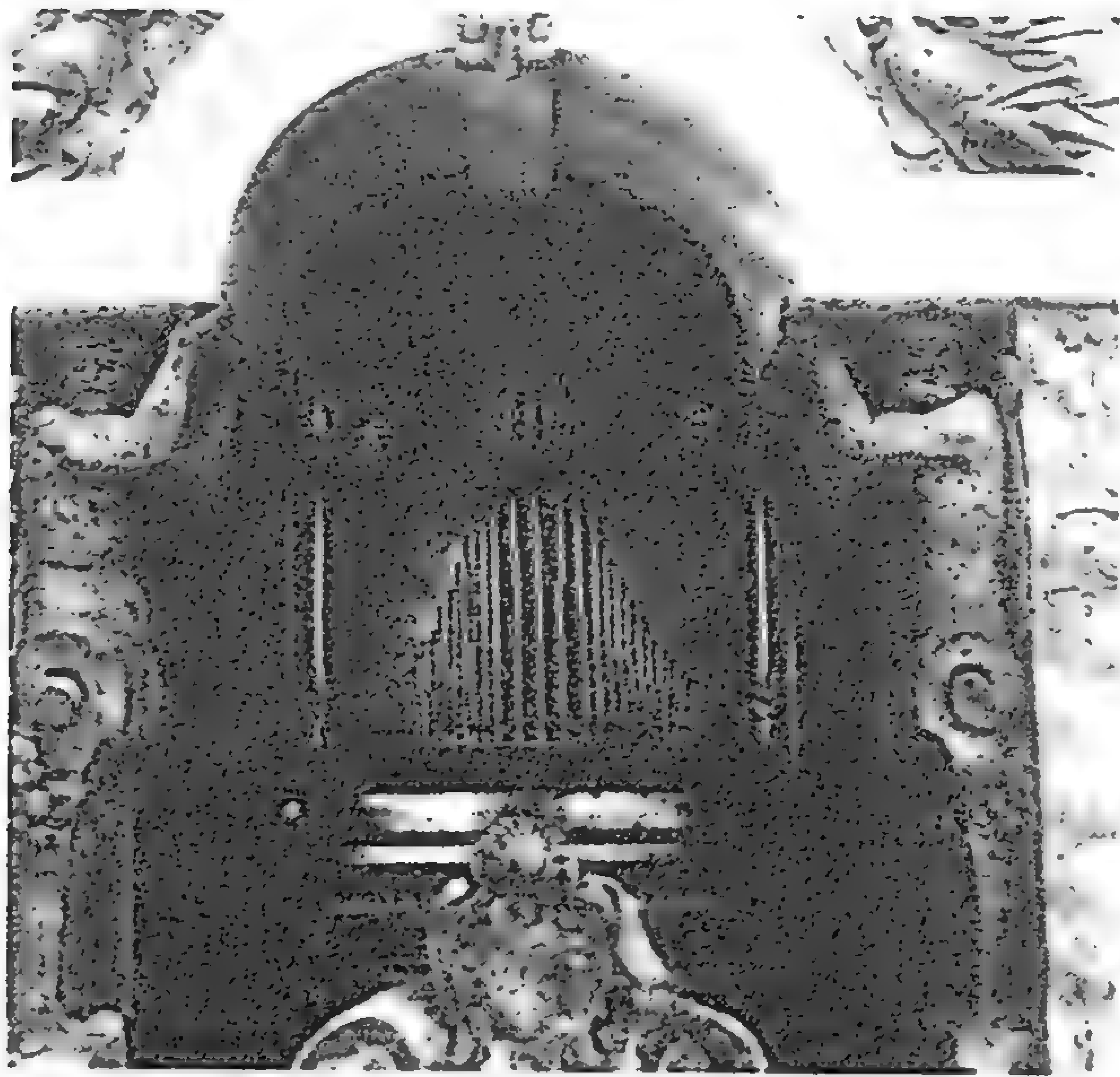
شكل عام للأرغن المائى فى روما

آلة الأرغن المائى

وهى اختراع لمصرى يونانى اسمه "كتسبيوس السكندرى"

يرجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد

والصورة لآلة متطورة من هذا النوع تعمل بمبدأ إزاحة الهواء بقوة دفع الماء موجودة فى روما بـــ "فيلا دى إستى"

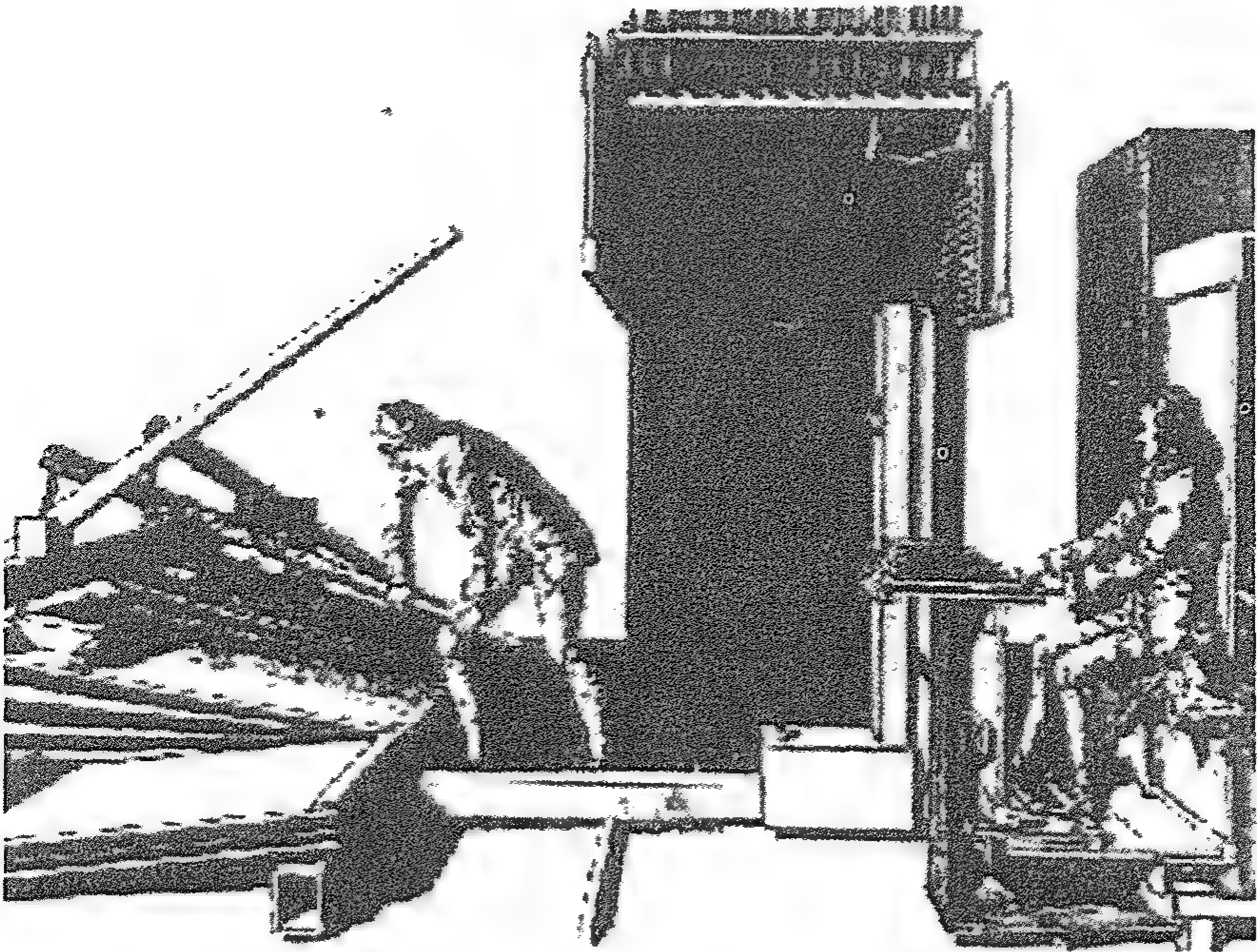


شكل جزئى لنفس الأرغن المائى المتطور

[صورة التقطها مصور خاص]

تشغيل آلة الأرغن العتيقة تحتاج إلى عازف وعامل منفاخ

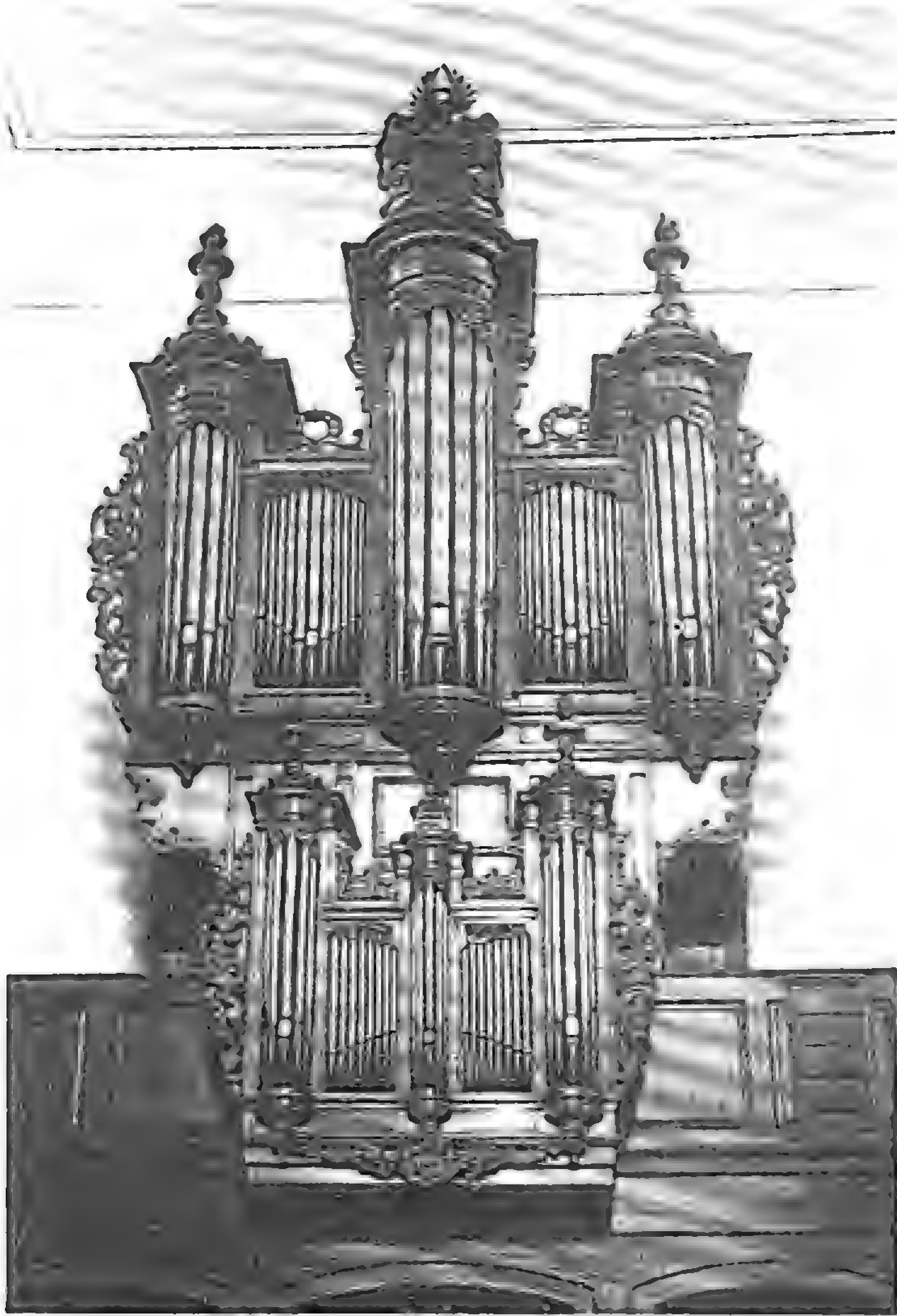
(صورة تاريخية مجهولة المصدر) .



صورة من القرن الـ ١٨ تبين العازف على آلة الأرغن

ومساعده عامل المنفاخ

[هنا النفخ باليد وليس بالقدم كما فى القصة]



آلة أرغن حديثة

فى كنيسة إنجيلية فى Bouxwiller بمنطقة الإلزاس الفرنسية

[صورة خاصة]



آلة الأرغن العتيق:
عازف الأرغن يعزف على اللوح المثبتة عليه المفاتيح الشبيهة بأصابع البيانو والأزرار الستة من أمامه هى لمفـــاتيح ضبط الهواء (ريجستر)

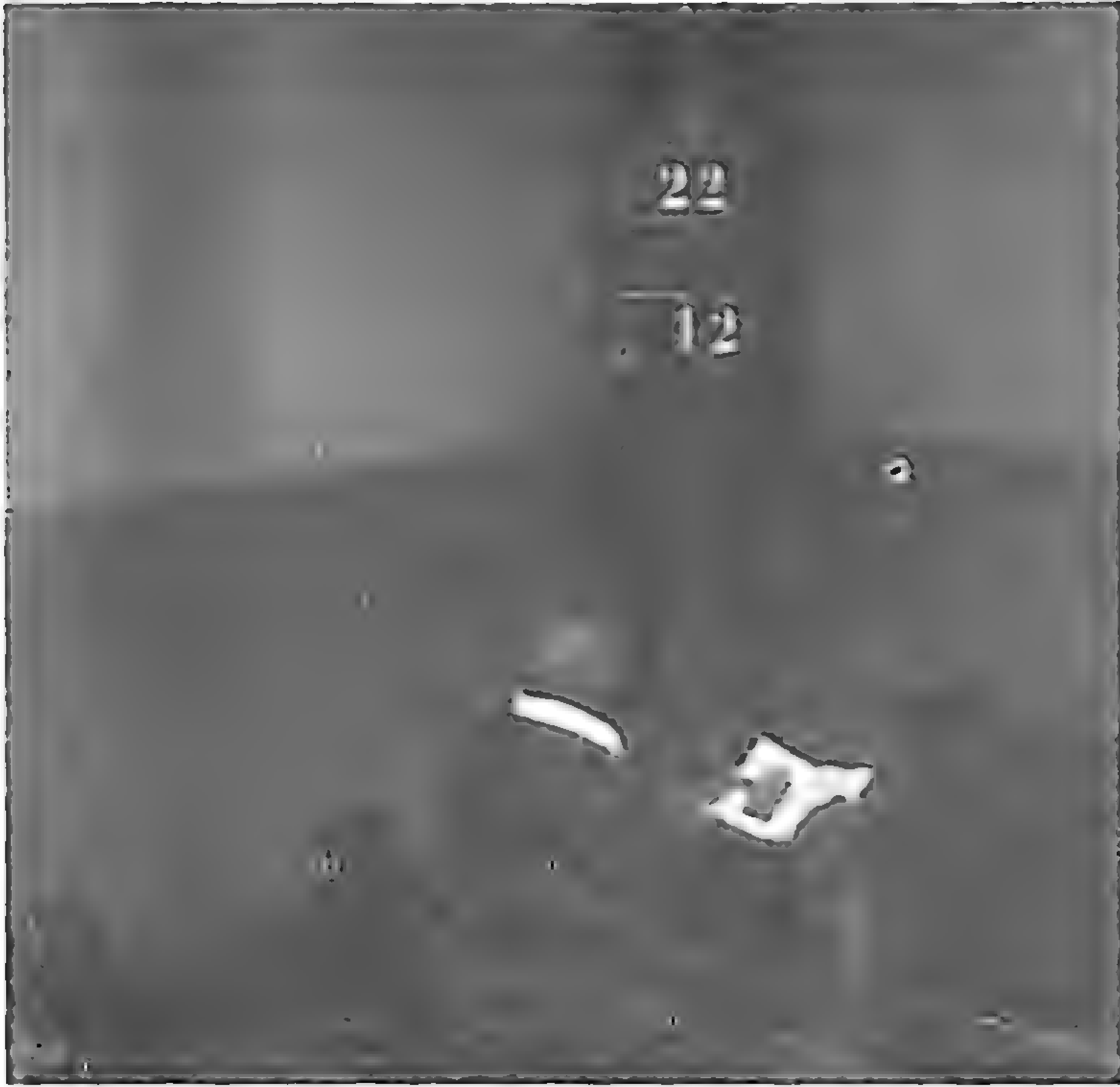


عاملة المنفاخ
تدوس بقدمها على بدال ضخ الهــواء المتــدفق باستمرار طالما ظلــت تحرك البدال



التقط المترجم الصور لآلة أرغن عتيقة ما تزال فى الخدمة فى كنيسة جورلسدورف Gorlsdorf بشمال شرق ألمانيا قرب الحــدود البولنديــة لتعذر وجود مثل هذه الآلة اليوم، وكذلك عثر المترجم على آلة أخــرى ما تزال فى الخدمة قرب مدينة كاسل الألمانية.

لوحة الأرقام لتغيير الأعداد يدويًا

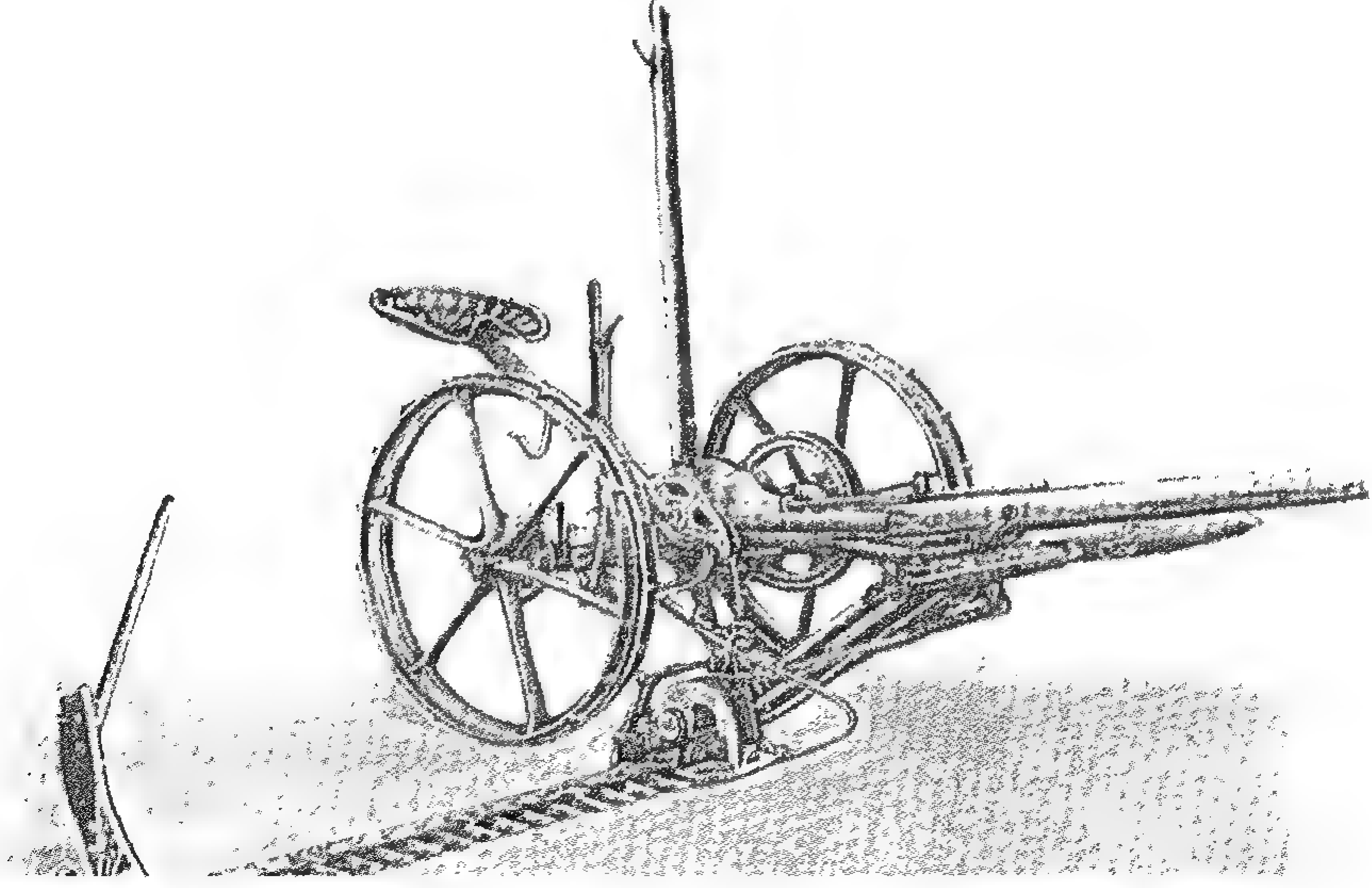


"لوحة الأرقام"

توجد عادة بمقدمة الكنيسة وكانت تركب عليها يدويا أرقام الآيات والترانيم، لتعطى إشارة البدء لترديدها أثناء الصلوات أو لبدء الغناء الجماعى للترانيم

وهى اليوم عبارة عن لوحة مضيئة تظهر عليها الأرقام تباعا

[٤ صور التقطت بمعرفة المترجم]



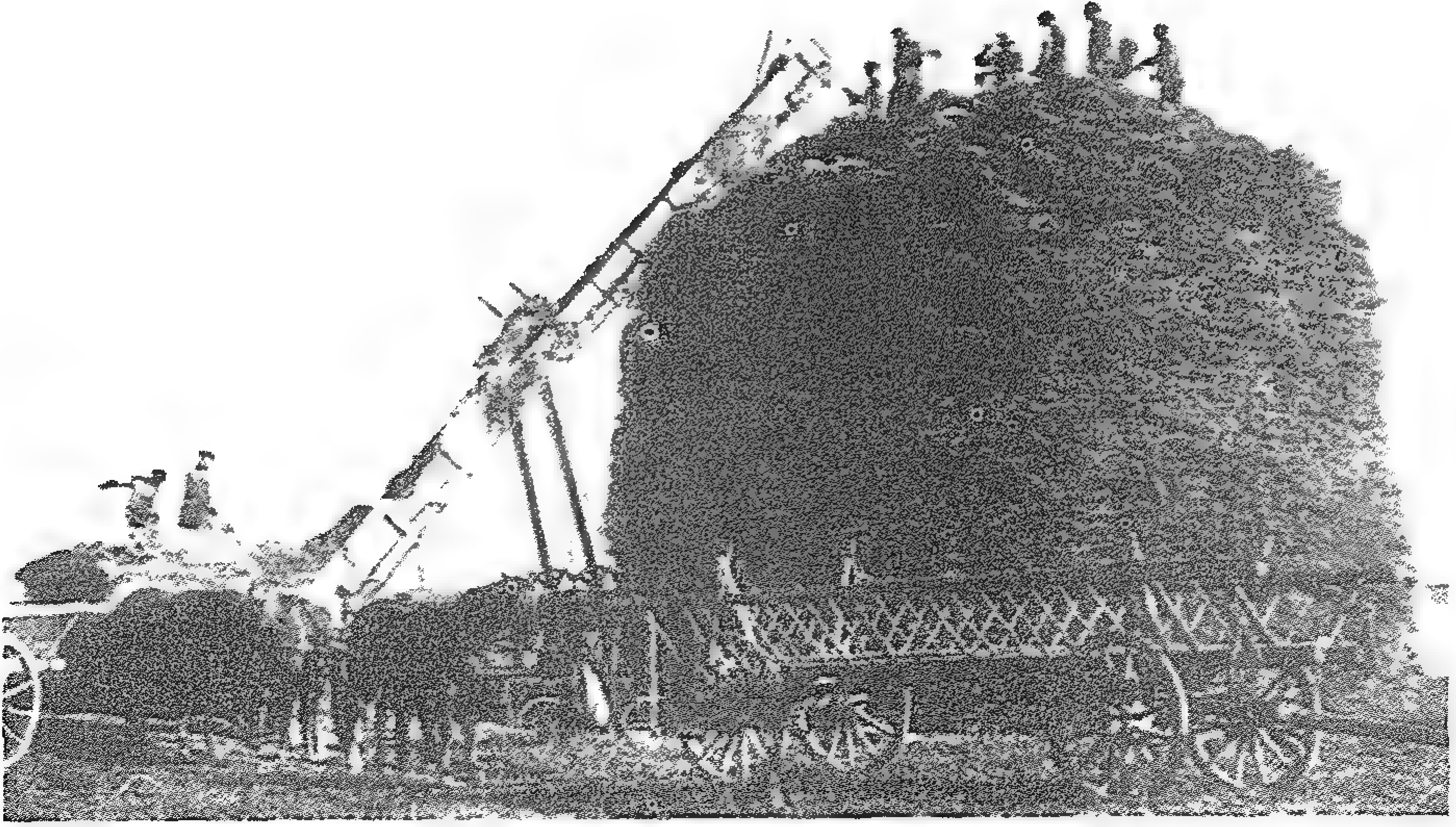
آلة عتيقة لقصب الحشائش

[انظر المصدر رقم ٢، صفحة ٢٠٣]



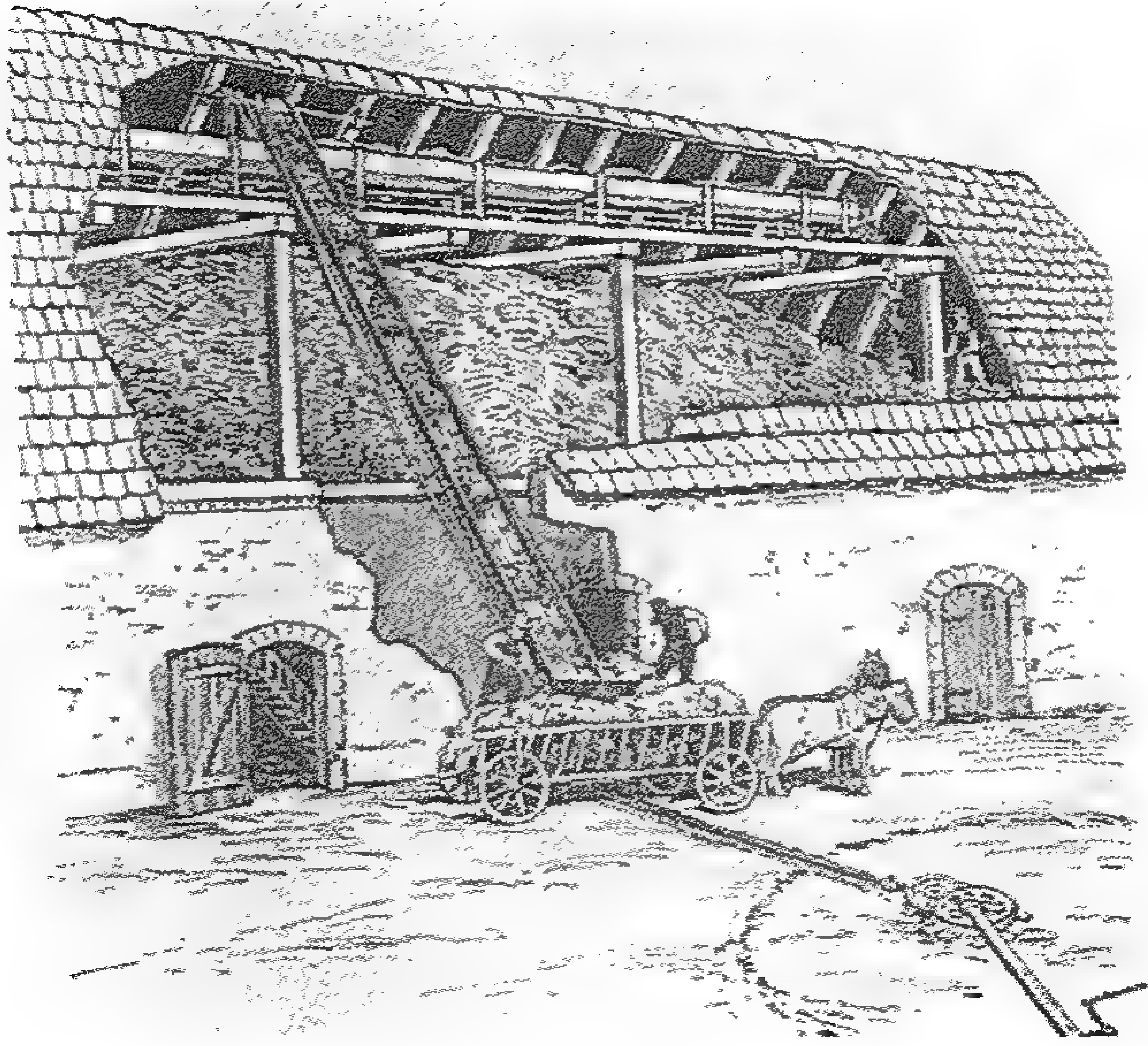
موسم الحصاد بواسطة المحشات (سيوف الحصاد)

فى القرن الــ ١٩ والقرن الــ ٢٠

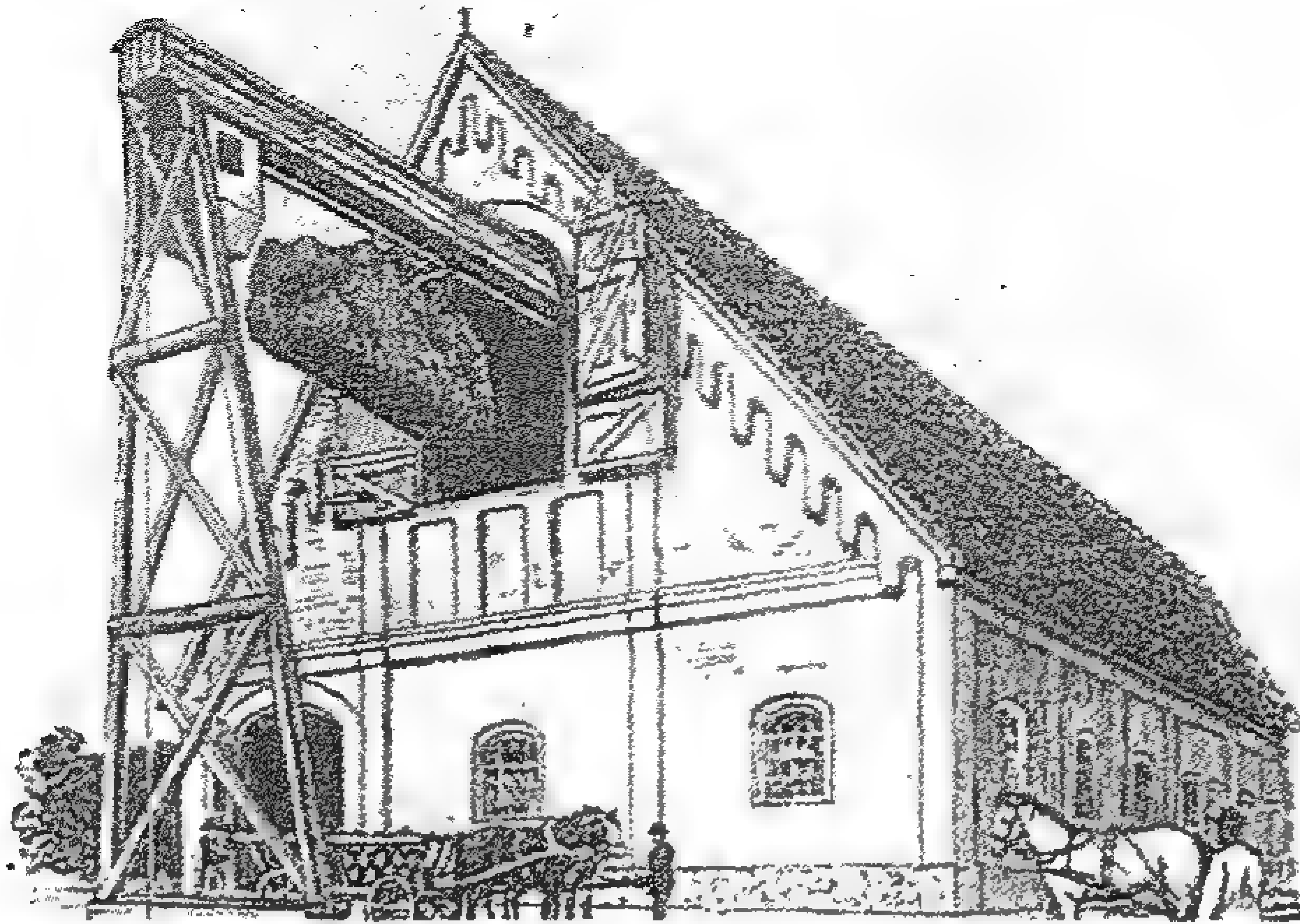


السير النقال لرفع الحشائش من "عربة السلالم" المخصصة أساسا لنقل القش. وهنا كومة لتجفيف الحشائش قبل نقلها إلى الشونة لاستخدامها علفا للمواشى.

[انظر المصدر رقم ٤، صفحة ١٥]



صورة تاريخية: رفع القش الجاف إلى الشونة أعلى الحظيرة باستخدام السير النقال



أسلوب آخر لتشوين علف المواشى أعلى الحظيرة

[انظر المصدر رقم ١، صفحة ١٨٨ و ١٨٩]



آلية لتوزيع العلف داخل الحظائر

عربة لرفع الأرواث

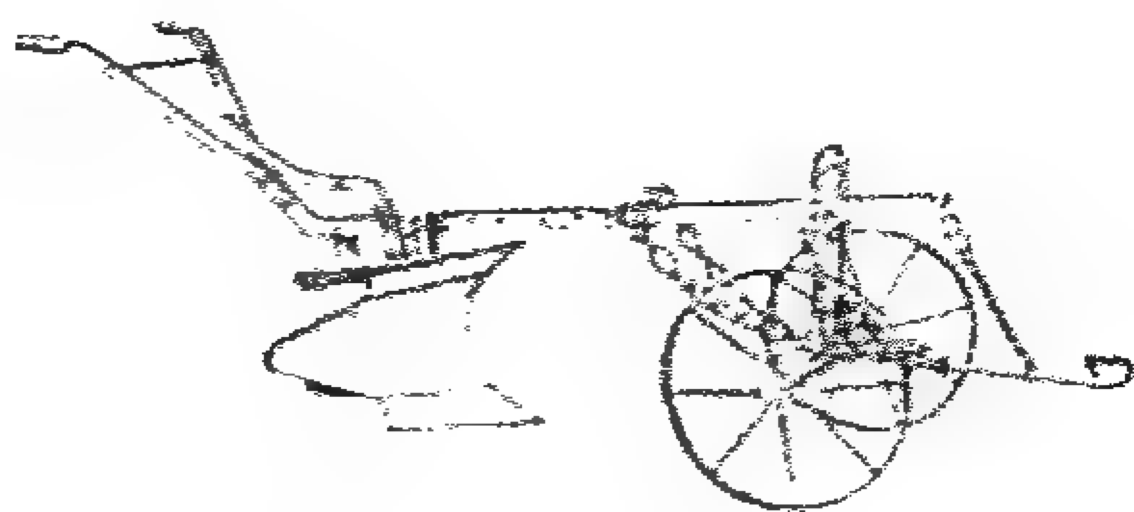
من الحظائر لاستخدامها كسماد طبيعى

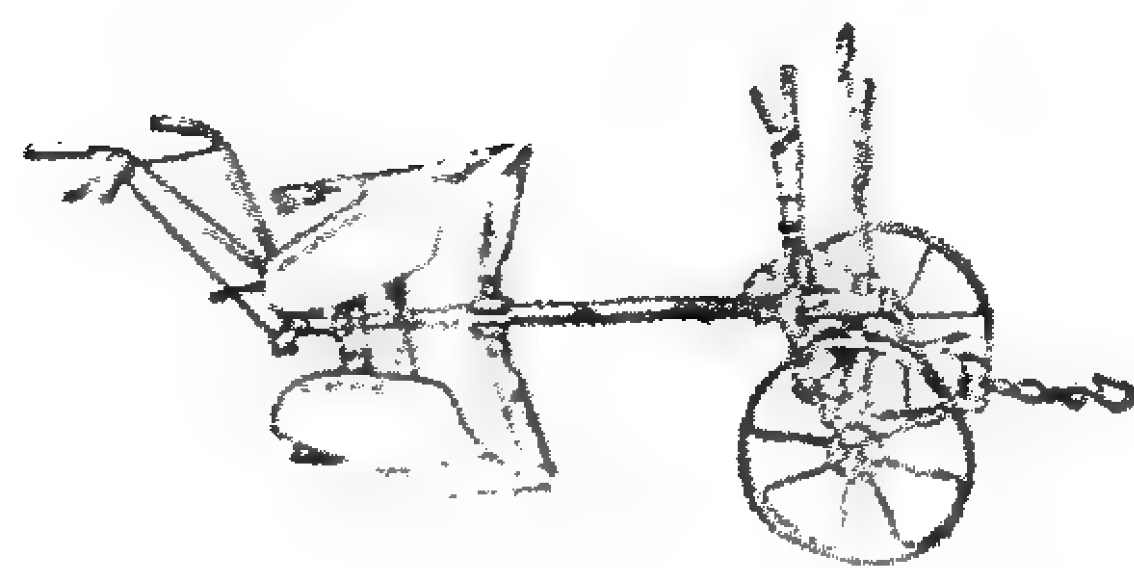
والعربة تتحرك على سلك مائل مشدود أشبه بالـــ "تليفريك"

[انظر المصدر رقم ٣، صفحة ٣١٠]

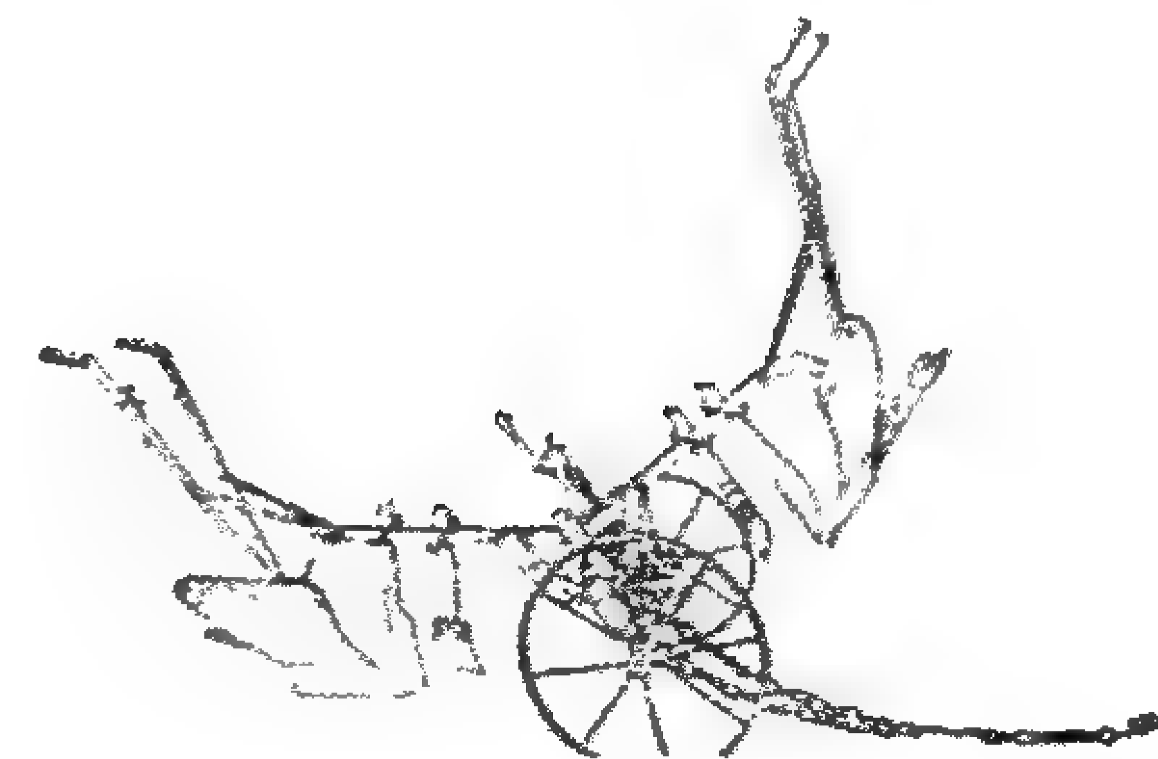


محراث ذو أقراص إسطوانية





محراث لتقليب الأرض
المنبسطة يعمل يدويا



(انظر المصدر رقم ٢)

مصادر الصور

1) Zimmermann , Martin:

Schlipf's Handbuch der Landwirtschaft, 31. Aufl. Verlag Paul Paray,Berlin1952

2) Martin, Wilhelm:

Handbuch der Landwirtschaft , Stuttgart 1907

3) Fischer , Gustav :

Landmaschinenkunde , Genehmigte Lizenzausgabe fur Verlagsgruppe Weltbild GmbH Augsburg , 1997 Reader' s Digest-Verlag Das Beste GmbH , Stuttgart , Zurich , Wien 2008

4) Mecklenburgische Volkskunde ,

Hrsg . Ulrich Bentzin und Siegfried Neumann , VEB Hinstorff Verlag Rostock 1988

5) Lebensalltag zur Zeit der Siedler und Pioniere

Genehmigte Lizenzausgabe fur Verlagsgruppe Weltbild GmbH Augsburg 1997 , Reader's Digest-Verlag Das Beste GmbH , Stuttgart , Zurich , Wien 1997

6) Was wie machen?

Instandsetzen und erhalten alter Bausubstanz Kurt Weber , graphischer Betrieb , 2803 Weyhe 1992

7) Glaisin in Mecklenburg-Vorpommern,

Der Burgermeister von Glaisin , 1998

8) Johannes- Gillhoff- Jahrbuch:

MV Taschenbuch , im Auftrag der Johannes-Gillhoff-Gesellschaft , BS-Verlag , Rostock 2006

المــــؤلــف فـــى سطــور:

يوهانيس جيلهوف

صدرت قصة "يورن– ياكوب سفين رحالة أمريكا" أول مرة سنة ١٩١٧ فى برلين، وصارت أحد أكثر الكتب المقروءة بالمناطق المتحدثة بالألمانية، بالإضافة إلى ترجمته إلى عدة لغات. وهى تحكى تجربة حياة عامل زراعى أجير هاجر سنة ١٨٦٨ من إمارة "ميكلينبورج" الألمانية إلى أمريكا. وهناك عمل بدون كلل وصار مزارعا أمريكيا ميسورا.

ولد "يوهانيس جيلهوف" فى ٢٤ مايو سنة ١٨٦١ بقرية "جلايسين" فى ميكلينبورج. ثم اقتفى أثر الأب والأجداد وأصبحت مهنته الرئيسية معلما، حيث عمل بمعاهد لتخريج المعلمين فى "بارشيم"، "إرفورت" و"جنتين". وكان جيلهوف كاتبا نشطا دءوبا، إذ أصدر مبكرا أعمالا تتناول الدراسات الشعبية واللغوية الألمانية، مثل "اللغز الشعبى الميكلينبورجى" (١٨٩٢)، "صورة من حياة القرية" (١٩٠٥) و "حول لغة وتاريخ الكاتيشزم" (١٩٠٩). لكن قصة "رحالة أمريكا" بصفتها من الكتب الأكثر رواجا هى التى أسست شهرته.

ولما عاد يوهانيس جيلهوف سنة ١٩٢٨ إلى ميكلينبورج ثانية، تتوجت أعماله بإصداره "الكراسات الميكلينبورجية الشهرية" فى مدينة "لودفيجزلوست"، وهى مجلة تتناول شتى مجالات الفن والثقافة، التاريخ والحيوان والنبات فى مسقط رأسه الألمانى الشمالى.

توفى يوهانيس جيلهوف فى ١٦ يناير سنة ١٩٣٠ بمستشفى بارشيم، وصار قبره بمدينة "لودفيجزلوست" أحد معالم تاريخ الثقافة.

بقلم Hartmut Brun رئيس جمعية يوهانيس جيلهوف

المتــرجــم فـــى سطـــور:

د. فتحى باطة

د. فتحى محمد باطة من مواليد القاهرة. حصل على شهادة الثانوية العامة من مدرسة العباسية الثانوية. وعلى دبلوم ألمانى فى العلوم الاقتصادية والاجتماعية من جامعة "يوهان فولفجانج فون جوته" فى فرانكفورت على الماين. وعلى دكتوراه فى الاقتصاد من جامعة "يوهانيس جوتنبرج" فى ماينز.

عمل أثناء الدراسة معدا لبرامج إذاعية عربية فى إطار التبادل الثقافى بين ألمانيا الاتحادية وإذاعتى مصر والسودان. ثم المترجم الرئيسى للطبعة العربية لمجلة "سكالا الدولية". وهى مجلة ثقافية رسمية كانت تصدر بست لغات.

عمل بمعهد بحوث الفلاحة الهيكلية التابع لجامعة جوته فى فرانكفورت. ومساعدا علميا لأستاذ الاقتصاد والتاريخ الاقتصادى بجامعتى ماينز وترير.

عمل بمصر لمدة عقدين مديرا لمشروع مؤسسة فريدريش ناومان [بالتعاون مع وزارة الزراعة والجمعية المركزية] لدعم التعاونيات الزراعية بمحافظة الإسماعيلية، وعلى مستوى الجمهورية مع الاتحادات التعاونية المركزية والاتحاد العام للتعاونيات، إضافة لعمله ممثلا مقيما للمؤسسة. أشرف على إصدار أكثر من ٣٠ مؤلفا للأغراض التعليمية فى مجالات التعاون والتنمية. وقام بتقييم واقتراح إقامة مشروعات جديدة للمؤسسة فى المشرق والمغرب العربى.

منذ اطلع المترجم على كتاب "يورن- ياكوب سفين رحالة أمريكا" أثناء الدراسة قبل عدة عقود شغف به وود منذ فترة إهداءه لقارئ العربية ليكون بين

يديه مترجما باعتباره يمثل إضافة للمكتبة العربية . فهو يتناول موضوع الهجرة بعيون مهاجر إلمانى حصيف وخفيف الظل بين شقى الغرب على جانبى المحيط الأطلسى، وذلك على هامش تحولات كبرى خلال القرن الـ١٩ وبدايات القرن الـ٢٠. هذا بخلاف تعرض الكتاب مثلا لاندثار الهنود الحمر على يد البيض ودعوته لإنصاف الزنوج.

التصحيح اللغوى: أحمد حمودة موسى

الإشـــراف الفنى: حـــســن كـــامــل





حدثت هذه القصة الحقيقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على هامش تحولات كبرى فى الغرب على جانبى المحيط الأطلسى فى أوروبا وأمريكا. إنها قصة كفاح قروى ألمانى شاب، كان عفيا، ورقيق الحال، وماهرا وبسيطا، هاجر سنة 1868 إلى الولايات المتحدة الأمريكية بحثا عن الرزق والأمل والحرية. وهناك أفنى شبابه فى العمل دون كلل حتى صار مزارعا أمريكيا ميسورا. لكن الوطن الذى أدار له ظهره ظل يعيش بين جوانحه، وكأن ثمة مولِّد يغذى عواطفه بالوجد وحرقة الشوق إليه. لذلك تعذر تمثله فى نسيج المجتمع الأمريكى بالاندماج فيه اندماجا حيا عميقا. وتستثير هذه القصة اهتمام قارئ العربية بتعرضها لمشاكل إنسانية كبرى، مثل قضايا التنمية والمرأة واندثار الهنود الحمر على يد البيض، والمناداة بتحسين أوضاع الزنوج أمريكا. كما يبرز المترجم القواسم المشتركة بين القروى الفص فى هذه القصة وشكايات الفلاح الفصيح قبل 4000 عام مصر.

تصميم الغلاف: نسرين كشك
التصميم الأساسى للسلسلة: عبد الحكيم صالح